

د. محمد مؤنس عوض



عصر الحروب الصليبية

بحوث ومقالات



عصر الحروب الصليبية

بحوث ومقالات

إعداد

أ.د محمد مؤنس عوض

أستاذ العصـور الوسـطى

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماع

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

blisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

nail : dar_Ein@hotmail.com

الإهداء

إلى روح الأستاذ الدكتور المؤرخ والمحقق والمترجم الكبير / حسن حبشى (١٩١٥ - ٢٠٠٥م) .

وإلى روح الأستاذ الدكتور المؤرخ / أحمد فؤاد سيد (١٩٥١ - ٢٠٠٥م) فى أكرم جوار ، وستظل ذكراهما أبداً رياضًا عامرة بالحب والوفاء مهما توالت الأيام ، وتعاقبت الأعوام

أ.د. محمد مؤنس عوض

المحتويـات





المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدراسة ؛ عدداً من البحوث والمقالات عن عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢ ، ١٣م / ٦ ، ٧ هـ والذى يمثل مرحلة مؤثرة وفعالة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى .

أما البحث الأول ؛ فقد تناول فكرة الجهاد الإسلامى فى بلاد الشام خلال العصر المذكور ، ويلاحظ هنا أن تلك الفكرة عُدت - وبحق - فكرة محورية من خلالها يمكن فهم رد فعل المسلمين على مقدم الغزو الصليبى الغاشم لبلادهم ، ولا أغفل هنا الإشارة إلى أن التاريخ الإنسانى - عمومًا - ما هو إلا أفكار كبرى اعتنقها جماعات بشرية وبذلت جهدها من أجل تبنيها ونشرها سلمًا أو حربًا .

واتجه البحث الثانى إلى دراسة دور النرويج من خلال ملكها سيجورد Sigurd الذى قام بحملة صليبية خلال المرحلة من ١١٠٧ إلى ١١١٠م لدعم مملكة بيت المقدس الصليبية ، ويلاحظ أن البحث يتجه إلى الاعتماد على مصدر تاريخى نرويجى فى صورة الساجا Saga ؛ وهى من الروايات الشعبية النرويجية فى العصور الوسطى .

ومن بعد ذلك ؛ اتجه البحث الثالث إلى دراسة الطب فى المناطق الصليبية خلال المرحلة الواقعة بين عامى ١٠٩٨م - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠هـ ، ويهدف إلى دراسة أوجه التأثير والتأثر من خلال المواجهة الحضارية بين المسلمين والصليبيين وذلك بعد أن انقشع غبار المعارك وتعايش الجانبان على أرض واحدة .

واختص البحث الرابع بدراسة الموارنة فى لبنان ودورهم عصر الحروب الصليبية ، ويلاحظ هنا أن الحركة الصليبية عملت على استغلال التركيبة الطائفية فى بلاد الشام ؛ من أجل الحصول على دعم بعض القوى المحلية لصالح تلك الحركة إضعافًا لحركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة وقد نجح الصليبيون - بالفعل - فى ذلك الأمر .

أما إذا اتجهنا صوب البحث الخامس ؛ فنجده اهتم بدراسة معركة أرسوف Arsuf التى جرت بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى والصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد -Rich

ard Lionharted ويهدف إلى مناقشة ظروفها وملابساتها وكذلك يحدد هل هى معركة حاسمة أم لا ، ويعمل على دراسة نتائجها من زوايا متعددة .

من بعد ذلك ؛ اتجه المقال الخاص بنور الدين محمود ومانويل كومنين إلى دراستهما من خلال رؤية مقارنة من خلال عصر الحروب الصليبية ، من أجل كشف النقاب عن مكانة كل منهما فى صنع الأحداث وأيهما كان أكثر حنكة سياسية ومهارة حربية وقدرة على التأثير فى موازين العلاقات الدولية فى منطقة الشرق الأدنى .

وأخيراً ؛ اتجه المقال الخاص بالدكتور أحمد فؤاد سيد (١٩٥١ - ٢٠٠٥م) إلى دراسة إسهاماته التاريخية حيث قدم لنا عدداً وافراً من الدراسات منها ما اتصل بتاريخ الأيوبيين الذين كان لهم دورهم البارز عصر الحروب الصليبية ، ومنها ما اتصل بتاريخ مصر فى ظلال الإسلام ، ثم هناك مقال أخر عن أ.د. حسن حبشى أستاذ العصور الوسطى بآداب عين شمس.

من زاوية أخرى ؛ يلاحظ القارئ أن إهداء الكتاب لاثنين من المؤرخين الراحلين هما أ.د.حسن حبشى أستاذ العصور الوسطى بكلية التربية جامعة عين شمس ، د. أحمد فؤاد سيد أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، وقد رحلا خلال عام ٢٠٠٥ فأسف لرحيلهما كل من عرف أخلاقهما وعلمهما الغزير ، تغمدهما الله تعالى في فسيح جناته .

والآن ؛ أدعو القارئ إلى تصفح حصاد الهشيم وأردد دومًا قول الحق تبارك وتعالى ﴿وفوق كل ذى علم عليم ﴾ صدق الله العظيم

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ العصور الوسطى

(١)

فكرة الجهاد الإسلامى ودورها
فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية

تُعد فكرة الجهاد الإسلامى فى بلاد الشام خلال مرحلة الحروب الصليبية على امتداد القرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى أمراً له أهميته الواضحة عند دراسة تاريخ الحروب الصليبية ، وفى خلال ذلك العصر الزاخر بالأحداث المتلاحقة غدت فكرة الجهاد فى ثناياه بمثابة الأيديولوجية الدينية الإسلامية المضادة لفكرة الحرب المقدسة التى وجدت فى الغرب الأوروبى اللاتينى ، وتطورت وازدادت نضوجًا فى أخريات القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لتمثل من بعد أحد روافد الحركة الصليبية ، ومن ناحية أخرى فإن المصادر التاريخية الإسلامية لذلك العصر أكدت أن اعتناق فكرة الجهاد كان أمراً واقعيًا على المستويين القيادى والشعبى على نحو صار يؤثر أيما تأثير على قضية المواجهة بين الإسلام والمسيحية على أرض بلاد الشام .

والجهاد لغة هو التعب والمشقة ، ويقال جهد الرجل فى أمر جهداً ويقال أيضًا بذل المقاتل جهده أى أنه بذل طاقته [١].

ومنذ البداية : نود أن نقرر أن الجهاد قد احتل مكانة متميزة فى الإسلام ومذاهبه السنية ويتضح ذلك من الأهمية الكبيرة التى يعلقها القرآن الكريم[٢] عليه وعلى القائمين به ثم جاءت الأحاديث النبوية الشريفة [٣]لتدل على نفس الاتجاه نحو تعظيم مكانة المجاهدين وأجرهم عند الله تبارك وتعالى وقد مثل القرآن الكريم والأحاديث النبوية اتجاهًا واحداً فى دعم فكرة الجهاد وترسيخها فى إطار الفكر الدينى الإسلامى .

ويلاحظ أن الجهاد فى الإسلام قد مر بعدة مراحل حتى وصل إلى الوضع الذى صار من خلاله على المسلمين أن يقاتلوا المشركين كافة ، وإذا تتبعنا آيات الجهاد فى القرآن الكريم وجدنا أن فى أول الأمر كان هناك توجيه من الله عز وجل نحو كف المسلمين عن القتال فى مكة وفى أول العهد بالهجرة النبوية إلى المدينة[٤] ثم من بعد ذلك أذن للمسلمين بالقتال

لمواجهة أعدائهم(٥) ، ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم وذلك باستثناء من لم يقاتلوهم(٦) وأخيراً فرض عليهم قتال المشركين كافة(٧).

ومن الممكن أن نلاحظ هنا أن تطور المراحل السابقة قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بحركة انتشار الإسلام بين معتنقيه ، وكذلك القاعدة المكانية للدين الجديد سواء فى مكة أو فى المدينة ، فبعد الانتقال إلى يثرب قويت شوكة المسلمين ، واكتسبوا دعمًا جديداً وسع نفوذهم على حساب قوى المشركين ، وقد جاءت غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة / ٦٢٤م وغزوة أحد فى عام ٣ هـ / ٦٢٥م ومن بعدها غزوة الخندق فى عام ٥هـ / ٦٢٦م - جاءت لتوضح أن ذلك الصدام المبكر بين مسلمى المدينة وأعدائهم مثل مرحلة دفاعية هامة من تاريخ فكرة الجهاد الإسلامى حينذاك .

ويلاحظ أن مفهوم الدفاع فى فكرة الجهاد فى الإسلام تتجاوز حدود الناحية الحربية المحضة إلى ما هو أرحب من ذلك ، فالدفاع هنا هو دفاع عن الإنسان نفسه ضد عوامل تقييد حريته خاصة تلك المتمثلة فى المعتقدات والتصورات ، وكذلك الأنظمة السياسية القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية التى كانت سائدة حينذاك(٨).

وفكرة الجهاد الإسلامى يمكن اعتبارها ذات صفة حضارية حيث أنها ارتبطت بالمثل العليا، ولم يكن الإسلام ليقاتل القوى المناوئة له لمجرد القتل والسلب والنهب ، وإنما سعى إلى تقدم الإنسانية من خلال نشر أفكاره الدينية المتحضرة ، ومن ناحية فإن اعتناق الدين الإسلامى لم يكن يرتبط به أية صورة من صور الإكراه(٩) حيث يقرر القرآن صراحة "لا إكراه فى الدين"(١٠) وفى هذا دليل واضح على أن الدين الجديد لم يكن ليستعمل قواه العسكرية من أجل فرض اعتناق أفكاره وعقائده على جموع المنهزمين أمامه وهذا بدوره يدل على أن الجهاد فى الإسلام لم يكن ليعنى توسعًا إقليميًا(١١) دون القيام بالالتزام الحضارى تجاه الشعوب المفتوحة .

أدرك مفكرو الإسلام أهمية فريضة الجهاد وعظم شأنها فى المذاهب الإسلامية ونجد مثالاً واضحًا لذلك عند العامرى (ت ٣٨١ هـ / ٩٩٢م) عندما يقرر أن أقسام العبادات فى الإسلام منها العبادات النفسانية كالصلاة والبدنية كالصيام والمالية كالزكاة والعبادة المشتركة بين هذه العبادات الحج ، أما الجهاد فقد اعتبره العامرى العبادة الملكية (١٢)، وأما ضرورة

القيام به فتتمثل فى أنه لولا قيام أهل الدين بالمحاماة عن دينهم بالسيف لاجتاحهم أعداؤهم ولظهر الفساد فى البر والبحر ولهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد(١٣).

على أيه حال ؛ وجدت عدة مبادئ للحرب فى الإسلام تتمثل فى أن السلم هو الأساس القائم في العلاقات الإنسانية وإن وجدت الحرب فهى فى حالات الضرورة دون عدوان وينبغى ألا يتأثر بالحرب من لا يشتركون فيها (١٤)، ثم المسارعة إلى تلبية دعوة السلم وذلك فى حالة إظهار أحد الأطراف المتصارعة ميلاً حقيقيًا للمسالمة وكف الحرب ، ثم إن الإسلام من مبادئه ضرورة الإحسان إلى الأسرى من جيوش الكفار والمشركين (١٥).

ومن الأمور المقررة حول الجهاد الإسلامى وطبيعته أن الإسلام فى نظريته بشأن الحرب المقدسة رأى أنه لا حرب قبل الدعوة لأن الغرض الذى ينشده من الحرب ليس المال ولا الأسلاب أو الغنائم بل أنه هدف إلى خير الإنسانية (١٦).

وقد ارتبط بهذه الفكرة تقسيم العالم فى نظرة الإسلام القانونية إلى قسمين دار الإسلام ودار الحرب (١٧)، أما دار الإسلام فهى تشمل المناطق الإسلامية وغير الإسلامية التى خضعت لسيادة المسلمين وتميزها عن غيرها سيادة الأحكام والتشريعات الإسلامية بها سواء أكانت إقامة الصلوات وسائر العبادات وحرمة الأنفس والأموال والأعراض وغيرها (١٨)، أما دار الحرب فهى سائر العالم الذى لم يخضع لسيادة الدين الإسلامى ولا يعرف فى هذه الدار - بطبيعة الحال - أحكام الإسلام(١٩) وتشريعاته ، وقد كان طبيعيًا أن يتولد من هذا التقسيم فكرة مهمة وهى أن دار الإسلام كانت فى حالة حرب من الناحية النظرية مع دار الحرب ذلك لأن العالم بأجمعه كان الهدف النهائى للدعوة الإسلامية (٢٠).

وقد صار أمر الجهاد فرض كفاية وفرض عين ، وكان الجهاد يفرض على من يقع عليهم العدوان ، فإن لم يكن منهم كفاية لصد العادين فإن الجهاد عندئذ يفرض على من يليهم وأقرب الناس إليهم وهكذا يتسع نطاق الفرض حسب مجريات الحال وقدرات المعتدين الهجومية حتى يتناول أمر الجهاد المسلمين أجمعهم(٢١) وحينئذ نجد أن العاجزين من المسلمين عليهم أن يجاهدوا بأموالهم(٢٢) طالما أنهم لم يمتلكوا القدرة على المحاربة لضعف أو عجز وقد ورد الجهاد بالمال فى مواضع عدة من القرآن الكريم (٢٣).

وإذا كان الجهاد والدعوة له قد احتل مكانة هامة ومتميزة لدى السنة ، فإن الشيعة هم أيضًا سرعان ما تبلورت لديهم فكرة الجهاد هى الأخرى ومثلت جانبًا مهمًا لديهم فى معتقداتهم الدينية ويروى الشيعة عن أئمتهم العدد الوفير من الأحاديث التى دعت إلى الجهاد ورفعت من شأن ثواب المجاهدين فى سبيل الله [٢٤]، وقد رأت الفرق الدينية الشيعية وجوب الجهاد والدفاع عن الإسلام وأملاك المسلمين [٢٥]، واعتبروه حجر الزاوية فى بناء هيكل الدين والأساس الذى اتسعت بمقتضاه أملاك المسلمين [٢٦]، وبلغ الأمر بالفكر الدينى الشيعى أن جعل الجهاد أحد أركان الإسلام الهامة ، فإذا كان الإسلام السنى قد بنى على خمس فى صورة الشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج ، فإن الشيعة اعتبروا الجهاد من دعائم الدين وشكل واحداً من أسسه [٢٧].

وهكذا فقد اتفق المسلمون السنيون منهم والشيعة على أهمية الجهاد ، ودوره فى العقيدة الإسلامية ، وكذلك أثر تلك الفكرة فى الدفاع عن الأمة الإسلامية وأملاكها ، ولا ريب فى أن فكرة الجهاد قد تطورت تطوراً متزايداً مع تطبيقها عمليًا من خلال تصارع قوى الإسلام مع القوى السياسية المجاورة .

ومن الممكن تصور أن المرحلة التى شهدت البعثة المحمدية وعهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانت من أهم المراحل العملية الأولى لفكرة الجهاد الإسلامى ، وفى خلال تلك المرحلة كانت الملامح الحربية فى الشخصية العربية فى العصر الجاهلى قد امتزجت بالدين الجديد ، وفكرته فى الحرب المقدسة ، وكان لذلك دوره المهم فى صراع الإسلام مع قوى الفرس والروم ، ومن الممكن أن نرجع السرعة والتفوق الذى حالف حركة الفتوحات الإسلامية الأولى ليس فقط إلى الروح الحربية المتوثبة فى قلوب العرب الفاتحين بل أيضًا إلى الحماسة الدينية التى ارتبطت بالجهاد [٢٨]من خلال الدين الجديد ، والواقع أن الجهاد كان من وراء حرص تلك القبائل على مصلحة الإسلام [٢٩].

ويعلق فلهاوزن أهمية واضحة على تطور فكرة الجهاد الإسلامى خلال تلك المرحلة بقوله "... هكذا نشأت من الدولة العربية التى كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولاً تامًا وصارت الصلاة والصوم وبقية الشعائر الدينية فى المرتبة الثانية بعد الجهاد " [٣٠]، وعلى الرغم من أهمية هذه المقولة فى توضيح

أهمية الجهاد خلال تلك المرحلة إلا أنه ينبغى أن ندرك أنه كان فرضًا حينذاك وقد اتفقت الجماعة الإسلامية على ذلك الأمر ولم يكن مطلقًا ليمثل المكانة الأولى قبل غيره من الشعائر الدينية الإسلامية بل كان مواكبًا لها .

وعلى امتداد عهود الأمويين والعباسيين وجدت فكرة الجهاد الإسلامى مجالاً عمليًا لها فى صورة حرب الثغور التى دارت بين المسلمين وأعدائهم الروم (البيزنطيين) حيث غدت المدن الواقعة بالقرب من حدود البيزنطيين تموج بحركة المتطوعة من المسلمين الذين رغبوا فى الاشتراك ضد الإمبراطورية المسيحية من خلال حملات الصوائف والشواتى .

وعندما ظهر الحمدانيون فى أفق السياسة الشامية لعبوا دورهم البارز فى محاربة الروم وشهد تاريخهم وخاصة فى عهد سيف الدولة الحمدانى وبالتحديد خلال عشر سنوات من ٣٣٩هـ - ٣٤٩هـ / ٩٥٠ - ٩٦٠م اشتداداً للصراع الحربى بين الطرفين .

ومع ذلك ؛ شهدت الخلافة العباسية خلال عصرها الثانى ضعفًا فى مواجهتها للإمبراطورية البيزنطية ومن ثم كان ظهور خلافة الفواطم بمثابة دماء جديدة لقوة المسلمين ، ونستطيع أن نتلمس بوضوح فكرة الجهاد لدى الفواطم من خلال إدارة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥م) أثناء استقبال أحد وفود المصريين فى الإسكندرية حيث ذكر أهمية الجهاد والقيام بفريضته ضد أعداء الإسلام [٣١]. ومن ناحية أخرى نجده يقرر نفس الفكرة لدى القاضى النعمان بن حيون وما كتبه نقلاً عن ذلك الإمام الفاطمى [٣٢]، الأمـــر الذى يعكس أن الجهاد كان يمثل جانبًا مهمًا فى أيديولوجية الفواطم الدينية .

مهما يكن من أمر تطورت الأحداث فى بلاد الشام ووصلت فى صورتها فى أخريات القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى إلى مرحلة الغزو الصليبى أو ما عرف فى المصادر العربية بحركة الإفرنج حيث قدم الصليبيون إلى الشرق الإسلامى بحجة الدفاع عن المحارم المسيحية المقدسة حيث أسسوا أملاكهم وامتدت من أعالى الفرات شمالاً حتى صحراء النقب وحدود مصر جنوبًا ، ومن صحراء بادية الشام شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا بصورة هددت المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى على نحو سافر .

ولنا أن نتساءل عن العوامل التى دفعت إلى ظهور حركة الجهاد الإسلامى ضد الوجود اللاتينى فى الشرق بعد التفوق الحربى الواضح الذى أحرزه الصليبيون خاصة فى صورة موجة

الغزو الأولى التى نجم عنها تتويج عملياتهم الحربية ضد المسلمين بالاستيلاء على مدينة بيت المقدس وتكوين الإمارات والممالك الصليبية فى شمال العراق والشام .

ويلاحظ أن بدايات حركة الجهاد الإسلامى ضد الوجود الصليبى ارتبطت بعوامل وجدت من خلال السياسة الصليبية فى المنطقة ثم عوامل نبعت من حركة المجتمع الإسلامى نفسه السياسية والفكرية ، ويلاحظ هنا أن تلك العوامل اجتمعت معًا فى عصر شهد ذروة الصدام بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى فى صورة حركة الصليبيات .

وقد كان من أهم العوامل التى أدت إلى بعث حركة الجهاد ضد الصليبيين . تلك السياسة التى انتهجوها فى خلال غزوهم لبلاد الشام وهى سياسة ارتبطت برغبتهم الجامحة فى الانتقام من المسلمين بصورة تنطوى على جانب كبير من الوحشية والعنف البالغين وقد كشفت النقاب عن ذلك وبصورة واضحة المصادر اللاتينية المعاصرة نفسها قبل المصادر العربية المعاصرة واللاحقة ، ومن اليسير علينا تتبع مظاهر تلك الوحشية فى تحركات الصليبيين وغزوهم للعديد من المدن الشامية مثل أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس وطرابلس وغيرها من المدن الشامية .

فبالنسبة لمدينة أنطاكية : نعرف أن الصليبيين استمروا فى حصارها نحو تسعة أشهر حيث دافع عنها السلاجقة دفاعًا قويًا وساعدهم فى ذلك ما تمتعت به المدينة من حصانة فى أسوارها ودفاعاتها وقد ألحق الضرر البالغ بعناصر الصليبيين المحاصرين للمدينة وقد تفشت المجاعة بين صفوفهم ونتيجة لخيانة فيروز الذى تولى حراسة أحد أبواب المدينة تمكن الصليبيون من دخولها عام ٤٩١هـ / ١٠٩٨م فألحقوا بأهلها مذبحة كبيرة .

أما إذا أردنا أن نتناول مسلك الصليبيين فى خلال الأحداث التى تلت الاستيلاء على أنطاكية : نجد المصادر التاريخية اللاتينية المعاصرة توضح جانبًا مهمًا من هذه الناحية ويوضح المؤلف صاحب الجستا – أو أعمال الفرنجة – أن الصليبيين عملوا على ذبح كل من صادفوهم من الأتراك والمسلمين ، ولم ينج من القتل إلا أولئك الذين لاذوا بالفرار إلى قلعة المدينة بل امتلأت جميع شعاب المدينة بجثث القتلى ، ويقرر نفس المصدر أنه صار من العسير السير فى شوارع المدينة نظرًا للرائحة النتنة المنبعثة من تلك الأكوام من القتلى بل أن السائرين ساروا على جثث الموتى(٣٣) من المسلمين .

أما وصف المصادر التاريخية العربية فنجد أنها لا تختلف عما وصفته المصادر اللاتينية حيث ذكر ابن القلانسى فى إشارته عن سقوط أنطاكية والمذابح التى لحقت بها ما نصه " أما أنطاكية فقتل منها وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه الحصر"[٣٤] وأيده ابن العديم فى ذلك فقد أورد أنه " استشهد فى يوم الاستيلاء على أنطاكية ما يفوت الإحصاء وتجاوز العد "[٣٥] وعبر عن هذه الحادثة أحد المؤرخين المتأخرين وهو الذهبى فى حزن وألم بالغين بقوله " استبيح البلد فإنا لله وإنا إليه راجعون " [٣٦].

والواقع أن الاستيلاء على أنطاكية على مثل هذه الصورة البالغة القسوة والعنف كان بمثابة المواجهة الأولى فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين التى كشفت النقاب عن الحقد الدفين الذى كان يكنه الغزاه المسيحيون لمسلمى الشرق الأدنى فى ذلك العصر الذى استمر طوال مرحلة الصليبيات ، وقد أدت هذه الحادثة على إثارة الذعر فى صفوف السكان المسلمين فى المناطق المجاورة ، ومن الممكن أن نتصور حدوث هجرة سكانية مفاجئة ودونما تخطيط مسبق لها تتم من أنطاكية والأعمال المجاورة لها إلى المناطق الأبعد والأكثر أمنًا من الخطر الصليبى.

وقد ذكرت نفس الصورة السابقة وعلى نحو أبشع من خلال أحداث سقوط معرة النعمان[٣٧] فى شمالى بلاد الشام عام ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، ومرة أخرى ؛ يقرر المؤرخ المجهول أن الصليبيين وعلى رأسهم بوهيمند أعطوا الأمان للمسلمين ثم نكثوا بذلك واستحوذ كل منهم لنفسه على أثمن ما وجدوه فى المنازل والمخابئ وأخذوا يفتكون بكل من يعثرون عليه من المسلمين سواء من الرجال أو النساء ويقرر نفس المصدر أنه لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من الجثث وقد سيق البعض إلى أنطاكية ؛ ليباعوا فيها [٣٨]، ويؤكد ابن القلانسى على غدر الصليبيين ونكثهم لوعدهم بالأمان لأهل المعرة فى قوله " أمنهم الفرنج وغدروا بهم ونهبوا ما وجدوه " [٣٩]، ويقرر مؤرخ مسلم آخر أن المذبحة التى نصبت ضد أهل المدينة استمرت ثلاثة أيام [٤٠]، أما نتائجها فإن من المصادر العربية من يقرر أن ضحيتها نحو مائة ألف من المسلمين [٤١]، وهكذا ؛ اتفقت المصادر اللاتينية والعربية على أحداث مذبحة معرة النعمان .

ومن بعد ذلك جرت مذبحة بشعة فى مدينة بيت المقدس عندما دخلها الصليبيون فى عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م[٤٢] وكانت تلك المذبحة بحق تفوق سابقاتها التى جرت ضد المسلمين فى

أنطاكية ؛ ومعرة النعمان ، ويقرر المؤرخ المجهول - وهو شاهد عيان صليبى معاصر - أن معبد سليمان قد فاض بدماء المسلمين .

ولما تم للصليبيين التغلب على المسلمين - الذين يصفهم بالكفرة - عثروا فى المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء فقتلوا البعض وأبقوا على الذين حسن ظنهم فيهم ، وأشار إلى أنه من كثرة الدماء التى أهرقت على الأرض فى شوارع المدينة المقدسة ، كانت الخيول تخوض فى الدماء إلى ركبها(٤٣) ، ويشير المؤرخ فوشيه دى شارتر إلى المذبحة بقوله مندهشًا من شناعتها أن عشرة آلاف شخص من المسلمين قد قتلوا عند معبد سليمان ويقول "ماذا أستطيع أن أقول ؟ أن النساء والأطفال لم يستثنوا ذلك المصير " (٤٤)، أما ألبرت دى أكس فقد أورد لنا فى روايته عن الحادثة أن الأطفال المسلمين الصغار قد قتلهم الصليبيون وعلقوهم بالحراب على أسوار البيوت(٤٥) ؛ مما يعكس القسوة البالغة .

أما المصادر الشرقية فتذكر فى مقدمتها ما أشار إليه ابن العبرى - وهو مؤرخ مسيحى - فقد أشار إلى أن الفرنج لبثوا فى البلد أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا(٤٦) ، ويشير مؤرخ آخر إلى تمكن سيوف الصليبيين من المسلمين فأتى "القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد " (٤٧).

ولا ريب فى أن مذبحة القدس على نحو خاص والتى جرت عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م قد أوغرت صدور المسلمين ضد الغزاة بما اقترفوه من قسوة لم نسمع عنها منذ قرون عديدة خلت وقد أدت إلى إزكاء عداء المسلمين للصليبيين وقطعت كل أمل فى المصالحة والتعايش السلمى بين السكان المستقرين فى أنحاء بلاد الشام والمستعمرين الجدد ، ويعلق أحد الباحثين المحدثين على نتائج المذبحة وأثرها على العلاقات بين المسلمين والصليبيين " إن المسلمين الذين كانوا حتى وقتذاك على استعداد لقبول الصليبيين على أنهم عنصر جديد فيما ساد ذلك العهد من سياسات معقدة ومتشابكة فإنهم عقدوا العزم على ضرورة طرد الغزاة وفيما بعد عندما سعى عقلاء الصليبيين والمعتدلين منهم ليوجدوا أساسًا يمكن من خلاله التعاون بين الجانبين كانت ذكرى تلك المذبحة تقف حائلاً دون اتفاقهم " (٤٨).

وقد تكرر نفس الموقف والسياسة التى اتبعها الصليبيون ضد المسلمين فى غزوهم لمدينة طرابلس ٥٠٢هـ / ١١٠٩م . فيذكر فوشيه دى شارتر أن الشرقيين (أى المسلمين) الذين كانوا فى داخل المدينة كان مصيرهم القتل ، أما أولئك الذين دخلوا فى حماية الملك الصليبى

بلدوين الأول- الذى خلف جودفرى - وارتبطوا معه باتفاق فإنهم كانوا بمنأى عن ذلك المصير المأساوى [(٤٩)]، ومن ناحية أخرى تتفق المصادر العربية على قسوة الصليبيين فى معاملة أهل المدينة حيث أنهم نهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها [(٥٠)]، وكان أهلها قد التمسوا الأمان قبل فتحها وبعد أيام من استيلائهم عليها عوقب الأهلون واستصفيت أموالهم " ونزل المدينة أشد البلاء ومؤلم العذاب " على حد تقرير تلك المصادر[(٥١)].

أما غزو مدينة بيروت وسقوطها فى أيدى الغزاة فى ٢١ شوال ٥٠٣ هـ / ١٣ مايو ١١١٠م[(٥٢)] فقد كان صورة تتمثل فيها بحق سياسة الصليبيين الوحشية ، فبعد مقاومة صامدة من جانب أهل المدينة هجم الصليبيون عليها فملكوها بالسيف قهراً ثم ذهب البلد وسبيها وأسر أهلها واستصفيت أموالهم وذخائرهم[(٥٣)] على حد إشارة ابن القلانسى ويقدر أحد المؤرخين الغربيين المحدثين عدد القتلى فى المدينة بنحو عشرين ألفًا [(٥٤)]، وهو رقم يعيد إلى الأذهان أرقام القتلى المسلمين فى مذبحة بيت المقدس ، وقد قام الصليبيون بإخراج الأسرى خارج المدينة حيث ضربت أعناقهم جميعًا[(٥٥)] عقابًا لهم على المقاومة الباسلة التى أظهروها فى مواجهة الغزاة .

وهكذا ، فمن الممكن أن نقرر أن عمليات الصليبيين الحربية ضد أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس وبيروت وعشرات من المدن الأخرى فى بلاد الشام وما ارتبط بذلك من وحشية كانت من العوامل المهمة التى أوغرت صدور المسلمين ضد المستعمرين الجدد وخلقت مناخًا نفسيًا عامًا استمر لأمد بعيد .

ومن العوامل المهمة المؤثرة التى أدت إلى بعث فكرة الجهاد سياسة المسلمين ضد عناصر السكان الصليبيين وكانوا من المسلمين والمسيحيين واليهود ، ذلك أن تلك المذابح قد أدت إلى خلو المدينة المقدسة من سكانها المسلمين[(٥٦)] واليهود ، بل إن المسيحيين أنفسهم قد حل بهم الرعب من هول الأحداث التى شاهدوها وسمعوا بها وأدى ذلك إلى أن برزت فى الأفق ظاهرة النزوح من القدس والمناطق المعرضة للخراب من جراء الغزو الصليبى إلى المناطق المجاورة الأكثر أمنًا ويوضح أحد الباحثين أنه عقب الغزو مباشرة وعمليات طرد السكان الصليبيين فى المدن ، عاد المسلمون ثانية ليستقروا فى المدن وكانت القدس هى بمثابة الاستثناء الوحيد أمامهم ، ذلك أن الصليبيين أصدروا قراراً بعدم تواجدهم فى المدينة التى شهدت آلام السيد المسيح [(٥٧)].

كذلك هناك من المؤرخين المسلمين من يقرر أن الصليبيين لم يعاملوا المسلمين فى المناطق التى خضعت لسيطرتهم معاملة طيبة ، فالمسلمون الذين صاروا تحت أيديهم بأرض بيت المقدس والمناطق المجاورة لها كانوا يعملون فى الأرض الزراعية لصالحهم ويعرضونهم للأذى والعقاب والحبس ثم أن عليهم دفع مقدار من المال يشبه الجزية (٥٨).

وإلى جانب ذلك ؛ كان من بين العوامل التى زادت من شعور المسلمين بالكراهية الكاملة للغزاة الصليبيين ما تبين لهم من اتجاه المستعمرين إلى محاولة تغيير معالم الأرض العربية خاصة معالمها الدينية الإسلامية مثل المساجد وغيرها ومن ذلك ما نعرفه من أن الصليبيين عملوا على تحويل قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية أسموها معبد السيد Templum Domini كما أنهم استخدموا المسجد الأقصى لمصالحهم وأهدافهم ودون أن يراعوا حرمته وقداسته وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان Templum Solomonis (٥٩)، ثم أنهم عملوا على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول صار كنيسة والثانى مسكنًا لهيئة الداوية والثالث مستودعًا لذخائرهم ومهماتهم (٦٠).

وقد أشار الرحالة والمؤرخون المسلمون فى عبارات تفيض بالمرارة والألم إلي قيام الصليبيين بتحويل مساجد المسلمين فى القدس الشريف إلى كنائس وجعلوا مكانها "مضارب النواقيس"(٦١) على حد قولهم ويبدو أن سياسة تحويل أماكن العبادة الإسلامية إلى كنائس للصليبيين قد غدت سياسة ثابتة تبناها الغزاة وجعلوها مقررة ومتبعة ونستطيع أن نتلمس معالمها بوضوح من الآن فصاعداً فقد دخلوا مدينة عسقلان بعد حصارها واستولوا عليها فى ٢٧ جمادى الأولى ٥٤٨ هـ / ١٩ أغسطس ١١٥٣م فحولوا جامعها الكبير إلى كنيسة أسموها كنيسة القديس بولس (٦٢).

وقد تكرر نفس الأمر عندما سقطت مدينة دمياط فى أيدى الصليبيين فى أحداث حملتهم الصليبية الخامسة على مصر ، فى ٢٥ شعبان عام ٦١٦ هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩م إذ عملوا على أن يقيموا فى المدينة كنيسة لاتينية عرفت باسم كنيسة السيدة مريم العذراء(٦٣) وذلك من أجل الشعائر الدينية المسيحية الكاثوليكية ، وقد قاموا بتعيين مطران من رجال الكنيسة الرومانية الغربية وجعلوا فى هذه الكنيسة أيضًا كرسى المطرانية الذى خضعت له جميع الكنائس الصغرى التى أقاموها فى دمياط من أجل أن تكون نواة لما يقام من كنائس لاتينية أخرى فيما بعد فى مصر (٦٤).

وارتبط بنفس الاتجاه السابق ، ما أظهره الصليبيون من كراهية شديدة لمتعلقات المسلمين الدينية خاصة المصاحف فقد ترددت عدة روايات تاريخية تفيد إحراقهم لمصاحف المسلمين(٦٥) وأحيانًا كانوا يرسلون المصاحف ومعها رءوس القتلى من المسلمين إلى بلادهم(٦٦) حتى يشاهدها إخوانهم فتكون دعاية للحرب الصليبية .

وهكذا فقد كان لقيام الغزاة الصليبيين بتحويل أماكن العبادة الإسلامية إلى كنائس(٦٧)، أسوأ الأثر فى اتساع شقة الخلاف بينهم وبين المسلمين وأدى ذلك إلى أدراك الآخرين إلى أن هدف الصليبيين تحويل أرض الإسلام إلى أرض لاتينية تدين بالمسيحية الكاثوليكية إلى مذهب كنيسة روما(٦٨) والقضاء على الإسلام فى عقر داره .

ومن الأمور ذات الدلالة ، ما نجده يتردد فى المصادر العربية المعاصرة لمرحلة الحروب الصليبية من وصف تلك المصادر للصليبيين بأوصاف دالة على مدى كراهية المسلمين لهم ولفرسانهم ويبدو أن موقف الغزاة من دور العبادة الإسلامية وكتاب المسلمين المقدس قد جعلهم يصفونهم بأوصاف ذات دلالة خاصة فمنهم من يصفهم بتعبير " الكافر " (٦٩)، أو "رجل يكفر بالله "(٧٠)، أو فى صيغة الجمع "كفرة"(٧١) إو " كفار "(٧٢) أو " أعداء الله"(٧٣) أو "عبدة الصليب "(٧٤) ويعبر التعبير الأخير على احتقار المسلمين الشديد للصليبيين ويدل على رغبتهم فى إظهارهم بمظهر الذين يعبدون شكليات جوفاء لا يرتبط بها دين حقيقى ويلاحظ هنا أن مثل تلك التعبيرات نجدها بوضوح فى المصادر الإسلامية على وجه الخصوص فى العصرين الأيوبى والمملوكى عندما كانت حركة الجهاد الإسلامى قد قطعت شوطًا هامًا فى سبيل القضاء على البنيان الصليبى برمته فى الشام .

ومن العوامل المؤثرة التى ساعدت على اعتناق المسلمين لفكرة الجهاد كرد فعل حقيقى ضد الوجود الصليبى أن الصليبيين طوال مدة وجودهم بالشام على امتداد القرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قد اتبعوا سياسة عدوانية هجومية فى طابعها العام وقد وضح ذلك من تأسيسهم لمملكة بيت المقدس الصليبية وإماراتها التابعة لها فى الرها وإنطاكية وطرابلس ثم العمليات الحربية التى خاضوها ضد المسلمين من أجل توسيع أملاك إماراتهم فى الشام وأعالى الفرات على حساب أملاك المسلمين بطبيعة الحال، ويقرر أحد الباحثين " أن مدة احتلال الصليبيين لبلاد الشام كانت تفيض بالحروب المتواصلة بين الدول الإسلامية والمسيحية وعلى الرغم من أنه كانت تقع فترات من السلم بين الحين والآخر ، فإن

الحرب كانت الشيء المعتاد آنذاك وتكاد لا تخلو سنة من سنى تاريخ مملكة بيت المقدس من ذكر حرب أو نزاع أو مناوشة (٧٥) .

وقد زاد من اتجاه الصليبيين إلى اتباع تلك السياسة العدوانية ضد المسلمين ؛ إدراكهم خطورة موقفهم وسط محيط سكانى إسلامى معادٍ يتهددهم بين الحين والآخر وحتى بعد أن تمكنوا من تأسيس ممالكهم وإماراتهم ، فإن مناطق عديدة لم تكن قد خضعت بعد لسيطرتهم واستمر ذلك الوضع حتى آخر عهدهم بالشام ، ففى مملكة بيت المقدس واجهتهم مشكلة هامة، وهى أن بعض المناطق لم تكن قد خضعت بعد للسيطرة العسكرية لملوك المملكة اللاتينية فقد بقيت صور حتى عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م(٧٦) وظلت عسقلان حتى عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م(٧٧) فى أيدى المسلمين وشكل ذلك خطراً كبيراً على أمن وسلامة المملكة ومثل تهديداً مستمراً لقوة وهيبة الملوك الصليبيين ويضاف إلي ذلك أنه أحاط بالوجود الصليبى فى الشام مناطق وديان أنهار النيل ، والعاصى ، ودجلة ، والفرات ، وكانت تلك الوديان تحوى كثافات سكانية هامة بالمقارنة بافتقار المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية لنفس المميزات وكانت تلك الكثافة السكانية يمكن أن توجه للجهاد ضد الغزاة وتؤثر فى ميزان القوى العسكرية فى منطقة الشرق الأدنى لصالح المسلمين إذا خضعت للقيادة المسلحة الحربية الناضجة وكان يقابل ذلك بالنسبة للصليبيين مشكلة العنصر البشرى (٧٨)؛ وهى مشكلة طالما هددت الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، ويلاحظ أنه بعد سقوط القدس عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م فى أيديهم عاد معظم المحاربين الفرنج إلى بلادهم(٧٩) ، ثم أن الحجاج اللاتين كانوا يعاودون أدراجهم إلى بلادهم عقب تأديتهم لمراسم الحج إلى المحارم المسيحية المقدسة ومن ثم لم يشكلوا قوة ذات أهمية كبيرة من الناحية العددية للمملكة اللاتينية ، هذا الوضع البالغ الخطورة الذى أصاب الكيان الصليبى منذ أن بدأ خطواته الأولى على أرض بلاد الشام جعل الصليبيين يعمقون السياسة الهجومية ضد الوجود الإسلامى المحيط بهم ؛ الأمر الذى أثر بدوره فى إثارة مسلمى الشرق الأدنى والشام خاصة إلى الجهاد ضدهم .

كذلك كان واضحًا للمسلمين الطابع الهجومى لمملكة بيت المقدس الصليبية فى صورة العمائر الحربية من قلاع وحصون شيدت بطول المملكة وعرضها ولا نغفل أن من تلك القلاع خرج الفرسان الصليبيون ليقوموا بشن الغارات على الأعمال الإسلامية المجاورة(٨٠) الأمر الذى هدد حياة المسلمين ومعاشهم حيث ارتبطت بغارات أولئك الفرسان عمليات القتل

والسلب والنهب والتخريب فى الممتلكات الإسلامية والمحاصيل الزراعية على نحو كان من الواضح أن الهدف من ورائه إيجاد خراب اقتصادى يؤثر بالتالى على حياة السكان وقوتهم اليومى ، ومن ناحية أخرى كانت بعض القلاع مراكز لفرض المكوس على حركة التجارة البرية وعمليات نقل السلع والمنتجات المختلفة حيث فرضت بعض الرسوم على عمليات العبور وقد أشار ابن جبير إلى أحد تلك الأمثلة (٨١)، ولا ريب فى أن فرض مثل تلك الرسوم على بضائع المسلمين كان يشعرهم بالاغتراب والإذلال ويملأ نفوسهم رغبة فى التخلص من استمرار الكيان الصليبى الأجنبى والغريب عن الأرض العربية .

ومع إدراكنا لحجم ودور السياسة الهجومية التى اتبعها الصليبيون ؛ إلا أننا ينبغى ألا نبالغ فى جعلها ممتدة على طول تاريخ الوجود الصليبى فى الشام فمن الممكن أن نتلمس تلك السياسة بوضوح على امتداد القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى وخاصة فى خلال النصف الأول منه وهى مرحلة التأسيس والتكوين وتدعيم أقدام الصليبيين فى الشرق وقد ضعفت تلك السياسة فيما بعد سقوط مملكة بيت المقدس فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م فى أعقاب موقعة حطين الحاسمة وقد تغيرت أوضاع الصليبيين فى خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى عندما ضعف الكيان الصليبى على نحو متزايد ودبت المنازعات الداخلية بين أهل المدن الإيطالية التجارية المشتركة فى المشروع الصليبى خاصة أهل جنوة والبندقية(٨٢) ثم المنازعات التى دبت بين عناصر الرهبان الفرسان الصليبيين وملوك مملكة بيت المقدس والقوى السياسية المتعددة فى المملكة(٨٣). وحتى على مستوى أولئك الذين تولوا عرش المملكة اللاتينية فى بيت المقدس لا يمكن مقارنة حماس الملوك الصليبيين الأوائل مثل بلدوين الأول Baldwin I (٤٩٤ - ٥١٢هـ / ١١٠٠ - ١١١٨م) وبلدوين الثانى Baldwin II (٥١٢ - ٥٢٦هـ / ١١١٨ - ١١٣١م) وفولك دو انجو Fulk of Anjou (٥٢٦ - ٥٣٩هـ / ١١٣١ - ١١٤٤م) وبلدوين الثالث Baldwin III (٥٣٩ - ٥٥٩هـ / ١١٤٤ - ١١٦٣م) ومقارنتهم ببعض الملوك الضعاف الذين منيت بهم المملكة خلال القرن السابع هـ / الثالث عشر م مثل حنا الأول Joun I (٦٨٣-٦٨٤هـ / ١٢٨٤ - ١٢٨٥م) وهنرى الثالث ملك قبرص HenryIII of Cyprus (٦٨٥ - ٦٩١هـ / ١٢٨٦ - ١٢٩١م) .

وإذا كانت العوامل السابقة قد ارتبطت فى المقام الأول بسياسة الصليبيين منذ غزوهم لبلاد الشام والتى أدت بدورها إلى بعث فكرة الجهاد الإسلامى ضدهم ، فإن بعض العوامل الحاسمة قد أدت دورها فى الجانب الإسلامى ، ولعل أهمها حركة الإحياء السنى الواسعة النطاق التى شهدتها بلاد الشام خاصة فى القرن السادس هـ / الثانى عشر م .

ويلاحظ أن حركة الإحياء السنى ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بإنشاء المدارس ومن المعروف أن المدارس انتشرت حركة إنشائها فى عهد السلاجقة[٨٤] على يد الوزير السلجوقى الأشهر نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) الذى سعى إلى القيام بذلك بعد توليته الوزارة فى عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م فقد عمل على أن يبنى العديد من المدارس فى مدن بلخ ، ونيسابور ، ومرو، وطبرستان فى أعمال فارس ، والموصل ، وبغداد ، وغيرها من الخلافة الشرقية[٨٥]. وقد اقترنت حركة تشييد المدارس برغبة السلاجقة فى مواجهة النفوذ الشيعى المذهبى وانتشار الدعوة للمذهب الإسماعيلى على نحو خاص وإحياء المذاهب السنية عن طريق التعليم والتدريس [٨٦].

وقد شهدت بلاد الشام فى عهد السلاجقة وعلى أيدى الأتابكة اهتمامًا بإنشاء المدارس وغيرها من العمائر الدينية التى ارتبطت بتدريس العلوم الدينية على وجه الخصوص ، وقد بلغت تلك المدارس من الكثرة بحيث أنها بلغت وفق ما يقدره ابن شداد الحلبى ما يقرب من المئتين[٨٧] توزعت على مدن الشام المختلفة مثل دمشق وحلب وغيرها وذلك على امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى عشر والثالث عشر م ، ويلاحظ أنه فى عهد الزنكيين وخاصة فى عهد الملك العادل نور الدين محمود زاد الاهتمام بإقامة مثل تلك العمائر ذلك أن نور الدين قد اتبع نفس السياسة التى سبق لنظام الملك اتباعها[٨٨] فنجد أنه بعد احتلاله لمدينة دمشق عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٥م اتجه بحماس نحو تنفيذ برنامجه من أجل البعث والإحياء الدينى السنى[٨٩] وإن كان قد جعل مدينة حلب من قبل تنال قسطًا وافرًا من ذلك البرنامج وربما كان ذلك بسبب عهدها بتركيزات الإسماعيلية النزارية من أخريات القرن الخامس هـ / الحادى عشر م ، وقد اتجه إلى بناء دار الحديث التى عرفت بدار الحديث النورية فى دمشق[٩٠] وأرقف عليها الكثير من الأوقاف وقد اعتبر بسبب ذلك أول من أقام دار الحديث فيها [٩١]، ومن ناحية أخرى فإنه اتجه إلى بناء العديد من المدارس للحنفية والشافعية [٩٢].

ويتضح اهتمام الملك العادل نور الدين محمود فيما يتصل بإقامة تلك العمائر الدينية من أنه عندما حدث فداء أسرى الصليبيين فى موقعة حارم ٥٥٩هـ / ١١٦٤م أخذ من الأسرى الفداء فكان يقدر بنحو ستمائة وستين ألفًا من الذهب (٦٦٠,٠٠٠) وقد خصص هذه الأموال من أجل بناء المدارس وغيرها من العمائر الدينية [٩٣]، ويلاحظ أنه فى عهده امتدت حركة إنشاء المدارس لتشمل كافة مدن الشام " دمشق وحلب وحماه وبعلبك وحمص وغيرها "[٩٤]، ويلاحظ أن نور الدين قد حرص على أن يجرى على تلك المدارس الجرايات الوفيرة[٩٥] لكى يمكنها من القيام بدورها البالغ الأهمية فى سياسة الإحياء السنى .

كذلك فقد حرص نور الدين محمود على أن يستقدم لبلاد الشام عدداً وافراً من العلماء ، والفقهاء ، والمتصوفة[٩٦] من أجل أن يقودوا حركة فكرية ودينية تعمل على نشر العلوم الدينية السنية وبالتالى تؤدى إلى بعث فكرة الجهاد ، وقد جاء ذلك كله فى وقت وجدنا فيه أن انتقال المركز السياسى والعسكرى إلى مدينة دمشق قد أدى إلى تجمع رجال وعلماء جميع المذاهب الإسلامية السنية وبرز فى المجتمع الإسلامى حينذاك احترام مؤسستين هما المؤسسة الدينية والمؤسسة العسكرية وعملت جميع المذاهب السنية فى خط دفاعى هدفه إيقاظ الحيوية الدينية فى جموع المسلمين من أجل العمل على جهاد الصليبيين[٩٧].

ويلاحظ ، أن المدارس التى أقيمت فى ذلك العهد أدت دوراً مزدوجًا فى سبيل خدمة الإسلام وقضاياه ضد الصليبيين ، فإلى جانب محاربتها العقائد الشيعية الخارجة على الإسلام الصحيح ، فإنها على الجانب الآخر درست علوم السنة وعقائدها الدينية ثم عملت - وهذا هو الأهم - على تخريج كوادر جديدة من الأئمة والدعاة يختصون بالوعظ الدينى[٩٨] ويقودون حركة التدريس فى العلوم الدينية وقد أدى ذلك كله فى آخر المطاف إلى تعميق الشعور بالانتماء الدينى الإسلامى فى قطاعات كبيرة من عامة مسلمى بلاد الشام خلال ذلك العصر .

ويعلق أحد المؤرخين على الأهمية المتعلقة بدور المدارس حينذاك من أجل تنفيذ سياسة البعث الدينى السنى بقوله " كان لإعادة المذهب السنى وإقامة المدارس السنية أثراً كبيراً فى تاريخ نور الدين وتاريخ الشام وكذلك فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بشكل عام ، وقد لعبت هذه المدارس دورها فى الحث على إعادة مجد الإسلام والحث على الجهاد فى سبيل نصرة هذا الدين ضد الصليبيين ولابد أنها بتعاليمها هذه هيأت جواً جعلت فيه القيام بالجهاد أمراً واقعًا على كل مسلم الاهتمام به "[٩٩].

أما إذا نظرنا إلى نوعية العلوم التى كانت تدرس نجد أنها احتوت على العلوم الفقهية أو الحديث أو التفسير [١٠٠]، وقد احتلت هذه العلوم مكان الصدارة فى مناهج المدارس فى ذلك العصر بحكم إلحاح الحاجة إليها مع الوجود الصليبى فى بعض مناطق الشام، لذا فلم يكن غريبًا أن وصف أحد الباحثين المدارس فى ذلك العصر بقوله أنها كانت " معاهد مسجدية وحلقات فقهية ومجامع شرعية " [١٠١].

ويلاحظ أنه لكى تقوم تلك المدارس بدورها المحدد الذى أنشئت من أجله فقد خضع الوعاظ لرقابة قوية[١٠٢] من أجل عدم ارتباط عناصر من الشيعة بها حتى لا يفسدوا دورها التعليمى ، وقد وُجدت هناك أمثلة لبعض الشيوخ الذين اتهموا بالتشيع فطردوا من عملهم بالتدريس[١٠٣] .

ومن جهة أخرى ، فإن السياسة الدينية للزنكيين قد سار على خطاها الأيوبيون من بعدهم ذلك أن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى بعد أن تمكن من إسقاط الخلافة الفاطمية فى الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ / ١٠ سبتمبر ١١٧١م[١٠٤] تمكن بالتالى من القضاء على الخلافة التى اعتنقت المذهب الشيعى الإسماعيلى وحالت دون وحدة المسلمين الدينية المذهبية ، وقد عمل على أن يستمر فى السياسة التى اتبعها الزنكيون فيما يتصل بالإحياء السنى ؛ فأظهر اهتمامًا واضحًا بتشييد المدارس[١٠٥] ، ففى مصر مثلاً كانت أول مدرسة أقيمت بها على أيدى الأيوبيين هى المدرسة الناصرية التى شيدت فى الفسطاط من أجل تدريس المذهب الشافعى وذلك عام ٥٥٦هـ / ١١٦٠م[١٠٦] فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى وتوالت المدارس بعدها فى مصر وبلاد الشام على حد سواء .

وعن دور المدارس السنية الدينى فى العصر الأيوبى تقرر إيرا لابيدوس أن الأيوبيين قد حرصوا على أن يساعدوا هذا الطراز من المدارس وتولوا مهمة تعيين كبار القضاة الذين كانوا يرتبطون بالمذهب الشافعى فضلاً عن كبار المشايخ والمعلمين فى المدارس بل أنهم استغلوا سلطاتهم من أجل تجميع هيئات التدريس للمدارس الجديدة [١٠٧].

والواقع أن حركة تشييد المدارس من أجل أن تشارك بدورها فى إعداد جماهير المسلمين للجهاد كانت حركة عامة خلال العصر الأيوبى حتى أننا نجد أن من النساء من شاركن فى إقامة بعضها ويذكر المؤرخون أن ست الشام - أخت السلطان صلاح الدين الأيوبى - ينسب

إليها إقامة مدرسة بظاهر دمشق ، ويلاحظ أن ست الشام أقامت العديد من العمائر الدينية الأخرى خاصة بالزهاد والمتصوفة .

مهما يكن من أمر ؛ أخذت أعداد المدارس فى العصر الأيوبى تتزايد حتى أننا نجد أن ابن جبير يقرر أنه تم إقامة خمسين مدرسة فى دمشق واثنتان وعشرون مدرسة فى حلب(١٠٨) فى شمال الشام وهذا خلاف ما احتوته مدن الشام الأخرى والتى من الطبيعى أن نتصور تواجد العديد من المدارس بها .

وإذا كانت سياسة الزنكيين والأيوبيين اهتمت بإنشاء المدارس فى مدن بلاد الشام فإن المماليك أنفسهم لم يكونوا أقل تحمسًا من أسلافهم نحو تحقيق نفس الهدف الذى من أجله شيدت وهو البعث السنى الذى بدأه السلاجقة ومن المحقق أن سلاطين المماليك تنافسوا كما يلاحظ بعض الباحثين(١٠٩) وقد سار على نهجهم أثرياء دولتهم فعملوا على الإكثار منها وتخصيص العديد من الأوقاف لها ، ولذا فإنه عند القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى تزايدت أعداد تلك المدارس إلى حد بعيد فى مدن بلاد الشام(١١٠) مثل دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، ومعرة النعمان ، وغيرها كثير .

أما إذا أردنا أن ننظر إلى مثال واحد لما آلت إليه حركة إنشاء ذلك النوع من المنشآت التعليمية فيكفى أن نتناول بالإشارة مدينة دمشق عاصمة الشام والمدينة التى صارت فى ذلك العصر مركزاً حضاريًا بارزاً بين العديد من المدن الإسلامية الأخرى فى المنطقة .

ووفقًا لما أورده ابن شداد الحلبى ومن بعده النعيمى احتوت مدينة دمشق على العديد من المدارس الخاصة بالمذاهب السنية الأربعة للشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية(١١١) وإن تزايدت مدارس الشافعية وذلك نظراً لأن سلاطين بنى أيوب قد احتضنوا ذلك المذهب والدعوة الأشعرية على نحو خاص .

فبالنسبة لمدارس الشافعية ؛ كانت مدينة دمشق تحتوى على العديد منها حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى الذى عاصره ابن شداد الحلبى منها : المدرسة الجاروخية ، والمدرسة الأمينية ، والمدرسة المجاهدية الجوانية ، والمدرسة المجاهدية البرانية ، والمدرسة الشامية الجوانية ، والمدرسة الأقبالية ، والمدرسة الفلكية والمدرسة العمادية الصالحية(١١٢) .

أما مدارس الحنفية ؛ فمنها المدرسة الصادرية والمدرسة الطرخانية ، والمدرسة البلخية ، والمدرسة النورية ، والمدرسة الخاتونية ، والمدرسة القليجية ، والمدرسة الشبلية[١١٣].

ثم مدارس المالكية ؛ ونذكر منها المدرسة الصلاحية ومدرسة نور الدولة الشربيشى والمدرسة الصمصامية [١١٤].

ومن أمثلة مدارس الحنابلة ؛ مدرسة الشيخ أبو عمر المقدسى الجماعيلى ، ومدرسة سيف الإسلام ، والمدرسة الحسمارية ، والمدرسة الجوزية ، والمدرسة الصدرية ، والمدرسة الصباحية ، ومدرسة ضياء الدين محمد ، ومدرسة ضياء الدين محاسن [١١٥].

وإذا كان هذا هو حال المدارس ؛ فإن طبقة المعممين من العلماء والفقهاء والمتصوفة وهى التى كان لها تأثيرها الكبير على عامة مسلمى بلاد الشام كان لها دورها البارز فى وضع فكرة الجهاد موضعها العملى قدر استطاعتهم على ذلك ، وقد كان الزنيكون قد جعلوا لتلك الطبقة مكانة متميزة ضمن طبقات المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ونجد أن الملك العادل نور الدين محمود قد رصد لهم أموالاً طائلة[١١٦] مما يعكس أهمية دورهم التأثيرى وإدراكه لذلك وقد وجدت عدة مواقف أوضحت دورهم بجلاء فعلى أثر هزيمة نور الدين فى صدامه مع إمارة طرابلس عند حصن الأكراد عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م[١١٧]، فإنه كاتب الفقهاء وحثهم على إثارة الناس للجهاد ، وحثهم عليه ، وبالفعل تمكنوا من تحقيق ذلك بنجاح[١١٨].

وقد تكرر دورهم خلال العام التالى ، أى فى عام ٥٥٦هـ / ١١٦٤م[١١٩] عندما وجد نور الدين محمود أن فخر الدين قره أرسلان أمير حصن كيفا ليست لديه النية الكافية لإرسال قوات تدعم قوات المسلمين المهاجمة للصليبيين ، فقد كاتب تلك العناصر من الفقهاء وطلب منهم أن يمارسوا نفوذهم عليه وبالفعل اضطر ذلك الأمير إلى الانصياع والمشاركة فى الجهاد ، وأورد المؤرخون المسلمون فى إشارة هامة لتلك الحادثة أن فخر الدين أرسلان خشى أن يفقد سيطرته على المناطق الخاضعة له إذا ما عارض الفقهاء المسلمين [١٢٠].

وقد استمر ذلك الدور الذى لعبه العلماء والفقهاء على امتداد العصرين الأيوبى والمملوكى، ولعل أوضح الأمثلة على دورهم فى العصر الأيوبى فيما يتصل بالدعوة للجهاد موقف الصالح إسماعيل عندما اتجه عام ٦٣٨هـ / ١٢٤١م نحو تسليم حصن شقيف أرنون

للصليبيين ليضمن دعمهم الحربى والسياسى ضد الأيوبيين فى مصر فوقف ضده الشيخ عز الدين بن عبد السلام[١٢١] والشيخ أبو عمر الأمر الذى أدى إلى اضطهادهما ولم يغيرا موقفهم فى إثارة المسلمين ضد حكامهم المتواطئين مع أعداء الإسلام ، وقد استمر دور تلك العناصر الدينية فى عهد المماليك خاصة خلال عهد السلطان الظاهر بيبرس [١٢٢].

وينبغى ملاحظة أن دور الفقهاء والعلماء المسلمين كان مواكبًا لحركة جهادية عامة شملت عناصر عديدة بل أن من قوة الحركة أن ساهم فيها مسلمو بلاد المغرب ، ولم يقتصر الأمر على دور المسلمين فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية بل أن المغاربة شاركوا بالفعل فى العديد من المعارك ضد الصليبيين[١٢٣] ومنهم من وقع فى أسرهم ، الأمر الذى يدل على أن فكرة الجهاد الإسلامى ضد الوجود اللاتينى فى بلاد الشام تعدت الحدود الجغرافية لبلاد الشام على نحو عكس نضجها وتفوقها حينذاك .

وإلى جانب المدارس ودورها كانت هناك الأدوار المرتبطة بأماكن العبادة الإسلامية مثل المساجد والجوامع حيث كان لها نشاطها البارز فى مجال الجهاد ومن المعروف أن المسجد بصفة عامة كان له دوره الهام فى حياة المجتمع الإسلامى بحيث أصبح مركز الحياة الدينية والمدنية لجماعة المسلمين [١٢٤].

ونظراً لأهمية دور العبادة الإسلامية فى هذا المجال فقد اهتمت القيادات السياسية من الزنكيين والأيوبيين ومن بعدهم المماليك بإنشاء تلك المراكز بصورة ملحوظة فى بلاد الشام ويمكن أن نقرر من خلال أحد المؤرخين المعاصرين الناحية العددية لتلك المساجد والجوامع بالمئات[١٢٥] انتشرت فى أنحاء متفرقة من المدن الشامية مثل دمشق وحلب وحمص وبعلبك ومعرة النعمان وغيرها من المدن الشامية .

وحيث أن تلك المساجد والجوامع كان يقوم بالخطابة فيها أئمة حصلوا على قدر متفاوت من المعرفة والعلوم الدينية فكان الاتصال بينهم وبين عامة المسلمين مباشراً من خلال الصلاة سواء كانت الصلوات اليومية أو صلاة الجمعة وفى عصر انتفت فيه وسائل الإعلام التى تؤثر على فكر عامة الناس كانت المساجد الشامية فى الحقيقة تعبر عن السياسات العامة للدولة حينذاك والتى كان من أبرز معالمها سياسة الإحياء السنى لمقاومة الغزو الصليبى لبلاد الشام، ويوضح أحد الباحثين أهمية الدور الذى قامت به تلك العمائر الدينية السابقة بقوله : "قد كان من الواجب فعلاً مواجهة الصليبيين بقوة ردع شعبية تزيد من فعالية قوة الردع العسكرية المتمثلة

في جيوش عالم الإسلام وكان المسجد في الواقع المكان الذي يمكن من تكوين هذه القوة الشعبية(١٢٦) وهكذا ، فمن المتصور أن الدور الذي لعبه المسجد حينذاك في بلاد الشام قد أدى إلى تكوين نفسية عامة متحفزة للجهاد ضد الوجود الصليبي .

وفي خلال تلك الأحداث ؛ كان الأدب العربي في بلاد الشام يقوم بدور على قدر بالغ الأهمية في حث جمهور المسلمين على القيام بأدوار نشطة في الصراع الإسلامي الصليبي، وقد عبر الأدب في ذلك العهد عن قضية الجهاد في شكلين أساسيين هما النثر ، والشعر ، أما ما يتصل بالنثر فيلاحظ الباحثون ظاهرة كثرة المؤلفات التي ألفها المسلمون عن الجهاد وفضائله(١٢٧) وواكب ذلك حركة تأليف المؤلفات العديدة عن فضائل مدينة القدس(١٢٨) .

وقد امتدت المؤلفات التي تناولت فضائل الجهاد لتشمل القرنين السادس والسابع الهجري / الثاني والثالث عشر الميلادي بحيث يمكن اعتبارها بمثابة ظاهرة خاصة عظم الاهتمام بالتأليف فيها (١٢٩).

وشهد ذلك العصر تأليف العديد من المؤلفات التي تناولت فضائل بيت المقدس على وجه خاص وفي هذا المجال ينبغي ألا نغفل فكرة هامة وهي أن مدينة بيت المقدس بالذات كانت بمثابة الجانب المحوري الذي ارتكزت عليه فكرة الجهاد في ذلك العصر وكلما تأججت تلك الفكرة كانت ترتبط دائمًا بوجود القدس تحت سيطرة الوجود الصليبي الغاصب والدخيل وإذا ما لا حظنا الاعتبارات الدينية المقدسة بالنسبة للمسلمين وارتباطهم بتلك المدينة أدركنا مدى دورها البالغ الأهمية في قضية الجهاد .

ومنذ البداية استمدت مدينة بيت المقدس قداستها الإسلامية من ناحية أنها المدينة التي أسرى بنبي الإسلام محمد (ﷺ) إليها(١٣٠) ثم أن المسجد الأقصى كان بمثابة القبلة الأولى(١٣١) قبل أن تتحول قبلة المسلمين إلى الكعبة المشرفة ووجد من ناحية أخرى الكثير من الأحاديث النبوية التي تناولت فضل المسجد الأقصى(١٣٢) وفضل الصلاة فيه ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه على امتداد ذلك العصر كان اعتقاد المسلمين بشأن المسجد الأقصى يتمثل في أنه ارتبط بحادثة الإسراء والمعراج وأن المسجد الأقصى كان أحد ثلاثة مساجد يشد لها الرحال(١٣٣)، فإذا ما أدركنا أن الصليبيين غيروا معالمه ولم يقروا قداسته ؛ أدركنا المغزى النفسي القوي لتلك الناحية بالنسبة للمسلمين .

وهكذا فقد كان للوضع السابق الذى كان لمدينة بيت المقدس أثره فى ظهور العديد من المؤلفات التى كتبها بعض المعاصرين للقرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى تناولت فضائل تلك المدينة والحث على زيارتها ولا ريب فى أن ذلك عكس وجود حركة واسعة النطاق حرصت على كتابة ما يتعلق بتراث وفضائل تلك المدينة المقدسة (١٣٤)، من أجل حث القوم على الجهاد بغرض استخلاصها من الصليبيين .

وفيما يتصل بالإنتاج النثرى الذى دعم فكرة الجهاد الإسلامى فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية ما ألف فى مجال الدفاع عن العقيدة الإسلامية وتفنيد تصورات النصارى واليهود من خلال توضيح مدى ما دخل على عقائدهم من تغيير ولا شك أن مثل ذلك الاتجاه كان قد وجد واقعًا كبيراً لظهوره من خلال أن تلك الأمم التى اعتنقت المسيحية غزت ديار الإسلام ومن ثم برز فى الأفق الاتجاه إلى التأليف من مجال الرد عليهم فى الأمور العقائدية ومن المنطقى أن نتصور أن مثل ذلك الجانب عمق فكرة الجهاد فى نفوس المسلمين فى ذلك العصر .

والواقع أن تلك الحركة قد وُجدت من قبل الغزو الصليبى ولدينا كتاب ألفه أمام الحرمين الجوينى الذى توفى قبل الغزو الصليبى فى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م وهو شفاء الغليل(١٣٥) أما فيما يتعلق بعهد الوجود الصليبى فهناك ما ألفه ابن الواسطى تحت عنوان " الرد على الذمة"(١٣٦). واستمر ذلك الاتجاه فى الدفاع عن الإسلام ضد النصرانية واليهودية سواء فى بلاد الشام أو مصر أو الأندلس فى عصر الصليبيات وبعده (١٣٧).

وقد تمثل المظهر الآخر من أشكال الكتابة الأدبية النثرية فى الخطابة وقد شهد عصر الحروب الصليبية تفوقًا بارزاً للخطابة ودورها فى إثارة نفوس المسلمين للقيام بالجهاد وكان الخطباء يلقون خطبهم الحماسية أما فى المساجد أو فى ساحات القتال(١٣٨) وقد كان للخطباء فى ذلك العصر الكلمة المسموعة لدى المسلمين(١٣٩) وتؤدى دورها الكامل فى حفزهم لخوض المعارك ضد الصليبيين ، ويقرر بعض الباحثين فى مجال الدراسات الأدبية أن تلك الخطب التى وجدت خلال مرحلة الحروب الصليبية لا نجد نظيراً لها فى الأدب العربى غير خطب الشاعر ابن نباتة(١٤٠) صاحب سيف الدولة الحمدانى الذى قدم العديد من الخطب الحماسية فى ظروف صراع الحمدانيين ضد البيزنطيين فى شمال بلاد الشام .

ونظراً للدور المهم الذى لعبته الخطابة فى ذلك العصر أوضحت المصادر التاريخية إن من قادة المسلمين من كان يفضل أن يكون الغزو ضد الصليبيين يوم الجمعة تبركًا بالدعاء له من جانب المسلمين والخطابة على منابر المساجد [١٤١].

ولدينا العديد من الأمثلة للخطب الحماسية التى ألقيت فى ذلك العصر وكان لها دورها فى إثارة المسلمين للجهاد ، ومن ذلك خطبة القاضى محيى الدين بن زكى قاضى دمشق يوم فتح المسلمين لمدينة بيت المقدس فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[١٤٢]. ومن الخطب المهمة أيضًا خطبة القاضى بهاء الدين بن شداد لشد أزر المسلمين فى ظروف حصار عكا خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة[١٤٣] وكذلك الخطبة التى ألقاها سبط بن الجوزى وكان من كبار الوعاظ فى ظروف تسليم الكامل الأيوبى مدينة بيت المقدس للإمبراطور الألمانى فردريك الثانى وما نجم عن ذلك من إثارة مشاعر المسلمين الدينية وقد تناول فى خطبته فضائل المسجد الأقصى[١٤٤].

إذا كان النثر العربى قد قام بدوره فى حث المسلمين على الجهاد فى صورة المؤلفات التى كتبت عن فضائل الجهاد والخطب الحماسية ، فإن الشعر العربى قام بدور بارز فى نفس المجال وتمخضت الحروب الصليبية وأحداثها الجسام عن ظهور عدد وفير من الشعراء الذين ساعدوا على إبراز فكرة الجهاد وحض المسلمين عليها .

من الحقائق التاريخية المقررة أن الشعراء فى عصر الحروب الصليبية قد وجدوا رعاية واضحة من قيادات المسلمين على امتداد عهود السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك ودل ذلك بطبيعة الحال ؛ على إدراك تلك القيادات لأهمية دور الشعر فى التوجيه المعنوى للمسلمين ضد الصليبيين ، ففى عصر السلاجقة كان السلاطين ووزراؤهم يعنون بالشعراء عناية كبيرة[١٤٥] وكان الملك العادل نور الدين محمود يحرص على أن يرتبط بجماعة من الدعاة والشعراء والمنشدين[١٤٦] أما السلطان صلاح الدين الأيوبى فكان يقرب إليه الشعراء[١٤٧] ويحضر المجالس التى يُلقى فيها الشعر وفى بعض الحيان كان ينظم بعض الأبيات [١٤٨]، ومعنى ذلك أن انصراف سلاطين المسلمين إلى الجهاد وانهماكهم فى الأعمال الحربية ضد الصليبيين لم يحل دون تذوقهم للشعر والعناية بالشعراء .

والواقع أن الشعر العربى خلال العصر وعلى امتداد القرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى كان تعبيراً شعبيًا عن عواطف المسلمين فى خلال أحداث

الحروب الصليبية وقد وضح ذلك من خلال مطالعة دواوين الشعراء الذين شاركوا بإنتاجهم الشعرى فى خلال تلك الأحداث ونجد أنها احتوت على قصائد فى الحماسة والتحريض على القتال والتهنئة بالنصر [١٤٩].

وإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن تلك الأشعار كانت تتردد فى مجالس السلاطين والأمراء[١٥٠] وذلك إلى جانب كتب الحروب والفرسان[١٥١]. وكذلك ترددت أخبارها فى صفوف العامة ؛ أدركنا مدى تأثيرها فى توجيه قطاع مؤثر من عناصر المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام حينذاك .

ومن الأمور ذات الدلالة الهامة فيما يتصل بأن الشعر العربى فى ذلك الحين كان تعبيراً صادقًا عن مشاعر المسلمين وأحاسيسهم وواكب الأحداث التى مر بها مجتمعهم فى صراعه مع الوجود الصليبى أننا نجد أن غزو الصليبيين لمدينة بيت المقدس ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م قد أوجد صداه الفورى - على ما يبدو - فى الشعر ، فنجد أن أحد الشعراء وهو الأبيوردى[١٥٢] قد ألف قصيدة تفيض حزنًا ولوعة ومرارة لذلك المصاب الفادح الذى لحق بأمة الإسلام وصدم مسلمى الشرق الأدنى ويهيب الشاعر بالمسلمين بضرورة النهوض لمواجهة المعتدين الآثمين الصليبيين الذين يسميهم " الروم " أنه لا ينبغى للمسلمين النوم بعد غزو الأعداء لديار الإسلام فى الشام . ومن أبيات تلك القصيدة :

وكيف تنام العين ملء جفونها … على هنوات أيقظت كل نائم

وأخوانكم بالشام يضحى مقيلهم … ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم … تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغب عن غمارها … ليسلم يقرع بعدها من نادم

وأغلب الاعتقاد أن حرص العديد من المصادر على أن تشير إلى قصيدة[١٥٣] الأبيوردى له دلالته الهامة وهى أن أشعاره انتشرت وترددت أخبارها على نحو جعل المؤرخين المسلمين المعاصرين واللاحقين يرددونها فى كتاباتهم لتلك المرحلة .

وقد أفرز المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية عدداً من كبار الشعراء الذين يعتبر شعورهم بحق مرآة صادقة لمرحلة الجهاد ضد الوجود اللاتينى فى الشرق ومن بين أولئك الشعراء احتل ابن منير الطرابلسى[١٥٤](ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤م) مكانة بارزة وقدم أشعاراً تحث عماد الدين زنكى على القيام بأمر الجهاد وكان يقدم بعض أشعاره بغرض

امتداحه وأحيانًا أخرى يدعوه لمهاجمة الصليبيين ، واسترداد ما سيطروا عليه من أملاك المسلمين . ومن أمثلة أشعاره التى قالها فى تقريظ جهاد الملك العادل نور الدين محمود:

يا هضبة الإسلام من يُعصم بها يؤمن ومن يقول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقًا أثبت بنيته بكل مذكر
آثارهم نجس أذال المسجد الـ أقصى فَصُنْ ما دنسوه وطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم يلهامك المتدمشق المتمصر[155]

ثم هناك أيضًا أحد الشعراء البارزين الذين أفرزهم المجتمع الإسلامى الشامى خلال ذلك العصر إلا وهو الشاعر ابن القيسرانى[156] (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م) الذى كان معاصراً لابن منير الطرابلسى وجرت بينهما منافسات ومساجلات شعرية شهيرة وقد اتصل ابن القيسرانى بعماد الدين زنكى ونور الدين محمود وتناول فى شعره معاركهم الحربية ضد الصليبين .

ومن أشعاره التى قالها فى امتداح عماد الدين زنكى فى أعقاب انتصاره على الصليبيين فى موقعة بعرين عام ٥٣٢هـ / ١١٤٠م قوله :

سلوا سيوفًا كأغماد السيوف بها صالوا فما غمدوا نصلاً ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم فى مأزق من سناه يبرق النصر
ولولا تضيق لهم ذراعًا مسالكهم والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وأصبح الدين لاعينًا ولا أثراً يخاف والكفر لا عين ولا أثر[157]

ومن بين شعراء الجهاد فى ذلك العصر نجد الشاعر عرقلة[158] (ت ٥٦٧ هـ / ١١٧١م) وكان من الشعراء الذين ارتبطوا بصداقات مع الأمراء من البيت الأيوبى[159] ووجدت له بعض الأشعار التى تناول فيها مدحًا للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ومن أشعاره فى مدحه :

فتى للدين لم يبرح صلاحًا وللأموال لم يبرح مشاء
هو المعروف بالمعروف حتا جواداً لم يهب إلا جواداً
به الأشعار قد عاشت نفاقًا وعند سواه قد ماتت كساداً

إلى كم ذا التـــوانى فى دمــــشق ... وقــد جــاءتكم مــصــر تهــادى
عـــروش بـعلهـــا أســـد هزبر ... بصـيـد المعـتـدين ولم يصــادوا(١٦٠)

ومن الواضح أن الشاعر هنا يحرض قادة المسلمين على الاتجاه صوب مصر من أجل ضمها إلى ساحة الجهاد بعد ضعف خلافة الفواطم بها .

كذلك فقد احتل الشاعر ثقة الدين أبو القاسم بن هبة الله(١٦١) (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) مكانة متميزة من بين شعراء ذلك العصر ويلاحظ أنه ارتبط إلى جانب الشعر بعلم الحديث ولذلك فقد وصف بأنه جمع بين معرفة المتون والأسانيد(١٦٢) و قد اتصل بالملك العادل نور الدين محمود وكان من المقربين له ، ووجدت له بعض الأشعار التى يحض فيها نور الدين على الجهاد ومواجهة الصليبيين الذين سيطروا على بيت المقدس ومن أمثلتها قوله :

أن بذلت لفـتح القـدس محـتـسـبًـا ... الأجـر جـوزيت خـيـراً غـيـر محـتـسب
والأجــر فى ذاك عند الله مــرتقب ... فـيـمـا يثـيب عليـه خـيـر مـرتقب
والذكـرى لخـيـر من الناس تكسـبـه ... خـيـر من الفـضـة البـيـضـاء والذهب
ولست تُعـذَر فى ترك الجـهــاد وقــد ... أصـبـحت تلك من مـصـر إلى حلب(١٦٣)

وإلى جانب الشعراء السابقين وجد أيضًا فى ذلك العصر الشاعر وحُيس الأسدى (ق ٦ هـ / ١٢م) وقد وجدت أشعار له تتناول امتداح السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى عندما وصل إلى الشام وامتلك دمشق ومنها قوله :

قـد جـاءك السـعـد والتـوفـيق واصطحبـا ... فكن لأضـعـاف هذا النصـر مـرتقـبًـا
لله أنت صـــلاح الديـن مـن أســـد ... فـجنتـهـا عـامـراً منهـا الذى ضـربا
نـادتـك بـالـذل لما قـل نـاصـــرهـا ... وأزمع الخلق من أوطانهـا هربًا(١٦٤)

ومن الشعراء البارزين حينذاك ، الشاعر أسامة بن منقذ الشيزرى (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م) ويقرر أحد الباحثين أن شعر أسامة الجهادى انحصر فى مدح المجاهدين ووصف المعارك(١٦٥) ومن أمثلة ما مدح به من الشعر ما قاله فى مدح معين الدين أنر على أثر قيامه بمحاربة الصليبيين ومنها قوله :

صـــدق النعت فـــيك أنت مـــعين الـ ـدين إن النعـــوت فــــأل وزخـــر
أنت ســيف الإســلام حــقًــا قـلافلـ ـل فــراريك أيهـــا الســيف الدهر
لم تزل تضـمـر الجـهـــاد مُـســراً ثم أعلنت حين أمكن جَــهـْـــرُ(١٦٦)

أما الشاعر ابن الساعاتي(١٦٧) (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م) فقد تنوع شعره بين العديد من المجالات والأغراض واتصل بعدد من رجالات الدولة الأيوبية وامتدح السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن ذلك قوله في امتداحه :

يـقـــــاتـل كـل ذي مُـلْـك ريـاء وأنت تقـــاتـل الأعـــداء دينًا(١٦٨)

وقوله عقب انتصاره في معركة طبرية عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م :

جلت عـــزمـــاتك الفـــتح المبـــينا فـــقـــد قـــرت عـــيـــون المسلمـــينا
ومـــــا طبـــــرية إلا هـدى ترفـع عـن أكـف اللامــــســــينا
حـــصـــان الذيل لم تقـــذف بســـوء وسَلْ عنهـــا الليـــالي والسنينا
فـضـضت خـتـامـهـا قـسـراً ومن ذا يصـــد الليث أن يلج العـــرينا
قـــست حـــتى رأت كـــفنًا فــلانت وغـــــاية كـل قـــاس أن يـلينا
تخـــال حـــمـــاة حـــوزتهـــا نـســاء يخـــوضـــون الحـــديد مـــقنعـــينا
لبـــيـــضك في جـــمـــاجـــمـــهم عناء لذيذ علم الطيـــــر الحنينا(١٦٩)

كذلك كان من الشعراء البارزين في ذلك العهد الشاعر ابن سناء الملك(١٧٠) (ت ٦٠٨ هـ / ١٢١١م) ؛ الذي كان على صلة قوية بالقاضي الفاضل البياني ومن أشعاره قوله في امتداح السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي :

كـــســـر الصليب ســـمـــيـــة من رأيه فـسـل العـدى من كـان أصلب مكسـراً
ولقـــد أقـــر الله عين نبـــيـــه بمظهـــر جـــعـل الشـــام مطهـــراً
مـــا زال أو جـعـل الكنيـســة جـامـعًـا والأنبل المخـــفـــوض منهـــا منبـــراً
فـــتح الشـــام به وقـــال زمـــانه إن كنت فـــاتحـــة فلن يتـــغـــيـــرا
الشـــــام دارك لـو أردت أخـــــذته بـالإرث عـن آبـائـك الشـم الـذرا(١٧١)

ومن الشعراء الذين لمع نجمهم فى ذلك العصر الشهاب الحلبى[١٧٢] (ت ٧٣٥هـ / ١٣٢٤م) وقد ألف بعض الأشعار فى تخليد سقوط إمارة طرابلس الصليبية فى عهد السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٨هـ / ١٢٩٠م منها قوله :

نهضت إلى عليا طرابلس التى	أقل عناها أن خندقها بحر
وقد ضمها مالطوق إلا بقية	كنحر وأنت السيف لاح له نحر
فكم مرَّ من دهر ومامسها أذى	وكم راح من عصر وما راعها حصر
ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت	تميد وقد أربى على نحرها السير
كأن المجانيق التى أوترت ضحى	عليها لها فى ثلم ابراجها وتر
فزلزلتها بالركض فانهد ركنها	ولم يبْق من دون المنايا لها ستر[١٧٣]

وإذا كانت كافة العوامل السابقة قد لعبت دورها فى بعث فكرة الجهاد ضد الصليبيين فى أعالى الفرات وبلاد الشام ، فإنها لم تكن لتوضع فى واقعها العملى بدون ظهور القيادات الإسلامية المتحمسة للجهاد ضد الوجود اللاتينى فى الشرق ومع إدراكنا لدور الفرد فى قيادة المسلمين فى ذلك العصر إلا أننا ينبغى ألا نقع فى خطأ المبالغة فى حجم دور تلك القيادات وننسب لها كافة الانتصارات - كما اعتادت ذلك المصادر التاريخية التى أرخت لها خاصة التى عاصرت تلك الشخصيات القيادية - بل من المؤكد أن نقرر دور عامة المسلمين فى مصر والشام والعراق وحتى المغرب ، الذين شاركوا فى حركة الجهاد ضد الصليبيين تحت إمرة تلك القيادات .

ووفقًا لما تقرره المصادر المعاصرة ؛ فإن الجانب الدينى كان واضحًا فى شخصية قادة الإسلام الذين تولوا قيادة المسلمين ضد الغزو الصليبى لبلادهم مما جعلها تعبر بحق عن الرغبة الصادقة فى الجهاد ، فشرف الدين مودود أتابك الموصل ، عرف عنه التقوى والصلاح[١٧٤] ، أما الملك العادل نور الدين محمود فقد وصف بأنه كان مستمسكًا بالشريعة[١٧٥] ، وكان يقاتل بنفسه ويتمنى الشهادة[١٧٦] ، وقد وصف من جانب العديد من المؤرخين بأنه كان يميل إلى الجهاد ضد الصليبيين[١٧٧] . وكان لذلك دوره فى أن لقب بالشهيد[١٧٨] بل إننا نجد أن وليم الصورى مؤرخ المملكة اللاتينية خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى قد أقر صراحة بأن نور الدين محمود أمير عادل يقظ ومتدين معين لأبناء جنسه راع

لتـقـاليـده"[١٧٩] ودل ذلك بطبيعة الحال على أن الصليبيين أنفسهم أدركوا أنه شخصية متدينة.

ونجد أن تلك الصفات توافرت لدى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ، فتقرر العديد من المصادر التاريخية ارتباط السلطان الأيوبى بأمر الجهاد[١٨٠] وأن ذلك الجانب كان يسيطر عليه ويوجهه نحو قتال الصليبيين ويوضح بهاء الدين بن شداد - مؤرخ سيرته - مدى تعلقه بفكرة الجـهاد [١٨١]، ومن الأمور ذات الدلالة أن ذلك السلطان المجاهد فى خلال سنى حكمه التى بلغت أربعة وعشرين عامًا لم يمكث فى مصر سوى ثمانى أعوام [١٨٢]، وعند وفـاته لم يبق فى خزانته سوى سبعة وأربعين (٤٧) درهمًا من الفضة وجرام واحد من الذهب[١٨٣] حيث أنفق كل ماله للقيام بجهاد الغزاة الصليبيين .

مهـما يكن من أمر فقد اجتمعت العوامل السابقة لكى تؤدى فى النهاية إلى بعث فكرة الجهاد ، أما الأحداث التى واكبت ذلك التطور البالغ الأهمية فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى خلال ذلك العصر فقد ارتبطت على نحو وثيق باستنجادات القوى الإسلامية السياسية فى الشام بالخليفة العباسى فى بغداد وقوة الأتراك السلاجقة وسلطانهم ، ومن بين أهم محاولات طلب مساعدة الخلافة العباسية ما قام به الأمير فخر الملك بن عمار الذى تولى حكم طرابلس وقد تعرضت إمارته لهجوم من جانب الصليبيين وعلى رأسهم الأمير الصليبى رايموند دى سانت جيل (المعروف فى المصادر العربية بالصنجيلى)[١٨٤] بغرض الاستيلاء على المدينة والمناطق المجاورة لها وتكوين إمارة صليبية متوارثة له ولأسرته من بعده ، وحتى بعد وفاة رايموند فى جمادى الأولى عام ٤٩٨هـ / فبراير ١١٠٥م[١٨٥] خلفه فى قيادة الصليبيين المهاجمين لبنى عمار ابن اخته وليم جوردان الذى واصل خطط سلفه الحربية وأمام ذلك الحصار الحربى الصليبى ثم لعدم تقديم القوى السياسية الشامية المجاورة لطرابلس عونًا حربيًا فعالاً لها فى محنتها اتجه فخر الملك عمار إلى الاستنجاد بالخلافة العباسية عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م[١٨٦]، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على عون حقيقى ولم يحرك الخليفة ساكنًا لوقف سياسة الصليبيين الرامية إلى الاستيلاء على الساحل الشامى بمدنه الاستراتيجية لاستمرار اتصالهم البحرى بأوروبا ، وقد انتهى الأمر بطرابلس أن سقطت فى أيدى الصليبيين وذلك فى ذى الحجة عام ٥٠٢هـ / يونيو ١١٠٩م[١٨٧].

وبعد محاولة فخر الملك بن عمار طلب عون العباسيين والسلاجقة بنحو العامين وبالتحديد في عام ٥٠٤هـ / ١١١٠م كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية في مدينة حلب بشمالي بلاد الشام تتدهور على نحو دفع أهلها إلى ضرورة التحرك لمواجهة الغزو الصليبي لبلاد الشام وقد كان يتولى حكم المدينة الأمير السلجوقي رضوان بن تتش ويعتبر رضوان بحق من أضعف حكام المسلمين خلال ذلك العهد ففي الداخل خضع لسيطرة عناصره الإسماعيلية النزارية ومقدمهم الحكيم المنجم الباطني وعلى نحو سافر لم يسبق له مثيل من قبل بل أنهم وجهوا السياسة الخارجية الحلبية لخدمة أهدافهم ومصالحهم وعملوا على إضعاف النفوذ الإسلامي السني في المدينة وذلك على حساب زيادة النفوذ الإسماعيلي والتودد لخلافة الفواطم في القاهرة ، أما في الخارج فإن الصليبيين في إمارة إنطاكية زاد نفوذهم على نحو واضح وظهر في الأفق تهديدهم العسكري لأهل حلب وأعمالها المجاورة وأمام ذلك اتجه رضوان إلى مهادنتهم فأقر في عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٥م للأمير الصليبي تنكرد دفع جزية معينة حتى يتمكن من تخفيف الضغط الحربي الصليبي ، ويتمكن من تحقيق أهدافه ومطامعه التوسعية(١٨٨) على حساب جيرانه من قيادات المسلمين .

أما إذا نظرنا إلى أوضاع مدينة حلب الاقتصادية في ذلك الحين ؛ نجد أنها صارت مترديه إلى حد بعيد ، ومن المعروف أن هذه المدينة كانت من أهم المدن الشامية التجارية ، ففيها كانت تحصل المكوس على ما يمر بها من بضائع وسلع تجارية من بلاد الشام والإمبراطورية البيزنطية ومصر والعراق (١٨٩)، بل أن المصادر التاريخية أوضحت أن التجار كانوا يقدمون إليها من جميع تلك البلاد (١٩٠).

ولكن ما هي الأضرار الاقتصادية التي حلت بالحلبيين بعد مقدم الصليبيين إلى الشرق ؟ الواقع أن سيطرة الصليبيين على العديد من المراكز والمعاقل في منطقة الجزيرة الفراتية وكذلك الشام قد قطع أوصال العالم الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى وأدى إلى أن حال دون انتقال القوافل التجارية بين العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز (١٩١). ويعلق أحد كبار المؤرخين أهمية كبيرة على ذلك الحدث بقوله هو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية في القرن الأول الهجري / القرن السابع الميلادي (١٩٢).

وحيث أن النشاط - التجاري - كان دعامة الاقتصاد الحلبي بحكم موقعها الفريد في شمالي بلاد الشام ووقوعها كحلقة اتصال بين مناطق العراق والبحر المتوسط لذلك كانت

الأحداث شديدة الوطأة على أهل حلب الأمر الذى دفعهم إلى الاستنجاد بالخلافة العباسية فى بغداد وبقوة الأتراك السلاجقة .

والواقع أن حادثة استنجاد الحلبيين بالخلافة العباسية قد وُجِدت لها سابقة تاريخية من قبل فى صورة استنجادهم فى عام ٣٦١هـ / ٩٧٤م بالخليفة العباسى المطيع فى ظروف تعرض مناطق شمال الشام لهجمات الإمبراطور البيزنطى حنا تزيمسكس المعروف فى المصادر العربية بابن الشميشق (١٩٣).

وقد دفعت الظروف السابقة إلى قيام أهل حلب بتشكيل وفد منهم مَثَّل المجتمع الحلبى أصدق تمثيل واحتوى أولئك الذين كانت لهم وضعية اقتصادية تجارية ودينية فى ذلك المجتمع للذهاب للخليفة العباسى المستظهر(١٩٤) وذلك عام ٥٠٤هـ / ١١١١م للاستغاثة به.

وقد قصد أهل حلب جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا المسلمين من الصلاة للفت الأنظار إلى قضيتهم ووعدهم السلطان محمد بن بركيا روق بإنفاذ العساكر للجهاد وفى الجمعة التالية تكرر نفس الموقف وتم تعطيل صلاة الجمعة ، وقد إرسل الخليفة العباسى المستظهر إلى السلطان يطلب منه الاهتمام بأمر أهل حلب (١٩٥).

وهكذا " فمن الممكن التقرير بأن حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين قد جاءت على نحو فعلى من خلال " تعبير شعبى " من جانب أهل حلب وحقيقة أن الواقع الاقتصادى كان ملحًا لكى يقوموا بمثل هذا التحرك إلا أن وازعًا دينيًا يمكن أن نتلمسه لدى مطالبتهم بجهاد الصليبيين ووقف غاراتهم المتواصلة على الأعمال الإسلامية بشمالى بلاد الشام عبر إمارة إنطاكية .

ونجد أن حركة الجهاد ارتبطت فى المرحلة المقبلة بجهاد شرف الدين مودود (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م) الذى تولى أتابكية الموصل ، وقد اتجه مودود إلى محاولة الاستيلاء على إمارة الرها(١٩٦)، وقد واجه المسلمون صعوبة بالغة فى الاستيلاء عليها بسبب حصانتها ومناعتها ثم دعم القوى الصليبية لأميرها وليم البورجى وخاصة من جانب تنكرد صاحب إنطاكية ووليم جوردان صاحب طرابلس والملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس (١٩٧)، وقد عجز المسلمون بقيادة مودود عن إسقاطها .

وقد اتجه شرف بن مودود من بعد ذلك صوب تل باشر - ثانى أهم مركز صليبى بعد الرها فى أعالى الفرات - وذلك عام ٥٠٤هـ / ١١١٠م وهنا لعبت الرشوة دورها ، فيجمع ابن

القلانسى وابن العديم على أن جوسلين صاحب تل باشر قد اتصل بالأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة وقدم له المال والهدايا وطلب منه أن يسحب قواته من أمام المدينة فأجابه إلى ذلك على كراهية من باقى الأمراء[١٩٨] وعندما اتجه مودود إلى نجدة حلب من بعد ذلك بناء على طلب رضوان بن تتش نفسه - بعد تهديدات إمارة أنطاكية الصليبية لها - فوجىء الجيش السلجوقى بأن رضوان يأمر بإغلاق أبواب المدينة بل الأدهى أنه أوكل بأمر أبواب المدينة لعناصر الباطنية[١٩٩] الذين ناصبوا العناصر السنية العداء .

ولم يقدر لحملة مودود الأولى أن تكلل بالنجاح ، وقد قام بثلاث حملات على بلاد الشام لمواجهة الوجود الصليبى كان أهمها فى الواقع صدامه مع الجيش الصليبى بقيادة الملك بلدوين الأول والتى جرت عند طبرية[٢٠٠] فى عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣م[٢٠١] وقد شاركه فى هذه الحملة عدد من الأمراء السلاجقة أهمهم ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق وقد جرت موقعة الصنبرة أو الأقحوانة[٢٠٢] فى الحادى عشر من المحرم ٥٠٧هـ / الثامن والعشرين من يونيو ١١١٣م[٢٠٣] وقد جرت بين الطرفين معركة وصفت بأنها كانت هائلة[٢٠٤] وقد نتج عنها أن حلت الهزيمة بالصليبيين على نحو فاضح وأخذوا بالقتل والأسر من جانب المسلمين بل أن الملك الصليبى بلدوين نفسه قد أسر ولم يعرف شخصيته من قام بأسره فأطلق سراحه ونجا[٢٠٥] ويلاحظ أن تفوق المسلمين قد ارتبط بعمليات واسعة النطاق من جانبهم لتخريب موارد الصليبيين الاقتصادية خاصة مزارعهم وحاصلاتهم ، ويقرر ابن القلانسى نفسه أنه لم يبق بين عكا وبيت المقدس ضيعة عامرة [٢٠٦] ، أما بالنسبة للمصادر اللاتينية فنجد أن فوشيه دى شارتر يعترف صراحة وفى مرارة بالغة بخسائر الصليبيين فيقول " يا له من حزن عميق !! إن الملك بلدوين قد فر تاركًا خيمته ومثله مثل البطريرك الذى كان حاضراً فى المعركة وقد فقدنا ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالى ألف ومائتين من الرجالة [٢٠٧].

وعلى الرغم من حملات مودود على الرها وتل باشر وفى طبرية إلا أنه لم يتمكن من تحقيق تغيير حاسم لصالح المسلمين فى صراعهم الحربى ضد الصليبيين وعندما عاد إلى دمشق لم يلبث أن اغتيل على أيدى عناصر الفداوية من الإسماعيلية النزارية فى عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م[٢٠٨].

أما إذا أردنا أن نبحث فى أسباب عجز حملات مودود عن تحقيق نتائج حاسمة ضد الصليبيين ؛ فيمكن أن نجد ذلك ممثلاً فى موقف القوى السياسية الإسلامية ، فقد رأينا كيف

كان رضوان بن تتش صاحب حلب قد هادن تانكرد أمير أنطاكية ثم تحالف مع عناصر الإسماعيلية النزارية ضد مسلمى حلب السنيين ثم من ناحية أخرى منع جيوش السلاجقة من دخول المدينة على الرغم من استدعائه لها لحمايته ، ومن قبل ذلك وجدنا كيف أنقذت الأموال اللاتينية تل باشر من السقوط فى أيدى السلاجقة والحقيقة أن الحكام المسلمين حينذاك كانوا يخشون قوة مودود واعتبروا الجيش السلجوقى القادم إلى الشام يحمل حجمًا أكبر من مجرد جيش قدم لتخليص الشام من الخطر الصليبى لذلك ، فقد خافوا على حكمهم(٢٠٩)، وهكذا فعلى الرغم من أن حركة الجهاد الإسلامى كانت تلقى دعمًا وتأييداً واسع النطاق فى الأوساط الشعبية فى الشام والعراق إلا أن اعتبارات تتعلق بالمصالح السياسية أجهضت الجهود التى قام بها شرف الدين مودود حينذاك .

ومع ذلك فإن تجربة مودود لم تضع هباء وتمخضت عن نتائج مهمة من جراء حملاته فى أعالى الفرات وبلاد الشام يمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : إن أتابكية مودود - على قصر مدتها - تعتبر نقطة تحول محورية فى تاريخ الصراع الإسلامى - الصليبى ، فبعد أن كانت فكرة الجهاد حلمًا صارت حقيقة واقعة(٢١٠) وقد حمل لواء الجهاد ما يقرب من نصف المدة التى تولى فيها أمر أتابكية الموصل دفاعًا عن عقيدته .

ثانيًا : يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكى والتى أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م حيث أن مودود - كما ذكرنا - وجه حملاته الأولى إلى الرها ، وتل باشر ، وعمل على تجويع أهلها وإرهاقهم على نحو يمكن أن نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكى ضدها (٢١١).

ثالثًا : كشفت حملات مودود مدى الضعف الذى كانت عليه القوى السياسية الإسلامية فى بلاد الشام والعراق وعدم إخلاص تلك القوى لحركة الإفاقة الإسلامية ضد الصليبيين على نحو جعل من بعده من قادة المسلمين يدركون ضرورة إخضاع الشام تحت لوائهم ليتمكنوا من مواجهة الوجود اللاتينى فى الشرق ، ومن ناحية كان من مظاهر غياب الوحدة فى العمل العسكرى حينذاك عدم اشتراك الدولة الفاطمية بجهدها ضد مملكة بيت المقدس الصليبية وهناك من يوضح أنه لو كانت هناك خطة شاملة من أجل توحيد جهود قوى الإسلام لأمكن أن تقوم خلافة الفواطم فى القاهرة بجهد حربى يهدد الصليبيين(٢١٢) وبذلك يتعرضون لهجوم من الشمال والجنوب فى وقت واحد .

وعلى الرغم من الدور الرائد الذى قام به مودود ، إلا أننا نجد أن العرينى يرى أن عماد الدين زنكى هو الذى وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين(٢١٣)، وفى هذا إجحاف واضح بدور القيادة السلجوقية فى مجال الجهاد وقد وُجد من المستشرقين من أدرك قيمة حملاته فنجد أن ستيفنسن يعتبر حملاته على الشام نقطة تحول مهمة فى تاريخ الاحتلال اللاتينى(٢١٤)، أما سانوندرز فيرى أن مودوداً هو القائد الأول لحركة الثأر الإسلامى ضد الصليبيين (٢١٥).

ومن بعد مودود وُجد دور جهادى قاده إيلغازى بن أرتق (ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢م) وتعتبر أهم الأعمال الحربية التى قادها تمكنه من ضم حلب فى شمال الشام الأمر الذى أعطاه - بلا ريب - قوة أكبر على التحرك ضد الصليبيين بعمليات هجومية وتمكن من أن يقوم بشن تلك الهجمات الناجحة ضدهم فى إمارتى الرها وإنطاكية وفى عهده تمكن من أسر الملك بلدوين الثانى وكذلك جوسلين دى كورتناى حاكم تل باشر الأمر الذى أضعف مكانة ملوك وأمراء المملكة اللاتينية فى نفوس المسلمين (٢١٦).

ومن بعد إيلغازى كان دور أقسنقر البرسقى (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م) الذى كان متوليًا أمر أتابكية الموصل وقد واصل الجهاد ضد الصليبيين فى إمارة الرها على وجه الخصوص(٢١٧) ولكنه قتل غيلة على أيدى فداوية الإسماعيلية النزارية فى المسجد الجامع بالموصل(٢١٨) .

وإذا تناولنا أهمية الأدوار التاريخية التى لعبها أتابكة الموصل بتلك النتائج التى حققوها فى مواجهة الغزو اللاتينى للأرض العربية نجد أن الأتابك عماد الدين زنكى بن أقسنقر (٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٦ - ١١٤٦م)(٢١٩) يحتل مكانة مهمة من بين قادة المسلمين خلال ذلك العصر فقد تمكن زنكى من إسقاط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م(٢٢٠) فكانت بذلك أولى الإمارات الصليبية التى تسقط فى أيدى المسلمين الأمر الذى يعتبر نقطة تحول هامة فى تاريخ الإمارات اللاتينية فى الشرق (٢٢١)، ولا يشكك فى إخلاص عماد الدين زنكى لفكرة الجهاد الإسلامى فى خلال استيلائه على تلك الإمارة الصليبية ، ومع ذلك يرى المستشرق لامونت أن إسقاط الرها كان مجرد عملية تحرك حربى ضد الصليبيين أملته على زنكى دوافع تكوين دولة خاصة به ويرى أيضًا " أن زنكى ينبغى ألا يعتبر بأى حال من الأحوال بطل الجهاد ؛ فإن عماد الدين وإن كان يطمع فى استرجاع الرها منذ وقت طويل كما

يقول كمال الدين بن العديم لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً وإلا بعد أن حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالى فضل الله بن ماهان الذى بيّن له سهولة احتلال المدينة[٢٢٢] ويستمر فى تصوره قائلاً : " الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجًا على سياسته وعملاً قام به بناءً على تحريض الآخرين[٢٢٣] (يعنى أمير حران) ويزيد فى مقولته بأن تصور " أن استيلاء زنكى على حماه وحمص وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى ، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا لاءم ذلك حاجته[٢٢٤].

ويلاحظ أن تلك الآراء التى أوردها لامونت صادفت هوى لدى أحد الباحثين المسلمين الحديثين فقد رأى " ... عند تقرير الدور الذى قام به زنكى فى محاربة الصليبيين يجب ألا نتصور أبداً أنه كان قد جعل ذلك هدفه الوحيد ، فإن زنكى كان يرمى إلى بناء دولته على حساب جيرانه من كل من المسلمين والمسيحيين " [٢٢٥].

ومن الممكن أن نفند تلك الآراء على النحو التالى :

أولاً : كان اتجاه عماد الدين زنكى لمهاجمته الرها متأخراً وذلك لا يقلل من دوره الجهادى خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية فى صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها[٢٢٦] ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها[٢٢٧] ومعرفة نقاط الضعف فيها ، ومن ناحية أخرى فمن الطبيعى أن نتصور أن نصيحة أمير حران لزنكى بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئًا لو لم يكن زنكى قد خطط مسبقًا لذلك ، بل المرجح أن سقوط تلك الإمارة ذات الأهمية البالغة لدى الكيان الصليبى من الصعب تصور حدوثه على النحو الذى يصوره لامونت بل أنها فى الأغلب كانت فى مخططات الزنكيين منذ أمد بعيد . أما تعليل عدم تبكير زنكى بالاستيلاء عليها فذلك مرجعه عدم رغبته فى إجهاض قوته الحربية فى صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه الأولى ، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها - على نحو ما فصلته المصادر العربية - يعتبر بحق من أبرز ملامح تفوق زنكى السياسى والحربى .

ثانيًا : يبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيداً عن سياسة عماد الدين زنكى هو أكبر الادعاءات التى لا نجد سنداً تاريخيًا يدعمها ، فمن المعروف أن زنكى كان مشتركًا فى جيش مودود[٢٢٨] وكان الأخير قد قام بعدة حملات ضد الوجود الصليبى فى أعالى

الفرات وكانت الرها محور نشاط مودود ونتصور أن زنكى كان يعتبر إسقاطها أمراً ضرورياً ومن المستحيل عليه عسكرياً أن يواجه الصليبيين فى الإمارات الأخرى كأنطاكية وطرابلس وكذلك مملكة بيت المقدس نفسها ويترك الرها وهى القريبة من إمارته فى الموصل ، ثم أن موقعها الجغرافى المنفصل نسبيًا عن أنطاكية وطرابلس جعلها هدفًا مباشراً للزنكيين لحصر الوجود الصليبى فى بلاد الشام وإنهاء تواجد الصليبيين فى أعالى الفرات وبالتالى تركز الجهود الإسلامية فى عمليات حربية فى الشام فقط على نحو يوحد جهودهم فى شمال العراق تارة والشام تارة أخرى .

ثالثًا : أما افتراض لامونت بأن زنكى كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية فهو افتراض أبعد ما يكون عن الصواب لأنه لا يجد دعمًا أو سنداً تاريخيًا حقيقيًا، وعلى حين وجدنا بعض الأتابكة يهادنون الصليبيين ويصلون معهم إلى ما يشبه التحالف السياسى الذى يؤدى بهم إلى تجميد النشاط العسكرى لهم على حدودهم المشتركة مع الصليبيين ومثال ذلك الأتابك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ورضوان بن تتش صاحب حلب (٢٢٩)، إلا أننا لا نجد لدى زنكى ذلك الاتجاه ، ولو أنه كان فى نيته اتباعه لظهر ذلك على امتداد مدة حكمه الطويلة التى بلغت نحو العشرين عامًا (٥٣١ - ٥٤١هـ/ ١١٢٦-١١٤٦م) (٢٣٠)، ولوفر على نفسه وقواته عناء المعارك الحربية الواسعة النطاق التى شنها ضد الصليبيين ولحصل على ما يريد بفضل تلك الأساليب السياسية التى أشار إليها لامونت .

رابعًا : أما القول بأن زنكى لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها بل أنه كان يسعى أيضًا إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو المسيحيين فينبغى أن نلاحظ أن كافة القيادات الإسلامية التى ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى عشر والثالث عشر م كان لديها طابع ما من الطموح السياسى ، وكانت تلك القيادات تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية الصليبية أو حتى المسلمة ، ومع ذلك فقد كان ذلك من خلال الرغبة فى الوحدة السياسية لتجميع قوى المسلمين للجهاد ضد الغزو اللاتينى وكان لأولئك القادة شعور دينى واضح ارتبط أساسًا بالجهاد بحكم معطيات العصر الدينية . ومن ثم فإن الطموح السياسى كان يدخل فى نطاق

مقاومة الكيان الصليبي ويمكن أن تربط بين الناحيتين - التطلعات السياسية والجهاد - وتعلل من خلال ذلك الأدوار التى قامت بها تلك القيادات المسلحة .

أما دور الملك نور الدين محمود[٢٣١] فى حركة الجهاد ضد الصليبيين ؛ فمن الممكن أن نجد معالمها فى تمكنه من الاستيلاء على دمشق فى عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م [٢٣٢]، الذى يعد بحق " أعظم فتوحاته على الإطلاق " [٢٣٣]، ويقدر وليم الصورى نفسه خطورة ذلك على المملكة اللاتينية ، فيقرر أن هذا التغيير قد حول من نور الدين من رجل ضعيف إلى عدو خطير[٢٣٤] يتهدد الصليبيين وبذلك تمكن من أن يجاور حدودهم على نحو ساعد فى القضاء على الفجوة التى كانت تحول دون مواجهتهم [٢٣٥]، وقد فقدت المملكة اللاتينية بسيطرة نور الدين محمود على دمشق أهم وأثمن حليف لديها[٢٣٦] ويمكن أن نقارن أهمية تلك الحادثة باستيلاء الصليبيين عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م على مدينة عسقلان على الساحل الفلسطينى[٢٣٧]، ومن المؤكد أن خضوع دمشق لنور الدين قد أكد قيام دولة إسلامية متحدة تمتد من الشمال حتى قرب الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس الصليبية وكان ذلك لأول مرة منذ تاريخ سيطرة الصليبيين فى الشرق[٢٣٨] الأمر الذى هدد الوجود اللاتينى هناك ، ومن المعروف أن دمشق في الجنوب وحلب في الشمال كانتا فى مقدمة الأهداف العسكرية الصليبية على امتداد النصف الأول من القرن السادس هـ / القرن الثانى عشر م أما الآن فقد حُسم الأمر لدعاة الوحدة والجهاد الإسلاميين ، وأصبحت المناطق الشمالية لمملكة بيت المقدس أكثر من أى وقت مضى مهددة بعمليات حربية من جانب قوات نور الدين محمود .

ويقرر لامونت مرة أخرى ؛ أن نور الدين محمود كان دافعه الرئيسى فى حروبه سياسيًا ، وأن العنصر الدينى فى أحسن الحالات لم يكن إلا عنصرًا ثانويًا يستخدمه نور الدين لأغراضه المحلية ولم يكن ليأخذه مأخذ الجد[٢٣٩] ويرى أنه يشك فى أن يكون نور الدين نفسه كان مهتمًا بالحروب الدينية كحروب دينية اهتمامًا خاصًا[٢٤٠] وزعم أن رغبته فى توسيع رقعة مملكته فى الاتجاه الوحيد الممكن هى التى أملت عليه السياسة التى اتبعها فى علاقاته مع جيرانه اللاتين[٢٤١] .

والواقع أن كافة الآراء التى أوردها لامونت لا نجد لها سندًا يدعمها من الواقع التاريخى لبلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع هـ / الثانى عشر والثالث عشر م ، ومكمن الخطأ

الذى وقع فيه ذلك الباحث ومن نهج نهجه هو النظر للملك العادل نور الدين محمود نظرة منفصلة عن حقيقة عصره والاتجاهات الدينية الواضحة فى ذلك العصر عصر الصراع بين الهلال والصليب كرمز لمجتمعين كل منهما له أيديولوجيته الدينية وعقائده الروحية الخاصة به، والواقع أن نور الدين كان إفرازاً مباشراً للمجتمع الإسلامى فى بلاد الشام والذى ازدهرت فيه فكرة الجهاد على نحو قل نظيره فى عهود تاريخ دول الإسلام السابقة واللاحقة إلى حد كبير ومن الممكن أن نرصد فى سهولة ويسر تلك الروح الدينية التى سادت عصره فى صورة دور عناصر المتطوعين فى العديد من المعارك الهامة ضد أعدائهم(٢٤٢)، بل لقد شهد عصره اتساع فكرة الجهاد حتى أنها لم تقتصر على أهل بلاد الشام من السكان الأصليين بل أنها أيضًا شملت عناصر مسلمة قدمت من أقصى أنحاء العالم الإسلامى وهى عناصر المغاربة حيث قاموا بأدوار حربية فى عهد نور الدين محمود أشار إليها الرحالة ابن جبير(٢٤٣).

وفى عصر كانت تلك بعض ملامحه ، فإن قيادة الملك العادل نور الدين من الطبيعى أن تكون قيادة ذات أهداف دينية وسياسية معًا وفى هذا المجال لا أبالغ فى التقدير إذا ما اعتبرته " فيلسوف حركة الجهاد الإسلامى خلال عصر الصليبيات وصاحب سياسة منفذة لتلك الفلسفة على نحو متفرد " وكان لشخصيته المتدينة التى اعترف بطابعها الدينى وليم الصورى نفسه ثم أقرها العديد من المؤرخين المسلمين المعاصرين واللاحقين على نحو جعلنا نعتبره بحق شخصية ذات اهتمامات صوفية - كان لكل ذلك أثره فى استمراره فى دفع حركة الجهاد على نحو مؤثر وحقيقى ضد الوجود اللاتينى فى الشرق .

أما إدعاء لامونت بأن حروب نور الدين كانت ذات دافع سياسى ولم يكن يستخدم العنصر الدينى فى حروبه مأخذ الجد فهو قول ينطوى على محاولة إجهاض دور تلك القيادة المسلمة المجاهدة ثم محاولة إفراغ حركة الجهاد الإسلامية خلال عصر الصليبيات من مغزاها الدينى على نحو يؤدى إلى تصوير تلك الحروب بالطابع المحلى المحدود الأثر والذى لا يجد دعمًا أيديولوجيًا يسنده .

وأما بالنسبة لقوله أن صراع نور الدين مع الوجود اللاتينى كان الاتجاه الوحيد الممكن والذى أملته رغبته فى توسيع أملاكه ، فأمر لا ينطبق على نور الدين لأن سياسته ارتبطت بصورة أكثر من غيرها بالأهداف الدينية الجهادية وذلك مع عدم إغفالنا لحرصه على تدعيم حكمه وتوسيع رقعة دولته بغرض توحيد جهود مسلمى بلاد الشام تحت لواء حكمه .

ومن أهم إنجازات الملك العادل نور الدين محمود ؛ إرساله صلاح الدين الأيوبى ومعه عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر وقد تمكن صلاح الدين من مقاليد الأمور فى دولة الفواطم فى القاهرة وتمكن من قطع الخطبة للعاضد الفاطمى وإعادة مصر مرة أخرى إلى المعسكر السنى وذلك فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ومن المعروف أن موارد مصر البشرية والاقتصادية وثرائها بالجند قد أثر أفضل الأثر فى تغيير ميزان القوى فى منطقة الشرق الأدنى لصالح قادة الجهاد الإسلامى ، واستمر هذا الوضع قائمًا حتى خروج الصليبيين كلية من بلاد الشام وقد أكدت مصادر العصر الأيوبى أهمية مصر وقدراتها البشرية والمادية فى مساعدة صلاح الدين الأيوبى فى جهاد الصليبيين (٢٤٤).

أما الأدوار الجهادية التى قدر لصلاح الدين أن يخوض غمارها فقد بلغت ذروتها بموقعة حطين الحاسمة فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م(٢٤٥) والتى أدت إلى دخول المسلمين لبيت المقدس فى ٢٧ رجب عام ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧م مسقطين بذلك مملكة بيت المقدس التى امتدت من عام ٤٩٢ - ٥٨٣هـ / ١٠٩٩ - ١١٨٧م(٢٤٦) ولم يبق من أملاك الصليبيين سوى مدينتى أنطاكية وطرابلس وبعض المناطق القليلة التى كانت تابعة للمملكة اللاتينية .

ومن الجدير بالأهمية تقويم دور السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى من خلال إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية وتغيير خريطة منطقة الشرق الأدنى السياسية التى ظلت قائمة تحوى ذلك الكيان الصليبى طوال ما يقرب من التسعين عامًا ، ثم وجه ضربة قوية لموارد المملكة البشرية بفضل أعداد القتلى الضخمة التى منيت بها فى معركة حطين وفضلاً عن المكاسب العسكرية والسياسية التى تمكن من تحقيقها فى صيف عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م فإن موجة إسقاط القلاع الصليبية التى تلت أضعفت قدرات المملكة الدفاعية إلى حد بعيد .

ومن بعد الأيوبيين قام المماليك البحرية بجهودهم فى إسقاط باقى الإمارات الصليبية ولا ريب فى أنهم ورثوا عن أسلافهم بنى أيوب الدفاع عن الإسلام وسياستهم المرتبطة بالجهاد ، وقد حرص المماليك على أن يظهروا أمام المسلمين بمظهر المدافعين عن الدين الإسلامى(٢٤٧) ، ولا أدل على تقدير المؤرخين المسلمين لقيمة دور المماليك فى خدمة قضية الجهاد ضد الصليبيين من أن ابن واصل عندما أراد أن يوضح دورهم فى هذا وصفهم بأنهم "داوية الإسلام"(٢٤٨) وإذا أدركنا أن الداوية كانوا من أقوى التنظيمات الدينية الحربية الصليبية التى قاتلت المسلمين بكل ما أوتيت من قوة أدركنا مغزى إشارة ابن واصل السابقة.

وقد شارك من سلاطين دولة المماليك البحرية(٢٤٩) فى حركة الجهادالسلطان الظاهر بيبرس البندقدارى والمنصور قلاوون وإبنه الأشرف خليل .

عمل الظاهر بيبرس على إعادة خلافة المسلمين السنية إلى القاهرة بعد سقوطها فى بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م فأعاد قيامها من جديد عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م(٢٥٠) الأمر الذى أظهره بمظهر المدافع عن الإسلام فى شخص خليفة المسلمين .

كذلك أثبتت أحداث التاريخ خلال تلك المرحلة مدى ما تمتع به الظاهر بيبرس من براعة سياسية وبصيرة نافذة فقد اتجه منذ عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م إلى إبرام العديد من المعاهدات مع القوى السياسية ومن أمثلتها بركة خان زعيم مغول القفجان(٢٥١) وكذلك الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوغوس(٢٥٢) وأيضًا ما نفرد هوهنشتاوفن ملك جزيرة صقلية وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى (٢٥٣). ويعلق أحد الباحثين على تلك التحركات السياسية بقوله " من الواضح أن الغرض من هذه المعاهدات والاتفاقيات كان إحكام الحصار حول الصليبيين ببلاد الشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق والغرب (٢٥٤).

ومن بعد تلك المجهودات السياسية بدأ السلطان الظاهر بيبرس فى تحركه الحربى ضد الصليبيين ، وفى هذا المجال يلاحظ أنه لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين أعوام ٦٥٩ - ٦٦٩هـ / ١٢٦١ - ١٢٧١م دون أن يقوم بيبرس بتوجيه هجماته الحربية على مراكز الصليبيين بالشام (٢٥٥).

وتصل قمة أعمال بيبرس ضد الوجود الصليبى إلى غايتها فى إسقاطه لإمارة أنطاكية عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م (٢٥٦)، والتى كانت من أهم وأقوى الإمارات الصليبية بالشام ومن خلال الروايات التاريخية التى أوردها المؤرخون المسلمون المعاصرون واللاحقون يمكن تصور الاستيلاء على إنطاكية من أيدى الصليبيين على أنه كان أشبه شيء بمظاهرة حربية ودينية ذات صبغة إسلامية واضحة وأثبت هذا الحدث المحورى أن المماليك أظهروا بحق حماسة لها شأنها للإسلام(٢٥٧).

والواقع أن أهمية إسقاط أنطاكية أن غدت مراكز الصليبيين منحصرة فى إمارة طرابلس على الساحل اللبنانى فى وضع منعزل لا يجد دعمًا من أى كيان صليبى مجاور .

ومن بعد الجهود السابقة أصبح على السلطان المنصور قلاوون أن يقوم بإسقاط طرابلس وبالفعل تمكن من ذلك بعد وفاة أميرها بوهيمند السابع وذلك عام ٦٨٨هـ / ١٢٩٠م[٢٥٨] ومن بعده أسقط ابنه الأشرف خليل عكا عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م[٢٥٩]. فكانت بذلك آخر مراكز الصليبيين فى الشام .

مجمل القول ، أن فكرة الجهاد كان لها دورها وتأثيرها الكبير فى حياة المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى وقد أظهرت أن العقيدة الدينية كان لها دورها فى توجيه القيادات الإسلامية وفى تحريك جموع المسلمين باختلاف قطاعاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية ، ومع ذلك فليس من الإنصاف التاريخى إغفال عوامل رغبة تلك القيادات فى التوسع الإقليمى وتوسيع رقعة أملاكها على حساب أعدائها ، لكن تبقى فكرة الجهاد حقيقة محورية فى دراسة الصليبيات.

الهوامش :

(١) عن الأصل اللغوى لكلمة الجهاد انظر بالتفصيل : ابن منظور ، لسان العرب ، م١ ، ط.بيروت ب.ت ، ص ٥٣٠ - ٥٣١ ؛ المقرى الفيومى ، المصباح المنير ، ط.القاهرة ١٩٢٦م ، ص ١٥٥ ؛ رءوف شلبى ، الجهاد فى سبيل الله . ط. القاهرة ب-ت ، ص ٩ ، محمود محمد على ، الجهاد فى الشريعة الإسلامية. ط. القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١١ ، محمد عمارة ، الفريضة الغائبة ، ط.القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٨ ، جمال الدين محمود ، الإسلام وقضية السلام والحرب ، ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٨ .

(٢) من ذلك قوله تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " سورة الأنفال رقم (٨) آية رقم (٦٠) . " وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله " سورة التوبة قم (٩) آية رقم (٤١) . " وجاهدوا فى الله حق جهاده " سورة الحج رقم (٢٢) آية (٧٨) وعن الآيات الأخرى المتعلقة بالجهاد فى القرآن الكريم ، انظر : سورة البقرة رقم (٢) ، آية (٢١٨) ، سورة آل عمران رقم (٣) ، آية رقم (١٤٢) ، سورة الأنفال رقم (٨) آية رقم (٧٢) ، سورة التوبة رقم (٩) آية رقم (١٦) ، سورة النحل رقم (١٦) آية رقم (١١٠) ، سورة العنكبوت رقم (٢٩) آية رقم (٦٩) ، سورة الحجرات رقم (٤٩) آية رقم (١٥) ، سورة الصف رقم (٦١) آية رقم (١١) ، وغيرها كثير.

(٣) عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : " قلت لرسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ فقال الإيمان بالله والجهاد فى سبيله " حديث متفق عليه ، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال " إن رسول الله (ص) قال لغزوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها " . حديث متفق عليه . عن الأحاديث النبوية بخصوص الجهاد انظر : مسلم ، صحيح مسلم ، ط. القاهرة ، جـ٣، ص ١٣٥٦ - ص ١٤٥٠ ، الترمذى: تحقيق أحمد شاكر ومصطفى الحلبى ، ط. القاهرة ، جـ٤ ، القاهرة ، ص ١٦٧ ؛ ابن المبارك ، كتاب الجهاد، تحقيق نزيه حماد ، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٢٨ - ص ٢٩ ؛ الدارمى ، سنن الدرامى ، ط. دمشق ١٣٤٩هـ ، جـ٢ ، ص ١٠٣ ؛ القراب ، فضائل الرمى فى سبيل الله ، تحقيق النقشبندى ، مجلة المورد ، م (١٢) ، العدد (٤) لعام ١٩٨٣م ، ص ٣٠٧ - ص ٣١٧ ؛ ابن الجوزى، الشفاء فى مواعظ والخلفاء ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، ط.، الإسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٧٣ - ص ٧٧ ؛ النووى ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، ط. القاهرة ١٩٣٨م ، ص ٥٠٣ - ص ٥٢١ ؛ الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، ط. القاهرة ، ب-ت ، ص ١٨٥ - ص ١٨٦ ؛ ابن تيمية ، السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، تحقيق البناء وعاشور ، ط. القاهرة ١٩٧١م ، ص ١٤٢ - ص ١٤٣ ؛ ابن جماعة ، مستند الأجناد ، تحقيق النقشبندى ، ط. بغداد ١٩٨٣م ، ص ٣٩ - ص ٤٢ ؛ مختصر فى فضل الجهاد ، تحقيق النقشبندى ، ط. بغداد ١٩٨٣م ، ص ١١٣٠ ، ص ١١٤ .

(٤) قال الله تعالى " كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " سورة النساء رقم (٤) آية رقم (٧٧) .

(٥) انظر : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز " . سورة الحج رقم (٢٢) آيات من (٣٩ - ٤١) .

(٦) انظر : " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم " سورة البقرة رقم (٢) آية رقم (١٩٠) .

(٧) انظر : " وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة " سورة التوبة رقم (٩) آية رقم (٣٦) . وأيضًا ، " وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " سورة التوبة رقم (٩) آية (٢٩) أيضًا ، سيد قطب ، معالم فى الطريق ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٧٥ ، عبد العزيز بن باز ، فضل الجهاد والمجاهدين ، ط. الرياض ١٣٩٤هـ ، ص ٤٠ .

(٨) سيد قطب ، معالم فى الطريق ، ص ٧٣ ؛ نحو مجتمع إسلامى ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٠١ - ص ١٠٩ .

(٩)الرافعى ، الإسلام نظام إنسانى ، ط. القاهرة ١٩٦٤م ، ص ١٧٤ ؛ ناجى معروف ، أصالة الحضارة العربية ، ص ٣٧٤ .

(١٠) سورة البقرة رقم (٢) آية رقم (٢٥٦) . أبو زهرة ، نظرية الحرب فى الإسلام ، ط. القاهرة ، ١٩٦١م، ص ١٨ .

(١١) جمال الدين محمود ، الإسلام وقضية السلام والحرب ، ص ٨٤ ، جمال الدين الرمادى ، الأمن والسلام فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٩ .

(١٢) الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٢٤ .

(١٣) نفسه ، نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

(١٤) فكان النساء والولدان لا يجوز قتلهم فى حرب ولا غيرها ما لم يقاتلوا ، وقد نهى النبى عن قتلهم ، انظر ، الأحكام السلطانية ، ط. القاهرة ب - ت ، ص ٤١ ، شلتوت ، الإسلام دين وشريعة ، ط. القاهرة، ص ٤٤٦ .

(١٥) شلتوت : الإسلام دين وشريعة ، ص ٤٦٦ ، ويلاحظ أن من مبررات الحرب فى الإسلام حالة الدفاع وحالة نكث العهد وظهور بوادر الخيانة والمحافظة على سلامة الدول الإسلامية وتأمين أمر الدعوة ، عن ذلك انظر : على عبد الواحد وافى ، حماية الإسلام للأنفس والأعراض ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٩ - ٢٠ ، جمال الدين محمود ، أصول المجتمع الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٦٨ .

(١٦) أحمد أمين ، قوانين الحرب فى الإسلام ، مجلة الثقافة ، العدد (٣٩) لعام ١٩٣٩م ، ص ٥ .

(١٧) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٥٠ .

(١٨) جمال الدين محمود ، الإسلام وقضية السلام والحرب ، ص ٣٧ .

(١٩) الحنبلى ، المعتمد فى أصول الدين ، ط. بيروت ١٩٧٣م ، ص ٢٧٦ .

(٢٠) مجيد خدورى ، الإسلام والعلاقات الدولية أمس واليوم ، مجلة حوار العدد (٢) السنة (٣) يناير - فبراير ١٩٦٥م ، ص ٥٥ .

(٢١) السنهورى ، الإسلام والجهاد ، ط. القاهرة ، ص ٦١ ، محمد شديد ، الجهاد فى الإسلام ، ط. القاهرة، ص ١٥٤ ، أحمد شلبى ، الجهاد والنظم العسكرية ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢٢) ابن تيمية ، الحسبة فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٤٠٠هـ ، ص ١٧ .

(٢٣) انظر مثلاً : سورة التوبة رقم (٩) آية رقم (٤١) ، آية رقم (٧٣) .

(٢٤) النعمان بن حيون ، تأويل الدعائم ، تحقيق الأعظمى ، جـ٣ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢٥) النعمان بن حيون ، المجالس والمسايرات ، تحقيق الفقى وشيوخ واليعلاوى ، ط. تونس ١٩٨٠م ، ص ٣٦٧ .

(٢٦) كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها ، ط. بيروت ، ب-ت ، ص ١٣٢ .

(٢٧) النعمان بن حيون ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيظى ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٥١م ، ص ٣٩٩ ؛ تأويل الدعائم ، جـ١ ، ص ٥١ ، كتاب الاقتصاد ، تحقيق وحيد ميرزا ، ط. دمشق ، ١٩٥٣م ، ص ٦٧ - ص ٦٨ . سميرة الليثى ، جهاد الشيعة ، ط. بيروت ١٩٧٦م ، ص ١٣ ، حسن عباس حسن ، الصياغة المنطقية للفكر السياسى الإسلامى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٤١٠، ماجد عبد المنعم ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٢١، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦١م، ص١٣١.

(٢٨) وعن الجانب الدينى فى الفتوح الإسلامية انظر : ابن الأزرق ، بدائع المسلك فى طبائع الملك ، تحقيق النشار ، ط. بغداد ١٩٧٧م ، جـ١ ، ص ١١٨ ؛ سعداوى ، الدولة العربية الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١١٠ .

(٢٩) تاريخ الدولة العربية ، ت - عبد الهادى أبو ريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٢٣ .

(٣٠) تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤ . وإن كنت لا أوافق المستشرق الألمانى على أن أركان الإسلام الأخرى جاءت فى المرتبة الثانية .

(٣١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٢٩٩هـ ، ص ١٣٤ .

(٣٢) النعمان بن حيون ، المجالس والمسايرات ، ص ٣٦٧ .

(33) Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims, Trans. By Hill, New York 1962, p. 47; Raymond d'Aguiliers, in peters, The First Crusade, The Chronicle of fulcher of charters and other source materials, Pennsylvania 1971, p. 168 .

(٣٤) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدوز ، ط. بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٣٥ .

(٣٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، تحقيق سامى الدهان ، جـ٢ ، ص ١٣٥ .

(٣٦) الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٩ ، وعن سقوط أنطاكيـة انظر أيضًا : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ط. بيروت ١٩٦٦م ، ص ٢٧٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٧٩ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ١٩٥٨م ، ص ١٩٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢١١ ، الغزى . نهر الذهب ، جـ٣ ، ص ٧٦ ، أحمد رضا ، خيبة السياسة الغربية فى الشرق . ت. بورقيبة والصادق . ط. تونس ١٩٧٧م ، ص ٧٩ .

(٣٧) مدينة تقع عند خط عرض (٤٥ و ٣٥) شمالاً وخط طول (٤٠ و ٣٦) شرقًا وهى تبعد شمالاً عن حماه بنحو ٦٣كم٢ وجنوبًا عن حلب بنحو ٨٢كم٢ وتبعد شرقًا عن البحر بنحو (٧٥) كم٢ وعنها انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ليبسك ١٨٦٦م ، جـ٤ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص٤٩؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق محمد حلمى ، جـ٢ ، ص ٢٠١ ، حاشية(٣) ، مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمدانى ، ص٨٥ ، شيخو " من حماه إلى حلب " ، مجلة المشرق العدد (٢٠) السنة (٨) لعام ١٩٠٥م ، ص ٩١٨ - ٩١٩.

(38) Anonymous, The deeds of the franks, p. 79 .

(٣٩) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، السلامى ، مختصر التواريخ ، ورقة (٥٤) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٧٨ .

(٤١) نفسه ، نفس المصدر والصفحة ، ويلاحظ أن ابن العديم يقرر رقمًا مغايرًا لما ذكره ابن الأثير حيث أورد أن عدد ضحايا المذبحة من المسلمين بلغ عشرين ألفًا ، انظر : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٤٢ .

- وعن مذبحة معرة النعمان انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٧٩ ؛ الذهبى ، دول الإسلام، جـ٢ ، ص ٢٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ط. بيروت ١٩٧١م ، ص ٢٠ ؛ الحنبلى ، الأنس الجليل ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، الغزى ، نهر الذهب ، جـ٣ ، ص ٨٠ ؛ Runciman, Vol. I, p. 240 ؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٧ ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٤٥٠ ، حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص ١٥٩ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٩ ، سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ط. الإسكندرية ، ص ٧٩ ؛ جرجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٢٧٧؛ حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٤٥ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ط. القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٩١ ؛ سلاجقة إيران والعراق ، ط. بيروت ١٩٧٠م ، ص ١٠٣ .

(٤٢) عن تلك المذبحة انظر : Anonymous, The deeds of the Franks, p. 91; Fulcher of charters, History of expedition to jerusalem, p. 122. Raymond d'Aghiliers, p. 209, Albert d'Aix,

R.H.C, Hist. occ, T.IV, p. 479; Hagenmeyer Chronlogie de la premiere ;ROL, VII, Année 1899, pp. 477 - 478 ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ ابن ميسر، منتخبات من تاريخ مصر ، R.H.C. Hist. Or. T. III, p. 463 ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ، ص ١٩٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٨٣ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٤٢٧ ؛ الذهبى ، دول الإسلام، جـ٢ ، ص ٢١ ؛ المقريزى . اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٣ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٢١ ؛ ابن كثير ، الاجتهاد فى طلب الجهاد ، ط. القاهرة ١٣٤٧هـ ، ص ١٩ ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ٣ ، ط. حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٨هـ ، ص ١٥٤ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ٩ ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ ، ص ١٠٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٢١ ؛ Parisse “ Godfrey de Bouillin, Le Croise exemplaire” L’Histoire, XLVII, Anne 1982, p. 22. ؛ رانسيمان ، المسيحيون العرب فى فلسطين ، ط. لسكس ١٩٦٨م ، ص ١٤ ، نقولا زيادة ، " سوريا زمن الصليبيين " ، المقتطف م (٢٧) الجزء الثانى عدد يوليو ١٩٣٥م ، ص ١٩٥؛ سعيد عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٤م ، ص ١٠ ، ميخائيل إسكندر ، القدس عبر التاريخ، ط. القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(43) Anonymous, Op.Cit., p. 91 .

(44) Fulcher of Chartres, p. 195 .

(45) Albert d’Aix, p. 479 .

(٤٦)ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٧ .

(٤٧) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

(٤٨)رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٠٥ .

(49) Fulcher of charters, p. 195 .

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، جـ٣ ، ص ٤٤

(٥١) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ١١١ ؛ سالم ، طرابلس الشام ، ص ١٢٠ .

(٥٢) عن سقوط بيروت فى أيدى الصليبيين انظر: Fulcher of Chartres, p. 196; Jacques de Vitry, Hist. Of Jerusalem, pp. 5-6؛ ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن شداد الحلبى، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ١٧٠ ؛ الذهبى، العبر فى خبر من غبر ، جـ٤ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٧ ، ص ١٧٣ ؛ سالم ، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ، ص ٩٩ ؛ بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ٤٨٨ ؛ عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٣١٠ .

(٥٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ .

(54) Jacques de Vitry, op. cit, p. 5-6; Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, p. 255 .

(٥٥) الشدياق ، أخبار الأعيان فى جبل لبنان ، جـ٢ ، ط . بيروت ، ١٩٧٠م ، ص ٥٠٧ .

(56) Runciman, Vol. I, p. 287 .

(٥٧) براور ، عالم الصليبيين ، ت. قاسم عبده وخليفة ، ط. القاهرة ١٩٨١م ، ص ٩٨ ، وعن سياسة الصليبيين السكانية فى مدينة بيت المقدس ، انظر : Prawer, " The Settement of the Latins in Jerusalem" in speculum, Vol. XXVII, pp.490 - 503 .

(٥٨) ابن طولون الصالحى ، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، جـ١ ، ص ٢٦ .

(٥٩) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٢٨ ؛ عبد الحميد زيدان ، القدس الخالدة ، ط. القاهرة، ص ٢٠٠ ؛ عارف العارف ، تاريخ القدس ، ط. القاهرة ، ص ٧٤ ؛ عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٣٣ ؛ جمال الدين الرمادى ، الإسلام فى المشارق والمغارب ، ص ٢٠ .

(٦٠) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٢٨ .

(٦١) ابن جبير ، الرحلة ؛ R.H.C., Hist. Or. T. III, p. 450 ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٦٢) Runsiman., Vol. II, p. 340 ؛ عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية م (١٦) لعام ١٩٦٩م ، ص ٤٥ ؛ بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٧٧م ، ص ٢٠٠ .

(٦٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٩٩ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ، بهامش جـ٩ من الكامل لابن الأثير ، ص ٧١ ؛ الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٠٧ ؛ جوزيف نسيم ، الوحدة وحركات اليقظة ، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١٧ .

(٦٤) عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٦٥) ابن ميسر R.H.C. Hist. Or. T. III, p. 463 .

(٦٦) الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١١٩ .

(٦٧) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٩٩ ؛ شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط. بيروت ١٩٧٢م ، ص ٢٥٩ ؛ ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٩ ؛ العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٩٠ ، ميخائيل إسكندر ، القدس عبر التاريخ ، ص ٥٨ .

(٦٨) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٦٥ .

(٦٩) العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، تحقيق صبيح ، ص ٣٧٨ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٤ ؛ قاسم عبده ، صورة المقاتل الصليبى ، ص ٧ .

(٧٠) ابن أيبك الداوداري ، الدر المطلوب ، ص ١٦٠ ، ص ٣٧٨ .

(٧١) الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، ورقة (٣٣) .

(٧٢) القاضي الفاضل ، إنشاءات القاضي الفاضل ، تحقيق فتحية النبراوي ، ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٧٩.

(٧٣) اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ١٩٣ .

(٧٤) ابن أيبك الدواداري ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٧٥) لامونت ، " الحروب الصليبية والجهاد " ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت. نقولا زيادة وآخرين ، ط. بيروت ١٩٦٠م ، ص ١٠٧ ؛ كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ت. بدر الدين قاسم ، ط. بيروت ١٩٧٣م ، ص ٣١٦ .

(76) King, The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, London, 1930, p. 29 .

(77) Ibid, Op.Cit., p. 29 .

(78) Deschamp, La Defense Du Royaume De Jerusalem. Paris 1939,. T. II, p. 5 .

(79) Ibid., p. 5 .

(٨٠) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٨١) الرحلة ، ص ٢١٠ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ت. سامي هاشم ، ط. بيروت ١٩٨٢م ، ص ٢٧ .

(٨٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص ٣١٥ ؛ أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ، ص ٣٥.

(٨٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٧٠ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٩٨٨ .

(84) Ency. D'Isi., " Seljukides" T. IV, p. 865 Sqq.

(٨٥) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق على سويم ، ط. انقرة ١٩٧٦م ، ص ٦٧ ، ترجمة نظام الملك من بغية الطلب في تاريخ حلب ، نشر سهيل زكار ؛ Beo, XXIV, Annee 1971, p. 231 ؛ سعاد ماهر ، تطور مساجد القاهرة ومدارسها ، الجمعية التاريخية م (١٨) لعام ١٩٧١م ، ص ٥٩ ؛ أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ط. القاهرة ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ١٥٣ ؛ حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ١٥٧ .

(86) Saunders, Aspects of the Crusades, Cambridge 1962. p. 24 .

(٨٧) ابن شداد الحلبي ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٢ - ٣ .

(٨٨) سعاد ماهر ، تطور العمائر الإسلامية الدينية ، ص ٥٩ .

(89) Gibb, " The Carreer of Nur Ad-Din" in , setton, The Crusades, Vol. I, p. 519 .

(٩٠) عن دار الحديث النورية انظر : النعيمى ، الدارس فى تاريخ الدارس ، جـ١ ، ص ٩٩ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ٣٥٦ – ٣٨٧ ؛ ابن طولون الصالحى ، قرة العيون فى أخبار باب جيرون ، تحقيق المنجد، ط. دمشق ١٩٦٤م ، ص ١٧ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة (٦٢) ؛ أسعد طلس، دار الحديث النورية " المقتطف ، العدد (٢) ، م (١٠٤) لعام ١٩٤٤م ، ص ١٣٢ – ١٣٨ ؛ Eliseeff, Les Monuments de Nur Ad-Din" BEO, XII Annees 1949-1951, p. 25.

(٩١) العدوى ، الزيارات ، ص ٤٠ ؛ طنطاوى ، نور الدين الشهيد ، المقتطف جـ٣ م (١٠٩) ١٩٤٦م ، ص ١٢٢ ؛ المنجد ، بيمارستان نور الدين ، ط. دمشق ١٩٤٩م ، ص ٩ .

(٩٢) اليافعى ، مرآة الجنان ، ص ٣٨٦ – ٣٨٧ ؛ عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٥٠ .

(٩٣) ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٣٣ .

(٩٤) وعن نشاط نور الدين محمود فى سبيل تشييد المدارس بالشام يقول ابن القاضى شهبة مؤرخ سيرته "بنى المدارس بدمشق وحمص وحماه وغيرها للشافعية والحنفية حتى أن بلاد الشام كانت خلية من العلم وأهله وفى زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية " انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ١٨٥ ؛ اليافعى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٣٨٦ – ٣٨٧؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٥ ، حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ ؛ أسعد طلس ، مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٦٧ ؛ حسن الباشا ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٥م ، ص ١٠٥ .

(٩٥) طنطاوى ، نور الدين الشهيد ، ص ١٢٢ ؛ عاشور ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٧٤م ، ص ٤ .

(٩٦) ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٢ ؛ العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٥٧٧.

(٩٧) شاكر مصطفى ، آل قدامه والصالحية ، حوليات كلية الآداب ، جامعات الكويت ، الحولية الثالثة ١٩٨٢م ، ص ٣٢ .

(٩٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ٥ ، ص ٤١٥ .

(٩٩) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٥٠ .

(١٠٠) ابن طولون الصالحى ، إعلام الورى فيمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق خطاب، ط. جامعة عين شمس ١٩٧٣م ، ص ٤٣ ؛ سعيد رضا ، المدرسة البادرانية فى دمشق " مجلة كلية الآداب – جامعة البصرة ١٩٨١م ، ص ١١٣ .

(١٠١) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

(١٠٢) الشيرازى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق العرينى ، ط. القاهرة ١٩٤٦م ، ص ١٠٧ ؛ ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق شعبان والمطيعى ، ط. القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٢٧١ – ص ٢٧٣.

(١٠٣) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ١٥٠ ، حاشية (٥).

(١٠٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٤٨ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٥٣ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٣٤ ؛ حسن إبراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٣٢م ، ص ٣١٢ ؛ حسن محمود الشريف ، العالم الإسلامي فى العصر العباسى ، ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٦٣٣ .

(١٠٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان . R.H.C. Hist. or. T. III, p. 428 مرعى المقدسى ، نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب ، ورقة (٣٠) وجه ؛ أحمد فكرى ، خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى " الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - أبريل ١٩٦٧من جـ١ ، ص ١٦٥ ؛ إيرا لابيدوس ، " السياسة الدينية فى عهد الأيوبيين ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - أبريل ١٩٦٧م ، جـ١ ، ص ٢٥٤ ؛ ريسلر ، الحضارة العربية ، ت. عبدون ، ط. القاهرة ، ص ٣٥١ .

(١٠٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٦٣ ؛ النعيمى ، دور القرآن فى دمشق ، ط. دمشق ١٩٤٦م ، ص٧.

(١٠٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٢٤٩ .

(١٠٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٠٥ ، ص ٢٣٢ ؛ حسن الباشا ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٨؛ أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٢ ، ص ١٥٣ .

(١٠٩) حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص١١١؛ زغلول سلام ، الأدب فى العصر المملوكى ، ص ١٠٦ ؛ نقولا زيادة ، دمشق فى عصر المماليك ، ط. بيروت ١٩٦٦م ، ص ٦٩ .

(١١٠) محمد كرد على ، خطط الشام ، ط. دمشق ١٩٣٥م ، ص ٦٨ - ٧٠ ؛ نقولا زيادة ، سوريا زمن الصليبين ، ص ٢٢ .

(١١١) بالتفصيل انظر : ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ص ١٩٩ - ص ٢٢٦ ؛ النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، الجزء الأول والثانى ، ط. دمشق ١٩٤٨م ، أمينة البيطار ، " التعليم فى دمشق فى القرن السادس الهجرى " آداب الرافدين العدد (١١) ١٩٧٩م ، ص ٦٧ .

(١١٢) للمزيد من التفاصيل عن مدارس الشافعية انظر : ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٣ ، من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٥٩ ؛ النعيمى ، الدارس ، جـ١ ، من ص ١٢٩ - ص ٤٧٢ .

(١١٣)عن مدارس الحنفية انظر : ابن شداد ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٩ - ص ٢٢٨ ؛ النعيمى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٧٣ - ص ٦٤٩ .

(١١٤) عن مدارس المالكية انظر : ابن شداد ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ؛ النعيمى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣ - ص ٢٨ .

(١١٥)عن مدارس الحنابلة انظر : ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٩ ؛ النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ٢ ، ص ٢٩ - ص ١٣٨ .

(١١٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١١٧ - ص ١١٨ .

(١١٧) عن هذه الحادثة انظر : ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ص ١٢٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ ، ص ١٣٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ١٨٧ - ص ١٨٨ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١١٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣١٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٢٤٦ .

(١١٨) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٥ ؛ سبط بن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(١١٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٩٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ١٢٢ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٧ ؛ صلاح الدين البحيرى ، عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت - الحولية الثالثة ١٩٨٢م ، ص ٨٥ .

(١٢٠) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٣ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(١٢١) انظر : أبو شامة ، الذيل ، ص ٢١٦ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣ ، ص ١٧٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٢٣٦ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧١ ؛ أحمد القرعى ، سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، ط. القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٤٧ .

(١٢٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٢٩ .

(١٢٣) أحمد بدر ، " الأندلسيون والمغاربة فى القدس " مجلة أوراق ، المعهد الأسبانى العربى ، العدد (٤) ١٩٨١م ، ص ١٣٣ .

(١٢٤) عن ذلك انظر : Ency. D'Isi. " Masjid" T. III, p. 362 Sqq- Tibawi, " Origin and Character of Al-Medrasah" BSOAS, XXV, 1962, p. 229 ؛ حسين مؤنس ، المساجد، ط. الكويت ١٩٨١م، ص ٣٤ ؛ ماجد : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٩٤ - ص ٩٥ .

(١٢٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ١ ، ص ٢١٤ - ص ٢٢٠ (تهذيب دهمان)؛ ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٩١ - ص ١٦٦ ؛ Elisseeff., La Description de Damas d'Ibn' Asakir, Damas 1959, pp. 84 - 139 ، ومن أمثلة مساجد وجوامع بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية المسجد الأموى بدمشق الذى كان مركزاً دينياً مهمًا طوال مرحلة العصر الوسيط وبالذات خلال القرنين السادس والسابع الهجرى / الثانى عشر والثالث عشر الميلادى Sourdel., Nouveaur

Documents sur l'Histoire Religieuse et Sociale de Damas au Moyen Age, REI, XXXII, Annee 1964, pp. 1-3 ؛ (أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣) وكذلك جامع الجبل الذى وجد عند سفح جبل قاسيون المطل على دمشق (ابن عبد الهادى ، ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ، تحقيق أسعد طلس ، ص ٢٠٩) جامع الجراح (ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ٨٨) ، أما مدينة حلب فكان بها جامعها الكبير الذى كان أحسن الجوامع وأجملها (ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٨ ؛ أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٥) أما مدينة حماه فقد اشتهر بها جامع الحسنين (ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٨١ -Elisseeff., Les Mounments de Nur Al-Din, p. 31; Elisseeff, La Tit ualiture, p. 185 ؛ وفى الموصل شيد نور الدين محمود جامعًا كبيراً بها : ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٥ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ ، جـ١ ، ورقة (٦٢).

(١٢٦) صلاح الدين البحيرى ، عالمية الحضارة الإسلامية ، ص ٨٣ .

(١٢٧) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٦٩ ؛ صلاح الدين البحيرى ، عالمية الحضارة الإسلامية ، ص ٨٤ ؛ شاكر مصطفى ، آل قدامة والصالحية ، ص ٤٣ .

(١٢٨) براور ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٩) من الكتب التى ألفت فى هذا المجال ما ألف الشيخ مجد الدين ظاهر بن نصر الحلبى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م) حيث ألف كتابًا عن فضل الجهاد (عواد الأعظمى" تراث العرب الفكرى والعلمى فى فلسطين فى ظل الحكم الإسلامى " ، المؤرخ العربى ، العدد (٢) لعام ١٩٧٥م ، ص ١٦٣) ثم أن الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦م) قد ألف كتابًا فى الجهاد بعنوان " أربعون حديثًا فى الحث على الجهاد " (ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، م١ ، ص ٣٠ ؛ أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى مصر والشام ، ص ١٣٠ ؛ المنجد ، أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب ، ط. بيروت ١٩٦٠م ، ص ١١٣) وتظهر أهمية هذا الكتاب متمثلة فى أن الملك العادل نور الدين محمود قد طلب من مؤلفه " أن يجمع أربعين حديثًا فى الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد ليكون لهم تحضيضًا على الصدق عند اللقاء " (المنجد ، المرجع السابق ، ص ١١٣) ثم أن القاضى بهاء الدين بن شداد قد ألف كتابًا هو الآخر عن الجهاد وفضائله بطلب من السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى (ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ ، ص ١٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٨٨ ؛ العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٠٠ ؛ صلاح الدين البحيرى ، المرجع السابق ، ص ٨٦ ؛ سعداوى، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٦٢م ، ص ١٦؛ أحمد بدوى ، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٣٧) ثم هناك أيضًا ما ألفه محمود بن محمد بن صيفى قام بإهدائه إلى الأشرف موسى وكذلك فإن ابن الأثير شارك فى هذا المجال بمؤلف فى الجهاد ، أما أبو العوالى فقد ألف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتابًا فى نفس المجال وانتهى من تأليفه عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م (انظر : أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٥٣٧) .

(١٣٠) سورة الإسراء ، رقم (١٧) ، آية (١) . وبشأنها يذكر المنهاجى السيوطى " لو لم يكن لبيت المقدس من الفضيلة غير هذه الآية لكانت كافية وبجميع البركات وافية " انظر : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، ص ٩٥ ؛ ابن عبد الهادى ، فضائل الشام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٩ " تاريخ ، ورقة (١) ، السائح ، مكانة القدس فى الإسلام ، ط. عمان ١٩٦٨م ، ص ١٨ - ١٩ ، الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

(١٣١) الزركشى ، أعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق المراغى ، ط. القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٢٩٢ ؛ القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٥٩ ؛ الواسطى ، فضائل البيت المقدس ، تحقيق إسحق حسون ، الجامعة العبرية ، القدس ١٩٧٩م ، ص ٥٠ - ٥١ .

(١٣٢) مثلاً : عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله (ص) " صلاة فى مسجدى خير من ألف صلاة سواه من المساجد إلا المسجد الأقصى رواه أحمد ورواته رواه الصحيح ، انظر : المنذرى ، الترغيب والترهيب ، ط. القاهرة ، ب-ت ، جـ٢ ، ص ١٣٨ . وعن أم حكيم بنت أبى أمية بن الأخنس عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله (ص) قال " من أهل بعمرة من بيت المقدس غفر له " رواه ابن ماجد بإسناد صحيح ، المنذرى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(١٣٣) الترمذى ، صحيح الترمذى ، ط. تحقيق جبرائيل جبور ، ط. بيروت ١٩٨٠م ، ص ٩٦ .

(١٣٤) ويلاحظ وجود العديد من المؤلفات فى هذا المجال قبل عصر الحروب الصليبية وبعده من أمثلة ذلك ما ألفه الواسطى (ت القرن ٥ هـ / ١١م) تحت عنوان فضائل بيت المقدس وقد قام بتحقيقه إسحق حسون، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية بالجامعة العبرية بالقدس ، ط. القدس ١٩٧٩م ، ثم ما ألفه الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) فى صورة رسالة في فضائل بيت المقدس وهى مخطوطة بالجامعة العبرية بالقدس ، انظر الواسطى ، المصدر السابق ، ثبت المصادر ، ص ١٢٠ . ثم هناك ما ألفه القاسم بن عساكر (ت ٦٦٠هـ / ١٢٠٣م) وهو ابن مؤرخ مدينة دمشق الشهير (ت٥٧١هـ / ١١٧٦م) عنه انظر : (الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٠٧ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ٥ ، ص ١٤٨؛ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، جـ٦ ، ص ٧٤) تحت عنوان : فضائل القدس الشريف ، ثم أبو سعد نظام الدين بن عساكر (ت٦٤٥هـ / ١٢٤٧م) تحت عنوان فضائل القدس (انظر : بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٦ ، ص ٧٤) ، ثم هناك ما ألفه عبد الله بن هشام (ت٧٦١هـ / ١٣٥٩م) تحت عنوان " تحصيل الأنس لزائر القدس " وهو نسخة مكتوبة عام ٩٠١هـ / ١٤٩٥م ضمن مجموعة برقم ن ١٣٥١ ل بمكتبة الإسكندرية انظر : عبد البديع لطفى ، فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية ، جـ٢ ، ص ٨٠ . وعن المخطوطات الأخرى التى تناولت فضائل القدس انظر : لطفى عبد البديع ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ - ٢٢٨ . وانظر أيضًا : الدراسة البيلوجرافية الممتازة التى قام بها الراحل الدكتور كامل جميل العسلى عن المخطوطات المتعلقة بفضائل القدس تناول توزيعاتها وأماكن وجودها فى المكتبات العالمية وقد تمكن من رصد نحو تسعة وأربعين كتابًا ورسالة عن فضائل القدس من القرن الثالث هـ حتى القرن الرابع عشر هـ انظر : كامل جميل العسلى ، مخطوطات فضائل بيت المقدس ، دراسة وبيليوجرافيا ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردنى ، عمان ١٩٨٣م ، وأود الإشادة بالجهد المبذول فى هذا الكتاب على نحو خاص .

(١٣٥) انظر : الجوينى ، شفاء الغليل فى بيان ما دخل من التوراة والإنجيل من تبديل ، تحقيق حجازى السقا، ط. القاهرة ١٩٧٨م.

(١٣٦) قام جوتيل Gotteil بنشر الكتاب فى باريس عام ١٩٢١م.

(١٣٧) من أمثلة ذلك ما ألفه الخزرجي القرطبى (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م) بين الإسلام والمسيحية ، تحقيق محمد شامة ، ط. القاهرة ١٩٧٣م ، الإمام القرطبى (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م) الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والوهام ، تحقيق حجازى السقا ، الجزء الأول ، ط. القاهرة ١٩٨٠م وأيضًا القرافى (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) وله كتاب " الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاجرة ، انظر تقديم حجازى لكتاب القرطبى السالف الذكر . ثم الخطيب السكندرى (ت القرن ٧ هـ / ١٣م) وله كتاب أدلة الوحدانية فى الرد على الملة النصرانية ، تحقيق خليل الحاج ، ط. القاهرة ١٩٨١م ، أيضًا ، الإمام البوصيرى (ت حوالى ٦٩٥هـ / ١٢٩٥- ١٢٩٦م) وله منظومة الإمام البوصيرى فى الرد على النصارى واليهود " فيما بعد ألف ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧م) كتاب الجواب الصحيح لمن يدل دين المسيح وقد دافع فيه عن الإسلام ويعتبر أكبر ما ألف شيخ الإسلام . وألف بعده تلميذه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥٠هـ / ١٢٤٩م) كتاب " هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى " ، ط. القاهرة ب - ت .

(١٣٨) جمال الدين الرمادى ، صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٨٥ .

(١٣٩) إبراهيم أبو خشب ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، ط. القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٤٢٣ ؛ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٩٤ ؛ سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ، ط. القاهرة ، ص ٥٤ .

(١٤٠) عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٩م ، ص ٢١٤ . ابن نباتة ، هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقى كان من أهل ميافارقين واجتمع فى حلب بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة الحمدانى وارتبط ذكره بالخطب العديدة التى برز بها فى خلال ذلك العهد وكان لخطبه أعظم الأثر فى نفوس المسلمين ، وقد توفى فى عام ٣٧٤هـ / ٩٨٤م عنه انظر : الذهبى ، دول الإسلام ، جـ١ ، ص ٢٣٠؛ عبد اللطيف حمزه ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ ؛ عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى ، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م ، ص ١٧٢ ، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣٣؛ آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع هـ . ت . عبد الهادى أبو ريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٧م ، جـ٢ ، ص ٩٤ ، ويلاحظ أن ديوان ابن نباتة طبع فى بيروت عام ١٣١١هـ .

(١٤١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .

(١٤٢) عن هذه الخطبة انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ٢٩١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ٢، ص ١٨٠ ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ١؛ طرخان ، الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ، ص ١٠٦ - ص ١٠٧ ؛ عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، ص ٢٠٦ ؛ سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ، ص ٥٤ .

(١٤٣) عبد اللطيف حمزة ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(١٤٤) أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

(١٤٥) على جواد الطاهر ، الشاعر فى المجتمع السلجوقى ، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد ، العدد (٣) ١٩٦١م ، ص ٦٠ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٩٥.

(١٤٦) العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٥٧٧ .

(١٤٧) الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٧٠ ؛ جمال الدين الرمادى ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ٨٥ .

(١٤٨) عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، ص ١٩ .

(١٤٩)ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١٥٠) ناظم رشيد ، " النشاط العلمى والأدبى فى عهد الأسرة الأيوبية " ، مجلة آداب الرافدين ، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م ، ص ٩٥٢ .

(١٥١) الهروى ، كتاب التذكرة الهروية فى الحيل الحربية ، نشر ، Janine Sourdel., Thomine BEO, XVII, Annees 1961-1962, p. 16 .

(١٥٢)كتب الأبيوردى فى العديد من المجالات الشعرية ، وتوفى عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م ، عنه انظر : ممدوح حقى ، الأبيوردى ممثل القرن الخامس ، ط. دمشق ب - ت ، من ص ٥٥ ، ص ٨٨ .

(١٥٣) عن قصيدته انظر : ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ٩ ، ص ١٠٨ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ؛ محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين ، ص ٢٠٣ .

(١٥٤) ابن منير الطرابلسى ، ولد هذا الشاعر فى عام ٤٩٣هـ / ١١٠٠م بطرابلس مع مطلع الاستقرار الصليبى فى بلاد الشام ولا ريب فى أن ذلك كان له أثره فى شعره وقد حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية والأدب فى طرابلس قبل أن يغادرها إلى دمشق خلال حصار الصليبيين للمدينة وقد تنقل بين العديد من الدن الشامية مثل دمشق وحلب وشيزر وحماه وتوفى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٤م . عن مصادر ترجمته انظر : ابن القلانسى ، ذيل دمشق ، ص ٣٢٢ ؛ العماد الأصفهانى ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الخاص بشعراء الشام ، الجزء الأول ، تحقيق شكرى فيصل ، ط. دمشق ١٩٥٥م ؛ الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص ١٣١ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢١٧ ؛ اليافعى، مرآة الجنان، جـ٣ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص ٧٧ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص ٧٥ ، حاشية (٢) ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص ١٤٦؛ الهرفى : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٥٥ - ص ٢٦٠؛ كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ٢ ، ص ١٨٤؛ عمر عبد السلام تدمرى ، " دار العلم فى طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجرى " مجلة عالم الفكر م (١٢) ، ط. الكويت ١٩٨١م ، ص ٢٧٩ ؛ عمر موسى

باشا ، أدب الدول المتتابعة ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٨٦ ؛ هادى نهر ، معارك نور الدين زنكى فى شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٩م ، ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(١٥٥) الهرفى ، شعر الجهاد ، ص ٢٨٥ .

(١٥٦) ابن القيسرانى ، هو أبو عبد الله محمد بن نصر القيسرانى ولد فى مدينة عكا عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م وقد غادرها فى حداثة سنه إلى مدينة قيسارية ونشأ فى هذه المدينة الأخيرة ونسب إليها وتركها بعد استيلاء الصليبيين عليها وارتحل إلى دمشق حيث تتلمذ على يد ابن الخياط واتصل بكبار رجال الدولة وقال أشعاراً فى امتداح القائمين بأمر الجهاد من قادة المسلمين ، عنه وعن مصادر وترجمته انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٥٨ - ص ٤٦١؛ ياقوت ، إرشاد الأريب ، جـ١٩ ، ص ٩٤ ؛ الذهبى ، العبر ، جـ٥ ، ص ١٣٣ ؛ العماد الأصفهانى ، خريدة القصر ، جـ١ ، ص ٩٦ - ص ١٠٦ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢١٣ ؛ الصفدى، الوافى بالوفيات ، جـ٥ ، ص ١١٢؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٧٥ ، حاشية (١) ، هادى نهر ، معارك نور الدين زنكى ، ص ٢٠٣ - ص ٢٠٥ . ومن أمثلة أشعاره انظر : أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ٣٤ ؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٨ .

(١٥٧) أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ٣٤ .

(١٥٨) هو أبو الندى حسان بن نمير ، ولد فى مدينة دمشق عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣م وقد وصفه العماد الكاتب الأصفهانى بقوله أنه كان " حلو المنادمة لطيف النادرة معاشراً للأمراء شاعراً مستطرف الهجاء " وقد ارتبط بعلاقات صداقة بالأمراء الأيوبيين من قبل أن يتملكوا مصر . عنه انظر : العماد الأصفهانى، خريدة القصر، جـ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٦٤ ؛ ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ١٤٤ .

(١٥٩) العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٧٨ .

(١٦٠) نفسه ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

(١٦١) كان من أصحاب الحديث وعاصر العماد الأصفهانى وذكر الأخير أنه قابله فى دمشق وتنقل فى بعض الأسفار ، فسافر إلى بغداد عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ثم عاد إلى دمشق ورحل إلى خراسان على طريق آذربيجان ، عنه ، العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٤ .

(١٦٢) نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

(١٦٣) نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٧ .

(١٦٤) نفسه ، نفس الجزء ، ٢٤٢ .

(١٦٥) الهرفى ، شعر الجهاد ، ص ٣٠٨ .

(١٦٦) نفسه .

(١٦٧) هو على بن رستم بن هردوز ، كان خراسانى الأصل وقد عُرف بابن الساعاتى وذلك لأن والده عندما قدم إلى الشام عرف عنه اشتغاله بصناعة الساعات وقد أمضى الشطر الأكبر من حياته فى دمشق ثم

انتقل بعد ذلك إلى مصر وتوفى بها بعد أن اقترب من الخمسين عامًا من العمر . عن ترجمته انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٣٦٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٥٩ ؛ ابن سعيد الأندلسى ، الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق الإبيارى ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٧٨ – ١٨٦؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ١٣ ؛ أحمد بدوى ، الحياة الأدبية ، ص ١٨٩ ، حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ٢٤١ ، حاشية (٨) ، تقديم أنيس المقدسى لديوان ابن الساعاتى ، ط. بيروت ١٩٣٨م ، ص ١٥ – ٨٨ ، أحمد بدوى ، مأمون بنى أيوب ، ص ٦٢ – ٦٣ .

(١٦٨) أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩٢.

(١٦٩) نفسه ، ص ١٩٣ .

(١٧٠) هو هبة الله القاضى السعيد بن جعفر بن سناء الملك وكان من أساتذته ابن برى الذى قرأ عليه النحو وكذلك السلفى الذى أخذ عنه الحديث ، من مؤلفاته كتاب روح الحيوان وهو اختصار لكتاب الحيوان للجاحظ وكذلك مختارات من شعر ابن رشيق القيروان وكتاب دار الطراز فى فن الموشحات وكتاب مساعد الشوارد ، عنه انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ . ص ٥٩ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ٣٥ ، أيضًا تقديم محمد إبراهيم نصر لديوان ابن سناء الملك المنشور فى القاهرة ١٩٦٨م ، جـ١ ، الباب الثانى من ص ٤٣ – ٥٥ ؛ أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٩٧.

(١٧١) انظر : محمد إبراهيم نصر ، ابن سناء الملك حياته وشعره ، ص ٦١ ، ومن أشعاره الأخرى فى مدح صلاح الدين الأيوبى ، انظر : ديوان ابن سناء الملك ، جـ٢ ، ص ١ – ص ٤ .

(١٧٢) هو الشهاب محمود بن سلمان بن فهد الحلبى ثم الدمشقى ، وقد ولد فى حلب عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ونشأ فى مدينة دمشق حيث تلقى فيها العلوم الدينية واللغوية وقد تولى العمل فى ديوان الإنشاء فى مدينة دمشق ثم فى مصر وفى مرحلة من مراحل حياته تولى كتابة السر بمدينة دمشق عن ترجمته انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٩ ، ص ١٢٠ ؛ النعيمى ، الدارس ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص ٢٦٤ ، كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ١٢ ، ص ١٦٧ ، الهرفى ، شعر الجهاد ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، جـ٥ ، ص ٤٩ – ٥٠ ، محمود مصطفى، الأدب العربى فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ٢٨٢ .

(١٧٣) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ١٣ ، ص ٣١٣ ؛ الهرفى ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

(١٧٤) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٩ .

(١٧٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ١٨٥ .

(١٧٦) الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٨٣ .

(١٧٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٨٥ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن خلدون، العبر ، جـ٥ ، ص ٢٥٣ ، العدوى ، الزيارات ، ص ٤٠ ؛ ابن بهادر ، فتوح النصر ، جـ١ ، ورقة (٣) ، ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٦٠ - ١٦١ ، عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس، ص ١٥٠ ، طنطاوى ، نور الدين الشهيد ، ص ١١٦؛ أنور الجندى ، من أعلام الإسلام ، ط. القاهرة ، ص ٨٩ ؛ Baldwin., " The Latin States Under Baldwin III" in setton. the Crusades, Vol.I. po. 531, Mayer, The Crusades, English Trans., Oxford 1972, p. 124; Boase, Kingdoms and Strongholds of The Crusades, London, 1971, p. 109 .

(١٧٨) الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة (٦٢) ، ويلاحظ أن الجانب الدينى فى شخصية نور الدين محمود جعلت عامة المسلمين يدركون فيه هذه الناحية بل أنهم اعتقدوا أن الدعاء عند قبرة أمر مستجاب. عن هذه الإشارة انظر الحنبلى ، الأنس الجليل ، جـ١ ، ص ٣٩٥ .

(١٧٩) باللاتينية "Princesps Justus et prividus et secundum gentis suae Traditiones religious"، انظر : حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ط. القاهرة ١٩٤٨ ؛ William of Tyre, Vol. II, p. 364؛ ويذكر ابن قاضى شهبة مؤرخ سيرة نور الدين محمود أن الفرنج قد اعتقدوا أن ذلك القسم بن القسيم له مع الله سر ، انظر : الكواكب الدرية .

(١٨٠) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٧ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ١١٤ - ص ١١٧؛ الحركة الصليبية ، جـ٣ ، ص ٩١٦ ؛ محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، ط. القاهرة ، ص ١٣٨ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٤ ، العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٠٠ ؛ جمال الدين الرمادى ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ٦٠ ، ص ٩٧ ، عبد الله علوان ، صلاح الدين الأيوبى ، ط. بيروت ١٩٨٣م ، ص ١٤٢ .

(١٨١) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٧ ؛ عاشور ؛ الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٩١١ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ جمال الدين الرمادى ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(١٨٢) لين بول ، سيرة القاهرة ، ت . حسن إبراهيم وزميلاه ، ط. القاهرة ب - ت ، ص ١٥٨ .

(١٨٣) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٨٤) ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص ٢٨٥ .

(١٨٥) محمد الشيخ ، الإمارات العربية ، ص ٢٤١ .

(١٨٦) ابن ميسر ، منتخبات من تاريخ مصر ؛ R.H.C. Hist. Or. T. III, p. 46 ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص ٣٨ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٣؛ نقولا زيادة ، سوريا زمن الصليبيين ، ص ١٧٠ ؛ أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص ٤٤ ؛ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيين ، ص ١٣ ؛ سالم ، " طرابلس الشام " ، حوليات كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، لعام ١٩٦٢م ، ص ٥٥ .

(١٨٧) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ الذهبى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن العديم، بغية الطلب ، تحقيق سويم ، ص ٥٩ ؛ فريد عبد القادر ، موقف أتابكية دمشق من الغزو الصليبى لبلاد الشام ، مجلة آداب الرافدين ، لعام ١٩٧٩م ، ص ١٢ ؛ محمد الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٣٧١ – ص ٣٧٢ .

(١٨٨)لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١٠ .

(١٨٩) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ت . الخشاب ، ط. القاهرة ١٩٤٥م ، ص ١٠ .

(١٩٠) نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

(١٩١) Smail, Crusading Warfare, London 1967, p. 21 ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٦٠ ؛ محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ، ص ٢٠٧ .

(١٩٢) عاشور ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٦٠ .

(١٩٣) محمد الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(١٩٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن الجوزى، المنتظم ، جـ٩ ، ص ١٦٥ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ١٧٣ ؛ Cahen, " The Turkish Invasion " in Setton The Crusades, Vol. I, p. 173, Stevenson, The Crusaders in the east, Beirut, 1963, p. 91 . ؛ عبد العزيز عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٦٩ ؛ عبد الغنى إبراهيم رمضان ، " شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة " مجلة كلية الآداب – جامعة الرياض م (٤) السنة (٤) ، ص ١٣٩؛ نقولا زيادة ، سوريا زمن الصليبيين ، ص ١٣ ، العرينى ، الشرق الأوسط ، ص ٤٥٧ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص ١٠٦ ؛ الغزى ، نهر الذهب ، جـ٣ ، ص ٨١ ؛ وعن الخليفة العباسى المستظهر انظر : ابن الجوزى ، كتاب المصباح المضىء فى خلافة المستضىء ، مخطوط بدار الكتب ، ورقة (٣١٨) ؛ ابن حبيب ، كتاب جهينة الأخبار فى أسماء الخلفاء وملوك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب ، ورقة (٣٤) .

(١٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٣٩ ؛ Cahen, La Syrie, pp. 256 - 261; Runciman, Vol. II, p. 181 .

(١٩٦) الرها ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام قد امتدت من مرعش إلى منبج وقد كانت مجاورة لمدينة الموصل ووقعت فى أعالى الفرات ، واعتبرت إمارة الرها حاجزة بين الأتراك فى إيران وأتراك آسيا الصغرى ، عنها انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٨٧٦؛ أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٥١. ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ٢٥ ، حاشية (٣) ؛ Eucherius, Description of Jerusalem, PPTS, vol. II, p. 19; Silvia of Aquitania, Pil-

grimage to The Holy places PPTS, Vol. I, pp. 34 - 35 ؛ يوسف البغدادى ، " الرها " ، مجلة المشرق العدد (٤) السنة (٨) لعام ١٩٠٥م ، ص ١٧١ ؛ زبيدة عطا ، الترك ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٩١ ؛ شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص ١٤٧ .

(١٩٧) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٩ ، عن حملة مودود على الرها انظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٧ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٣١٦ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ص ١٤٠ ؛ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيين ، ص ١٣ ؛ Saunders, Medieval Islam, London, p. 161 .

(١٩٨)ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٥٩ .

(١٩٩) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٥٩ ، يقول: "جرت منه أمور غير محمودة فى قتال الفرنج " ابن العديم ، بغية الطلب ، تحقيق سويم ، ص ١٤٩؛ Cahen, The Turkish invasion, p. 174 .

(٢٠٠) طبرية ، بليدة تطل على بحيرة طبرية وتقع فى طرف جبل ويطل عليها جبل الطور وبينها وبين دمشق أيام ونفس المسافة – كما حددها الجغرافيون المسلمون – بينها وبين القدس وبينها وبين عكا مسيرة يومين عنها انظر : أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٨ ، حاشية (٥) ؛ Le Strange, Palestine under Islam, London 1890, pp. 334-341 .

(٢٠١) عن حملة مودود وصراعه مع الصليبيين عند طبرية انظر : Fulcher of Chartres, The expedition to Jerusalem, p. 206 ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٨ – ١٩ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٣٤ – ٣٥ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٣٠ ؛ شاكر مصطفى ، " طغتكين رأس الأسرة البورية " مجلة كلية الآداب – جامعة الكويت ، العدد (٢) ديسمبر ١٩٧٢م ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢٠٢) شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢٠٣) نفسه ، نفس الصفحة .

(٢٠٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٩ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠ .

(205) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, p. 88 .

(٢٠٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٦ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٣٥ ؛ عبد العزيز رمضان ، شرف الدين مودود ، ص ١٤٥ .

(207) Fulcher of Charters, Hist. Of The expedition to Jerusalem, p. 206 .

وعن المعركة انظر أيضًا : عصام الدين عبد الرءوف ، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ص ١٤٤ -- ١٤٥ .

(٢٠٨) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٧ ؛ ابن العديم ، بغية الطالب ، تحقيق على سويم ، ص ١٦١ .

(٢٠٩) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ٨٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٣١٩ .

(٢١٠) عبد الغنى رمضان ، شرف الدين مودود ، ص ١٥٠ .

(٢١١) نفسه ، نفس الصفحة ، السلاجقة والصليبيون من موقعة ملازجرد حتى سقوط الرها ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٧م ، ص ٩٢ - ٩٦ .

(٢١٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٣٢٢ .

(٢١٣) مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢ .

(214)Stevenson, The Crusaders in the east, p. 87 .

(٢١٥) انظر نص ما ذكره ساوندرز : " Mawdud is The first Leader of the Muslim revenge", Saunders, Hist. of Medieval Islam, p. 161 .

(٢١٦) عن نشاط إيلغازى انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٧ وما بعدها ؛ ابن الأثير ، الباهر، ص ١٩ - ص ٢٠ ؛ الكامل ، جـ٨ ، ص ٣٠٢ - ص ٣٠٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٨٥ - ص ٢٠٦ ؛ Gibb, Zengi and fall of Eedessa , in setton, the Crusades, Vol. I, p. 491 ؛ لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١ . وأيضًا عن بلدوين الثانى انظر هذه الدراسة الممتازة ، صفاء عثمان ، مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١) رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس عام ٢٠٠٥م.

(٢١٧)عن دور أقنسقر البرسقى انظر : ابن الأثير ، ص ١٩ ؛ ابن العديم ، منتخبات من بغية الطلب ؛ R.H.C. Hist. Or. T. III, pp. 716 - 727 .' Fulcher of chartres, The Expedition to jerusalem, p. 276 .

(٢١٨) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٢١٩) انظر ترجمته عند ابن العديم ، بغية الطلب ، تحقيق على سويم ، ص ٢٥١ - ص ٢٧٢ .

(٢٢٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ؛ ابن الأثير ، الباهر، ص ٦٨ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص ٩٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ٩٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٤١ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، تحقيق سويم ، ص ٢٧٢ ؛ زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٧٨ - ص ٢٧٩ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ط. القاهرة ١٩٠٠م ، ص ١٨٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٩ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٥٧ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ١٧٥ ؛ عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ص ٣١٦ - ص ٣١٧ ؛ العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، ط. تونس ١٩٥٤م ، ص ٤٥ ؛ Gibb, Zengi and the Fall of Edessa, p. 461, Cahen, La Syrie de nord, pp. 360 - 371.

(٢٢١) لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١٣ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٢ .

(٢٢٢) لامونت ، المرجع السابق ، ص ١١٢ ؛ انظر رواية ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٧٩ ؛ أيضًا رواية مشابهة لدى ابن العديم ، بغية الطلب ، تحقيق عى سويم ، ص ٢٥٩ ، ص ٢٦١ .

(٢٢٣) لامونت ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢٢٤) نفسه ، ص ١١٢ .

(٢٢٥) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٤٦ - ص ١٤٧ .

(٢٢٦) شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص ١٠٨ .

(٢٢٧) ابن الأثير ، الباهر ، ص ٣٧ .

(٢٢٨) نفسه ، نفس الصفحة ، حيث يقول " شهد معه حروبه " .

(٢٢٩) لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١٠ ؛ Grousset, Hist. Des Crois. T. I, p. 465 ؛ العرينى ، الشرق الأوسط ، ص ٤١٠ .

(٢٣٠) ناصر النقشبندى ، الدينار الأتابكى ، ص ٢٣٢ .

(231) Ency., de L.Ist. Nur Ad-Din, T.II, p. 1023 Sqq .

(٢٣٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ١٨٤؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ١٦٠ - ١٦١ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٠ ؛ William of Tyre, Vol. II, p. 225 ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٦٥ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٨ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ ؛ سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ص ١٧٧ ؛ Baldwin, The Latin states under Baldwin III and Amalric in setton, The Crusades, Vol. I, p.538; kerr, The Crusades, p. 46; Parker, Hist. of Palestine, p. 128 .

(٢٣٣) لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٠٨ .

(234) William of Tyre, Vol. II, p. 225 .

(٢٣٥)العرينى ، العالم العربى فى دور الجهاد ضمن كتاب العالم العربى ، ط. القاهرة ، ١٩؟؟ ، ص ٥٣ .

(٢٣٦) باركر ؛ المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(237) Baldwin, The Latin States under Baldwin III and AmalricI, p. 532.

(٢٣٨) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٥٤ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٩ .

(٢٣٩) لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١٤ .

(٢٤٠) نفسه ، ص ١١٣ .

(٢٤١) نفسه ، ص ١١٤ .

(٢٤٢) عن عناصر المتطوعة ودورهم خلال عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٧٨ ؛ الباهر ، ص ١٩١ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢٥٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص ١١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ١٣٧ ؛ حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٣٨٢، ص ٣٨٣ ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٩٨ - ص ١٩٩ ؛ سعداوى ، جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٥٩م ، ص ١٤ - ١٧ ، جب ، دراسات فى حضارة الإسلام ، ص ١٠٩ ؛ فاير نجيب ، فن الحرب واقتال لدى الصليبيين والمسلمين فى الشرق الأدنى ، ص ١٠١ ؛ وانظر الإشارة المهمة الخاصة بهم فى جب ، صلاح الدين الأيوبى ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ت. يوسف أيبش ،ط . بيروت ١٩٧٣م، ص ١٧٥ .

(٢٤٣) R.H.C. Hist. Or. T. III. p. 448 ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص ٢٨٠ ؛ عبد الهادى التازى، بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٧٤م ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ ؛ سالم ، طرابلس الشام ، ص ٢٤٩ ؛ زكى حسن ، الرحالة المسلمون ، ص ٨٤ ؛ سعداوى، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٢١ ، حاشية (٢) .

(٢٤٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤١؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٦٢ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٥٥؛ عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٦٠ ؛ جوزيف نسيم لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ط. القاهرة ١٩٥٩م ، ص ٢٤ ؛ عاشور ، مصر والشام وزعامة العالم العربى (١٢٥٠-١٥١٧م) ضمن كتاب العالم العربى ، ص ٦١ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ط. بيروت ١٩٦٩م ، ص ٨٤ ؛ لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٢٠.

(٢٤٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١١٧ - ص ١٧٩ ؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٤ ؛ . Ency. De Lisl. Hittin T.II, p. 308

(٢٤٦) أبو شامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص ٩٢ ؛ العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٤٧ .

(٢٤٧) عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط. القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص ١٩٦ .

(٢٤٨) مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص ٣٧٠ .

249) Ency. De Lisl. Al-Bahriyya 2nd, Y. I, p. 973 .

(٢٥٠) للمزيد من التفاصيل انظر ، ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٩ - ص ١١٢؛ أبو الفداء المختصر ، جـ٣ ، ص ٢١٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٥١ .

(٢٥١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٨ ، ص ٢١٤ وما بعدها ، انظر أيضًا قايد عاشور العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، ط. القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٧٥ -

٧٨ ؛ حياة الحجى ، العلاقات بين المماليك ودولة مغول القفجاق ، ط. الكويت ، ص ١١ - ص ١٣؛ محمود إبراهيم شلبية ، علاقات المغول بسلطنة المماليك فى مصر والشام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ب-ت ، ص ٥١ ؛ عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٨٩ - ص ٩٢ ؛ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٦٣ .

(٢٥٢) إسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ، ط. بيروت ، ب - ت ، ص ٦١ .

(٢٥٣) عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٦٣ .

(٢٥٤) نفسه ، نفس الصفحة .

(٢٥٥) دريد عبد القادر ، " سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية فى بلاد الشام " ، مجلة آداب الرافدين ، العدد (٩) ، لعام ١٩٧٨م ، ص ٤٤ .

(٢٥٦) ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ،و ص ٣٠٧ - ٣١٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٥٦٨ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢٥٧) عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٥٩ .

(٢٥٨) ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ص ١٢٢ .

(٢٥٩) بيبرس الدوادارى ، زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .



(٢)

الحملة الصليبية النرويجية

الملك سيجورد Sigurd ودوره فى دعم الحركة الصليبية

(١١٠٧ - ١١١٠م / ٥٠١ - ٥٠٤هـ)

يتناول هذا الفصل بالدراسة : الحملة الصليبية النرويجية والدور الذى قام به النرويجى سيجورد Sigurd فى دعم المشروع الصليبى فى العقد الأول من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى خلال المرحلة الممتدة من ١١٠٧ - ١١١٠م / ٥٠١ - ٥٠٤هـ) ويتعرض إلى التعريف بسكان شبه جزيرة اسكنديناوه واعتناقهم المسيحية ، وكذلك التعريف بذلك الملك النرويجى فى أقصى شمال غرب أوروبا حتى وصوله إلى بلاد الشام ، ثم أوضاع مملكة بيت المقدس الفرنجية الصليبية عندما وصلت إليها الحملة الصليبية النرويجية بقيادته ، والدور الذى قامت به من أجل دعم الوجود الفرنجى الصليبى فى المنطقة على حساب القوى الإسلامية.

والجدير بالذكر : أن الحملة الصليبية النرويجية لم تحظ باهتمام كبير من جانب الباحثين ولم يتم تناولها إلا من خلال عرض سريع ، وموجز للغاية ضمن أحداث عهد الملك الصليبى بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م / ٤٩٤ - ٥١٢هـ) على الرغم من أهميتها فى الكشف عن حقيقة ارتباط الوجود الفرنجى الصليبى فى بلاد الشام بالقوى السياسية فى الغرب الأوروبى التى دعمت ذلك الكيان الدخيل على المنطقة من أجل تثبيت أقدامه ، وإطالة عمره هناك خاصة خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الوجود الصليبى . ومن جهة أخرى ، فإن دراسة تلك الحملة تتطلب مطالعة المصادر التاريخية النرويجية وكذلك مؤلفات المؤرخين الصليبيين فى بلاد الشام وفى أوروبا الذين أرخوا لها ، ثم مطالعة المصادر التاريخية العربية من أجل إيجاد تصور ما عن حقيقة ذلك الدعم النرويجى للحركة الصليبية .

والجدير بالذكر ، أن الفيكنج Vikings أو الشماليين أو النورثمن Northmen هم العناصر التى استقرت فى شبه جزيرة اسكنديناوه (السويد - النرويج - الدنمارك) ويلاحظ أن كلمة

Vikings ذاتها تعنى فى أصلها اللغوى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى ظاهرة جغرافية فعالة ومؤثرة ، امتازت بها شواطئ المناطق الواقعة فى شمال غرب أوروبا[١] .

وفى أخريات القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى حدثت موجة هجرة كبيرة لعناصرهم، وذلك من جراء تزايد كبير فى أعداد السكان فى بلاد عانت بشدة من نقص الموارد ، واتجه الفلاحون الذين لم تكن لهم أراضى وكذلك النبلاء إلى البحر من أجل إشباع احتياجاتهم للحياة وروح المغامرة ، وهكذا قاموا بعمليات كبيرة للسلب والنهب[٢] وقد امتدت إغاراتهم لتشمل سهول شرق أوروبا ، والبحر الأسود حتى إنجلترا ، وأيرلندا ، والجزر الواقعة إلى الشمال من المحيط الأطلنطى ، كما شملت مناطق فى ألمانيا ، وفرنسا ، وأسبانيا [٣]، وقد أدى اتساع نطاق إغاراتهم وتحركاتهم البحرية إلى أن عدهم أحد المؤرخين أكبر شعب بحرى عرفته القارة الأوروبية فى مرحلة العصور الوسطى [٤].

أما عن انتشار المسيحية فى صفوفهم ، فكان ذلك منذ القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى ، وظهر فى هذا المجال عدد من المنصرين مثل القديس أنسكر St.Ansker (ت ٨٦٥ م / ٢٥٧هـ) الذى جعل مجال نشاطه فى الدانمارك[٥] ثم هناك القديس أولاف St.Olaf (ت ١٠٣٠م / ٤٢٤هـ) وقد ارتبط اسمه بتنصير النرويج [٦]، وأخيراً نذكر القديس سجفريد St. Sigfrid (١٠٤٥م / ٤٣٩هـ) ، الذى اهتم بتنصير السويد [٧].

ويعنينا فى المقام الأول تنصير النرويج لتغدو من بعد ذلك قوة مسيحية تشارك فى المشروع الصليبى ، وفى هذا المجال يظهر دور كل من أولاف الأول تريجفاسون Olaf I Tryggvason الذى حكم النرويج خلال المرحلة من ٩٩٥ - ١٠٠٠م [٨]. ثم أولاف الثانى هارالديسون Olaf II Haraldison وهو نفسه القديس أولاف الذى حكم النرويج فى المرحلة من ١٠١٦ - ١٠٣٠م ، ونجد أنه فى عام ١٠٠٠م قرر البرلمان الأيسلندى تقبل المسيحية وذلك على الرغم من معارضة العناصر الوثنية ، وإذا كان هذا هو الإنجاز الأكبر فى عهد أولاف الأول فإن أولاف الثانى أقام سلكًا كهنوتيًا مسيحيًا ، وقد اتبع وسائل القوة وبذل المال من أجل القضاء على الوثنية فى النرويج ، وقد اعتبر البطل القومى لبلاده وشيدت علي اسمه عدة كنائس خارج بلاده وعلى نحو خاص فى انجلترا [٩].

وقد عدت النرويج من الآن فصاعداً ، إحدى القوى المسيحية الهامة فى شمال غرب أوروبا ، وقد نعمت بالسلام فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، وتوقفت الصراعات القبلية ولعبت الكنيسة النرويجية دورها فى سبيل تحقيق ذلك[١٠].

ويبدو أن الاستقرار الداخلى الذى نعمت به النرويج فى المرحلة الأخيرة من القرن المذكور وكذلك بدايات القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى كان له أثره فى فعاليات أكبر للنرويجيين فى قضايا الغرب الأوروبى ، وهو ما سنجده بجلاء فى عهد الملك سيجورد ، وهو أحد ملوك النرويج خلال الثلث الأول من القرن الثانى عشر م / السادس هـ وهو سيجورد الأول Magnusson ويسمى Sigurd Jeruaslemfarer أو The Crusader أى الصليبى واسمه بالنرويجية هو Sigurdtorsalfare ، وهو ابن الملك النرويجى ماجنوس الثالث Magnus III (ت ١١٠٣م / ٤٩٨هـ) وقد ولد فى عام ١٠٩٠م / ٤٨٥هـ وقد حكم النرويج خلال المرحلة من ١١٠٣ - ١١٣٠م / ٤٩٨ - ٥٢٥هـ[١١].

وقد خلف ماجنوس الثالث على عرش النرويج ثلاثة أبناء هم ، سيجورد Sigurd وايستين Eystein (١١٠٣ - ١١٢٢م / ٤٩٨ - ٥١٧هـــــ) وأولاف Olaf [١٢](ت ١١١٥م / ٥١٠هـ) ، وتولى ايستين حكم القسم الشمالى من البلاد بينما تولى سيجورد القسم الجنوبى وكان أولاف عندئذ طفلاً صغيراً يبلغ من العمر خمس سنوات ؛ ولذلك حكم أخوه نيابة عنه .

وقد ظل الأخوان يحكمان النرويج حكمًا مشتركًا خلال المرحلة من عام ١١٠٣م / ٤٩٨هـ إلى عام ١١٢٢م / ٥١٧هـ ، وتعد تلك المرحلة أطول مرحلة فى تاريخ النرويج يتم خلالها الحكم بصفة مشتركة ، وفى العام الأخير توفى ايستين فحكم سيجورد البلاد بصورة منفردة حتى عام ١١٣٠م / ٥٢٥هـ [١٣].

والجدير الذكر . إنه خلال المرحلة المبكرة من حكم الأخوين المشترك اندلعت الحروب الفرنجية الصليبية من الغرب الأوروبى على أثر خطاب البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩م / ٤٨٤ - ٤٩٣ هـ) فى مجمع كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م[١٤] وقد تمكن الفرنجة الصليبيون بعد أدوار تاريخية متعددة فى صورة الحملة الشعبية التى أخفقت ، وحملة الأمراء الناجحة من تحقيق أهدافهم فى صورة تكوين إمارات لهم فى الجزيرة وبلاد الشام ومنها إمارة الرها Edessa ، وأنطاكية Antioch ، وبيت المقدس

Jerusalem وطرابلس Tripolis ، وذلك على حساب القوى السياسية الإسلامية فى المنطقة التى كانت تعانى من التشرذم السياسى والتصارع المذهبى أعقاب تفكك دولة السلاجقة .

وقد تجهز الملكان النرويجيان من أجل القيام بما عرف " بالحملة الصليبية النرويجية " ، وقد تمت الاستعدادات فى عام ١١٠٧م / ٥٠١هـ ، ووقع الاختيار على سيجورد من أجل قيادتها ، وذلك امتثالاً لرغبة قوية من جانب النرويجيين فى أن يشاركوا فى المشروع الصليبى (١٥)، شأن غيرهم من قوى الغرب الأوروبى حينذاك .

ومن الأهمية بمكان عند دراسة موضوع الحملة الصليبية النرويجية البحث عن تلك الدوافع المختلفة التى دفعت عناصر النرويجيين وعلى رأسهم ملكهم للمشاركة فى موجة الحروب الفرنجية الصليبية التى عمت كافة أنحاء الغرب الأوروبى .

فالملاحظ أن وليم الصورى William of Tyre وهو المؤرخ الرسمى لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثانى عشر م / السادس هـ - يحاول إظهار خروج النرويجيين وعلى رأسهم سيجورد أنه ذو طابع دينى صرف ، فقد ذكر أنهم سمعوا أن المؤمنين (يعنى الصليبين) استولوا على بيت المقدس فرغبوا فى الذهاب إلى هناك من أجل العبادة(١٦).

ومن جهة أخرى ؛ نجد أن أحد الباحثين يقرر أن أسطول النرويجيين قدم إلى المنطقة وقد "أتى للحرب من أجل الحرب فحسب ، ولم تكن لديه أطماع سياسية أو اقتصادية " . ويقرر صاحب ذلك الرأى أن ذلك الأمر قد ورد على نحو صريح عند كل من فوشيه الشارترى Fulcher de Chartres ووليم الصورى (١٧).

والواقع أن هناك أهدافًا أخرى خرج النرويجيون من أجلها ، ولم يكن الجانب الدينى هو الجانب الوحيد المحرك لهم كما حرصت الحوليات الصليبية التى أرخت لتلك المرحلة على تصوير ذلك .

أما القول بأنهم خرجوا للحرب من أجل الحرب فتصور مغلوط تمامًا ؛ إذ أن الحرب ذاتها أداة تعبير عن الموقف السياسى ولا تكون البتة هى الدافع وفى الوقت نفسه هى النتيجة ، ويكون خوضها من أجل تحقيق أهداف يسعى إليها من يخوض غمارها ، ومن غير المتصور أن النرويجيين قطعوا كل تلك المسافة الطويلة ، وأعدوا أسطولهم لكى يحاربوا لا لشىء آخر إلا لمجرد الحرب لأن ذلك يستطيعونه فى بلادهم .

ومن جهة أخرى ؛ ينبغى ألا نأخذ كل ما يرد فى المصادر التاريخية الفرنجية الصليبية على أنه حقيقة مؤكدة ؛ إذ أن تلك المصادر ، وخلال تلك المرحلة التاريخية على نحو الخصوص ، حرصت على إبراز الجانب الدينى وحده ، دون إظهار الدوافع الحقيقية الأخرى من وراء المشروع الصليبى ، الذى هو فى حقيقة الأمر حركة استعمارية (أى استخرابية) للمنطقة فى العصور الوسطى وبالتحديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر م / السادس والسابع هـ .

وواقع الأمر أن هناك دوافع سياسية دفعت بالملك النرويجى سيجورد للمشاركة فى الحركة الفرنجية الصليبية ؛ إذ أنه رأى أن أفضل وسيلة لتدعيم نفوذه الداخلى كملك للنرويج بالاشتراك مع أخيه ، أن يشارك فى المشروع الصليبى ، خاصة أن ذلك من شأنه إظهاره بمظهر البطولة فى عيون أبناء شعبه على نحو كشفت عنه المصادر النرويجية ذاتها ؛ كما يتضح من هذا البحث - مما يعكس الارتباط الوثيق بين السياسيتين الداخلية ، والخارجية لملك الغرب الأوروبى فى ذلك العصر ، وربما شجعه على ذلك أن النرويج كان يحكمها عند خروجه للمشاركة الحربية أخوه أيستين ، وبالتالى فقد اطمأن إلى بقاء المنصب الملكى فى أسرته دونما منافسة من زعماء القبائل النرويجية .

ومن زاوية ؛ هناك رغبة النرويج ذاتها فى ألا تتخلى عن ركب دول الغرب الأوروبى التى شاركت بملوكها وشعوبها فى المشروع الصليبى ، ومن ثم بحثت النرويج عن دور لها فى ساحة الأحداث فكانت الحملة الصليبية النرويجية ، الأمر الذى يكشف لنا بجلاء عن خاصية هامة من خصائص الحركة الفرنجية الصليبية ، ونعنى بها أنها مثلت مجالاً تنافسيًا للملوك الأوروبيين ، وشعوبهم ، ومن المرجح أن ذلك الجانب لم يكن غائبًا عن أذهان النرويجيين عندما قرروا القيام بحملتهم باعتبارهم جزءًا لا يتجزأ من القارة الأوروبية .

زد على ذلك ؛ سعى النرويجيين إلى تدعيم صلاتهم بمملكة بيت المقدس الصليبية التى صارت محط مقدم الحجاج الذين قدموا إلى هناك من أجل زيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين ، حيث أن المشاركة فى تدعيم أملاك تلك المملكة الصليبية ، وتوسيع رقعتها فى مواجهة أعدائها من المسلمين خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخها ؛ من شأنه إظهار النرويجيين فى مكانة بارزة لدى ملوك تلك المملكة ، على اعتبار أنهم شاركوا فى تدعيمها وحمايتها خلال ذلك الحين ، الأمر الذى كان من شأنه أن يضمن للحجاج النرويجيين القادمين إلى هناك مكانة متميزة على نحو خاص لدى الدوائر الصليبية الحاكمة .

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة ؛ يقدم لنا الدافع الاقتصادى نفسه كأحد الدوافع الهامة للسياسة الخارجية النرويجية فى عهد سيجورد ، وأخيه حيال الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فالمتصور أن ذلك الملك النرويجى لم يغادر بلاده الواقعة فى أقصى شمال غرب أوروبا ؛ من أجل القيام فقط برحلة الحج Pelgrinatio كما تحاول إظهاره الحوليات الصليبية ، بل إنه أراد تحقيق أكبر قدر من الغنائم والأسلاب ، وهو أمر كشف عنه بجلاء نصوص المصادر التاريخية فى تناولها لرحلته الطويلة حتى وصوله إلى بلاد الشام ، بالإضافة إلى أنه عندما غادر الأخيرة ، حمل بالهدايا والمغانم حتى تؤتى رحلته الطويلة الشاقة كافة ثمارها المرجوة منها .

وبالإضافة إلى الدوافع السابقة هناك ما يمكن وصفه بالتنافس بين النرويج والدنمارك ، ويلاحظ فى هذا المجال أن الملك الدنماركى إيريك إيجود Eirik Eiegod وزوجته الملكة بوديل Bodil قاما برحلة حج إلى الأرض المقدسة فى فلسطين عام ١١٠٢م / ٤٩٣هـ ، ولم يحقق الملك المذكور ما ابتغاه من الذهاب إلى هناك ، ومات مصابًا بالحمى فى قبرص وماتت أيضًا بوديل عند جبل الزيتون Mount of Olives فى بيت المقدس ودفنت فى وادى يوسفات Val-ley josaphat ، وهناك من الباحثين من يرى أن شهرة تلك الرحلات الملكية الخاصة بالحج ، ربما أدت إلى استثارة وتحميس ملوك النرويج من أجل القيام بحملة صليبية اقتفاء لأثر ملوك الدنمارك [١٨]. وهكذا من الممكن أن نتصور عدة دوافع مجتمعة كان لها دورها فى خروج ذلك الملك النرويجى ليشارك بدوره فى ذلك المشروع الحربى ونعنى به الحركة الصليبية .

ومن زاوية أخرى ؛ من الملاحظ أن النرويج كان لها دورها فى المشاركة فى النشاط الصليبى حتى من قبل سيجورد ، من ذلك أن سكوفت النرويجى The Norwegien Skofte - الذى حكم قبل ما جنوس باريفوت Magnus Barefoot - قام فى عام ١١٠٢م / ٤٩٦هـ بتنظيم حملة صليبية إلى الأرض المقدسة وصاحبه فيها أبناؤه فين Fin ، وأجمون Agmund ، وثور Thor وقد أبحروا جنوبًا إلى الفلاندرز حيث أمضوا الشتاء هناك ، وفى الصيف التالى أى فى عام ١١٠٣م / ٤٩٤هـ أبحروا إلى إيطاليا إلا أن سكوفت مات فى روما ، ومات أبناؤه كذلك فى صقلية [١٩].

ومهما يكن من أمر ، فقد شاركت النرويج بحملة أخرى فى الأعوام الأولى من القرن الثانى عشر م / السادس هـ .

وقد امتازت عن حملة ١١٠٢ - ١١٠٣م / ٤٩٣ - ٤٩٤هـ . بأنها وصلت إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين وحققت نجاحًا . على عكس الأولى التى لم تصل أصلاً إلى هناك . أما عن توقيت مغادرة سيجورد النرويج ، فقد تصور أحد الباحثين أن ذلك حدث عام ١١٠٥م / ٤٩٩هـ [٢٠]، بيد أن هذا الرأى لا يجد دعمًا من الواقع التاريخى ، إذ أن المصادر التاريخية النرويجية فى صورة الساجا Saga تظهر ذلك الحدث على أنه وقع عام ١١٠٧م / ٥٠١هـ[٢١]، لا عام ١١٠٥م / ٤٩٦هـ ، كما أن هناك من الباحثين مثل بيكوك وكراى من يقرر بعد انتهاء دور سيجورد فى بلاد الشام ، أنه عاد إلى بلاده عام ١١١١م / ٥٠٥هـ ، بعد أن أمضى خارجها أربع سنوات ، نظراً لأن مغادرة الملك وقواته النرويج قد تم فى عام ١١٠٧م / ٥٠١هـ [٢٢].

وجدير بالذكر ، أن الملك سيجورد قد غادر النرويج وفى صحبته أسطول بحرى مناسب[٢٣]، ومن الجوانب الهامة ، معرفة حجم القوة البحرية المصاحبة به ، مثل ذلك الأمر من شأنه توضيح حجم المساعدة النرويجية ، ووجدنا ذلك الاختلاف لدى المؤرخين المعاصرين لمرحلة الحروب الصليبية من أوروبيين أو مسلمين وكذلك المؤرخين المحدثين تبعًا لذلك .

وفى هذا المجال نجد أن فوشيه الشارترى قد ذكر أن عدد قطع الأسطول النرويجى المصاحب للملك سيجورد قد بلغ خمسًا وخمسين سفينة [٢٤]، بينما قرر ألبرت ديكس أنه بلغ ستين سفينة [٢٥].

أما المصادر النرويجية ، فإنها تذكر عدد قطع الأسطول على أنه سبعين سفينة ، وذلك ضمن حديثها عن مغادرة ذلك الأسطول النرويج [٢٦]، ثم من بعد ذلك عندما تعرضت لعدد السفن عند بدء حصار صيدا ذكرت أن العدد بلغ ستين سفينة [٢٧].

أما المصادر العربية ؛ فنجد أن ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) المعاصر لتلك الأحداث قد ذكر إن قطع الأسطول النرويجى بلغت سبعًا وستين سفينة [٢٨]، بينما قلل ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) العدد وأشار إليه على أنه ستين سفينة فقط [٢٩].

والواقع أن المصادر التاريخية النرويجية فى صورة الساجا لها أهمية خاصة فى هذا الشأن، إذ أنها تتميز عن المصادر الأخرى بأنها تلقى الضوء على الدور النرويجى منذ بدايته حتى عودة سيجورد ورجاله إلى بلادهم ، بينما تقتصر المصادر التاريخية الصليبية ، وكذلك العربية على الإشارة إلى الحملة الصليبية النرويجية عندما يصل الملك النرويجى ورجاله وقطعهم الحربية إلى بلاد الشام .

ويلاحظ أن المصادر النرويجية قدمت لنا رقمين فى شأن عدد قطع الأسطول النرويجى ، والاختلاف بين الرقمين منطقى تمامًا ، إذ أنه من المستبعد أن تظل قطع الأسطول النرويجى ، محتفظة بعددها الأصلى منذ خروجها من النرويج ، وحتى وصولها إلى محطتها الرئيسية فى الساحل الشامى ، خاصة أن تلك الرحلة البحرية كانت طويلة وشاقة من أقصى شمال غرب أوروبا حتى الساحل الشرقى للبحر المتوسط مروراً بالمحيط الأطلنطى ، ثم البحر المتوسط ، مع ملاحظة العواصف والأنواء المعتادة فى كل من السطحين المائيين الكبيرين المذكورين .

وعلى هذا الاعتبار : تكون قطع الأسطول النرويجى كبيرة عندما غادر الملك المذكور بلاده، وأن قل العدد عند الوصول إلى الهدف الأخير ، ولا نغفل أن الرقم الذى أوردته الساجا بشأن عدد القطع عندما وصل النرويجيون لبلاد الشام اتفق مع ما أورده ألبرت ديكس ، وابن الأثير، مما عكس مصداقيتهما فى هذا الشأن .

مهما يكن من أمر ، فإن ذلك العدد الكبير من السفن كان يحمل على ظهره عدداً ضخمًا من المقاتلين قدَّره بعض الباحثين بأنه بلغ عشرة آلاف مقاتل (٣٠).

ومن المحتمل أن يكون هناك مبالغة فى حجم ذلك العدد الضخم من المقاتلين كشأن الإشارات الرقمية التى تصل إلينا من عالم العصور الوسطى - خاصة إذا ما وزعنا مثل ذلك العدد على عدد السفن ذاتها ، بيد أن ذلك يفيدنا فى تصور اتساع نطاق حجم المساعدة النرويجية ومن المتصور أن ذلك العدد - على ما فيه من مبالغة متوقعة حمل معه الثقل السياسى والحربى للنرويج ودعمها للمشروع الصليبى خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخه .

وهناك نقطة هامة من الضرورى تناولها عند دراسة تلك الحملة النرويجية وتتمثل فى الطريق البحرى Via Marina الذى سلكه الملك النرويجى سيجورد إلى أن وصل إلى بلاد الشام.

والواقع أن تلك المرحلة لها جانبها من الأهمية إذ أنها استغرقت نحو ثلاث سنوات ، فقد خرج ذلك الملك من بلاده عام ١١٠٧م / ٥٠١هـ ، ولم يصل إلى بلاد الشام إلا فى عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ ، وليس فى الإمكان فصل تلك المرحلة عن دور ذلك الملك فى مشروعه الصليبى ، وذلك يعكس أن مرحلة ما قبل الوصول إلى مملكة بيت المقدس الصليبية قد شغلت القسم الأكبر من المرحلة الزمنية التى أمضاها ذلك الملك خارج حدود بلاده مما يدعونا إلى دراستها .

ومن الملاحظ فى رحلته من النرويج إلى بلاد الشام وهى التى وصفها بعض الباحثين بأنه كان يجوب خلالها البحار على الطريقة النرويجية [٣١]؛ إنها تميزت بالتوقف فى عدة مناطق، ومن الواضح أن هناك عدة دوافع دفعته إلى ذلك أولها طول المسافة من بلاده إلى هناك على نحو يحتم عليه التوقف عدة مرات للحصول على قسط وافر من الراحة من عناء السفر ، وثانيها رغبته فى التزويد بالمؤن والإمدادات اللازمة لإطعام العدد الكبير من المقاتلين الذين قدموا معه ، إذ أنه لم يكن يستطيع الاحتفاظ بتموين غذائى دائم طوال تلك الرحلة الطويلة لذلك العدد الكبير من المقاتلين ، وثالثها رغبته فى تحقيق أكبر قدر من الدعاية السياسية الناجحة فى أوساط الغرب الأوروبى وتصوير النرويجيين على أنهم ذاهبون من أجل مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام ضد أعدائهم المسلمين .

ووفقًا لما تقرره الساجا ؛ فإن الملك سيجورد وأسطوله قد أبحر فى خريف عام ١١٠٧م / ٥٠١هـ عبر القنال الإنجليزى ووصل إلى إنجلترا فى وقت كان يحكمها فيه الملك هنرى الأولى Henry I (١١٠٠ – ١١٣٥م / ٤٩٤ – ٥٢٩ هـ) ، وقد أمضى عنده كل الشتاء هناك . وقدم هدايا قيمة لعدد من الكنائس الإنجليزية [٣٢].

والواقع إن إنجلترا عدت أولى المحطات التى توقف عندها الملك النرويجى وأسطوله فى طريقه صوب بلاد الشام ، وهناك زاوية مهمة من الممكن التعرض لها وهى أننا من الآن فصاعداً سوف نلاحظ أن الحملة الصليبية النرويجية بقيادة سيجورد ستحرص على تمضية الشتاء فى حالة استرخاء فى إحدى المحطات التى تتوقف عندها لتواصل من بعد ذلك المسير فى فصل الربيع ، ويلاحظ أن ذلك تقليد اتبعه الفايكنج[٣٣] فى تحركاتهم البحرية بصفة عامة ، وكان ذلك من عوامل طول مدة رحلتهم البحرية إلى أن وصلوا إلى هدفهم الأخير فى بلاد الشام .

ومن بعد ذلك أبحر الملك سيجورد فى ربيع عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ بأسطوله باتجاه الغرب إلى منطقة فالاند VLLAND الواقعة إلى الغرب من فرنسا ، وفى الخريف وصل إلى منطقة جيليقية GULICIA ؛ فى شمال غرب الأندلس ، حيث أمضى هناك ، ويلاحظ أن حاكم المنطقة الذى لا تذكر المصادر اسمه اتفق معه على أن يقوم بتزويده هو ورجاله بالإمدادات اللازمة من أجل أن يتمكن من تمضية كل موسم الشتاء ، بيد أنه لم يتمكن من تنفيذ ذلك الأمر أبعد من فترة عيد الميلاد[٣٤]. ويقدر البعض أن سيجورد اختلق من هذا الموقف عذراً

لمهاجمة أملاك الحاكم فهاجم قصره ، وهو الذى كان حاكمًا على منطقة جيليقية المسيحية التابعة لمملكة ليون ، وقشتالة ، وقام بنهب القصر والمنطقة المحيطة به [٣٥]، ومن جراء ذلك امتلك الغنائم والأسلاب الوفيرة ، ومن بعد ذلك صار مستعداً للإبحار فى الاتجاه الغربى من الأنــدلــس[٣٦] وقد تمكن سيجورد فى المرحلة السابقة من تزويد قواته بالمؤن والإمدادات . ولذلك وجدناه قد وصل إلى مدينة سنيتر Sintre [٣٧]، وهى نفسها Cintra الآن التى تعد جزءاً من البرتغال ، ويلاحظ أنها وقعت بالقرب من البحر وجبال سيرادى فياجيم ، وعرف عنها خصوبتها الزراعية على نحو ضمن لها شهرة كبيرة فى منتجاتها [٣٨].

وقد خاض سيجورد ورجاله غمار معركة حربية هناك ، ووفق ما ترويه الساجا فإنه ومن معه من المقاتلين تمكنوا من إخضاع إحدى القلاع الحصينة، وقتلوا كل الرجال الذين فيها نظراً لرفضهم التنصير ، وحصلوا على العديد من الغنائم[٣٩] مثلما حدث من قبل .

وتكشف تلك الواقعة عن الطابع التنصيرى فى سياسة ذلك الملك النرويجى ، إذ رغب شأنه فى ذلك شأن غيره من ملوك الغرب الأوروبى – فى توسيع رقعة عالم المسيحية Christen-dom بزيادة عدد معتنقيها حتى بالوسائل القسرية ، وليس بخاف عنا أن الجانب التنصيرى كان من أهم أهداف الحركة الفرنجية الصليبية على مدى القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦، ٧ هـ [٤٠].

ومن بعد ذلك ؛ أبحر الملك النرويجى مع أسطوله إلى لشبونه " اشبونه " Lishbon حيث خاض غمار معركة هناك ، كذلك وصل إلى مدينة تسميها الساجا الكاسى Al Kassi[٤١] وهى بالتأكيد قصر أبى داسل Alcacer dosal وكانت مدينة قديمة واقعة على نهر شطوبر Sado وعرفت لدى المسلمين باسم قصر بنى ودانس ثم أبى دانس القصر [٤٢]، وقد حارب سيجورد المسلمين وغنم مغانم وفيره [٤٣].

والجدير بالذكر هنا ؛ أن كافة تلك القواعد لم تكن قد خضعت بعد لحكم المرابطين ؛ إذ أنه على الرغم من قضاء المرابطين على بنى الأفطس حكام غرب الأندلس فى عهد ملوك الطوائف وإسقاطهم لبطلميوس ؛ عاصمة ملكهم عام ١٠٩٤م / ٤٨٨هـ إلا أن المراكز الثلاثة السابق الإشارة إليها ، سنترا ، ولشبونة ، والقصر لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها حتى عام ١١١١م / ٥٠٤هـ [٤٤].

والأمر المؤكد أن عزلة قواعد غرب الأندلس قبل فتح المرابطين كان لها دورها الكبير فى إقدام الملك النرويجى على أن يعيث فيها فساداً ، وسلبًا ، ونهبًا ، وقتلاً [٤٥].

والحدث الهام التالى ؛ يتمثل فى دخول النرويجيين البحر المتوسط بعد عبورهم المضايق الواقعة بين كالبى Calpe وجبل أطلس Mt. Atlas وذلك وفق ما يقرر وليم الصورى [٤٦]؛ والمقصود بالموقع الأول بالطبع جبل طارق ، الأمر الذى يعكس أن الصليبيين وصلت إلى مسامعهم أخبار الطريق الذى سلكته الحملة النرويجية .

وقد أقدم الملك سيجورد على مهاجمة جزيرة فورمنتو Formento ؛ إحدى جزر البليار الصغيرة ، وقد تمكن بعد عمليات حربية متعددة من الاستيلاء عليها ، وأحدث فى أهلها مذبحة مروعة[٤٧] ، كذلك اتجه إلى جزيرة مينورقة Minorca حيث واجه مقاومة عنيفة من جانب المسلمين هناك [٤٨].

والجدير بالذكر ، أن جزر البليار لم تكن قد خضعت فى ذلك الحين هى الأخرى للسيادة المرابطية ؛ إذ أن ذلك حدث عام ١١١٦م / ٥٠٩ هـ ، وذلك بعد ما يزيد على عام لغزوها من قبل قوات الحلف الثلاثى المكون من بيزا Poisa ، وجنوة Genoa وإمارة برشلونة Bar-celona [٤٩].

ومن المفيد أن نلاحظ أن ذلك الملك النرويجى عمل على محاربة المسلمين فى الأندلس سواء فى غرب الأندلس أو فى الجزائر الشرقية ، كما حاربهم فيما بعد فى بلاد الشام عندما وصل إلى مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو عكس الارتباط الوثيق بين الحركة الصليبية فى غرب البحر المتوسط وشرقه .

ومن الملاحظ أنه فى أعقاب ذلك وصل النرويجيون إلى جزيرة صقلية Sicily جنوب إيطاليا التى غدت المنطقة التى استقر عندها الأسطول النرويجى حيث أمضى هناك وقتًا طويلاً، وكان النورمان قد أخضعوها لسيادتهم وانتزعوها من أيدى المسلمين عام ١٠٩٠م / ٤٨٤ هـ[٥٠] وقد تم استقبال الملك النرويجى سيجورد من جانب روجار الأول (١٠٨٥- ١١١١م / ٤٧٩ - ٥٠٥ هـ) حاكم صقلية بحفاوة ، ووفق ما تقرره الساجا النرويجية فقد دعا ملك صقلية لأحد الأعياد هناك ، وإن لم تحدده المصادر .

وتعد جزيرة صقلية ذات دلالة خاصة فى رحلة سيجورد البحرية إلى بلاد الشام ، فقد كانت خاضعة للسيادة النورمانية ، وبالتالى لم تكن تعنى جبهة للحرب يخوضها ذلك الملك النرويجى على خلاف ما وجدناه فى سياسته تجاه بعض المناطق فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

وهناك من يقرر أنه اصطنع لنفسه فى تلك الجزيرة لقب الصليبى[٥١] The Crusader أو النرويجية Jorsalfary ، ولا ريب فى أن مثل ذلك اللقب كن نوعًا من الدعاية السياسية حتى إذا ما وصل إلى فلسطين وجد آثاره جلية على مستوى الدعاية له فى صفوف الصليبيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، ومن جهة أخرى عمل على التآخى بين النرويجيين ، والنورمان فى صقلية [٥٢].

وتعد صقلية بمثابة المنطقة السابقة مباشرة على الهدف النهائى لرحلة سيجورد ورجاله البحرية[٥٣] ونعنى به المملكة الصليبية ، وقد كشفت المسافة الطويلة التى قطعها على مدى ثلاث سنوات - كشفت بجلاء عن إصرارهم على المشاركة فى المشروع الصليبى من خلال الدوافع التى أوضحناها سلفًا .

مهما يكن من أمر ، فإن الملك النرويجى سيجورد وقواته ؛ وصلوا أخيراً إلى فلسطين ، وهناك من يقرر أن ميناء الوصول كان ميناء عكا Acre [٥٤]، بيد أن ذلك لا يجد دعمًا من جانب المصادر التاريخية ، إذ أننا نعلم أنه وصل إلى ميناء يافا Joppa -الذى عد ميناء بيت المقدس - وذلك فى صيف عام ١١١٠م / ٥٠٤ هـ [٥٥]، وكان لذلك الحدث أهميته الكبيرة بالنسبة للصليبيين ، وقد عكس تلك الأهمية الإشارات التى نجدها فى المصادر التاريخية الصليبية التى أبرزت مقدم ذلك الملك ورجاله [٥٧]، بعد أن تمكن الصليبيون من زرع كيانهم الدخيل فى المنطقة على حساب المسلمين .

وعلى أية حال ، فقد أحسن الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin I ؛ وهو ملك المملكة الصليبية حينذاك استقباله ؛ وقد أجمعت المصادر التاريخية الصليبية ، وكذلك الساجا على حفاوة استقبال الملك الصليبى لضيفه ، تقرر المصادر النرويجية أن الملك بلدوين أقام احتفالاً كبيراً للملك سيجورد والعديد من رجاله ، كذلك صحبه فى رحلة خاصة وقطع معه كل الطريق البرى المؤدى إلى نهر الأردن [٥٨]، ومن المتصور أن تلك الرحلة كانت من أجل تعميد الملك سيجورد فى مياه ذلك النهر ، ومن المعروف أن القديس يوحنا المعمدان St. Johan The Pap-tist الذى عاصر السيد المسيح عليه السلام اتجه إلى تعميده فى مياه النهر المذكور[٥٩]، ومن

ذلك الحين صار لنهر الأردن قداسة خاصة لدى قلوب المسيحيين ، وصار موضع اهتمام الحجاج الأوروبيين الذين قدموا إلى فلسطين من أجل الحج إلى المحارم المسيحية المقدسة ، حيث عد من المراكز الأساسية التى يتجهون إليها بالزيارة فى المنطقة .

ومن بعد القيام بتلك الرحلة التى أراد منها الملك الصليبى فيما أراد إثارة العاطفة الدينية فى نفس ضيفه النرويجى فى تلك الفترة الميكرة من مقدمه إلى المملكة الصليبية ؛ عاد الملكان المذكوران أدراجهما إلى بيت المقدس . ومن ناحية أخرى ، قدم بلدوين الأول لسيجورد عدداً من المتعلقات المقدسة ، وبأوامر من الأول وكذلك البطريرك وهو فى ذلك الحين جبلين أوف سابران Gibelin of Sabran (١١٠٩ - ١١١٢م / ٥٠٣ - ٥٠٦هـ) تم أخذ شريحة من الصليب المقدس - كما يعتقد المسيحيون - وتم تقديمها للملك النرويجى وفى هذه المناسبة أقسم الأخير ومعه اثنى عشر رجلاً من رجاله - وهو نفس عدد الحواريين - على إعلاء شأن المسيحية بكل ما أوتوا من قوة وأن يقيموا قصراً أسقفياً فى النرويج إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً (٦٠).

ومن المنطق قول أن الحفاوة البالغة التى قوبل بها الملك النرويجى من جانب الملك الصليبى مرجعها رغبة الأخير فى كسب عطف النرويجيين بأى ثمن والحصول على أقصى حد ممكن من قدراتهم الحربية خدمة لمشاريعه العسكرية المرتقبة .

أضف إلى ذلك ، أن الاستقبال الحافل الذى قوبل به الملك سيجورد جاء كمقابل لمدة طويلة استغرقها فى رحلته هو ومقاتليه إلى فلسطين ، وهو يعكس - فيما يعكس - نجاح أسلوب الدعاية السياسية ، التى اتبعه ذلك الملك النرويجى حتى وصوله إلى هدفه الأخير ، ومن جهة أخرى ، أرادت المملكة الفرنجية الصليبية أن تظهر بمظهر رفيع المستوى فى تعاملها مع أول ملك أوروبى يطأ بقدميه أرضها من بعد قيامها لأن ذلك له انعكاساته الطيبة على مكانتها ، ومركزها الدولى فى أوروبا .

وتبقى زاوية من الممكن التعرض لها ، إذ أنه من الملفت للانتباه ، أن المصادر التاريخية لا تقدم لنا أية إشارات بشأن كبار القيادات النرويجية التى صاحبت الملك سيجورد ، وكان تركيزها بصفة عامة على شخصية الأخير ، ولذلك لم يصل إلينا شىء عن أسمائهم أو أدوارهم

التاريخية خلال تلك المرحلة ، ومن المحتمل أن عدداً منهم كان من بين الاثنى عشر شخصًا الذين أقسموا على إعلاء شأن المسيحية ضمن مراسم الاستقبال التى حصلت على شرف الملك النرويجى .

والواقع أننا لا نستطيع أن ندرك حقيقة دور الملك النرويجى سيجورد فى الحركة الصليبية خلال ذلك الحين ، إلا من خلال ملاحظة الارتباط الوثيق بين الوجود الصليبى فى بلاد الشام والغرب الأوروبى ؛ فالحركة الصليبية فى حقيقتها إفراز أوروبى بكل ما تعنيه الكلمة على المستويات السياسية ، والحربية ، والاقتصادية ، والدينية .

وقد ظل الارتباط وثيقًا بين الصليبيين فى بلاد الشام والغرب الأوروبى على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م / السادس والسابع هـ ، وطوال مدة استمرار ذلك الوجود الفرنجى الصليبى هناك ظل الدعم الأوروبى بصفة عامة مستمراً ، ولم يستطع الصليبيون الاعتماد بصورة كلية على إمكانياتهم المحلية لمواجهة المسلمين ، وإنما عاش ذلك الكيان الصليبى كجنين لم يكتمل له النمو يعتمد على وطنه الأم أوروبا ؛ خاصة خلال مرحلة تأسيس الوجود الصليبى فى المنطقة ، وكذلك عندما كانت تشتد ضربات حركة الجهاد الإسلامى فى مواجهته.

وتمثل الحملة الصليبية النرويجية إحدى حلقات الدعم العسكرى الأوروبى للوجود الصليبى فى بلاد الشام خلال مرحلة تأسيس أركانه فى المنطقة .

وتجدر الإشارة ؛ إلى أن الوسيلة المثلى لإدراك حجم المساعدة النرويجية وفعاليتها بالنسبة لملكة بيت المقدس الصليبية ، التعرض لأوضاعها السياسية والحربية العامة وأهم الصعاب التى واجهتها .

وقد حكم المملكة الصليبية حينذاك الملك بلدوين الأول ، والذى يعد وبحق المؤسس الحقيقى للمملكة ، وقد واجه قضيتين أساسيتين خلال سنوات حكمه ، ألا وهما ؛ قضية نقص العنصر البشرى ، وكذلك قضية تأمين حدود المملكة الصليبية من جهة الغرب من خلال إخضاع المدن الشامية الساحلية المسلمة .

والجدير بالذكر ، أن الوجود الصليبى فى بلاد الشام فى عهد ذلك الملك - على نحو خاص- عانى من مشكلة حادة لازمته كذلك فيما بعد ، وهى نقص العنصر البشرى [٦١]، إذ

كان الغزاة الصليبيون يمثلون أقلية سكانية إذا ما قورنوا بالمحيط الإسلامى العام الذى تمتع بكثافة سكانية ، ولا نغفل أن البنية السكانية الصليبية كانت معرضة باستمرار للنقصان من خلال استمرار الصراع الحربى مع المسلمين ، ويلاحظ أن الكثيرين من الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى سرعان ما عادوا أدراجهم إلى الغرب الأوروبى بعد إخضاع الأماكن المقدسة المرتبطة بذكريات المسيحية المبكرة للسيادة الصليبية (٦٢). وينبغى ألا يغيب عن ذهننا أن الصليبيين لم يؤسسوا إماراتهم إلا بعد أن ضحوا بأعداد كبيرة من رجالهم من خلال أحداث الصدام الحربى مع القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ، وهناك من يقرر أنهم أصيبوا بنقص خطير لا سيما فيما يتصل بأعداد عناصر الفرسان (٦٣).

ومما زاد من استفحال المشكلة ، أن أملاك الصليبيين كانت متسعة إذ سيطر الغزاة على مناطق متعددة كانت من قبل خاضعة للمسلمين ولم يكن عدد المدافعين يتناسب البتة مع اتساع رقعة المملكة الصليبية (٦٤).

وقد يقول قائل إن الأساطيل التى قدمت من المدن الإيطالية ، وبروفانس كانت تجلب بصفة مستمرة حجاجًا من الغرب الأوروبى ، غير أنها كثيراً ما تعرضت لهجمات البحرية الإسلامية فى الشمال الإفريقى ، وإذا قدر لهم أن يصلوا إلى ميناء يافا حيث اتجهوا منه إلى بيت المقدس ، كانوا يواجهون بإغارات المسلمين(٦٥) خلال طريق يافا - القدس الصخرى الوعر ، وقد أشارت مؤلفات الحجاج الأوروبيين ؛ الذين قدموا إلى المملكة الصليبية فى أوائل عهد الصليبيين بالمنطقة خلال حكم بلدوين الأول نفسه إلى ذلك ، ونجد مثالاً واضحًا فى صورة سايولف الذى زار بيت المقدس والأراضى المقدسة خلال الفترة من ١١٠٢ - ١١٠٣م ودانيال Daniel الروسى الذى قام برحلته خلال المرحلة من ١١٠٦ - ١١٠٧م / ٥٠٠ - ٥٠١هـ ؛ فقد أشار إلى فتك المسلمين بعناصر الحجاج الأوروبيين فى ذلك الطريق وذكر أنه مخيف للغاية(٦٦). بالإضافة إلى أن تلك العناصر الوافدة لم تكن فى بعض الأحيان تمثل دعمًا بشريًا مستمراً يفيد فى عمليات القتال الحربى ضد المسلمين نظراً لارتباط تلك العناصر بهدف محدد فى صورة القيام بالحج المسيحى ثم العودة مرة أخرى إلى بلادهم .

ومن خلال تلك الظروف السابقة ، اتجه الملك بلدوين الأول إلى أسلوب الحرب الخاطفة وأن يجعل من جيشه وحدة حربية متنقلة تنتقل فى سرعة خاطفة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب(٦٧) وفق ما تمليه عليه ظروف الصراع الحربى مع المسلمين ومتطلباته .

ولمواجهة ذات القضية ؛ اتجه ذلك الملك الصليبي - في مرحلة لاحقة - إلى تشييد عدد من القلاع ، والحصون المنيعة من أجل تثبيت أقدام الصليبيين في المنطقة ولتضييق الخناق على المدن التي أراد إسقاطها وانتزاعها من أيدي المسلمين ، وفي هذا الصدد شيد حصن الشوبك Montreal عام ١١١٥م / ٥٠٩ هـ (٦٨)؛ كي يسيطر عن طريقه على منطقة وادي عربة ، كذلك شيد قلعة إسكندرونة Scandalium جنوبي صور عام ١١١٧م / ٥١١ هـ ليشدد ضغطه العسكري على مدينة صور (٦٩)، وأقام قلعة أيلة في خليج العقبة للتحكم في طريق القوافل بين مصر والشام ، وكذلك بنى قلعة في جزيرة فرعون Le de Graye الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة(٧٠)؛ وعلى ذلك نجده قد تحكم في رأس الخليج المذكور (٧١).

ومن جهة أخرى ، اتجه بلدوين الأول إلى أن يقوم بإيجاد نوع من التوازن البشري من خلال عناصر المسيحيين الشرقيين في العاصمة الصليبية ونعني بها بيت المقدس ، خاصة بعد أن منع الصليبيون المسلمين ، واليهود من دخولها إلا في أضيق نطاق ، ومن خلال تصاريح خاصة ، وفي هذا المجال نجد أنه عمد إلى تعمير المدينة المقدسة بجذب عناصر الأرثوذكس، والسريان ، والأرمن في أنطاكية ، وأيضًا الأرمن والنساطرة في الرها(٧٢) وعمل على جذبهم إلى تلك العاصمة وكانت هناك عدة عوامل جذبتهم منها الابتعاد عن المناطق الإسلامية ، والجاذبية الخاصة لمدينة بيت المقدس ثم إنه عمل على تقديم امتيازات لتلك العناصر ليشجعها على البقاء هناك (٧٣)، ووفق ما يقرره وليم الصوري ، فإنه بالفعل منح أولئك أجزاء المدينة التي ظهرت في حاجة شديدة لمقدمهم وامتلأت منازلها بهم (٧٤).

كذلك عمل بلدوين الأول على الحصول على مساعدة القوى الأوروبية من أجل سد ثغرة نقص عدد المقاتلين ، وقد شهد عهده تزايد دور الدعم البشري الأوروبي للمملكة الصليبية .

أما القضية الثانية التي واجهته فكانت إخضاع المدن الشامية الساحلية على الرغم من نقص الموارد البشرية . وشكل إخضاع الساحل الشامي بالنسبة للصليبيين قضية حياة أو موت(٧٥)؛ إذ أن إخضاعه كان يعني استمرار تدفق الدعم البشري والمالي ، والمعنوي الأوروبي، كذلك خنق القوى الإسلامية في بلاد الشام اقتصاديًا وجعلها قوى برية حبيسة تحتاج إلى الصليبيين لتصرف منتجاتها التجارية على نحو يضمن لهم المكانة العليا من خلال

عوائد المكوس أو الضرائب التجارية على نشاط حركة الصادرات ، والواردات عبر المنافذ التجارية البرية والبحرية الخاضعة للصليبيين .

وبالإضافة إلى ذلك : أدرك الفرنجة الصليبيون أن أمنهم لن يتحقق فى المنطقة طالما أن الفاطميين يشنون الإغارات المستمرة عليهم متخذين من مراكزهم على الساحل الشامى نقاط انطلاق ضد المراكز الصليبية المجاورة .

وفى المرحلة السابقة على مقدم سيجورد للمنطقة : تمكن الصليبيون فى عهد بلدوين الأول من إخضاع عدد من المراكز الساحلية الهامة فسقطت حيفا Haifa ، عام ١١٠٠م / ٤٩٤ هـ ، وكذلك أرسوف Arsuf ، وقيسارية Caesarea عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ ، ثم عكا Acre عام ١١٠٤م / ٤٩٨هـ ، وبيروت Beiruts عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ [٧٦]، ومعنى ذلك أنه خلال العقد الأول من القرن الثانى عشر م / السادس هـ سقطت عدة مدن ساحلية هامة فى قبضة الفرنجة الصليبيين ، وانسلخت عن سيادة الفاطميين السياسية .

وعندما وصل النرويجيون إلى فلسطين عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ كانت هناك بعض المراكز الساحلية الهامة لاتزال فى قبضة المسلمين فى صورة عسقلان Ascalon فى الجنوب ، وصور Tyre ، وصيدا Sidon فى الشمال ، ويلاحظ أن مقدم النرويجيين جاء فى وقت كانت المملكة الفرنجية الصليبية فى أشد الحاجة إليها من خلال كافة الظروف السالفة الذكر ، ولاريب فى أن تلك الظروف أعطت لمقدمها أهمية خاصة ؛ انعكست بدورها فى نصوص المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة ، والمتأخرة نسبيًا التى أبرزت مقدمها .

على أية حال ، طلب الملك بلدوين الأول من الملك سيجورد أن يبقى مدة كافية فى فلسطين ولا يسارع بالعودة ، ويقرر فوشيه الشارترى أنه حث النرويجيين على البقاء حبًا فى الرب وفى الأرض المقدسة ، ولو لوقت قصير من أجل المساعدة فى توسيع النفوذ الفرنجى الصليبى ، وعلى حد قوله من أجل " تمجيد اسم الرب " ويضيف أنه أوضح لهم أنه إذا ما أنجزوا شيئًا من أجل المسيح ، فقد صار بإمكانهم العودة لبلادهم ، وهم يلهجون بالتسبيح والحمد لله والثناء عليه [٧٧].

والواقع أن سيجورد قد حرص على معرفة رأى باقى القادة النرويجيين فى ذلك العرض من جانب الملك الصليبى ، وبالفعل فإننا نعرف أنهم تداولوا فيما بينهم [٧٨]، وكان ردهم

إيجابيًا، وأوضحوا أنهم قدموا إلى المنطقة من أجل تكريس أنفسهم لخدمة المسيح ، وذكروا أنهم كانوا على استعداد للتوجه بأقصى سرعة إلى أى مدينة ساحلية يرغب الملك الصليبى فى إسقاطها [٧٩].

ومن الممكن تصور أن عرض الملك بلدوين الأول قد صادف هوى فى نفوس النرويجيين من أجل المشاركة فى الحروب الصليبية ، ولا ريب فى أن إلحاح ذلك الملك الصليبى عليهم بالبقاء أوضح حجم الآمال الكبار التى علقها على فعالياتهم البحرية ؛ إذ أن مقدمهم مثل للصليبيين فرصة جديدة بالاقتناص وليس من اليسير تكرارها ، ولذا كان عليه أن يحسن الإفادة منها إلى أقصى حد .

والجدير بالذكر أن النرويجيين قد طلبوا من المملكة الصليبية تقديم المؤن ، والإمدادات لهم خلال مدة العمليات الحربية [٨٠]، ومن الواضح أن قضية المؤن والإمدادات كانت تؤرق النرويجيين منذ خروجهم من بلادهم منذ ثلاث سنوات خلت ، وكانت أعدادهم الكبيرة عاملاً على جعل تلك الناحية ذات أهمية خاصة بالنسبة لهم .

وهناك ناحية هامة كشفت عنها المصادر الصليبية ألا وهى أن الملك الصليبى فكر فى أول الأمر فى الاستعانة بالقوة النرويجية البحرية فى الاستيلاء على عسقلان بيد أنه عدل عن ذلك[٨١]؛ لإدراكه أنه يحتاج إلى إمكانات عسكرية برية وبحرية أكبر مما فى الإمكان فى ذلك الحين ، وتم الاتفاق فى النهاية على فرض الحصار على مدينة صيدا اللبنانية ، وهو أمر حاول أحد المؤرخين الصليبيين أن يوضح أهميته مشيراً إلى أنه أكثر مجداً من إسقاط عسقلان[٨٢].

ومن الجلى البين : أن مثل ذلك القول ينطوى على مغالطة واضحة ، إذ أن عسقلان كانت أشد خطراً على مملكة بيت المقدس ذاتها ، فقد عدت بوابة مصر ، وكانت ذات وجود فاطمى حربى فعال ولا أدل على ذلك من أن حاميتها الفاطمية قامت بثلاث غزوات رئيسة ضد أملاك الصليبيين فى أعوام ١١٠١م / ٤٩٥هـ ، ١١٠٢م / ٤٩٦هـ ، ١١٠٥م / ٤٩٩هـ ، وثلاث إغارات صغيرة خلال أعوام ١١٠٧م / ٥٠١هـ ، ١١١٣م / ٥٠٧هـ ، ١١١٥م / ٥٠٩هـ ، وبالرغم من قلة حاميتها إلا أنها أحيانًا تفوقت على القوات الصليبية ووصلت إلى أسوار مدينة بيت المقدس وأشعلت بعض الحرائق هناك [٨٣]، ونخلص من ذلك أن عسقلان كانت أشد

خطراً من صيدا على مملكة بيت المقدس الصليبية خاصة أن صيدا ذاتها لم تمثل قاعدة هجمات ذات شأن على المواقع الصليبية بنفس القدر الذى كان لعسقلان .

ومن جهة أخرى ؛ فليس معنى ذلك أن صيدا لم تكن ذات أهمية للمملكة الصليبية إذ عكس أحد كبار مؤرخيها أهميتها من خلال إشارته إلى أنها مدينة بحرية ذات موقع ملائم بين بيروت وصور وأنها شكلت جزءاً كبيراً من فينيقيا (٨٤)، ويلاحظ أنه إذا ما أمكن للصليبيين إسقاطها فى قبضتهم صار عليهم مواجهة صور من ناحية ، وعسقلان من ناحية أخرى مع الإفادة من الإمكانيات البحرية التى تقدمها لهم صيدا .

وهكذا فإنه خلال تلك المرحلة ، فضلت القيادة السياسية الصليبية أن ترجئ إلى حين أمر عسقلان وجعلت البديل عنها صيدا ولا نغفل حقيقة هامة تتمثل فى أن بلدوين الأول ومن قبل مقدم النرويجيين إلى المنطقة طمع فى الاستيلاء على صيدا دون جدوى وذلك فى عام ١١٠٦م / ٥٠٠هـ ، ومن بعد ذلك عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ مما عكس إلحاح أمر تلك المدينة الساحلية اللبنانية على ذهن القيادة الصليبية حينذاك التى كانت تتحرق شوقًا إلى فرض الهيمنة الصليبية على كامل الساحل الشامى .

وقد اتجه ذلك الملك الصليبى إلى مهاجمة صيدا فى عام ١١٠٦م / ٥٠٠هـ مستغلاً فى ذلك وصول أسطول كبير من عناصر الإنجليز ، والفلمنك ، والدانيين(٨٥) وعندمـــا أدرك حاكمها حجم الخطر المحدق به اتجه إلى أن يقدم للملك الصليبى مبلغًا كبيراً من المال (٨٦)، ونظراً لاحتياج المملكة الصليبية للدعم المالى لتنفيذ مشروعاتها الطموحة فقد وافق - مؤقتًا - على قبول ذلك العرض ، وأجل مشروعه حيالها ، وجعلها تحظى بالأمن لمدة عامين خاصة مع عدم إمكانية حدوث تغير كبير فى موازين القوى قد يؤدى إلى زيادة خطر تلك المدينة فى مواجهة الصليبيين .

ثم تواصلت مطامع الصليبيين فى صيدا عام ١١٠٨م / ٥٠٤هـ ، إذ شجع بلدوين الأول فى ذلك العام ، وصول أسطول بحرى من الغرب (٨٧)؛ إذ وصلت سفن من بيزا ، وجنوة ، والبندقية ، وأمالفى ، وقد دفعه ذلك إلى فرض الحصار عليها براً وبحراً ، غير أن الأسطول الفاطمى قدم إلى المدينة المحاصرة ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالقوى الصليبية المتحالفة (٨٨)، واستمر الأسطول الفاطمى يقوم بدوره فى الدفاع عن صيدا إلى أن وصل إليه خبر وصول قوات من دمشق لحمايتها (٨٩)، فعاد أدراجه إلى مصر .

وهكذا ؛ فعند مقدم الملك النرويجى سيجورد وأسطوله كان إخفاق المحاولتين السابقتين فى عامى ١١٠٦م / ٥٠٠هـ ، ١١٠٨م / ٥٠٢هـ ، ضد صيدا يؤرق القيادة الصليبية ؛ خاصة أن محاولة العام الأخير اشترك فيها أسطول بحرى كبير ، وعلى الرغم من ذلك لم تكلل بالنجاح.

وبصفة عامة أمام رغبة القيادة الصليبية فى إخضاع صيدا ، وموافقة الملك النرويجى سيجورد ورجاله ؛ بحث بلدوين الأول عن حليف صليبى آخر من القوى الصليبية المحلية فى بلاد الشام فوجده فى صورة برتراند أوف تولوز Bertrand Toulouse[٩٠] (١١٠٨ - ١١١٣م / ٥٠٢ - ٥٠٧ هـ) وهو الابن الشرعى لريموند الصنجيلى Roymond of Gilles (١١٠٢-١١٠٥م / ٤٩٦-٤٩٩هـ) كونت طرابلس السابق ، وكان برتراند قد تولى أمر طرابلس منذ عام مضى ، وأراد أن يلعب دوراً حربيًا وسياسيًا مدعمًا للمملكة الصليبية خاصة أنه وصف بأنه كان تابعًا أمينًا للملك بلدوين [٩١].

ومن الطبيعى ملاحظة أن مملكة بيت المقدس الصليبية تعاونت مع كونتية طرابلس الوليدة من أجل الحصول على دعم من القوات البرية التى لديها ، وكذلك تعاونت مع الملك النرويجى لتنال من خلاله دعمًا بحريًا ، ومن الواضح أن الدعم النرويجى فاق الدعم الخاص بكونتية طرابلس على اعتبار أن الأخيرة كانت فى أعوام عمرها الأولى ، ومن المتصور أن إمكاناتها العسكرية فى ذلك الوقت المبكر كانت محدودة .

وقد عقد اجتماع على مستوى عالٍ ، فى بيت المقدس عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ ضم عدداً من القيادات الصليبية فى صورة الملك بلدوين الأول ، والملك سيجورد ، وبرتراند أوف تولوز[٩٢].

والواقع أننا لا نعرف على وجه الدقة التحديد الزمنى لعقد مثل ذلك الاجتماع الهام ، ومع ذلك فمن المفترض أنه عقد فى مرحلة زمنية ليست بعيدة عن يوم ١٩ أكتوبر ١١١٠م / ٣ ربيع الثانى ٥٠٤هـ ، وهو اليوم الذى يعد بداية لشن العمليات العسكرية المشتركة ضد صيدا[٩٣] ، ويدعم مثل ذلك الافتراض أن المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة والمتأخرة لا تشير إلى أية اجتماعات أخرى سبقت ذلك الاجتماع ، فهو بالتالى الأول والنهائى من نوعه الذى ضم أقطاب الصليبيين بما فيهم الملك النرويجى قبل عملية صيدا الحربية ، ولذلك من المنطقى تصور أنه عقد قبل مهاجمة تلك المدينة بفترة قصيرة ، بيد أنه ليس فى الإمكان تحديده أمام صمت المصادر التاريخية .

وإذا نحينا جانبًا التحديد الزمنى لعقد الاجتماع المذكور ، فإننا ندرك أنه احتوى على الخطط الحربية الخاصة بفرض الحصار على صيدا من جانبى البر والبحر معًا [٩٤]، واتجه الملك بلدوين وبرتراند أوف تولوز إلى تجهيز المعدات والجنود اللازمين لعملية الحصار [٩٥]، وكان دور النرويجيين المشاركة فى الحصار البحرى .

وجدير بالذكر ، أن القوات النرويجية على الرغم من أنها كانت تحت قيادة الملك سيجورد ، إلا أن الأخير كان هو أيضًا تحت القيادة الصليبية العليا فى صورة الملك بلدوين الأول خاصة مع إدراكنا أن الصليبيين كانوا على دراية بجغرافية المنطقة وعلى خبرة بموقع صيدا وأفضل الوسائل لإسقاطها من خلال تجاربهم السابقة فى التعامل معها .

وهكذا ، فقد تحرك بجيشه من عكا ، على حين سار النرويجيين من يافا [٩٦]، وحاصر الملك الصليبى وقواته وكذلك برتراند أوف تولوز مدينة صيدا عن طريق البر ، بينما حاصرها النرويجيون عن طريق البحر من أجل منع الدعم البرى من جانب الدولة البورية فى دمشق ، والدعم البحرى الفاطمى من قاعدة صور البحرية الفاطمية .

وقد بدأت عملية الحصار فى ١٩ أكتوبر عام ١١١٠م / ٣ ربيع الثانى ٥٠٤ هـ ويلاحظ فى ذلك التحديد الزمنى أن النرويجيين قاموا بمشاركة الصليبيين فى ذلك الوقت على الرغم من أنهم من قبل كانوا يتخذون من فصل الشتاء مرحلة استرخاء عسكرى ولا يسعون فيها إلى الاشتباك الحربى ، ولكن مع تغير الظروف التى أوضحناها كان ضروريًا أمامهم أن يمتثلوا للصالح الصليبى العام .

ومن المؤكد أن حصار صيدا عام ١١١٠م/٥٠٤ هـ ، كان متميزاً بصورة واضحة ؛ على نحو أدى لمكاسب لصالح الجانب الصليبى ؛ إذ كان هناك دعم بحرى نرويجى لعب دوراً حيويًا فى تشديد الحصار على المدينة بالإضافة إلى مهاجمتها [٩٧]، على نحو منع عنها أى إمدادات خارجية مما عجل بإسقاطها .

وقد ساعد على نجاح التحالف العسكرى الصليبى بين النرويجيين ومملكة بيت المقدس أنه فى العام المذكور لم تظهر فعاليات حقيقية للقوة البحرية الفاطمية ، وقد كان الأسطول الفاطمى موجوداً فى صور ، وعندما سمع قائده - والذى لا تشير المصادر التاريخية إلى اسمه - بأخبار وصول النرويجيين بأعداد أسطولهم الكبير ، وما يحمله من رجال لم يجرؤ على الخروج من قاعدته والاشتباك معهم [٩٨]، ومن المحتمل أن قائد الأسطول الفاطمى قد أدرك

أن مهاجمة ذلك الأسطول الكبير يمثل نوعًا من المغامرة المحفوفة بالمخاطر قد تؤدى إلى حدوث كارثة بحرية تلحق بالفاطميين ، ولذلك فضل أن يظل قابعًا فى صور تجنبًا للمواجهة مع فعاليات الأسطول النرويجى [٩٩].

زد على ذلك ؛ أن الفاطميين فى صور ، من المتوقع أنهم شعروا بحجم الدعم البحرى النرويجى وخشوا أن يتجه الصليبيون إلى صور بعد انتهائهم من أمر صيدا ، فعملوا على حمايتها بدلاً من تشتيت قدراتهم البحرية بين المدينتين فى آن واحد ؛ وهو أمر ليس من اليسير تحقيقه عمليًا باقتدار من خلال الظروف المحيطة .

ومع كافة الاعتبارات السابقة ينبغى ألا يغيب عن تصوراتنا حقيقة جوهرية : وهى أن الخلافة الفاطمية حينذاك مرت بمرحلة حرجة من تاريخها اتسمت بضعف الخلفاء وتزايد نفوذ وزراء التفويض العظام ، وفى ذلك الحين كان هناك الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠م / ٤٩٥ - ٥٢٤هـ) الذى سيطر على مقاليد الأمور فى عهده الوزير الأفضل بن بدر الجمالى حتى وفاته عام ١١٢١م / ٥١٥ هـ ، وقد وصف الآمر بأنه تهاون فى أمر الجهاد ، ولذلك تغلب الصليبيون على السواحل ، وحصنوها فى عهده ، وإذا كان قد أرسل الأساطيل لمواجهتهم وعليها العسكر فلم تكن ذات أية فعالية [١٠٠].

وهكذا فإن كافة تلك الملابسات أدت إلى تحييد دور الأسطول الفاطمى فى قاعدته فى صور ، وعدم دخوله فى صدام حربى مع الصليبيين على نحو دعم فعاليات الحملة الصليبية النرويجية .

ومثل الوضع السابق يدعو إلى المقارنة بين ما حدث خلال عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ ، وعام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ ، ففى العام الأخير ، وعلى الرغم من الاستعانة بأسطول كبير من جانب القوى الأوروبية إلا أن التدخل البحرى الفاطمى حسم الأمر لغير صالح الصليبيين ، أما فى عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ ، فكان لغياب الأسطول الفاطمى دوره فى تغيير الموقف العسكرى لصالح الصليبيين بالإضافة إلى الدعم البحرى النرويجى .

وهناك من تصور عدم انفراد النرويجيين بتقديم العون البحرى للصليبيين وصاحب ذلك التوجه يرى أن البندقية كان لها دورها هى الأخرى فى عملية الحصار من ناحية البحر وأنه قد قدم إلى صيدا أسطول بندقى كبير تحت قيادة دوق البندقية أورديلافو فالبير Ordelafo Falier ، وأنه اشترك مع الأسطول النرويجى فى حصارها بحراً ، ويدلل صاحب هذا الرأى على

ذلك بالقول بأن الملك بلدوين الأول تنازل لكنيسة سان ماركو St. Marco بالبندقية والدوق عن بعض الممتلكات فى عكا [١٠١].

بيد أنه من الممكن عدم الأخذ بمثل هذا التصور على اعتبار أن المصادر التاريخية الصليبية فى صورة ما ألفه فوشيه دى شارتر ، وألبرت دايكس ، ووليم الصورى لم تشر البتة إلى مثل هذا الدور البندقى فى حصار صيدا وإسقاطها عام ١١١٠م / ٥٠٤ هـ على الرغم من أنها قد أشارت من قبل إلى حجم المساعدة الحربية من جانب المدن التجارية الإيطالية للاستيلاء على مدن أخرى واقعة على الساحل الشامى .

وفى تقديرى أن عدد سفن الأسطول النرويجى كان كافيًا لإخضاع مدينة صيدا من خلال الاشتراك مع القوة البحرية الصليبية ، ولم يكن الأمر يستدعى مساعدة بحرية من قوة أوروبية أخرى غير النرويج .

ثم إن الاستدلال بأن الملك الصليبى قد منح البنادقة أملاكًا فى عكا لا يقدم دعمًا لتلك الرواية ؛ لأنه كان من الأجدر به أن يقدم لهم امتيازات فى صيدا ذاتها [١٠٢]،كمكافأة على دورهم فى إسقاطها ، الأمر الذى لم يحدث أصلاً .

وقد قرر رنسيمان أن السفن النرويجية كاد يقضى عليها أسطول فاطمى قوى صغير قدم من مدينة صور ، ولم ينقذها إلا وصول أسطول للبنادقة يقوده الدوق أورديلافو فالبير[١٠٣]، والواقع أن المصادر العربية وكذلك اللاتينية تؤكد على أن الأسطول الفاطمى لم يغادر قاعدته فى صور كى ينقذ صيدا ، كما أنها لم تشر إلى أية مواجهة ما بين الأسطول الفاطمى والنرويجى ، ثم أن قطع الأسطول النرويجى بلغت الستين - كما أوضحت - فكيف يستطيع أسطول فاطمى يوصف بأنه صغير ، وفى نفس الحين قوى أن يحقق فعاليات كبيرة ضده لولا التدخل البحرى البندقى ؟ .

والواقع أنه أمام صمت المصادر المعاصرة والمتأخرة عن الإشارة إلى فعاليات الأسطول البندقى يصعب قبول التصور السابق، ويعنى هذا أن الدعم البحرى خلال عملية حصار صيدا لم يكن إلا من جانب قوة بحرية واحدة فى صورة النرويج ومن ناحية أخرى ، نجد أن تطورات هامة قد وقعت خلال عملية حصار المدينة ؛ إذ أن والى المدينة وهو الأمير مجد الدولة محمد

ابن عـدى [١٠٤]، أعد خطة لاغتيال بلدوين الأول من خلال مسلم ارتد إلى المسيحية إلا أن المسيحيين المحليين فى صيدا كاتبوا الملك الصليبى بالأمر فكشف المؤامرة وقتل صاحبها شنقًا[١٠٥].

والواقع أن الرواية السابقة أوردها المؤرخ الصليبى وليم الصورى بصورة منفردة ، ولم ترد لدى المصادر التاريخية الصليبية الأخرى ، وكذلك العربية ، وعلى الرغم من ذلك فمن الممكن قبولها على اعتبار إمكانية حدوثها من خلال رغبة والى صيدا فى التخلص من حصار الملك الصليبى ، وحليفه كونت طرابلس . ملك النرويج أما موقف المسيحيين المحليين المدعم للصليبيين فذلك أمر عهدناه فى مواقف مختلفة وورود تلك الحادثة السابقة ثم حدوث شواهد تاريخية على مدى القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦ ، ٧ هـ ، تؤكد دعم المسيحيين الشرقيين لاسيما فى لبنان للحركة الصليبية [١٠٦]، كل ذلك يجعلنا نأخذ بتلك الرواية ولا نستبعد إمكانية حدوثها .

ولا ريب فى أن فشل محاولة الاغتيال كان لها أسوأ الأثر على والى صيدا وأهلها وأشعرهم بالإحباط الشديد ، ولم يكن من الممكن اختصار المواجهة مع الصليبيين من خلال عملية الاغتيال ؛ إذ أنها لم تكلل بالنجاح .

على أية حال ؛ نعرف أن الصليبيين جلبوا للحصار آلات كبيرة فاق ارتفاعها أسوار المدينة[١٠٧] واتجه أهل صيدا إلى حفر أسفل سور المدينة بحيث تنفذ إلى الأماكن التى توجد فيها آلات الحصار ووضع مواد حارقة هناك فألحقت بها الضرر [١٠٨]، والجدير بالذكر هنا ، أن أهل صيدا إذا كانوا قد استطاعوا مقاومة آلات الحصار من ناحية البر وهى التى جلبها الصليبيون معهم ، إلا أنهم لم يتمكنوا من مواجهة الأسطول البحرى النرويجى الذى تسيد الجبهة البحرية ؛ إذ لم تشر المصادر التاريخية أدنى إشارة إلى مواجهتهم له على نحو يؤكد لنا أنه قام بدوره كاملاً من خلال التنسيق العسكرى مع المملكة الصليبية .

على أية حال ؛ فقد استمرت أحداث الحصار البحرى والبرى لصيدا مدة سبعة وأربعين يومًا[١٠٩]، عانى أهل المدينة من الضغط الحربى الصليبى عليهم ، وفشلت وسائل المواجهة ضد أعدائهم ، وقد طلبت الحامية من الملك الصليبى بلدوين الأول أن يسمح لها بالخروج سالمة وأن بإمكانه احتجاز الفلاحين الموجودين فى صيدا من أجل القيام بعملهم فى زراعة الأرض[١١٠]، ويلاحظ أن الملك الصليبى وكذلك الملك سيجورد وبرتراند أوف تولوز قد

تدارسوا أمر استسلام المدينة ؛ واتفقوا على قبوله [١١١]، ومعنى هذا أن الملك النرويجى كان يشارك دائمًا فى كل القرارات الهامة التى اتخذتها المملكة الصليبية لا سيما فيما يتصل بأمر بدء الحصار أو فى رفعه عن صيدا ؛ وذلك بوصفه شريكًا متحالفًا فى النشاط الحربى ضد المدينة المذكورة .

وقد أخذ أهل المدينة كافة العهود والمواثيق لضمان عدم التعرض لهم من جانب الصليبيين حين دخولهم المدينة حتى لا تتكرر أحداث بيروت ، وما حل بها من تنكيل عندما سقطت فى أيديهم فى أبريل ١١١٠م / ٥٠٤ هـ [١١٢]، وبالفعل حصلوا على أمان على الأنفس والأموال [١١٣]، وكان تاريخ خروج والى صيدا هو ٤ ديسمبر ١١١٠م / ٢٠ جمادى الأولى ٥٠٤ هـ [١١٤]، وقد اتجه الأعيان إلى مدينة دمشق [١١٥]، حاضرة الدولة البورية وعلى رأسها الأتابك ظهير الدين طغتكين ، أما السكان الفقراء فقد صاروا من رعايا الملك الصليبى الذى حرص على إنهاكهم ماليًا فطلب منهم فدية بلغت ٢٠ ألف دينار على نحو أدى إلى إفقارهم كما أشار البعض [١١٦].

وجدير بالذكر أن نجاح التحالف النرويجى مع مملكة بيت المقدس الصليبية فى أمر صيدا أدى إلى نتائج متعددة بالنسبة للصليبيين المحليين فى بلاد الشام ، وكذلك بالنسبة للنرويجيين أنفسهم ، ثم الفاطميين ، الأمر الذى عكس أهمية وفعاليات ذلك التحالف وتأثيره على أحداث المنطقة والصراع الصليبى الإسلامى حينذاك .

فالملاحظ أنه بعد تلك العملية العسكرية الناجحة صار الصليبيون يسيطرون على كافة مدن الساحل الشامى فيما عدا مدينتى صور فى منتصف الساحل ، وعسقلان فى الطرف الجنوبى [١١٧]، وعدت صيدا من الآن فصاعداً بارونية صليبية يتولاها يوستاش جارنييه Eustache Garnier سيد قيسارية Caesarea [١١٨]، (١١١٠ - ١١٢٣م / ٥٠٤ - ٥١٧هـ) الذى عمل بدوره على توطيد أقدامه من خلال زواجه من إيما Emma إبنة أخت البطريرك أرنولف مالكورن Arnlolf Malecorne بطريرك بيت المقدس [١١٩].

ويتأكد لنا أهمية المكاسب التى غنمتها المملكة الصليبية من جراء تعاونها مع الحملة الصليبية النرويجية من ملاحظة أن تلك المملكة صارت تمتلك رقعة شاسعة من الأرض ، امتدت من بيروت حتى العريش الواقعة على حدود مصر باستثناء أقل القليل من المناطق التابعة للمسلمين ومن أمثلتها عسقلان وصور .

وهناك من يرى أن مملكة بيت المقدس صارت بعد ذلك تنقسم إلى أربع بارونيات كبيرة تتمثل فى صيدا ، ويافا ، وعسقلان ، والجليل بالإضافة إلى إمارتى الكرك والشوبك (١٢٠)، ومع إدراكنا لتوسع المملكة بعد إسقاط صيدا ؛ إلا أن عسقلان حينذاك كانت لا تزال تابعة للسيادة الفاطمية ، ولم تكن السيادة الصليبية قد امتدت إليها بعد .

أما بالنسبة للنرويجيين ؛ فكان حصادهم من جراء التحالف مكاسب مادية وأدبية معًا ، أما على المستوى المادى فقد اعترفت الساجا صراحة بأن النرويجيين حصلوا على كنز كبير من المال (١٢١)، وذلك ضمن حديثها عن الأسلاب ، والمغانم التى آلت إليهم ، كذلك نعرف أنهم حملوا بالهدايا الثمينة (١٢٢).

أما المكسب الأدبى ؛ – وهو أكثر استمرارية وبقاء – فقد تمثل فى مشاركة النرويجيين فى المشروع الصليبى تحت قيادة الملك سيجورد ، وقد صار جليًا أن تحدى الموقع الجغرافى النائى للنرويج وبعدها عن مسرح العمليات العسكرية للصراع الإسلامى الصليبى قوبل من النرويجيين باستجابة حربية أدت إلى دور فعال لهم فى صورة الحملة الصليبية النرويجية . وهكذا لم يعد إخضاع مدن الساحل الشامى حكراً على المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة ، وبيزا ، والبندقية بالتعاون مع الصليبيين المحليين ، إنما ساهم النرويجيون هم أيضًا بدورهم وخير مثال شاهد على ذلك دورهم فى إسقاط صيدا .

ومن جهة أخرى ؛ حقق الملك النرويجى سيجورد مكانة سياسية بارزة ، إذ ظهر أمام ، المعاصرين لا سيما فى بلاده على أنه مدعم المشروع الصليبى ، ولا أدل على ذلك من مطالعة نصوص المصادر التاريخية لا سيما الساجا التى تضعه فى مكانة بارزة(١٢٣) باعتباره أحد قادة القوى الصليبية الأوروبية فى خلال العقد الأول من القرن الثانى عشر م / السادس هـ .

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية ، فقد تأكد استمرارية ضعفها من خلال تساقط مراكزها على الساحل الشامى الواحدة تلو الأخرى ؛ إذ سقطت صيدا بعد أن ظلت تابعة لسيادتها على مدى المرحلة من ١٠٩٠م / ٤٨٤هـ إلى عام ١١١٠م / ٥٠٤ هـ ولا ريب فى أن افتقاد الفاطميين للقوة اللازمة لحماية أملاكهم فى الساحل الشامى ، والضعف العام الذى كانت عليه تلك الخلافة ؛ قد أدى إلى تزايد أطماع الصليبيين فى أملاك الفواطم فى بلاد الشام ، ثم فى مصر ذاتها على نحو كان له أثره الكبير على مسار الصراع الصليبى الإسلامى فى المرحلة التالية من تاريخ الحركة الصليبية فى المنطقة (١٢٤).

نخرج من دراسة تأثيرات إسقاط صيدا على القوى المتعددة المعاصرة أنها كانت من العمق بحيث عكست أهمية الحملة الصليبية النرويجية ذاتها ومشاركتها المطامع الصليبية للصليبيين المحليين فى بلاد الشام .

والواقع أن هناك تساؤلاً عما إذا كان الملك النرويجى سيجورد قد غادر مملكة بيت المقدس الصليبية فور الاستيلاء على صيدا ؟ أم أنه مكث مدة من الزمن هناك ، ومثل تلك الناحية لا توضحها المصادر التاريخية الصليبية التى تلوذ بالصمت فى المرحلة التالية فيما يتصل بأخبار الملك النرويجى ومن معه ، بيد أن الساجا توضح أنه أمضى وقتًا طويلاً فى بيت المقدس فى الخريف وفى بداية فصل الشتاء [١٢٥]، والمرجح أنه بقى هناك مدة من الزمن بعد إسقاط صيدا من أجل أن يستثمر النجاح العسكرى الذى حققه من أجل الدعاية للنرويج ملكًا وشعبًا .

ومن العوامل التى تدعونا إلى الاعتقاد ببقاء ملك النرويج وأسطوله فى المملكة الصليبية بعد انتهاء العملية العسكرية فى صيدا ، أن الاحتفال بعيد الميلاد حدث بعد انتهاء العملية المذكورة بأسابيع قليلة فى نهاية شهر ديسمبر عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ ، ومثل تلك المناسبة كانت مبرراً قويًا لبقاء النرويجيين فى الأراضى المقدسة من أجل الاحتفال بها هناك ، لا فى طريق عودتهم إلى النرويج ، ولا يفوتنا القول بأنه فى مثل تلك المناسبات الدينية كانت الأماكن المقدسة لدى المسيحيين فى فلسطين محط ترحالهم من كافة أنحاء عالم المسيحية Christondom .

ومع ذلك ؛ فليس فى الإمكان تقديم تحديد زمنى دقيق لبقاء النرويجيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية بعد انتهاء تعاونهم العسكرى معها نظراً لصمت المصادر التاريخية وعدم إفصاحها عن تلك الزاوية .

على أية حال ، ففى أعقاب تحقيق الملك النرويجى للعديد من المكاسب من خلال تلك الحملة ، كان طبيعيًا أن يعود أدراجه إلى بلاده ومعه مقاتلوه ، ويلاحظ فى تاريخ العودة أن أحد الباحثين يقرر أنه كان طريقًا بريًا [١٢٦]، والواقع أن هذا القول لا ينطبق على الواقع التاريخى بشكل كامل ، إذ الملاحظ أن طريق عودة سيجورد إلى النرويج كان بحريًا فى قسم ، وبريًا فى قسم آخر .

أما القسم البحرى ؛ فنلمسه من خلال أن ذلك الملك اتجه مع رجاله بسفنهم إلى جزيرة قبرص Cyprus [١٢٧]، وهى التى لم تذكر المصادر التاريخية أنهم مروا بها أثناء رحلة مقدمهم إلى المنطقة قبل عدة سنوات .

وكامتداد للطريق البحرى ، واصل النرويجيون رحلتهم البحرية إلى العاصمة البيزنطية القسطنطينية Constantinople ، وقد أحسن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨٠ - ١١١٨م / ٤٧٣ - ٥١٢هـ) الترحيب بهم ، وأمر بفتح ميناء القسطنطينية من أجل استقبال السفن الزائرة (١٢٨)، ولا ريب فى أن أخبار المساهمة النرويجية فى مواجهة صيدا قد بلغت مسامع البيزنطيين ، ومن ثم أحسنوا استقبال الملك النرويجى ورجاله كرجال منتصرين .

أما الجانب البرى فى رحلة العودة ، فقد بدأ من العاصمة البيزنطية ، ومنطقى أنه كانت هناك عدة دوافع دفعت الملك النرويجى إلى تفضيل العودة بالبر ، إذ أنه من خلال ذلك الطريق البرى يمكنه المرور بمناطق الإمبراطورية البيزنطية ، ثم الدنمارك وأخيراً النرويج ، فهو بالتالى طريق توجد فيه قوى مسيحية ، ولا يمر بمناطق يسيطر عليها المسلمون كما هو الحال فى غرب البحر المتوسط ؛ إذ أن قوة المرابطين البحرية كان لها دورها فى ذلك الجانب من البحر المتوسط بالإضافة إلى أن ذلك الطريق يستغرق وقتًا أكثر ومن خلاله يمكن التعرض للعواصف ، والأنواء ، وبالإضافة إلى ذلك هناك احتمال قائم يتمثل فى أن ذلك الملك أدرك أن عليه الإسراع بالعودة إلى بلاده عبر ذلك الطريق بعد أن طالت مدة ابتعاده عن النرويج عدة سنوات.

والجدير بالذكر ؛ إنه أمام الرغبة فى استخدام الطريق البحرى فى المرحلة التالية ؛ وتفضيل الطريق البرى لم يكن هناك مبرر للاحتفاظ بقطع الأسطول النرويجى بعد أن أدت دورها خاصة أن النرويجيين كان بإمكانهم - على ما هو متوقع - تصنيع عدد آخر من السفن عند عودتهم إلى بلادهم ، ولهذا وردت إشارات إلى أن سيجورد قد تخلص من أسطوله بتقديمه إلى الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (١٢٩)، كما ظل عدد من رجاله في خدمة ذلك الإمبراطور وعادت البقية مع الملك سيجورد إلى النرويج فى صيف عام ١١١١م/ ٥٠٥هـ ، وبذلك يكون قد أمضى أربع سنوات(١٣٠)، خارج حدود بلاده مشاركًا فى أحداث ما يعرف بالحملة الصليبية النرويجية .

وقد تمخض البحث عن عدة نتائج من الممكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : توافرت عدة دوافع مجتمعة دفعت بالنرويج فى عهد سيجورد وأخويه أيستين ، وأولاف للمشاركة فى المشروع الصليبى من خلال الحملة الصليبية النرويجية التى قادها الملك النرويجى سيجورد ، وكانت المملكة الصليبية فى أشد الحاجة إلى الدعم البشرى ، والبحرى لمواصلة إسقاط المدن الاستراتيجية الهامة على الساحل الشامى .

ثانيًا : أفادت المصادر التاريخية النرويجية - فى صورة الساجا - فى تسليط الضوء على رحلة الملك النرويجى وكذلك تعاونه مع الصليبيين ، كما قدمت المصادر التاريخية الصليبية الأخرى تفاصيل هامة عن الدعم العسكرى النرويجى للمملكة الصليبية وقد اتفقت النوعيتان من المصادر فى الخطوط العامة للأحداث المتصلة بتلك الحملة ، مع وجود بعض نقاط الاختلاف بالطبع ، مع عدم إغفال أهمية المصادر التاريخية العربية المعاصرة واللاحقة فى هذا الشأن .

ثالثًا : أثبتت فعاليات تلك الحملة الصليبية النرويجية أن الحركة الصليبية ظاهرة أوروبية عامة اشتركت فيها كافة الشعوب الأوروبية بصورة أو بأخرى ، ولم يحل الموقع الجغرافى النائى دون مشاركة النرويجيين فى أحداثها وعلى ذلك لم يكن الأمر قاصراً على فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا بل أن النرويج كانت لها بصمتها هى الأخرى ، مع ملاحظة أن الدور النرويجى لم يكن بنفس الحجم الكبير الذى كان للدور الفرنسى ، والإنجليزى ، وكذلك فعاليات المدن التجارية الإيطالية .

رابعًا : أثبتت فعاليات الحملة الصليبية النرويجية أن الوجود الصليبى فى بلاد الشام لم يكن يستطيع الاعتماد على إمكاناته الذاتية فى مواجهة المحيط الإسلامى العام هناك ، خاصة خلال المرحلة المبكرة من تاريخ الصليبيين فى المنطقة . وجاءت أحداث تلك الحملة لتكون حلقة فى سلسلة طويلة من النجدات ، والحملات الأوروبية القادمة من الغرب الأوروبى ، ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن تلك الحملة النرويجية هى جزء لا يتجزأ من المشروع الصليبى العام الذى لم يتوقف طوال تلك المرحلة ، وهذا يؤدى بنا إلى تصور دراسة تاريخ الحروب الصليبية فى بلاد الشام على اعتبار عدد الحملات الرئيسية المعروفة والتى استهدفت الشام ومصر وتونس من الممكن أن يجعلنا نغفل أهمية حملات أخرى فرعية مثل الحملة الصليبية النرويجية وغيرها من الحملات الأخرى التى لم تحظ بذات الاهتمام الذى وجه للحملات الرئيسة وبالتالى فمن الإنصاف القول بأن رؤية المشروع الصليبى كمشروع واحد عام ، من الممكن أن تجنبنا الرؤية المجزأة والتى قد لا تقدر أهمية الحملات الفرعية التى ساهمت بدورها هى الأخرى فى تكوين جسد المشروع الصليبى ككل .

ذلك عرض للحملة الصليبية النرويجية ودور الملك النرويجى سيجورد فى دعم الحركة الصليبية خلال المرحلة من ١١٠٧ - ١١١٠م / ٥٠١ - ٥٠٤هـ .

الهوامش :

(1) MAwer, The Vikings, Cambridge 1930, p. 1 .

(٢) عن دوافع إغاراتهم انظر :

Painter, History of the middle ages (284-1500), New York, 1954, p. 89 .

ومن أمثلة هجماتهم وإغاراتهم : ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢ ، تحقيق كولان وبروفنسال ، ط. بيروت ١٩٨٣م ، ص ٨٧ ، أرشيبالدلويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ت . أحمد عيسى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٢٣١ .

(3) Bailey, Viking age Sculpture in northern England , London 1980, p. 80 ; Strayer and Munro, The Middle ages (395 - 1500), New York 1970, p. 100 .

(4) Stphenson, Medieval History, New York1934, p. 200 .

(5) Attwater, The Penguin dictionary of saints, London, 1978, p. 48 .

والقديس أنسكر ولد بالقرب من أميان Amiens عام ٨٠١م / ١٩٣هـ ، ويعد أول منصر فى شمال غرب أوروبا ، وكان راهبًا فى البداية فى كوربى Corbie فى منطقة بيكاردى ، ومن بعد ذلك فى منطقة نيوبيكاردى (كورتى) فى وستفاليا Westphalia قد ذهب إلى الدنمارك فى عام ٨٢٦م / ٢١٨هـ من أجل أن ينصر بالإنجيل ، بيد أنه سرعان ما طرد من هناك ، واتجه من بعد ذلك إلى السويد حيث حقق هناك بعض النجاح ، وفى عام ٨٣١ م / ٢٢٣هـ نجد أن القديس أنسكر قد شغل منصبًا هامًا ألا وهو رئيس أساقفة هامبورج Hamburg وقد جعله البابا جريجورى الرابع Gregory IV (٨٢٨ - ٨٤٤م / ٢٢٠ - ٢٣٦هـ) موجهًا نحو تنصير الاسكندنافيين ، وفى عام ٨٤٥م / ٢٣٧هـ حطم الفايكنج هامبورج وقد تنقل من بعد ذلك إلى الدنمارك والسويد وقد توفى القديس أنسكر فى عام ٨٦٥م / ٢٥٧هـ ، والجدير بالذكر أن يوم الاحتفال بعيده هو يوم ٣ فبراير من كل عام .

عن ذلك القديس انظر : Attwater, p. 48

(6) Ibid, p. 258 - 259 .

وعنه أيضًا : . Brooke, A History of Europe from 911 to 1198, London 1938, p. 352

(٧) والقديس سيجفريد ، هو أسقف ومبشر تم تعيينه من أجل نشر المسيحية فى صفوف السويديين ، ونعرف عنه أنه كان راهبًا من York وقد أرسل مع عدد من المنصرين الإنجليز من أجل نشر المسيحية هناك ويقال أنه جعل مركزه فى فاكسجو Vaxjo الواقعة فى القسم الجنوبى من السويد ، ونجح فى عمله فى منطقة سمالاند Smaland وفاستر جوتلاند Vastergotland ، ومن المعروف عنه أنه عمد أحد الملوك الإسكندنافيين وهو الملك أولاف اسكوتكونج Skotlonung ونلاحظ أنه توفى عام ١٠٤٥م / ٤٣٩هـ ويوم الاحتفال بعيده هو ١٥ فبراير من كل عام .

عن ذلك القديس انظر : . Attwater, p. 303

(٨) عن الملك أولاف الأول ودوره انظر : . Ancy. Birt, "Olaf" Vol. Chicago 1987, p. 903

(٩) عن الملك أولاف الثانى انظر : . Attwaer, p. 258 - 259

(١٠) كريستوفر دوسون ، تكوين أوروبا ، ت . محمد مصطفى زيادة ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(11) Ency. Brit. "Sigurd 1 ", Vol. X. p. 798 .

وعن التعريف بسيجورد انظر :

Gjerst, History of Norwegian People, New York 1927, p. 312 ; Fink, " The Foundation of the Latin States (1099 - 1118), In Setton, Ahistory of the Crusades, Vol. I, Madison 1969, p. 386 .

(12) The Saga of Sigurd The Crusader (1107-1110), in wright Early Travels in Palestine, London 1848, p. 50 .

(13) Ibid, p. 50 .

(١٤) عن ذلك الخطاب انظر :

Robert the Monk, in Peters, The First crusade, The Chronicles of Fulcher of chartres and other source materials, philadelphia 1971, pp, 1-4, Baldric of Dol, pp. pp. 6-10, Guilbert of Nogent, pp. 10 - 13; Fulcher of Chartres, A Hisatory of the Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennesse 1969, pp. 62 - 65 .

(15) The Saga of Sigurd, p. 50 .

(16) William of Tyre, A History of the deeds done beyond the Sea, Vol. I, Trans. By Babcock and Krey, New York, 1943, p. 486 .

(١٧) محمد فتحى الشاعر ، أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ١١ .

(١٨) عصام سالم سيسالم ، جزر الإسلام المنسية ، التاريخ الإسلامى لجزر البليار ، ط. بيروت ١٩٨٤م ، ص ٢٢٠ .

(19) Gjerst, p. 314 .

(20) Ibid. p. 313 .

(21) The Saga of Sigurd, p. 50 .

والساجا فى الأصل كلمة أيسلندية من الفعل Segin ويعنى أن يقول To Say أو قول Saying ، وليس لها مفهوم أدبى تكنيكى فى الأيسلندية القديمة ، ويمكن أن يفسر على أنه قصة طويلة تحتوى على عدد من

الأحداث المتلاحقة ، وهناك من يرى أن الساجا المقصود بها الملحمة النثرية ، وأن المرحلة الواقعة بين عامى ٩٣٠ ، ١٠٣٠م اعتبرت عند الأيسلنديين عصر إنشاء الملاحم النثرية ، والواقع أن الساجا ارتبطت ببطولة قادة النرويج فى العصور الوسطى ، وقد اعتقد أندرسون أن أبكر تاريخ للساجات يرجع إلى وقت متأخر من القرن الثانى عشر م / السادس هـ . إلا أن مثل هذا التصور من الممكن معارضته على اعتبار أن القرن العاشر م / الرابع هو ليس الثانى عشر م / السادس هـ ، قد شهد مثل تلك البدايات ، ولدينا عدد من الساجات خاصة بكبار القادة والملوك النرويجيين مثل إنجيل سكالجريمسون رنجال وأولاف القديس وعدد آخر غيرهم ، وهناك من الباحثين من يقرر أن الساجا ارتبط بها جانب أسطورى ، بيد أن من الممكن معالجة ذلك من خلال مقارنة نصوصها بالمصادر التاريخية الأخرى عن الساجا انظر :

The Oxford reference dictionary, London 1962, p. 726, Wright, The Geographical lore in the time of the crusades, New York 1965, p. 346, The Oxford English dictionary, Vol. IX, Oxford 1973, p. 82, Anderson, "Saga", in dictionary of the middle ages, New York. 1989, p. 616 .

(22) William of Tyre, Vol. I, p. 488, Note(60) .

(23) Ibid, p. 486 .

(24) Fulcher of Chartres, p. 199 .

إرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ت . السيد الباز العرينى ، ت. بيروت ، ب - ت ، ص ٤٤ ، عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية وأثرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ت . فيليب رفلة ، ط. القاهرة ب - ت ، ص ٥٦ .

(25) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, R.H.C., Hist. Occ., T.IV, Paris 1879, p. 678 .

(26) The Saga of Sigurd, p. 51 .

(27) Ibid, p. 57 .

(٢٨) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، ط. دمشق ١٩٨٣م ، ص ٢٧٣ . انظر أيضًا :

حسين أحمد أمين ، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها ط. القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٥٨ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ١ ، ط دمشق ١٩٨٣م ، ص ٢٦٦ ، أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ت. عفيف دمشقية ، ط. بيروت ١٩٨٩م ، ص ١١٣ .

ويلاحظ أن ريتا ريان Rita Rian فى ترجمة كتاب فوشية الشارترى إلى اللغة الإنجليزية أشارت فى ص ١٩٩ حاشية (١) إلى أن ابن القلانسى قد ذكر أن عدد سفن الأسطول النرويجى بلغت الستين سفينة وذلك بالاعتماد على الترجمة الإنجليزية التى قام بها هاملتون جب Hamilton Gibb لكتاب المؤرخ المذكور .

عن ذلك انظر : Fulcher of Chartres, p. 199, not (1) اعتمادًا على : The Damascus chronicle of the Crusades, Trans. by H. Gibb, London 1940, p. 106 .

غير أن نص المؤرخ المعاصر المذكور صريح تمامًا إذ أنه يقر أن العدد هو " نيف وستون " على نحو يخالف ما ذكر فى الكتابين المذكورين . عن ذلك انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ ، ومن ناحية أخرى ذكر السيد عبد العزيز سالم أن ابن القلانسى أشار إلى أن عدد السفن سبعين سفينة ، وهذا أمر يخالف ما ورد صراحة فى كتاب المؤرخ الدمشقى ، عن ذلك انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م ، ص ١٠٠ .

(٢٩) الكامل فى التاريخ ، جـ١ ، ط. بيروت ١٩٩٦م ، ص ٤٧٩ ؛ أيضًا : سعيد برجاوى ، الحروب الصليبية فى الشرق ، ط. بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٢١٣ .

(٣٠) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣١) عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(32) The Saga of Sigurd, p. 53 .

وأيضًا : Gjerset, p. 315 .

(33) The Saga of Sigurd, p. 51 .

(34) Ibid, p. 52 .

(٣٥) عصام سالم سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(36) The Saga of Sigurd, p. 52 .

(٣٧) عن تلك المنطقة انظر : ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ١ ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣م ، ص ٤١٥ ؛ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٦١ – ص ٣٠٠ ، سحر السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس فى العصر الإسلامى ، جـ١ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٨م ، ص ٢١٧ .

(٣٨) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ .

(39) The Saga of Sigurd, p. 52 .

(٤٠) عن الجانب التنصيرى فى مرحلة الحروب الصليبية انظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق قاسم السامرائى ، ط. الرياض ١٩٨٧م ، ص ١٢٧ ، ابن جبير الرحلة ، ط. بيروت ١٩٦٤م ، ص ٢٨١ .
Kedar, Crusade and mission, European approaches to the muslims, Princeton 1988, Bald-win, "Mission to the east in the Thirteenth and Fourteenth Centuries", in Setton, A History of the Crusades Vol. V, Philadelphia 1985. The Saga of Sigurd, p. 53 .

(٤١) ويلاحظ أن جيرست قد اعتقد من قبل أن منطقة Al Kassi من المستحيل تحديد موقعها إلا أن المصادر العربية أفادت فى تلك الزاوية أنظر رأيه : Gjerset, p. 216 .

(٤٢) عن تلك المنطقة انظر : الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، جـ٢ ، تحقيق ديلاتيلا وجابريلى وآخرون ، ط. القاهرة ب – ت ، ص ٥٣٩ .

(43) The Saga of Sigurd, p. 53 .

(٤٤) عصام سالم سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٤٥) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١ .

(46) William of Tyre, Vol. I, p. 486 ; Wright. The geographical Lore, p. 11 .

(47) Gjerset, p. 316 .

(٤٨) عصام سالم سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ ، وعنها انظر : ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربى ، ط. بيروت ١٩٧٠م ، ص ١٦٨ .

(٤٩) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ ، عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ / ٧١١ – ١٤٩٢م ، ط. دمشق ١٩٨٧م ، ص ٤٢٦ ، السيد عبد العزيز سالم والعبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، ط. بيروت ١٩٦٩م ، ص ٤٣ ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط. الإسكندرية ب – ت ، ص ٣٢٤ .

(50) The Saga of Sigurd, p. 54 - 55 .

(٥١) عصام سالم سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٥٢) إرنست باركر ، المرجع السابق ، ص ٤٤ ، عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(53) Runciman, A History of the Crusades, Vol. II, London, 1978, p. 93 .

(٥٤) فهمى توفيق مقبل ، القاطميون والصليبيون ، ط. بيروت ١٩٧٩م ، ص ١٠٦ .

(55) Fulcher of Chartres, p. 199 .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣١٠ .

(56) Fulcher of Chartres, p. 199 ; William of Tyre, Vol. I, p. 486 .

(57) Runciman, Vol. II, p. 92 .

أيضًا : صلاح الدين محمد نوار ، العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ٩٠ – ٥١٥هـ / ١٠٩٧ – ١١٢١م ، ط. الإسكندرية ، ١٩٣٣م ، ص ٢٩١ .

(58) The Saga of Sigurd, p. 56 .

(59) Attwater, p. 191 .

وعن يوحنا المعمدان انظر : متى ، الإصحاح (١) ، من ١ إلى ٦ ، الإصحاح الثالث من ١٣ – ١٧ ، مرقص ، الإصحاح السادس من ١٤ – ٢٩ ، ولوقا ، الإصحاح التاسع من ٧ – ٩ .

Hastings, Dictionary of the Bible, New York 1952. pp. 509 - 510; Grant, Historca interduction to the New Testament, New York 1952, pp. 309 - 312 .

(60) The Saga of Sigurd, p. 57 .

(61) Stevenson, "The First Crusade", C.M.H., Vol.V, Cambridge 1979, p. 304 .

أيضًا : محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ ، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

(٦٢) أنتونى بردج، تاريخ الحروب الصليبية ، ت . غسان سبانو ونبيل الجيرودى ط. دمشق ١٩٨٥م ، ص ١١٨ ، ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ، ت . إلياس شاهين ، ط. موسكو ١٩٨٦م ، ص ١٥٧ .

(63) Stevenson, The Crusaders in The East, Cambridge 1907, p. 39 .

(٦٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٨٢ .

(٦٥) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٢٨٠ .

(66) Daniel, Pilgrimage of Russiam A bbot Daniel in the Holy Land, Trans by Wilson, P.P.T.S., Vol. IV, Lodon 1895, p. 9 .

وعن وصف ذلك الطريق انظر :

سيد فرج " القدس عربية إسلامية " ، الدارة ، العدد (٣) ، السنة (٨) ، يناير ١٩٨٤م ، ص ١ ، عبد الرحمن زكى " القلاع فى الحروب الصليبية " ، المجلة التاريخية المصرية ، م (١٥) ، عام ١٩٦٩م ، ص ٦٣ ، فتحى عبد العزيز عبد الله ، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الزقازيق عام ١٩٨٦م ، ص ١٢٢ ، على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢١٣ .

(٦٧) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ ، شفيق جاسر ، القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها ، ط. عمان ١٩٨٩م ، ص ٥٢ .

(٦٨) قلعة الشوبك ؛ وقعت على تل مرتفع أبيض فى طرف الشام من جهة الحجاز فى الجهة اليمنى من وادى عربة بين الطفيلة ، ومعان ، وإلى الشمال الشرقى من البتراء ، وقد وصفت قلعة الشوبك بأنها قلعة مينية من الحجارة البيضاء ، وذات حصانة ومنعة كبيرة ، عن قلعة الشوبك انظر :

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ط. بيروت ١٩٩٠م ، ص ٤٢٠ ، أبو الفداء ، تقويم البلدان تحقيق رينو ودى سلان ، ط. باريس ١٨٤٠م ، ص ٢٤٧ ، يوسف درويش غوانمة ، إمارة الكرك فى العصر الأيوبى ، ط. عمان ١٩٨٤م ، ص ٦٤ ، حاشية (٢)؛ مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت . محمد وليد الجلاد ، ط. دمشق ١٩٨٤م ، ص ١٤٠ ، سعد المومنى ، القلاع الإسلامية فى الأردن ، الفترة الأيوبية والمملوكية ، ط. عمان ١٩٨٨م ، ص ٢٤٣ - ص ٢٥٣ .

(٦٩) قلعة اسكندرونة ؛ وقعت بالقرب من صور ، وقد شيدت فى موقع يسمى الكسندريوم Alexandrium على اسم الإسكندر المقدونى Alexander of Macedonia حيث بنى هناك قلعة ، من أجل مساعدته فى

إحكام سيطرته على مدينة صور ، ويلاحظ أن وليم الصورى قد أشار إلى أن اسمها ينطق بصورة شائعة على أنه سكاندليوم Scandalium ، وقد ورد ذكرها لدى عدد من الحجاج الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية .

عنها انظر :

William of Tyre, Vol. I, p. 514, Burchard of Montsion Descroption of the Holy Land, Trans by . Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1869, p. 10, note (1); Marino Santo, Secrets for True Crusaders to help them to recover the Holy Land, Trans. by A. Stewart, P.P.T.S., Vol VII, London 1896, p. 8, Ludolph Von Suchem, Description of the Holy Land, Trans By Stewart, P.P.T.S. Vol. XII, London 1895, pp. 61 - 62 .

شيخ الربوة الدمشقى ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهران ط. بطرسبرج ١٨٣٥م ، ص ٢١٣ .

(٧٠) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣١٩ - ص ٣٢٠ .

(٧١) أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٦٥ - ص ٦٦ .

(٧٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٢ .

(73) Prawer, "The Settement of The Latins in Jerusalem" Speculum, Vol. XXXII, Cambridge 1952, p. 496 .

(74) William of Tyre Vol. I, p. 508 .

(٧٥) مصطفى الكنانى ، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (١٠٩٥ - ١١١٧م / ٤٨٨ - ٥٦٧هـ) .

(٧٦) عن سقوط تلك المدن فى قبضة الصليبيين انظر :

Fulcher of Chartres, pp. 142 , 151 , 176 ; William of Tyre, Vol, I, p. 484 .

(77) Fulcher of Chartres, p. 199 .

(78) William of Tyre, Vol. I, p. 486.

(79) Ibid, p. 486 .

(80) Ibid, p. 487 .

(81) Fulcher of Chartres, p. 200 .

(82) Ibid, p. 200 .

(83) Ibid, p. 79 , p. 250 .

أيضًا : فتحية النبراوى ، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى ١٠٠٠-١٣٠٠م ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٣ .

(84) William of Tyre Vol. I, p. 487 .

وانظر عنها : بنيامين التطيلي ، الرحلة ، ت . عزار حداد ، ط. بغداد ١٩٤٩م ، ص ٩٠ .

(85) Albert d'Aix, p. 632 .

(86) Runsiman, Vol. II, p. 91 .

فايد حماد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨٥م ، ص ١٣٥ .

(87) Runciman, Vol. II, p.

(٨٨) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جـ٣، تحقيق محمد حلمى أحمد ، ط. القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٤٣ ، أسامة زكى زيد ، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٨١م ، ص ٨٧ ، السيد عبد العزيز سالم والعبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١١٢ .

(٨٩) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٩٠) عنه انظر : Fulcher of Charres, p. 195 ; William of Tyre, Vol. II, p. 478

ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٨٨ – ص ٢٨٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م ، ص ١٤٦ ، عمر عبد السلام تدمرى ، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور ، عصر الصراع العربى – البيزنطى والحروب الصليبية ، جـ١ ، ط. بيروت ١٩٨٤م ، ص ٤٨٦ ؛ Runciman, Vol III, pp. 65 - 70 .

(91) Fulcher of Chartres, p. 195 .

(92) Albert d'Aix, p. 678.

(٩٣) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٤٧٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ص ١٠٠ .

(94) Albert d'Aix, p. 678 .

(95) Ibid, p. 678 .

(96) Fulcher of Chartres, p. 200 .

والجدير بالذكر أن أحمد الحفناوى قد اعتقد أنه كان هناك أسطول صليبى آخر بجوار أسطول النرويجيين ، إذ يقول ما نصه " أصدر (أى بلدوين الأول) أوامره للأسطول الصليبى الذى كان فى مياه يافا بالاستعداد للاشتراك فى إخضاع صيدا .. وفى موضع يقول عن فعاليات الصليبيين ضد صيدا " ... فضلاً عن ضربات الأسطول الصليبى والنرويجى الموجهة ضد المدينة " .

انظر : أحمد الحفناوى ، " الصراع من أجل صيدا فى العصر الوسيط " ، المنهل السنة (٥٠) ، م (٤٦) صفر ١٤٠٤هـ / نوفمبر ١٩٨٣م ، ص ٧١ .

والواقع أنه لم يكن هناك سوى أسطول بحرى واحد ألا وهو الأسطول النرويجى الذى كان مستقراً فى يافا ولم تشر المصادر التاريخية الصليبية أدنى إشارة إلى وجود أى أسطول غير أسطول النرويجيين ، ومن المرجح أنه فى حالة القول بأن المملكة الصليبية كان بها أسطولها البحرى الخاص بها حينذاك ، لما ألحت على الملك النرويجى سيجورد بالبقاء من أجل الإسهام فى العمليات الحربية ضد صيدا .

(97) Albert d'Aix, p. 679

(٩٨) عن الأسطول الفاطمى فى صور وعجزه من تقديم المساعدة لصيدا انظر :

Fulcher of Chartres, p. 200

ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٤٧٩ ؛

Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, Trans. by Costello , London, 1975, p. 28.

سعيد برجاوى ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ ، ص ٢١٤ .

ويقرر أ.د. السيد عبد العزيز سالم ما نصه : " .. ومع ذلك فقد حاولت هذه السفن (يقصد السفن الفاطمية) اختراق الحصار النرويجى ، ولكنها عجزت عن إمداد أهل صيدا بما كانوا يحتاجون إليه من سلاح وأقوات ومقاتله " . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٠١ . بيد أننى اختلفت مع تصوره على اعتبار ما أكدته المصادر التاريخية العربية والصليبية المعاصرة من عدم مواجهة الأسطول الفاطمى فى صور للأسطول النرويجى .

(٩٩) السيد عبد العزيز سالم والعبادى ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(١٠٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ، ط . القاهرة ب.ت ، ص ١٧٨ .

وعن وزارة الأفضل انظر : محمد حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٢٧١ .

(101) Heyd, Histoire de Commerce de levant au Moyen ages, Vol. I, leipzeg 1936, p. 142 .

(١٠٢) أسامة زكى زيد ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(103) Runsiman, Vol. II, p. 92 .

(١٠٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٠٢ ، حاشية (٣) .

(105) William of Tyre, Vol. I, p. 488 .

(١٠٦) عن دور موارنة لبنان فى دعم الحركة الصليبية انظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 458, Jacques de Vitry, p. 79 , Salibi, The Maronites of Lebanon under The Frankish and Mameluke role", R.E.A., T.IV, Année 1957, p. 289, Mayer The Crusades. Trans. By Gillingham, Oxford 1972, p. 276

لويس الحاج ، الجيش الفرنسى ، ط. بيروت ١٩٧٥م ، ص ٤٨ .

(١٠٧) ويلاحظ أن لدينا وصفًا لذلك البرج الذى جلبه الصليبيون لإخضاع صيدا من جانب ابن القلانسى المعاصر لتلك الأحداث إذ يقول " حملوا البرج وزحفوا به إليها ، وهو ملبس بحطب الكرم . والبسط ، وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة ، والنفط ، وكانوا إذا احكموه على هذه الصورة ، نقلوه على بكر تركب تحته فى عدة أيام متفرقة " . عن ذلك انظر : ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(108) Albert d'Aix, p. 78 .

وعلى الرغم من تلك المقاومة الباسلة من جانب أهل صيدا والتى اعترفت بها المصادر الفرنجية الصليبية المعادية نجد أن أمين معلوف يذكر ما نصه " أن أهلها لم يكونوا راغبين فى القتال " على نحو يجعلنا لا نقبل تصوره . أنظر : أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ص ١١٣ .

(١٠٩) ابن القلانسى ، المصدر السابق ،و ص ٢٧٤ ، أيضًا : عباس العصيمى ، الدولة البورية وعلاقتها بالصليبيين (٤٩٧ - ٥٤٩هـ / ١١٠٣ - ١١٥٤م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض عام ١٩٨٧م ، ص ١٣٦ .

(110) Fulcher of Chartres, p. 200.

(111) Albert d'Aix, p. 678.

(112) Fulcher of Chartres, p. 196 - 197, William of Tyre, Vol. 1, p. 484 .

ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٩ ، صالح بن على ، تاريخ بيروت ، تحقيق لويس شيخو ، ط. بيروت ١٩٢٧م . ص ١٧ .

(١١٣) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(١١٤) نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

وعن سقوط صيدا فى قبضة القوات الصليبية انظر :

أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ط. بيروت ب - ت ، ص ٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، بيروت ، ب-ت، ص ١٧٢ ، الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، جـ٢ ، ط. بيروت ١٩٨٥م ، ص ٣٨٥ ، ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ، ط. بيروت ١٩٧١م ، ص ١٩٣ ، الحريرى ، الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق مهدى رزق الله ، ط. الإسكندرية ١٩٨٤م ، ص ١٨ .

(١١٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤٨٠ .

(١١٦) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤٨٠ .

Gabrieli, p. 28 , Runciman, Vol. II, p. 93 .

(١١٧) مصطفى الكنانى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ عباس العصيمى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

ويلاحظ أن عبد القادر اليوسف أغفل تمامًا دور النرويجيين فى التوصل إلى تلك النتيجة بالنسبة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ ذكر ما نصه " استولى بلدوين الأول بمساعدة الأساطيل البيزية والجنوية ، والفينسية فى الفترة من ١١٠٠ - ١١١٨م على كافة مدن الساحل ما عدا صور وعسقلان " .

عن ذلك انظر :

عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر م . ط. صيدا ١٩٦٩م ، ص ٨٠ .

وذات الأمر وجدناه لدى ستيفنسن الذى أشار إلى مساعدة الجنوية والبنادقة وأغفل أى دور للنرويجيين إذ ذكر أنه (أى بلدوين الأول) بفضل مساعدة الجنوية والبنادقة تمكن من إخضاع مدن الساحل الهامة مثل أرسوف ، وقيسارية ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، انظر : . Stevenson, p. 304

(118) Runciman, Vol. II, p. 93 .

ويوستاش جارنييه Eustache Garnier ؛ فارس من هاربيل Harbel أو Herbelle وهى قرية وقعت بالقرب من تيروان Therouane الواقعة بدورها فى شمال غرب فرنسا ، وقد رافق جيش جودفرى البيونى وورد اسمه فى الأشعار اللاتينية التى مجدت الذين اشتركوا فى أحداث الحملة الصليبية الأولى وهناك من يقرر أن أول إشارة وردت عنه كانت من خلال اشتراكه فى معركة ضد المسلمين عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ وذلك عندما رافق الملك الصليبى بلدوين الأول فى معركة الرملة الثالثة عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ ثم تردد اسمه مرة ثانية خلال أحداث حصار الفرنجة الصليبيين لمدينة طرابلس التى استولوا عليها عام ١١٠٩م / ٥٠٢ هـ كما أنه ورد خلال الفرنجة الصليبيين فى الهجوم البري الذى قامت به حامية عسقلان عام ١١١٠م / ٥٠٤ هـ .

عن يوستاش جارنييه انظر :

Fulcher of Chartres, p. 240, p. 246, Albert d'Aix, p. 621; William of Tyre, Vol. I, p. 484; Runciman, Vol. II, p. 68. p. 85, p. 95 .

حسن عبد الوهاب حسين ، قيسارية فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م ، ص ٧٦ ، ص ١٤ ، حاشية (٨٩) ، ص ١٢٨ ، حاشية (٦) ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، ط القاهرة ١٩٥٩م ، ص ١١١ .

والجدير بالذكر أن الزميل الباحث الدكتور حسن عبد الوهاب حسين قد قرر أن أول إسهام ليوستاش جارنييه عقب حصوله على قيسارية هو المشاركة فى حصار القوات الصليبية لصيدا الفاطمية والاستيلاء عليها ، وذلك فى ديسمبر ١١١٠م / جمادى الأولى ٥٠٤هـ ، ويشير إلى أنه على الرغم من أنه لم ترد فى المصادر الصليبية طبيعة الدور الذى لعبه فى أحداث ذلك الحصار إلا أن حصوله على صيدا فى أعقاب سقوطها كبارونية يوضح أنه أسهم بدور فعال فى ذلك الحصار .

عن ذلك انظر : حسن عبد الوهاب حسين ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

والواقع أننا لا يمكننا تأكيد ما ذهب إليه الباحث على اعتبار أن المصادر الصليبية ذاتها لم تكشف النقاب عن ذلك الدور الذى أشار إليه ، ومن المتصور أنه فى حالة قيام يوستاش جارنييه بدور فعال فى ذلك الحصار لأشارات إلى ذلك المصادر التاريخية الصليبية بوضوح كامل مثلما فعلت فى أدواره الأخرى خلال تلك المرحلة ، وإغفالها ذكره فى أحداث الحصار دليل واضح على انتفاء ذلك الدور ، إذ أنها - كما تكشف عنه صفحات هذا البحث - توضح أدوار كل من الملك الصليبى بلدوين الأول ، والملك النرويجى سيجورد ثم برتراند أوف تولوز كونت طرابلس ، من ناحية أخرى فالملاحظ أن يوستاش جارنييه لم يشارك فى الاجتماع الذى عقد فى مدينة بيت المقدس قبيل مباشرة حصار صيدا وهو الاجتماع الذى شارك فيه القادة الصليبيون الثلاثة المشار إليهم ، وغيابه يدعم التصور بعدم مشاركته الحربية فى حصار صيدا .

(119) Runciman, Vol, II, p. 93 .

(١٢٠) أسامة زكى زيد ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(121) The Saga of Sigurd, p. 57 .

(122) William of Tyre, Vol. I p. 488 .

(123) The Saga of Sigurd, p. 57 .

(١٢٤) أحمد الحفناوى ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(125) The Saga of Sigurd, p. 58 .

(126) Wight, The Geographical Lore, p. 111.

(127) The Saga of Sigurd, p. 58 .

(128) Ibid, p. 58 .

(129) Fulcher of Chartres, p. 199, note (2) .

(130) William of Tyre, Vol. I, p. 488, note (60) .

ومن الملاحظ أن أهم أعمال سيجورد فى النرويج بعد عودته إلى بلاده وتوليه الحكم منفرداً بعد وفاة أخيه إيستين ، بناء عدد من الكاتدرائيات نجد منها ستافنجر Stavanger ؛ حيث أسس هناك أسقفية على نحو ساهم فى نمو تلك المدينة عمرانيًا بشكل كبير ، وهناك من يشير إلى أنه فى أعوام عمره الأخيرة صار مفتقداً لقواه العقلية .

عن ذلك انظر :

Fulcher of Chartres, p. 199, note (2) .

والجدير بالذكر هنا ؛ أن لدينا بعض المعلومات عما يظن أنه جمجمة رأس سيجورد ، فمن المعروف أنه فى عام ١٦٣٦م ، وجدت جمجمة إنسانية فى أطلال حوائط كنيسة القديس هالفارد St. Hallvard فى أوسلو Oslo ، وقد اعتقد البعض أنها كانت تخص الملك سيجورد ، وكان اسم ذلك الملك مكتوبًا على حائط حجرى

فى موقع الجمجمة ، وفى عام ١٣٧٩م تم جلبها إلى كوبنهاجن Copenhagen ، حيث وضعت ضمن المجموعة الملكية للفن ، وبعد قرن من الزمان تم منحها للمتحف الوطنى الدنماركى ، وفى عام ١٨٦٧م أعاد ذلك المعهد الجمجمة ومعها بعض المتعلقات القديمة الأخرى إلى أسولو حيث صارت هناك ضمن المتحف الجامعى للمتعلقات القديمة الوطنية وتجدر الإشارة إلى أن هوية الجمجمة بوصفها لسيجورد الصليبى قد خضعت لبعض الشك ، وتظهرها التحقيقات الأنثروبولوجية أنها ترجع إلى شخص يتراوح عمره بين الأربعين والخامسة والأربعين وهى ذات المرحلة العمرية التى كانت لسيجورد (١٠٩٠ - ١١٣٠) ومع ذلك ليس فى الإمكان التوصل إلي قرار مؤكد تمامًا فى هذا الشأن .

عن ذلك انظر البحث الأثرى الذى قام به الباحث النرويجى بيرهولك ، والذى نشر فى مجلة فيكنج عدد (٤٦) ، الصادر فى أوسلو عام ١٩٨٢م ، الصفحات من ١١٢ - ١٢٣ وهى بالنرويجية :

Per Holck, "Sigurd Jorsa Lfarers Hodeskalle", Viking 46, Oslo 1982. pp. 112 - 123 .

(٣)

أضواء على الطب فى المناطق الصليبية
خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤ م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة الجوانب الطبية فى المناطق الصليبية خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ ، أى خلال المرحلة الواقعة من استقرار الصليبيين فى شمال الشام حتى وفاة الملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤م / ٥٥٩ - ٥٧٠ هـ) وهو بالتالى يتعرض لما يتصل بالجوانب الطبية لدى الفرنجة الصليبيين الذين قدموا إلى المنطقة كغزاة منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، ويتصدى لتلك الجوانب الطبية لدى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى كمدخل للموضوع الأصلى . كما يتعرض لأنواع الأمراض التى واجهت الفرنجة الصليبيين والمؤسسات العلاجية فى صورة المستشفيات وأساليب العلاج لديهم ، ونوعيات الأطباء الذين عملوا فى صفوف الصليبيين سواء من العناصر اللاتينية أو من العناصر المحلية فى بلاد الشام كاليهود ، والمسيحيين الشرقيين ، والمسلمين ، كذلك يتعرض البحث لمستوى الطب الصليبى ، وقيام الصليبيين بالإفادة من طب المسلمين من خلال حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية .

والجدير بالذكر ؛ أن دراسة الطب فى المناطق الصليبية خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ يعد موضوعًا على جانب كبير من الأهمية فى دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى وخاصة خلال مرحلة الحروب الصليبية ، ويلاحظ أن الباحثين كثيراً ما اتجهوا إلى دراسة الموضوعات ذات الطابعين الحربى والسياسى المتصلة بالوجود الصليبى فى بلاد الشام فى ذلك العصر وتجنبوا التعرض للنواحى الطبية على الرغم من أهميتها فى دراسة أوضاع الصليبيين الحضارية . وإن وجدت لدى مؤلفات الباحثين إشارات عن ذلك فهى قليلة ونادرة ولا تشفى غليل الباحث المتطلع إلى المزيد عن تلك الناحية.

ويعانى الباحث المتصدى للكتابة التاريخية عن الجوانب الطبية فى المناطق الصليبية خلال المرحلة الزمنية المذكورة من مشكلة قلة إن لم يكن ندرة الإشارات المصدرية ؛ فالمؤرخون

الصليبيون المعاصرون لتلك المرحلة وكذلك المتأخرون ، جعلوا نصب أعينهم الاهتمام بقضايا الصراع الحربى بين الصليبيين والمسلمين فى ذلك العصر ، وندرت فى مؤلفاتهم الإشارات المتصلة بالطب والأطباء ، وإن وردت فى مؤلفاتهم ذرات متناثرة هنا وهناك .

أما المصادر العربية ذاتها ، فهى تعانى من نفس الأمر بصورة أكثر تزايداً ، خاصة من خلال ملاحظتنا أن المؤرخين المسلمين المعاصرين لتلك المرحلة جعلوا جلّ اهتمامهم التصدى لقضية الجهاد الإسلامى فى مواجهة الصليبيين ، وتطور حركة الإفاقة الإسلامية ضد الغزاة ، ولذلك خلت مؤلفاتهم - فى الغالب الأعم - من تناول أوضاع الصليبيين لاسيما أوضاعهم على المستوى الطبى ، وذلك باستثناء ما نجده فيما ألفه أسامة بن منقذ (ت ٥٨٢ هـ / ١١٨٨م) الذى خبر الصليبيين وبالتالى قدم لنا رؤية هامة عن الجانب الطبى لديهم من خلال اتصاله الوثيق بهم .

وعلى الرغم من قلة الكتابات التاريخية عن هذا الموضوع باللغة العربية ، إلا أن هناك بعض الدراسات التى قام بها باحثون غربيون ومن أمثلتها دراسة هيوم عن العمل الطبى لفرسان الاسبتارية الصادرة من جانب معهد تاريخ الطب التابع لجامعة جون هوبكنز ، وصدرت فى بالتيمور عام ١٩٤٠م [١]، كذلك دراسة آن وودنجز عن ممارسة الطب فى الدول الصليبية فى سوريا وفلسطين فى المرحلة من ١٠٩٦ - ١١٩٣م ونشرت فى مجلة التاريخ الطبى فى عام ١٩٧١م [٢]، ويلاحظ أن الدراسة الأولى اختصت بالإسبتارية فقط واهتمت بكل مرحلة الحروب الصليبية ، أما الدراسة الثانية اهتمت فيها الباحثة بالطب لدى الهيئات الحربية الصليبية كما أنها أغفلت تمامًا أمر حركة الترجمة فى المجال الطبى من العربية إلى اللاتينية . وعلى الرغم من كافة تلك الاعتبارات إلا أنها ألقت الضوء على الطب لدى الصليبيين على نحو أفاد فى البحث .

وواقع الأمر أن المدخل الحقيقى لدراسة الطب فى المناطق الصليبية خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ يتمثل فى التعرض بإيجاز للطب فى الغرب الأوروبى خلال المرحلة السابقة أى من القرن السادس حتى القرن الحادى عشر الميلادى .

والواقع أن من الأهمية بمكان إدراك أن الكنيسة فى أوروبا العصور الوسطى قد نظرت إلى المرض على اعتبار أنه عقاب إلهى من جراء الذنوب والاثام التى اقترفها الناس [٣]، ومن ثم وردت إشارات خاصة بمهاجمة كبار رجال الكنيسة للأطباء ودورهم فى علاج الأمراض ، من

ذلك ما نعرفه من أن جريجورى أسقف تور Gregory of Tours (٥٤٠ - ٥٩٤ م) قد أنزل عباراته القاسية على الأطباء وقد قرر أن وظيفتهم تؤدى إلى إلحاق الآلام بالمرضى أكثر من أن تعمل على تخفيف حدتها (٤).

وعلى الرغم من تلك النظرة العدائية ، إلا أن ذلك لم يمنع وجود منشآت خاصة بالعلاج فى صورة المستشفيات التى لعبت دورها الهام فى طب أوروبا العصور الوسطى .

وفى هذا الصدد نذكر أن القرن السادس الميلادى ، قد شهد فى إسبانيا ظهور بيت للضيافة Xenodocium وقد أسس من جانب أسقف ميرايدا Merida وكان يحتوى على عدد من الأطباء ، وتمت فيه معالجة اليهود والمسيحيين على حد سواء(٥) وفى نفس القرن هناك من يقرر ظهور ما يعرف بنزل الرب Hotel de Dieu فى ليون Lyons بفرنسا الذى افتتح عام ٥٤٢م ، وكذلك نزل الرب فى باريس Paris الذى افتتح هو الآخر ولكن فى القرن التالى وبالتحديد فى عام ٦٦٠م ، وفى تلك المؤسسات كان هناك الاهتمام بأرواح ، وأجساد النزلاء من خلال دور الرهبان فى هذا الصدد (٦). وبالتالى ليس من المقبول ما تصوره أحد الباحثين فى قوله أن أول مستشفى فى الغرب الأوروبى قد ظهرت فى صورة مستشفى Qumnze Les vimgts . وفى عهد الملك الفرنسى لويس التاسع وأنها شيدت خلال المرحلة من ١٢٥٤ - ١٢٦٠م / ٦٥٠ - ٦٥٦ هـ (٧)، والواقع أن ظهورها كان من قبل ذلك بقرون عديدة .

ومن زاوية أخرى ، من الملاحظ أنه فيما يتعلق ببيت الضيافة أو Xenodocium ، هناك من يقرر أنه فيما قبل عام ٨٠٠م . وكانت الوثائق اللاتينية تستعمل التعبير اليونانى المذكور كوصف للمنازل ذات الأعمال الخيرية العامة ، وكانت كلمة Hospital اللاتينية شائعة الاستعمال أيضًا بيد أن الكتاب كانوا يستخدمون التعبير اليونانى (٨).

وفى غالة الميروفنجية ظهرت مستشفيات وصفت بأنها " حقيقية " أولها أسسها الأسقف براكتوس أوف أوفرين Praeiectus of Avvergne فى كليرمونت Clermont بفرنسا خلال القرن السابع الميلادى وثانيها كانت من جانب أسقف غير محدد وفى نفس الوقت فى بواتو Poitou ، وكلاهما كانت مؤسسات صغيرة الحجم ، وكانت الأولى التى فى كليرمونت تتسع عشرين من المرضى ، والثانية تتسع لأثنى عشر شخصًا (٩).

وفى القرن الثامن ، قدمت لنا إشارات تفيد بأن الشاعر الكوين Alcuin قد وصف مركزاً طبيًا فى مملكة شارلمان Carolus Magnus (٧٤٢ - ٨١٣م / ٧٤ - ١٤٥ هـ) ، وقد وصف وجود الأطباء ، ولم يسعه إلا أن يقدم دعاية لهم بأن يوفقهم الرب فى عملهم العلاجى(١٠) .

وهناك من الباحثين من يقرر أن الوثائق التى رجعت إلى المراحل الميروفنجية والكارولنجية، تناولت على نحو متكرر النزل Hospices ، وكانت تقام مجاورة للأديرة أو المدن الرومانية الباقية فى إيطاليا والأجزاء الجنوبية من فرنسا وأن القليل من تلك النزل كان بمثابة مستشفيات حقيقية (١١).

ومن ناحية أخرى ، أسس أدكارد أوف كوربى Adakard of Corbie ، بيتًا للضيافة فى القرن الثامن م / الثانى هـ ، وكان ما أقامه يشابه ذلك النزل الذى أقيم فى القرن التاسع م / الثالث هـ والذى وصفه ثيودوولف Theodulf الأسقف والشاعر الكارولنجى فى قصيدة أوضح فيها أن المريض ، والمتعب كان بإمكانه أن ينال قسطًا من المعاونة (١٢).

وإلى جانب المستشفيات كانت هناك الأديرة تقوم بدورها العلاجى ، ولا أدل على ذلك من أن إحدى المخطوطات الطبية من القرن التاسع م / الثالث هـ تناولت دير القديس جال St. Gall تظهر فيه الغرف وفيها قسم مخصص للرهبان الذين هم فى حالة مرضية سيئة ؛ ومعهم الأطباء والمديرين (١٣)، وكان العلاج من خلال استعمال نوعيات من الأعشاب أو اتباع نظام غذائى محدد (١٤)، ويلاحظ أن تلك الأديرة كانت لها صيدلياتها من خلال الحدائق التى زرعت بها مختلف أنواع الأعشاب الطبية (١٥).

وقد استمرت تلك المؤسسات السابقة فى عملها العلاجى بصورة أو بأخرى فإذا ما وصلنا إلى القرن الحادى عشر م / الخامس هـ وجدنا أن العديد من المستشفيات أخذت فى الانتشار فى الغرب الأوروبى (١٦) .

أما الأمراض التى تم علاجها ، فهناك ثمانية أمراض عدت أمراض معدية ، وهى الطاعون الدملى ، والتدرن الرئوى ، والصرع ، والجرب ، والحمرة ، والبثرة الخبيثة ، والرمد الحبيبى ، الجزام ، وكذلك الأوبئة التى كانت تحل بالغرب الأوروبى مثل ذلك الوباء الذى وقع فى فرنسا ،

وألمانيا فى أعوام ٩٩٤ م / ٣٧٨ هـ ، ١٠٤٣م / ٤٤٤هـ ، ١٠٨٩م / ٤٨٢هـ ، وقد أسماه الفرنسيون Malades ardents (وباء احتراق) (١٧).

وفيما يتعلق بأساليب المعالجة الطبية خلال تلك المرحلة فإن إشارات المصادر التاريخية بشأنها قليلة ونادرة .

ومع ذلك يمكن ملاحظة بعض أمثلتها الدالة عليها إذ أن كاسيو دورس Cassiodorus المستشار الخاص بثيودريك Theadorich الفاتح الاستروجوتيك وحاكم إيطاليا ، فى خطاب مكتوب إلى الطبيب الملكى فى القرن السادس يعطى فكرة عن وسائل التشخيص Diagnosis فى ذلك العصر ؛ إذ يوضح أن الطبيب الماهر يستطيع من خلال نبض الأوردة الكشف عن مظاهر اختلال جسد المريض تمامًا مثلما تظهر دلالات البول لعينيه (١٨).

ومن جهة أخرى ، نجد أن أيزيدور الإشبيلى Isidor of Seveille فى وقت مبكر من عام ٦٠٠م يكتب أنه من الضرورى بمكان على الطبيب أن يعرف شيئًا ما عن التنجيم Astron-omy على اعتبار أنه من الممكن أن يحسب النجوم ، وكذلك الفصول لأنه يقال إن أجسادنا متأثرة بتلك العوامل (١٩)، ويلاحظ أن تلك الفكرة استمرت طوال العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى ، ولم يكن الأمر قاصراً على تلك المرحلة المبكرة فقط ، ولا نغفل أن الحكام والملوك حينذاك كانوا يستخدمون المنجمين من أجل معرفة أنسب الأوقات لتحركاتهم المختلفة(٢٠).

وإضافة إلى ما سبق كان العلاج قائمًا على السحر وذلك من أجل التكهن عن مسار المرض وأثره على مصير المريض ، وقد ورد فى كثير من المخطوطات الطبية التى وصلت إلينا وتناولت تلك المرحلة إشارات إلى طائر يسمى كالديوس Caladius استخدم فى هذا المجال(٢١).

وفى تلك الآونة ظهرت المعجزات وكرامات القديسيين بصورة كبيرة ، ومن الملفت للانتباه أن المرضى المصابين بالحمى ، أو غيرها من الأمراض منهم من كان يذهب إلى سور أحد الأديرة ويمكث هناك انتظاراً لحلول معجزة أو كرامة تؤدى به إلى الشفاء (٢٢).

ويلاحظ أن فكرة المعجزات الشفائية وجدناها لدى أذهان رجال الكنيسة ، وهم فى ذلك كانوا يعتمدون على نصوص الإنجيل من ذلك ما ورد فى إنجيل متى بشأن دعوة السيد المسيح للحوار بين شفاء الأمراض ، وتطهير المبرصين ، وإخراج الشياطين (٢٣).

وبناء على ذلك وجدنا الطب خلال تلك المرحلة يرتبط ارتباطًا قويًا بالقديسين إذ ظهر عدد من القديسين الذين ارتبطت أسماؤهم بأنواع العلاج المعجز ، وكان من بين أولئك أخوان توأمان هما كوزماس Cosmas وداميان Damian الذين استشهدا عام ٣٠٣م ، والذان صارا القديسين الحاميين للطب (٢٤).

وفى نفس الاتجاه وجد هناك عدد من القديسين الذين اعتبرهم العصر حماة لأعضاء جسد الإنسان المختلفة ، فهناك القديس بلازيوس St.Blasius ؛ الذى صار قديسًا حاميًا للحلق والرئة ، والقديسة أبولونيا Apolonia (٢٥) حامية للأسنان ، أما القديس إيراموس St. Er-amus فكان يحمى البطن ، أما القديسة لوشيا St. Lucia وكذلك تردوانا St.Triudauna فاختصا بحماية العين ، وكان القديسون الآخرون معالجين أقوياء لأمراض أخرى ، وقد انتشرت فى الغرب الأوروبى عيادات أولئك القديسين ، لما لهم من دور فى العلاج الطبى من خلال المعجزات الشفائية(٢٦) التى تصورها المعاصرون .

أما إذا انتقلنا للحديث عن أحد فروع الطب الكبرى ، ونعنى به الجراحة Surgery ، ودورها خلال تلك المرحلة فنجد أن هناك من يقرر أن الجراحة حينذاك كانت تحمل اضمحلال وانهيار الجراحة الكلاسيكية(٢٧) أى التى اتخذتها أوروبا من التراث الطبى اليونانى القديم . ومع ذلك فقد حدث تطور هام فى مجال الجراحة على نحو خاص وغيرها من المجالات الطبية عندما ظهر إلى الوجود تأثير ما عرف بمدرسة سالرنو The School of Salerno بجنوب إيطاليا .

والواقع أن هناك اختلافًا بين الباحثين حول نشأة مدرسة سالرنو الطبية ، غير أن هناك من يقرر أن مدرسة سالرنو قد ظهرت إلى الوجود منذ القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى خاصة حوالى عام ٩٨٥م ، على اعتبار أن هناك إشارة خاصة بذهاب الأسقف أدالبيرو الثانى Adalbero II بعد اعتماده أسقفًا عام ٩٨٥ م إلى هناك من أجل الاستشفاء (٢٨)، وتتجه كثرة من الآراء إلى جعل تلك الحادثة بمثابة البداية الحقيقية لتلك المدرسة الطبية (٢٩).

وهكذا ، فإننا نجد تلك المدرسة قائمة فى القرن الحادى عشر م ، وكان بها عشرة مدرسين من كبار أساتذة الطب فى المدينة ، وقدم إليها عدد كبير من المرضى للعلاج وبصفة عامة اعتبرت تلك المدرسة أول مدرسة طبية منظمة فى أوروبا العصور الوسطى ؛ وعلى الرغم من

أنها لم تنجب عبقرياً نابغًا ، ولا اكتشافًا كبيراً فى مجال الطب ، إلا أنها كانت أصل كل المدارس الطبية المتعددة التى سرعان ما انتشرت بعد ذلك فى أوروبا كما حدث فى مونبليه Montpellier ، وباريس Paris فى فرنسا ، وبولونيا Polonia وبادوا Padua فى إيطاليا (٣٠).

وكان الحدث الهام فى تاريخ تلك المدرسة مساهمة قسطنطين الأفريقى Constantinus Africanus فى حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وارتباطه بها ، وقد ولد فى قرطاجة عام ١٠١٨م / ٥١٣هـ وكرس حياته لدراسة الطب ، وبعد مرحلة انتقال ، وترحال اتجه إلى سالرنو ومن بعدها إلى الدير البندكتى فى مونت كاسينو Monte Casino بإيطاليا ؛ وظل هناك حتى توفى عام ١٠٨٧م / ٤٨٠هـ (٣١). وقد ترجم من العربية إلى اللاتينية عدداً من المؤلفات يقدر بسبعة وثلاثين كتابًا فى الطب والفلسفة سواء كتب كبيرة أم رسائل صغيرة(٣٢) ، وعلى الرغم من أن ترجماته لم تكن تتسم بالدقة وأنه كان ينقل دون أن يشير إلى مصادره ونسب إلى نفسه التأليف أحيانًا ، إلا أنه ساعد على تنشيط مدرسة الطب فى سالرنو بصورة واضحة (٣٣).

ويلاحظ أن أهم مؤلفات أطباء تلك المدرسة ما يعرف باللاتينية باسم Regiman Sanc-tatus Salernitanum وبالإنجليزية Salernitan Guide to Health أى المرشد السالرنى للصحة(٣٤) وقد ألف حوالى عام ١١٠٠م / ٤٩٣هـ وهو عبارة عن قصيدة مكونة من ٣٥٢ بيتًا وضع لها شروح فيما بعد أهمها ما قام به أرنولد أوف فلانوڤا Arnold of Villanova (١٢٣٥ - ١٣١٢م / ٦٣١ - ٧١١هـ)(٣٥) وقد ترجم إلى لغات عديدة ويقال إنه كتب أصلاً من أجل روبرت دوق نورمنديا Robert of Normandy الذى زار سالرنو من أجل العلاج من جراح أصابته (٣٦).

ومهما يكن من أمر ؛ ففى أخريات القرن الحادى عشر م / الخامس هـ كانت الدعوة للمشروع الصليبى من خلال دور البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م / ٤٨٢ - ٤٩٢ هـ) فى مجمع كليرمونت Clermont بفرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م(٣٧) ، وعلى ذلك قامت الحملة الشعبية ثم من بعدها حملة الأمراء ؛ التى نتج عنها تكوين إمارات صليبية على حساب المسلمين الذين عانوا بحدة من التشرذم السياسى ؛

والتصارع المذهبى ، وذلك فى الرها Edessa ، وأنطاكية Antioch ، ومملكة بيت المقدس اللاتينية The Latin Kindgom of Jersalem ، وطرابلس Tripolis .

ومن الأهمية بمكان إدراك أن المعرفة الطبية لدى كل طرف من طرفى الصراع سواء المسلمين أو الصليبيين خلال تلك المرحلة ، كان لها نصيبها فى ساحة الصراع ذاته ، من خلال رغبة كل طرف فى الحفاظ - قدر الاستطاعة - على أكبر عدد ممكن من القوة البشرية المحاربة والمنتجة اقتصاديًا ، علي اعتبار أن العنصر البشرى كان هو الذى يحارب ويستولى على المواقع ويكسبها إلى صفه ، وهو الذى يدير عجلة الإنتاج فى مرافقه المختلفة فى عصر لم يعرف ثورة تكنولوجية بديلة عن الدور البشرى وحيث أن الجانب الصليبى على نحو خاص عانى من مشكلة نقص العنصر البشرى ، فمن ثم كان الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من القوة البشرية ، قضية عظيمة الأهمية والحيوية بالنسبة للوجود الصليبى الغازى لمنطقة كان الجانب الإسلامى فيها يسيطر على سهول ودبان الأنهار المتعددة مثل النيل ، ودجلة والفرات وبردى وغيرها من أنهار مصر والشام والعراق وبالتالى تمتع بكثافة سكانية مرتفعة بالمقارنة بواقع الصليبيين .

ومنطقى أن الجانب الطبى كان له دوره فى احتفاظ الصليبيين بما لديهم من قوة بشرية ، ولذا من الممكن اعتبار ذلك الجانب أحد أسلحة المواجهة لدى الصليبيين ضد المسلمين ومنها تبرز أهمية دراسته أصلاً .

ومع مقدم الصليبيين إلى المنطقة واستقرارهم فيها ، ظهرت الحاجة إلى توفير الرعاية الطبية لعناصرهم خاصة من أجل برء الأمراض ومواجهة جراح عناصر الفرسان والمشاة باعتبارهم القوة الهجومية ، والدفاعية عن ذلك الوجود الصليبى ، يلاحظ أن انتشار الأمراض فى صفوف الصليبيين فى بداية استقرارهم فى المنطقة من جراء اختلاف الظروف المناخية فى بلاد الشام عنها فى الغرب الأوروبى وبالتالى ارتفاع معدل الوفيات فى صفوفهم . كل ذلك أثر فى عدم تكون طبقة من عناصر الفرسان خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الصليبيين(٣٨) فى المنطقة . بالإضافة إلى ملاحظة أن عناصر الفرسان والمشاة ولا سيما الفرسان على نحو خاص كانت تتعرض للإصابة من خلال هجمات المسلمين المتعددة على نحو جعلها تتعرض لنقص خطير .

ولا نغفل حقيقة هامة أخرى ، تتمثل فى أن مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو خاص كانت محط مقدم الآلاف من الحجاج الأوروبيين الذين رغبوا فى زيارة الأماكن المقدسة التى ارتبطت بالتاريخ المبكر للمسيحية فى فلسطين(٣٩) ، وكانت أعداد أولئك الحجاج فى تزايد مستمر خاصة بعد نجاح الصليبيين فى احتلال تلك المناطق ، وقد قطع أولئك الحجاج الأوروبيين رحلة شاقة لمسافات طويلة من أجل الوصول إلى هدفهم النهائى . وعندما كانوا يصلون إلى يافا Joppa ؛ وهى ميناء بيت المقدس كان عليهم أن يقطعوا الطريق بين يافا والمدينة المقدسة ، وكانت هناك هجمات المسلمين على أولئك الحجاج وتعرضت عناصرهم للقتل والجرح (٤٠)، ومن ثم وجدت الحاجة إلى المحافظة على أرواحهم ، وإسعاف العناصر المصابة منهم ، وتوفير الرعاية الصحية لهم ، بالإضافة إلى أن عناصر الحجاج عندما عادوا إلى بلادهم فى الغرب الأوروبى تحدثوا عن إمكانيات المملكة الصليبية فيما يتصل برعايتهم صحيًا على نحو كان يعنى الدعاية السياسية للوجود الصليبى فى بلاد الشام على نحو كان يضمن للصليبيين مكانة متميزة فى الأوساط الدولية فى الغرب الأوروبى على نحو خاص . ومن ثم كان الاهتمام بالجانب الطبى أمراً له أهميته الخاصة فيما يتصل بمركز المملكة الصليبية الخارجى .

وهكذا نرى أن توفير الرعاية الطبية كان أمراً محتمًا بالنسبة للصليبيين أن يهتموا به من أجل رعاية العناصر المحاربة ، وكذلك عناصر الحجاج الوافدين إلى المملكة الصليبية ، بالإضافة إلى المحافظة بصفة عامة على طاقاتهم البشرية . ومركز ومكانة المملكة الصليبية على المستوى الدولى .

ومن الجوانب الهامة التى يتصدى لها البحث بالدراسة ، نوعية الأمراض التى تعرض لها الصليبيون فى بلاد الشام خلال المرحلة الممتدة من عام ١٠٨٩ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ، والواضح أن الحالات المرضية خلال تلك المرحلة كانت متعددة ، ويمكن تقسيمها إلى أمراض وبائية ، ثم حالات الإصابة بالتسمم ، وكذلك الإصابة بالجروح من خلال المعارك الحربية والصدامات المسلحة بين عناصر الفرسان الصليبيين ، وكذلك الإصابة بالحمى ، ثم الأمراض التى توصف بأنها أمراض سرية محتملة .

وبالنسبة للأمراض الوبائية نعرف أن مرحلة مقدم الصليبيين إلى بلاد الشام قد شهدت مواجهتهم لأول حالة مرضية أخذت طابع الوباء الجماعى ، وكذلك ذلك خلال حصار مدينة

أنطاكية خلال شتاء عامى ١٠٩٧ - ١٠٩٨م / ٤٩٢ - ٤٩٣هـ . وفى تلك المرحلة كان الجوع وعدم توافر الأغطية الملائمة لمواجهة ذلك الشتاء القارص والبيئة غير الصحية فى المعسكر الصليبى ، ثم فى أنطاكية نفسها ، كل ذلك كان له دوره فى تزايد حدة المرض (٤١)، وانتشاره وتشير المصادر الصليبية إلى أن الصليبيين لم يستطيعوا تحمل البرد القاسى دون وقاية ، وأن فيضانات الماء اندفعت فى صورة سيول أفسدت الطعام ، ولم يكن هناك موقع جاف كان بإمكان الصليبيين اللجوء إليه (٤٢).

ونتيجة لذلك وقع وباء فى صفهم وصف بأنه كان قاسيًا ، ومميتًا لدرجة أن الصليبيين نادراً ما تمكنوا من العثور على مكان لدفن موتاهم (٤٣)؛ ولاذ الكثيرون بالفرار هربًا من الوقوع فريسة ذلك الوباء ، ومن المحتمل أن ذلك الوباء كان فى صورة مرض التيفود الذى فتك بأدهيمار المندوب البابوى فى أول أغسطس عام ١٠٩٨م (٤٤).

ويوضح أحد الباحثين أن تأثير ذلك المرض الذى اتخذ شكل الوباء ؛ كان كبيراً على قوة الصليبيين البشرية ، إذ أنه فى خطاب كتبه أنسلم أوف ريبيمون Anselm of Ribemont إلى رئيس أساقفة ريمز Rheims فى نوفمبر عام ١٠٩٧م / ٤٩١ هـ طلب أنسلم الصلاة من أجل أرواح ثلاثة عشر رجلاً أصيبوا من جراء ذلك الوباء ، ويلاحظ أن سبعة من هؤلاء الرجال قتلوا فى ساحات المعارك وستة ماتوا من جراء المرض الفتاك (٤٥).

ونجد مثالاً وضاحًا دالاً على ذلك فى صورة أحداث ما بعد اقتحام الصليبيين لمدينة بيت المقدس فى عام ١٠٩٩م / ٤٩٢ هـ ، حيث سارعوا بعد المذبحة المروعة التى أحدثوها في سكانها بتنظيف المدينة من جثث القتلى ، وذلك قبل كل شيء ، وكانوا يخشون أن ينتشر الوباء فى صفوفهم من جراء الهواء المشبع برائحة الجثث النتنة ؛ وقد وصف ذلك العمل بأنه كان عملاً كبيراً للغاية ، وتم تقديم أجرة يومية للعاملين من أهل المدينة الذين ظلوا أحياء للمساعدة فى تطهير المدينة دونما إبطاء (٤٦)، ولا شك أن الصليبيين كانوا يدركون خطورة وجود تلك الجثث دون الإسراع بدفنها ، الأمر الذى يعكس أيضًا وجود معارف طبية لدى الصليبيين خاصة بانتشار الأمراض ، والتلوث ، والعدوى خلال تلك المرحلة المبكرة من وجودهم فى بلاد الشام .

وإذا كان مثال حدوث الوباء فى صفوف الصليبيين فى أنطاكية عام ١٠٩٨م / ٤٩١ هـ ، يوصف بأنها حالة مرضية جماعية فإن هناك حالات مرضية ذات طابع فردى تختلف عن صورة الوباء السابق .

والواقع أن من تلك الحالات المرضية التى واجهها الصليبيون فى بلاد الشام حالات التسمم، ومن المعروف أن أنواع السموم كانت متعددة ومعروفة منذ مرحلة الطب اليونانى القديم ، فهناك السموم الحيوانية مثلما نجده لدى الخنفساء والضفدع البرى والأفاعى السامة ، والسموم النباتية كالخشخاش والأفيون ، ثم السموم المعدنية كالزرنيخ (كبريت الزرنيخ)[٤٧]. مع ملاحظة أن درجة سميتها كانت بحسب اختلاف نوعيتها ومقدار الجرعة المعطاة للشخص ، وكذلك الحالة الصحية العامة للجسم [٤٨].

ومن المعروف وجود بعض الأعراض الناجمة عن حالات التسمم مثل القىء والإسهال أو العطش الشديد وشعور الشخص بآلام فى الظهر إلى نحو ذلك [٤٩].

وإذا تمعنا فى الحالات المرضية الناتجة عن الإصابة بالتسمم على امتداد تاريخ الصليبيين خلال المرحلة موضوع البحث ، فإننا نلاحظ تعددها بصورة واضحة ومن الممكن إدراك أن أنواع السموم المختلفة استعملت من أجل الفتك بالقيادات السياسية الصليبية المتصارعة والمتنافسة، وأن الطب عند الصليبيين وقف عاجزاً عن علاجها على نحو أدى إلى وفاة المتسمم فى النهاية دون أن تقدم له أية وسائل لإنقاذ حياته من الهلاك باستثناء بعض الحالات الخاصة .

والواقع أن معرفة الصليبيين بأنواع السموم كانت جيدة ، بل واستعملوا السموم فى الفتك حتى بالحيوانات المفترسة التى وجدوا صعوبة فى اصطيادها مثل الفهود وغيرها[٥٠].

ويعنينا فى المقام الأول هنا حالات التسمم لدى الصليبيين ، ولعل من الأمثلة البارزة الجديرة بالذكر فيما يتصل بحالات التسمم ما نعرفه من أن الملك الصليبى بلدوين الثالث (١١٤٣ - ١١٦٢م / ٥٣٨ - ٥٥٨ هـ) الذى وصف بأنه كان طويل القامة ، وقوى البنية ، واتسم عموماً بصحة جيدة ، ورجولة ، وحيوية متدفقة قد خر مريضاً خلال اجتيازه طرابلس فى طريقه إلى بيت المقدس ، وقد أرسل كونت طرابلس رايموند الثالث Raymond III (١١٥٢ - ١١٨٧م / ٥٤٧ - ٥٨٣ هـ) عام ١١٦٢م / ٥٥٨ هـ طبيبه الخاص ، واسمه البراق لكى يقوم بعلاجه إلا أن حالته ازدادت سوءاً ؛ ومات فى بيروت فى فبراير من العام المذكور [٥١]، ويقرر وليم الصورى نفسه أن ذلك الطبيب أعطاه أقراصاً مسمومة أصابته بالحمى ، والإسهال[٥٢]، ولم يستطع أحد أن يقدم له نجدة أو مساعدة ذات فائدة فى علاجه وتدل عبارته على عجز الصليبيين عن تدارك مثل تلك الحالات السمية .

ومع ذلك من الإنصاف أن نقرر أن الحالات التى عجز الصليبيون عن مواجهتها كانت حالات التسمم عن طريق الفم ثم الجهاز الهضمى ووصولها إلى كافة أجزاء الجسد من بعد ذلك، غير أن هناك حالات أخرى فى صورة لدغ العقارب أو الأفاعى لأطراف الجسد كالسيقان والأذرع ، وفي مثل تلك الحالات كان من الممكن مواجهتها من خلال البتر السريع للعضو المصاب حتى لا تستشرى السموم فى باقى أجزاء الجسد ، وقد شرح أحد كبار مؤرخى الصليبيين أنه بالفعل كان يتم اللجوء إلى البتر للعلاج[٥٣] فى حالات سريان السم فى جسد المصاب ، ومن المتصور أن ذلك كان بالنسبة للأطراف دون غيرها .

ومن زاوية أخرى ؛ لم تقتصر الحالات السمية على القيادات السياسية الصليبية بل أن الأمر تعداه ليشمل القيادات الدينية أيضًا ، من ذلك ما نعرفه من أن أحد القيادات الدينية الصليبية يسمى رالف قد مات عند تناوله شرابًا مسمومًا قدمه له "مرتزق مجرم غير معروف " على حد تعبير أحد المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة [٥٤].

زد على ذلك أن المؤرخ الصليبى وليم الصورى نفسه قد تعرض لنفس المصير حيث دس له السم - على الأرجح - من جانب خصومه وذلك فى عام ١١٨٥م / ٥٨١ هـ [٥٥]، وهكذا يكون ذلك المؤرخ قد قدم لنا فى كتابه تاريخ الأعمال Historiu reum إشارات هامة عن حالات التسمم خاصة بالنسبة للقيادات الصليبية ووقع هو الآخر فريسة لنفس الأسلوب فى الفتك بالخصوم المتنافسين ولم يستطع أحد إنقاذه .

ومن المفترض أن هناك حالات للإصابة السمية لدى قطاعات من المجتمع الصليبى خارجة عن نطاق القيادات السياسية والدينية لم تشر إليها المصادر التاريخية الصليبية وتجاهلتها .

ومن زاوية أخرى يلاحظ فى نصوص المصادر التاريخية الصليبية التى وصلت إلينا من ذلك العصر أن حالات التسمم المذكورة كانت فردية ولم تكن هناك حالة واحدة تتسم بالطابع الجماعى طوال المرحلة موضوع الدراسة .

وبالتالى فضحايا تلك الحالات كانوا متناثرون وموزعين على مرحلة زمنية ممتدة ولم يكونوا مركزين فى مرحلة واحدة ، كذلك الوباء الذى لحق بالصليبيين عام ١٠٩٨م / ٤٩١ هـ عند أنطاكية مثلاً .

أما فيما يتصل بحالات الإصابة بالجروح ، وما كان ينتج عنها ، فمنها ما كان يحدث من جراء عمليات الاعتداء التى كانت تقع بين الفرسان الصليبيين [٥٦]، أو من خلال المعارك الحربية بين الصليبيين والمسلمين ، ومن أمثلة ذلك أن الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin (١١٠٠ - ١١١٨م / ٤٩٣ - ٥١١ هـ) قد أصيب فى إحدى المعارك الحربية مع المسلمين وذلك فى عام ١١٠٣ م / ٤٩٧ هـ على يد أحد الأحباش من المسلمين وقد أصابه بجرح كبير فى ظهره قرب قلبه ، وقد عولج إلى أن تماثل للشفاء [٥٧].

ومن الجلى البين أن الفارق بين حالة الإصابة بالجراح وبين حالات التسمم أن الأولى كان من الممكن للصليبيين حينذاك مواجهتها بصورة أو بأخرى ، أما الحالات الخاصة بالتسمم فقد كان مصير أصحابها - إن لم تكن فى الأطراف وتم تداركها - الهلاك .

أما بالنسبة للإصابة بالحمى ؛ فمن أمثلتها الدالة عليها حالة الملك بلدوين الأول الذى أصيب بالحمى قبل وفاته[٥٨] عام ١١١٨م / ٥١٣ هـ ، ومن المعروف أن حالات الإصابة بالحمى كانت شائعة قديمًا ووسيطًا ، وكانت تعد من الحالات العابرة غير الخطيرة باستثناء وقعات معينة [٥٩]. وبالإضافة إلى الحالات المرضية السابقة من المحتمل أنه كانت هناك أمراض ناتجة عن الممارسة الجنسية غير المشروعة ، ويلاحظ فى هذا الصدد أن المجتمع الصليبى نفسه عانى من انحلال أخلاقى كبير ، وذلك منذ الخطوات الأولى للحركة الفرنجية الصليبية فى بلاد الشام ؛ إذ أن الجيش الذى حاصر أنطاكية ؛ كان يحتوى على عدد من العاهرات ، وعندما حلت بالصليبيين الكوارث هناك عملوا على طردهن من صفوفهم ، وتم فرض العقوبات القاسية على جريمة الزنا [٦٠].

وفيما بعد ، وجدنا تفسخًا أخلاقيًا فى المدن الساحلية التجارية الكبيرة مثل عكا Acre وغيرها ، وقد اشتهرت المدينة الأخيرة بوجود حى مخصص لأعمال الدعارة عرف بالحى الأحمر[٦١]. كما أن السفن الصليبية كانت تقدم من الغرب الأوروبى وعلى ظهرها أعداد كبيرة من العاهرات للترفيه عن المقاتلين الصليبيين [٦٢]، بالإضافة إلى إشارة المصادر الصليبية ذاتها إلى رجال الدين المسيحيين التابعين للكنيسة الذين وجد منهم من يؤجر أماكن العبادة من أجل أن تمارس فيها الدعارة لما تدره عليهم من أرباح طائلة [٦٣]، ناهيك عن أن من المسلمين الذين خبروا الصليبيين من أشار إلى عدم وجود غيرة جنسية لديهم ، وقدم الأمثلة الدالة على صواب مقولته [٦٤].

ولاريب فى أن مجتمعًا هذه هى طبيعته ، كان من المتوقع أن تنتشر فيه الأمراض السرية ؛ وهو أمر يفهم من سياق نصوص المصادر التى وصلت إلينا من ذلك العصر ويلاحظ انتشار الأمراض من خلال تلك الممارسات أمر منطقى من خلال معرفتنا بحقيقة أن المدن ذات الكثافة السكانية المرتفعة مثل عكا ، كانت أكثر تعرضًا لانتشار الأمراض من المناطق الريفية(٦٥) على اعتبار إمكانية انتشار العدوى فى المناطق المكتظة بالسكان .

وتدعيمًا لذلك التصور نجد أن أحد الحجاج اليونانيين قد وصف تلك المدينة بأنها مركز لانتشار العديد من الأمراض - دون أن يحدد طبيعتها - على نحو أدى إلى ارتفاع معدل الوفيات بها (٦٦).

ومن الجوانب الهامة الى يتعرض لها البحث ، أساليب المعالجة لدى الصليبيين ، والواقع أنه ليس من اليسير التوصل إليها بدقة كاملة نظراً لصمت المصادر التاريخية إلا فى النادر ، ومع ذلك فمن المفترض أن الصليبيين عرفوا المعالجة من خلال الأعشاب الطبية المختلفة التى لها قدرتها على علاج الأمراض ، وهو أمر ورثوه من خلال الطب اليونانى القديم .

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك الإفادة من موارد الطبيعة فى المناطق التى احتلها الصليبيون ، من أمثلة ذلك عيون طبرية بمنطقة الجليل ، وهى التى وصفها أحد الرحالة اليهود بأنها تندفع بقوة من باطن الأرض (٦٧) ، ونعرف عن تلك العيون أنها كانت شديدة الحرارة للغاية ؛ ووصفت بالعذوبة ، وطيب الرائحة (٦٨) ، وقد عرفت تلك العيون بقدرتها على معالجة الأمراض ، وكانت كل عين مخصصة من أجل معالجة مرض من الأمراض (٦٩).

من زاوية أخرى ارتبطت عناصر التبرك والقداسة بالمعالجة فى أذهان الصليبيين ، ومن أمثلة ذلك اللجوء إلى عين سلوان Poole of Siloe ؛ الواقعة فى وادى قدرون شرق القدس ، والتى ارتبطت بحادثة إعادة السيد المسيح عليه السلام - بإذن الله تعالى - البصر للأعمى (٧٠) ، كذلك كانت مياه نهر الأردن ينظر إليها الصليبيون بقداسة على اعتبار قدرتها الشفائية نظراً لارتباطها بتعميد السيد المسيح فيها وتعميده للحواريين ، ولذا وجدنا من المرضى من يذهب إلى هناك كى يغتسل بمياه ذلك النهر رغبة فى الشفاء (٧١).

ومن الزوايا الهامة الأخرى التى يمكن التصدى لها ، مدة العلاج من الأمراض لدى الصليبيين ، والواقع أنها اختلفت وفق الحالة المرضية ذاتها ، ونوعية استعداد الشخص

المصاب للعلاج ، ومع ذلك وجدت إشارة فى أحد المصادر الصليبية تفيد بوجود حالات مرضية طال أمر علاجها ، وتصارع أصحابها مع المرض لأمد طويل ، من ذلك حالة وليم كونت نافار William Count of Navares الذى أصيب بداء مزمن ؛ وتوفى بعد معاناة طويلة مع المرض[٧٢]، دون جدوى ، ومن الجلى البين أنه كان مرضًا عضالاً تعايش معه صاحبه حتى أدركته منيته بسببه وذلك دون أن تفصح المصادر عن اسم المرض ، وأعراضه .

ومن ناحية أخرى يتطلب الأمر دراسة المستشفيات التى وجدت لدى الصليبيين فى بلاد الشام فى خلال المرحلة موضوع الدراسة . على اعتبار ارتباط تلك المراكز بأمر العلاج من الأمراض المختلفة .

ويلاحظ أننا إذا ما اتخذنا بيت المقدس كمثال باعتبارها العاصمة الدينية والسياسية للصليبيين والمستأثرة بأكبر قدر من الخدمات الصليبية خلال المرحلة موضوع الدراسة نجد فيها عدة مستشفيات ، مثل مستشفى القديس يوحنا St. John ومستشفى الألمان ،، ومستشفى المبرصين (المصابين بمرض الجذام) التابع لهيئة القديس لعازر لازاروس St. Lazarus .

ويلاحظ أن أهم المستشفيات التى وجدت فى المدينة المقدسة وحظيت باهتمام الإشارات المصدرية الصليبية ، مستشفى القديس يوحنا المعمدان St. John Paptist والتى شيدها تجار مدينة أمالفى Amalfi [٧٣] الإيطالية ، وهى إحدى المدن التجارية الإيطالية التى كان لها دورها الهام فى تجارة عالم البحر المتوسط ، وقد اتفق تجار أمالفى مع الفاطميين على تأسيس مستشفى لهم فى بيت المقدس وذلك فى عام ١٠٧٠م / ٤٦٣هـ [٧٤]، وكانت تلك المستشفى موجودة من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة وعند وصولهم كان يتولى أمرها شخص يدعى جيرارد Gerard ، وقد اختصت بعلاج المرضى والجرحى ، وهناك من يقرر أن أساليب علاجها كانت قائمة على ما يمكن وصفه بالنموذج العربى للعلاج [٧٥]، ويلاحظ أن السلطات الصليبية اتجهت إلى تشجيعها ورعايتها ، وبعد أن كانت المستشفى تابعة لإشراف الأديرة البندكتية [٧٦]، صارت مستقلة عنها فيما بعد ، وغدت مرتبطة مباشرة بالبابا [٧٧].

ومن المفيد أن تذكر أن تلك المستشفى اتجهت إلى علاج الأمراض الوبائية أو ما يطلق عليه Opidemical diseades أو الطاعون Pestilence [٧٨].

وقد زار عدد من الحجاج الأوروبيين تلك المستشفى على امتداد المرحلة موضوع الدراسة ، فقد أشار سايولف Saewulf (١١٠٢ - ١١٠٣م / ٤٩٥ - ٤٩٦ هـ) عندما تناول كنيسة

القديسة مريم Sancta Mary فى بيت المقدس ، إلى أنه بالقرب منها مستشفى مخصصة للقديس يوحنا المعمدان [٧٩]، ولم يقدم أية تفصيلات عنها خلال تلك السنوات الأولى من القرن الثانى م / السادس هـ .

ومن بعد ذلك وصف أكثر تفصيلاً لتلك المستشفى من جانب أحد الحجاج الألمان وهو يوحنا أوف فورزبورج John of Wurzburd (١١٦٠ - ١١٧٠م / ٥٥٥ - ٥٦٥ هـ) وقد ذكر أنها احتوت على عدد من الحجرات حوت بدورها عدداً كبيراً ومتزايداً من المرضى من الجنسين[٨٠]، وقدم إضافة هامة من خلال إشارة إلى أن عدد المرضى قدر بألفى شخص[٨١] ، تقوم المستشفى بعلاجهم ، ويبدو أنه كان هناك توجهان فيما يتصل بنجاح تلك المستشفى فى علاج روادها ، فهو يقرر أن المرضى يشفون يوميًا على نطاق متسع[٨٢] ولكن من زاوية أخرى أوضح أن عدد الوفيات بين المرضى يبلغ أكثر من خمسين شخصًا فى اليوم [٨٣]، وهو معدل مرتفع وله خطورته من خلال ملاحظة أن ذلك حدث فى وقت عانى فيه الصليبيون الفرنجة أصلاً من مشكلة نقص العنصر البشرى .

ويلاحظ أن ذلك الاتجاه الإحصائي الذى قدمه لنا ذلك الحاج الألمانى له عدة دلالات تتمثل فى الآتى :

أولاً : إننا نفتقد الأرقام الإحصائية طوال المرحلة موضوع البحث بشأن أرقام الوفيات ، ومعدلاتها ، وقيمة ذلك الرقم فيما أورده ذلك الحاج - الذى زار المستشفى على الطبيعة - أنه لم يستمع إليه من شاهد عيان بل أنه تأتى إليه من خلال الاحتكاك الشخصى بتلك المؤسسة العلاجية الصليبية .

ثانيًا : إن معدل الوفيات المرتفع يعكس دلالة هامة ألا وهى أنه بعد ما يزيد على النصف قرن من استقرار الصليبيين ومباشرة مستشفى القديس يوحنا لدورها العلاجى تحت السيادة الفرنجية الصليبية كان معدل الوفيات مرتفعًا بمثل تلك الصورة ، وبمعدل وصل ألف وخمسمائة شخص كل شهر ، مما يوضح وجود حالات مرضية عجز طب الصليبيين عن علاجها ، أو أن عدد المتوافدين عليها كان من الكثرة بحيث لم تستطع تلك المؤسسة أن تلبى احتياجاتهم جميعًا بصورة تحفظ لهم صحتهم .

ثالثًا : على الرغم من دلالة ذلك الرقم الخاص بالوفيات إلا أن إيراده لأمر الاستشفاء فى المستشفى بمعدل كبير يدل على أن هناك إقبالاً كبيراً عليها وأن من المترددين من يشفى ومنهم من يموت . وبالتالى فإن الجانب الإيجابى وكذلك الجانب السلبى لنا أن ندركهما فى تناولنا لتلك المؤسسة الطبية الصليبية دون انفصال .

وقد أشار إلى تلك المستشفى بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela (١١٦٣ - ١١٧٠م / ٥٥٨ - ٥٦٥ هـ) وقد ذكر أمرها على اعتبار أنها مستشفيان لا واحدة ، وأشار إلى أنهما متسعتان لإيواء أربعمائة من فرسان الاسبتارية Hospitallers المرضى الذين يتم تجهيزهم بكل ما يحتاجونه فى الحياة وبعد الممات [٨٤]، مما يعكس وجود بعض الحالات - التى لم يقدر عددها - التى أخفقت المستشفى فى علاجها على نحو أدى بها إلى الموت .

أما ثيودريش Thooderich (١١٧١ - ١١٧٣م / ٥٦٦ - ٥٦٨ هـ) وهو أحد الحجاج الألمان فقد ذكر أن المستشفى تمتعت بثراء كبير فى الإنفاق على الفقراء والمحتاجين ، وأشار إلى أنه كان عاجزاً عن معرفة المرضى الذين كانوا يعالجون بها وقدر عدد الأسرة بأنها أكثر من ألف سرير [٨٥]. وحظيت المستشفى بمرافقها بإعجابه من حيث مبانيها وحجراتها ، والأسرة ، والمستلزمات الأخرى التى يحتاجها المرضى فى علاجهم [٨٦].

وبالإضافة إلي المستشفى المذكور ، كانت هناك مستشفى للألمان تم تأسيسها فى فترة ما قبل عام ١١٤٣م / ٥٣٨ هـ ، حيث وردت أول إشارة عنها فى صورة مرسومين بابويين من جانب الباب كلستين الثانى (١١٤٣ - ١١٤٤م / ٨٣٥ - ٥٣٩ هـ) [٨٧]. وكان تشييد المستشفى على اعتبار رعاية الألمان الذين واجهوا مشكلة اللغة ؛ إذ أن الصليبيين كانوا يتحدثون باللاتينية ، والفرنسية القديمة [٨٨]، غير أن من الواضح أن تلك المؤسسة الطبية الألمانية كان دورها محدوداً إذا ما قورنت بمستشفى القديس يوحنا السالفة الذكر . ويمكن استنتاج من خلال قلة الإشارات بخصوصها فى المصادر الصليبية .

ويلاحظ أيضًا ، وجود مستشفى خاصة بعلاج المبرصين وكانت تابعة للقديس لعازر (لازاروس) St. Lazarus ، ويذكر البعض أن النواة الأولى لتنظيم القديس لعازر " لازاروس" كانت فى صورة بيت المبرصين House of Lepers أو باللاتينية Domus Leprosor-um[٨٩]، والواقع أن قيمة تلك المستشفى أنها وصفت بأنها متخصصة فى علاج مرض محدد من الأمراض الجلدية ونعنى به البرص . وقد أقام فرسان الاسبتارية مستشفى فى مدينة نابلس

لعلاج المرضى المصابين بمرض البرص ، وقد استمرت المستشفى فى تأدية عملها . فى خدمة المرضى حتى نهاية القرن التاسع عشر (٩٠).

وبالإضافة إلي المستشفيات المتعددة السابقة التى وجدت فى بيت المقدس ، كان هناك عدد من المستشفيات فى الإمارات الصليبية مثل طرابلس Tripolis ، والرها Edessa ، من ذلك ما نعرفه من وجود مستشفى تم تشييدها فى مواجهة طرابلس فى صورة قلعة الحاج التى أقامها ريموند الصنجيلى Raymond de St Gilles (١١٠٢- ١١٠٥م / ٤٩٦-٤٩٩ هـ). وأعيد تشييدها فيما بعد على نحو أكثر ثراء فى عهد خلفه برتراند Bertrand (١١٠٨ - ١١١٣م / ٥٠٢ - ٥٠٧ هـ) ومن زاوية أخرى ، هناك إشارة إلى تشييد مستشفى فى رفنية إلى الشمال من طرابلس ووجد بها عدد من الأطباء . وكان هدف هاتين المؤسستين الطبيتين خدمة الفقراء المحليين ، وكذلك الحجاج(٩١) المارين بالمناطق الصليبية وصولاً إلى الأماكن المقدسة . وقد أنهى الكونت بونز Pons (١١١٣ - ١١٣٧م / ٥٠٧ - ٥٢٧ هـــ) استقلاليتهما من خلال أنه أخضعهما لهيئة الاسبتارية وذلك فى ٢٨ ديسمبر عام ١١٢٦م(٩١).

كما تم تأسيس مستشفى أخرى فى إمارة الرها Edessa ؛ إذ أننا نجد مستشفى فى تربسيل Turbessel وهى التى ضمها إلى كنيسة القديس رومين St. Romain وقد عهد بها جوسلين الثانى Joscelin II إلى الاسبتارية فى عام ١١٣٤م / ٥٢٨ هـ (٩٢).

ومن الجلى البين أن تلك المستشفيات التى شيدت فى إمارات طرابلس ، والرها تدل على أن ذات الدوافع التى دفعت بالصليبيين إلى تشييد مؤسساتهم العلاجية فى بيت المقدس حدت بهم إلى إقامتها فى الإمارات الأخرى .

ومع ذلك من الممكن تصور أن عددها فى بيت المقدس كان كبيراً بحكم أن تلك المدينة كانت العاصمة الدينية ، والسياسية للصليبيين خلال تلك المرحلة وتزايد أعداد الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المقدسة ولذلك زادت أعداد تلك المؤسسات بها بالمقارنة بما كان لدى الإمارات الصليبية الأخرى .

ولا ريب فى أن وجود تلك المستشفيات يثبت لنا قيام الصليبيين بإقامة تلك المؤسسات الطبية ، من أجل توفير العلاج للمرضى ، والجرحى لكى يسهم الطب بدوره فى مواجهة الصراع مع المسلمين ، ومن المتصور أنها حققت نجاحًا علاجيًا بدليل استمراريتها .

وهناك زاوية من الضرورى التعرض لها فى صورة نوعية الأطباء ومدى كفاءتهم فى المناطق الصليبية خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ والواقع أنه كان هناك نوعان من الأطباء : الأطباء المحليين من السريان[٩٣] بالإضافة إلى وجود أطباء مسلمين[٩٤] سواء فى المناطق الصليبية أو المناطق المسلمة ، واحتاجهم الصليبيون وكذلك اليهود ، بالإضافة إلى عناصر من الأطباء اللاتين الذين قدموا مع الصليبيين مع الغرب الأوروبى ، وهؤلاء كانوا من جنسيات مختلفة .

ويلاحظ إن مثل ذلك التنوع فى نوعيات الأطباء الذين وجدوا فى مناطق الصليبيين كان يتفق مع التركيبة السكانية للوجود الصليبى ذاته فى بلاد الشام على المستوى السكانى[٩٥]؛ إذا كان ذلك الوجود من جنسيات مختلفة مثل اليونانيين ، والبلغاريين ، والإنجليز ، والفرنجة، والبوهيمين ، والهنود [٩٦]، ومنطقى تصور أن تلك الجنسيات المختلفة أفرزت لنا أطباء هم أيضًا من جنسيات مختلفة .

ويلاحظ أن هناك عناصر المسيحين الشرقيين كالموارنة Maronites على سبيل المثال - عملوا كأطباء للصليبيين[٩٧]؛ مثلما عملوا فى خدمتهم فى المجال الحربى ؛ على نحو حظى بتقدير المؤرخين الصليبيين المعاصرين لمرحلة الحروب الصليبية [٩٨].

ومن المتصور أن المرضى من الصليبيين - مثلما الأمر فى كل عصر - كانوا يلجأون إلى الطبيب الكفء الذى أثبت مهارة علاج الأمراض دون التقيد بالهوية الوطنية والدينية للطبيب، ووفق شهادة عمدة مؤرخى الصليبيين أنفسهم نجده يقرر أن الأطباء الإغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى من العاملين فى المناطق الصليبية حققوا شهرة كبيرة فى مهارتهم فى أمر مداواة الأمراض [٩٩].

وعند المفاضلة فى الكفاءة بين الأطباء المحليين من أهل الشام سواء من المسلمين أو من المسيحين الشرقيين ، والأطباء اللاتينيين فإن هناك اعترافًا صريحًا من أحد المصادر الصليبية بأن الأمراء الصليبيين كانوا يحتقرون علاج الأطباء الصليبين ولا يعترفون إلا بالأطباء السامريين، والسريان ، واليهود ، والمسلمين[١٠٠] بل أن هناك إشارات تفيد وجود جهلة بالطب فى صفوف الأطباء الصليبيين[١٠١] باعتراف أحد مؤرخيهم .

وكدليل عملى على أفضلية الأطباء الشاميين المحليين على الأطباء اللاتين ، نجد أن الملوك الصليبيين أنفسهم حرصوا على اتخاذ أطباء لهم من العناصر المحلية من ذلك أننا نعرف أن

الملك عموري الأول Amaury I (١١٦٣ - ١١٧٤م / ٥٥٩ - ٥٧٠ هـ) كان له طبيبه الخاص في صورة أبي سليمان داوود بن أبي المنى بن فانه وكذلك ابنه الأكبر (١٠٢)، ويلاحظ أنهما من نصارى بيت المقدس ، وانتقل مؤسس أسرة بني فانه ، ومعه أبناؤه الخمسة إلى تلك المدينة في عهد الملك الصليبي حيث عملوا بالطب (١٠٣).

ولا نزاع في أن اتخاذ ذلك الملك الصليبي لأولئك الأطباء من المسيحيين الشرقيين يدل على مدى الثقة الكبيرة التي أولاها الصليبيون لمثل تلك العناصر على نحو جعلهم يستأمنون أولئك الأطباء على صحتهم ، على الرغم من وجود أطباء لاتين من الغرب الأوروبي ؛ وفي هذا اعتراف صريح بتفوق الأطباء من المسيحيين الشرقيين على أقرانهم اللاتين .

ومن زاوية أخرى ، نجد أن هناك إشارات تعكس تخلف أساليب العلاج لدى الصليبيين تجاه بعض الحالات المرضية وتمثل ذلك في الأطباء اللاتين حتى في علاج كبار ملوكهم من ذلك أن الملك عموري الأول قد أصيب في يوليو ١١٧٤م / ٥٧٠ هـ بمرض وكان من مظاهره إسهال شديد ، وتم علاجه من بعد ذلك ثم أصيب بالحمى ، وقد قام باستدعاء أطباء من السريان ، والإغريق ممن اشتهروا بالكفاءة في المعالجة (١٠٤)، وأمرهم بأن يقدموا له علاجًا مطهراً ، غير أنهم أبوا الاستجابة إلى ذلك فقام باستدعاء أطباء لاتين ، وطلب منهم نفس الطلب ، وشجعهم بأن أوضح لهم تحمله للمسئولية الشخصية الكاملة من جراء ذلك ، وهو أمر يمكن إدراكه من خلال أن قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية المسماة Assisses de Jerusalem ؛ كانت تفرض عقوبات صارمة على الطبيب في حالة أن يتسبب علاجه في موت مريضه تصل إلى الشنق (١٠٥)؛ ولهذا كانت مخاوف الأطباء من معالجة ذلك الملك الصليبي .

ومن الواضح أن الآلام المبرحة التي عانى منها جعلته يعرض عليهم ذلك العرض حتى يشجعهم على معالجته دون خوف من الوقوع تحت طائلة القانون ، وبالفعل نجد أنهم قدموا له ما يريد وحصل على الدواء اللازم ، إلا أن الحمى عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول طعام الغذاء ليقوي جسده ، إذ أن الدواء الذي أعطوه له قد أضعفه(١٠٦) وأجهده صحيًا .

ويحلل أحد الباحثين الوضع المرضي للملك الصليبي المذكور على اعتبار أنه أصيب بالدوسنتاريا وقد اعتراه من جراء ذلك ضعف بالغ ، ورفض الأطباء المسيحيون الشرقيون أن يفصدوه أو إعطائه مسهلاً وذلك لمعرفتهم بما تعلموه من الرازي (ت٣٣٠ هـ / ٩٣٢م) من أن ضعف القوة أردأ العلامات ، أما الطبيب الفرنجي ففعل به ذلك على نحو أدى به إلى

المـــــوت(١٠٧). ومن المتصور أن الأطباء اللاتين الذين عهد لهم أمر معالجة كبار الملوك الصليبيين كانوا على درجة من الكفاءة بحيث أسند إليهم ذلك المنصب الهام ، ولنا أن نتصور وضع الأطباء الآخرين من العناصر اللاتينية التى عالجت قطاعات أخرى من الصليبيين خارج نطاق القيادة الصليبية .

ومن المظاهر الدالة على ضعف أساليب العلاج الخاصة بالأطباء اللاتين - فى بعض الحالات بالطبع - ما ذكره أسامة بن منقذ (ت ٥٨٢ هـ / ١١٨٨م) من أن دملاً بسيطًا فى ساق أحد الفرسان الصليبيين جعلهم يستدعون له طبيبًا عربيًا من أجل فتح وإخراج ما به من صديد(١٠٨)، كما أن إصابة قدم أحد الفرسان جعلهم يبترون له تلك الساق المصابة دون القدرة على علاجها (١٠٩)، كما أنه أشار إلى القسيس الذى ملأ منخارى أحد المرضى بالشمع ، وهو على فراش المرض ، ومات فى أعقاب ذلك وعندما سأله أهله عما فعل أوضح لهم أنه كان يتعذب فأراحه (١١٠).

ويعلق أحد الباحثين على أمر بتر الساق أن ذلك يعنى جهل الأساليب الفسيولوجية للحالات المرضية عند الأطباء الصليبيين (١١١).

ويلاحظ أن تلك الحالات المرضية السابقة وتصرف الأطباء اللاتين حيالها جعلت أحد الباحثين يقرر أن أساليب العلاج الصليبية تجاه الأمراض ، بالمقارنة بنصيب العرب كانت سقيمة جداً (١١٢)، بينما رأى باحث آخر مستوى الطب لدى الصليبيين أنه كان متدنيًا للغاية، وأن الطب عند الصليبيين عبارة عن خرافات ، وشعوذة (١١٣).

والواقع أن التصور الآخر يفتقد جانبًا من الموضوعية إذ أن الطب لدى الصليبيين لم يكن كله خرافات ، وشعوذة بل أن الصليبيين تمكنوا من علاج بعض الحالات المرضية التى وصفت بأنها مستعصية (١١٤). وقد أورد أمرها أسامة بن منقذ نفسه . من ذلك أن مريضًا مصابًا بالغدد الخنزيرية المتقيحة قام بعلاجه طبيب فرنجى وشفى (١١٥)، كذلك هناك حالة الفارس برنارد الذى أصيب فى ساقه وفتحت فى أربعة عشر موضعًا ، وكانت جراحه كلما تم إغلاق أحدها فتحت فى مواضع أخرى ، وقد أتى إليه طبيب إفرنجى ، وقام بتطهير الجروح وعالجها تمامًا (١١٦)، وهناك من يرى أن نجاح الصليبيين فى علاج مثل تلك الحالات المرضية يعكس فهم الخواص الطبية لبعض المكونات ، والمواد النباتية ، والمعدنية (١١٧).

والواقع أن من الضرورة بمكان الوصول إلى تقييم موضوعى لقدرات الطب لدى الصليبيين على العلاج ، وفي هذا الشأن من الممكن القول بأن طب الصليبيين لم يكن كله متخلفًا ؛ إذ وجدت حالات عجز الأطباء اللاتين عن علاجها ؛ بينما وجدت حالات أخرى تمكنوا بنجاح من مواجهتها - على الرغم من استعصائها - على نحو اعترفت به المصادر العربية المعادية لهم ، وأقرت بتفوقهم فى هذا الصدد .

وبالتالى فإن صورة الطب لدى الصليبيين ينبغى ألا ننظر إليها نظرة قاتمة ، إذ أن هناك بعض الجوانب الإيجابية ، ومع ذلك فلا تدعونا تلك الزاوية إلي تصور أن الطب لديهم وصل إلى درجة التفوق على طب المسلمين ، وكذلك المسيحيين الشرقيين المعاصرين لهم .

وإكمالاً لصورة الطب لدى الصليبيين نجد أنهم أفادوا من وجود عناصر المسيحيين الشرقيين فى إقامة مراكز لدراسة الطب ، من ذلك ما يشير إليه البعض من أنه فى طرابلس وجد مركز للعلم عمل به العلماء من النصارى المحليين ، وكذلك المسلمين ممن ذاعت شهرتهم فى مجال الطب (١١٨)، وقد ارتفع شأن ذلك المعهد حيث أن الطلاب قصدوه من أرجاء بعيدة وأصبح أكبر معاهد الطب فى الإمارات الصليبية بصفة عامة (١١٩)، حقيقة أن العناصر المحلية لا العناصر اللاتينية قامت على أكتافها مثل تلك المجهودات العلمية فى تدريس الطب ، إلا إنها كانت فى النهاية داخل مناطق الصليبيين ، وإن لم تكن مجهودات ذلك المعهد فى طرابلس على نفس مستوى مدرسة سالرنو الطبية ، وعلى الأرجح كانت مجهودات معهد الطب فى طرابلس ذات طابع محلى محدود .

وتبقى زاوية على جانب كبير من الأهمية فى صورة الترجمة العلمية فى مجال الطب فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام خلال المرحلة من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ .

والواقع أن أحد الباحثين قد تصور ما نصه ، وعاد الصليبيون إلى بلادهم ولم ينقلوا إليها شيئًا من طب العرب رغم ما كانوا يعرفونه يقينًا من تفوقهم فيه (١٢٠)، كما رأى آخر أن الصليبيين أصلاً قدموا إلى المنطقة بصفة غزاة ولم يقدموا إليها كطلاب علم بل أنهم ظلوا فى حالة استنفار عسكرى طوال مدة إقامتهم فى الشرق (١٢١)، بالإضافة إلى ما تصوره البعض من أن الحياة العقلية فى الشرق الفرنجى ليست إلا حياة عقلية خاصة بمستعمرة فرنجية (١٢٢)؛ ويعنى بذلك أنها حياة مجدبة غير مزدهرة وبالإضافة إلى كافة تلك التصورات هناك من اعتقد ما جرى من تبادل ثقافى بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام كان محدوداً ؛ لأنهم

لم يختلطوا فى الغالب إلا بعناصر الفلاحين ، وعامة الناس ، ولأن المراكز العلمية - لدى صاحب ذلك الرأى - فى البلاد العربية كانت تتجه نحو الجمود بالإضافة إلى أن النزاع المستمر قد وقف عائقًا دون التفاعل الحضارى الحر بين الجانبين (١٢٣).

وحقيقة الأمر ، أن التصور بأن الصليبيين لم يترجموا شيئًا من المؤلفات الطبية العربية خلال مدة وجودهم فى بلاد الشام على مدى القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦ ، ٧ هـ أو خلال مرحلة البحث بين أيدينا من ١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠هـ تصور خاطئ ستكشف عنه بجلاء الصفحات التالية .

أما القول بأن اختلاطهم كان فى نطاق الفلاحين ، وعامة الناس ، فهو تصور مغلوط إذ ليس من المنطقى تصور أنهم كانوا قاصرين على التداخل مع ذلك القطاع السكانى دون غيره ، ولم يتصلوا بالعلماء المسلمين ، والمسيحيين الشرقيين الذين كانوا على معرفة بالعلوم الطبية ، نفس النقد يتجه صوب الرأى القائل بأن المراكز العلمية فى الدول العربية كانت تتجه نحو الجمود ؛ إذ أن القرنين المذكورين ونعنى بهما القرنين الثانى عشر والثالث عشر / السادس والسابع هـ شهدا ما يمكن وصفه " بعبقرية القرنين ١٢ ، ١٣م / ٦ ، ٧ هـ " حيث تفوق علماء المسلمين فى كافة العلوم والمعارف وتحويل التحدى الصليبى للشخصية المسلمة باستجابة إبداعية تمثلت فى كثرة العلماء الذين زخرت بهم تلك المرحلة على نحو خاص . ولا نغفل أن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية مثلت أحد معابر الحضارة الإسلامية إلى القارة الأوروبية فى العصور الوسطى مع عدم إغفال دور صقلية ، والأندلس فى هذا الشأن .

ومن جهة أخرى ، فإن تصوير الصليبيين على أنهم غزاة عسكريين دون أية صفة أخرى ، ينبغى ألا نأخذها دون نقد ؛ إذ أن الصليبيين عملوا على الإفادة من مؤلفات المسلمين الطبية على نحو يوضح أن الجانب العلمى لم يكن مفتقداً لديهم بصورة كاملة ، ولا أدل على ذلك من أنهم قاموا بترجمة كتاب على بن العباس المجوسى . المعنون بـ " كامل الصناعة الطبية " أو "الملكى" الأمر الذى سنتناوله بالتفصيل فى الصفحات التالية . كما ترجمت مؤلفات أخرى فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى .

والواقع أنه لابد لنا من التوجه صوب ذلك الطبيب المسلم وكتابه وقيمته العلمية ثم المترجم القائم على ترجمته .

والواقع أن على بن العباس المجوسى هو أحد كبار الأطباء المسلمين ، وهو فى الأصل من الأهواز(١٢٤) من أرض فارس ، وقد توفى فى عام ٣٢٦ هـ / ٩٩٤م ، وعرف لدى الأوروبيين باسم هالى عباس Haly Abbas(١٢٥) وألف كتابه الشهير الملكى أو كامل الصناعة الطبية للملك عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى (٣٣٨ - ٣٧٢هـ / ٩٤٩ - ٣٩٨هـ) وهو أحد أقوى ملوك البويهيين(١٢٦) ، وقد وصف الكتاب بأنه " جامع كامل لكل ما يحتاج إليه المتطبب "(١٢٧) ، وأنه عكس مرحلة النضج فى التأليف الطبى عند المسلمين بعد أن استوعبوا العلوم الطبية اليونانية ، وأضافوا عليها ، وقد اعتمد مؤلفه على مشاهداته العلمية فى البيمارستانات أى المستشفيات ولم يكن معتمداً على الكتب النظرية ، وجعله ذلك يكتشف العديد من الأخطاء الخاصة بالأطباء اليونانيين القدامى مثل أبقراط Hippocrates ، وجالينوس Galenus(١٢٨) ومعنى ذلك أن كتابه لا يعد كتابًا طبيًا عاديًا ؛ بل أنه احتوى على رؤية طبية نقدية إسلامية للطب اليونانى القديم .

ومن المهم ملاحظة أن هذا الكتاب الجامع يقوم مؤلفه فيه بتلخيص كافة المعارف الطبية حتى عصره أى حتى القرن ١٠م / ٤ هـ بصورة اتسمت بالتنظيم ، والترتيب (١٢٩)، بالإضافة إلى العمق ، ولعل هذه الصفات كانت هى الأساس الذى جعله مفضلاً لدى الأطباء المسلمين إلى أن ظهر إلى الوجود كتاب القانون لابن سينا (ت ق ٥ هـ / ١١م) فمال الناس إليه(١٣٠).

ومن الجوانب التى تعكس أهمية ذلك الكتاب الجانب الجراحى ؛ إذ كانت له قيمته الكبيرة واعتبرت إحدى الباحثين مؤلفه أول من كتب بصورة عميقة فى الجراحة فى كتابه المذكور(١٣١)، فلا عجب أن صار المرجع الأساسى لعلم التشريح Anatomy فى سالرنو ، وقد تصور البعض أن ذلك حدث خلال المرحلة الممتدة من عام ١٠٧٠م / ٤٧٠ هـ - عام ١١٧٠م / ٥٧٠ هـ (١٣٢)، وإن كنت أتصور استمرارية أهميته بعد تلك المرحلة فى الطب الأوروبى من خلال أهميته المتميزة التى أجمعت عليها كافة الدراسات المتخصصة فى تاريخ الطب فى العصور الوسطى .

والجدير بالذكر هنا فى معرض تناولنا لقيمة ذلك الكتاب أنه بمثابة أول كتاب عربى كبير تتم ترجمته إلى اللغة اللاتينية كما يقرر أحد الباحثين (١٣٣)، وإن اتجه عدد من المستشرقين

فيما بعد إلى ترجمة أجزاء مختلفة منه إلى اللغات الأوروبية الحديثة [١٣٤]، غير أن دورنا هنا يتمثل فى دراسة ترجمته إلى اللاتينية فى أنطاكية عام ١١٢٧م / ٥٢١هـ .

والواقع أن الترجمة الأولى لكتاب " كامل الصناعة الطبية " أو الملكى قام بها قسطنطين الأفريقى فى دير مونت كاسينو Monte Cassino فى إيطاليا فى القرن الحادى عشر م / الخامس هـ [١٣٥]، وقام بتدريسه فى ترجمته اللاتينية فى سالرنو ، وكان عنوانها هو Liber Pantegni[١٣٦] ، بيد أن قسطنطين الأفريقى نسب ذلك الكتاب إلى نفسه [١٣٧]، مثلما فعل فى عدة كتب أخرى ، وإن كان من الضرورى ملاحظة أن عمله لم يكن كاملاً فى ترجمة الكتاب بل أكمله آخرون .

ومهما يكن من أمر ، فمما لا ريب فيه أن ما قام به ذلك الباحث فى ترجمته ذلك الكتاب يعد عملاً هامًا بالنسبة إلى الأمم اللاتينية وأجل أعماله ويعد فتحًا فى تاريخ الطب اللاتينى[١٣٨].

أما الترجمة الثانية للكتاب المذكور ، فقد تمت فى بلاد الشام وبالتحديد فى أنطاكية عام ١١٢٧م / ٥٢١هـ على يد ستيفن الأنطاكى Stephanus Antiochenus وفى عهد أمير أنطاكية حينذاك بوهيمند الثانى Bohemond II (١١٢٦ - ١١٣٠م / ٥٢٠ - ٥٢٤هـ) وهناك من يرى أن ذلك كان بمثابة الكتاب الوحيد الذى نقله الصليبيون إلى اللاتينية عندما كانوا فى بلاد الشام [١٣٩]، غير أن ذلك التصور لا ينطبق على الواقع التاريخى فى شىء ؛ لأن هناك كتابًا آخر تمت ترجمته في القرن التالى ؛ ونعنى به القرن ١٣ م / ٧ هـ ، ألا وهو كتاب " سر الأسرار فى طب العيون " وقد ترجم فى أنطاكية أيضًا فى عام ١٢٤٧م / ٦٤٦هـ[١٤٠].

ويلاحظ أن هناك من ذكر أن ترجمة كتاب الملكى فى أنطاكية قام بها إيتان الأنطاكى Etionne The Antioch [١٤١]، وهى التسمية الفرنسية لستيفن .

ومن الضرورة بمكان التصدى للتعريف بالمترجم وعمله فى ترجمة كتاب كامل الصناعة الطبية والواقع أنه من خلال مقدمة وخاتمة الترجمة اللاتينية للكتاب ، نعرف عن ستيفن الأنطاكى بعض المعلومات وإن كانت قليلة ، وهو من أصل لاتينى ، ومن مدينة بيزا Pisa الإيطالية ، وقد درس اللغة العربية والحكمة ، وكانت لديه بعض المعرفة باللغة اليونانية ، ومن

المحتمل أنه كان يعرف معرفة شخصية مدارس سالرنو ، وصقلية (١٤٢)، وقد سار مسيرة بنى مدينته واتجه إلى أنطاكية حيث ظهر فى عام ١١٢٧م / ٥٢١ هـ مترجمًا لكتاب كامل الصناعة الطبية وعرفت ترجمته بعنوان : Practica Pantegni et Stephononis .

وتجدر الإشارة إلى أن كون ستيفن الأنطاكى من بيزا أمرًا لا يدعو إلي الدهشة ، إذ أن المراكز الصليبية كانت مجالاً رحبًا وفرصة سانحة لإظهار دور وفعاليات المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية ، ومن الملاحظ أن البيازنة كان لهم حى خاص بهم فى أنطاكية ؛ وذلك فى عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ(١٤٣) وبصفة عامة هناك من يرى أن عمل ستيفن الأنطاكى - على نحو خاص - يعكس تميز الإسهام البيزى فى مجال العلم فى القرن ١٢م / ٦هـ (١٤٤).

والواقع أن من المهم أن نناقش دوافع ستيفن الأنطاكى نحو ترجمة كتاب كامل الصناعة الطبية ، وفى هذا الصدد من الممكن احتمال أن يكون قد أدرك سوء ترجمة قسطنطين الإفريقى فى مونت كاسينو وبالتالى سعى إلى إعادة الترجمة على نحو دقيق حيث عرف فى ذلك العصر أكثر من ترجمة للكتاب الواحد سعيًا إلى مزيد من الفائدة ومزيد من الدقة (١٤٥). ومن ناحية أخرى أراد ذلك المترجم - كما سيتضح لنا - أن يقدم شروحًا للمصطلحات حينذاك؛ ونعنى به بوهيمند الثانى ، غير أن ذلك التصور ليس فى الإمكان ترجيحه ، لعدم وجود نصوص صريحة فى المصادر التاريخية الصليبية تدعمه . وأمام ذلك ؛ نجد أن الدوافع العلمية الشخصية لدى ستيفن الأنطاكى ؛ هى الأكثر ترجيحًا عن غيرها فى هذا الصدد .

وتجدر الإشارة إلى أن المخطوطات اللاتينية تبرز وجود جزآن من الكتاب ، ما يسمى بـ Theorica أو القسم النظرى ، ومخطوطاته متعددة ، وكذلك ما يسمى بـ Practica أى القسم العملى ؛ ويلاحظ أن مخطوطاته أكثر شيوعًا (١٤٦)، ومن المنطقى تصور أن شيوع نسخ الجانب العملى من الترجمة اللاتينية يعكس الحاجة إليه على أساس أنه يتعرض إلى وسائل المعالجة وأساليبها المختلفة وفقًا لطبيعة كل مرض .

ويلاحظ أن الجانب النظرى Theorica من الكتاب ؛ قد ترجم إلى اللغة اللاتينية من قبل قسطنطين الأفريقى تحت عنوان Pantegni ، الذى ترجم بداية النصف الأول من الجزء العملى Practica ، وقد وجه بصورة منفصلة تحت عنوان De Chirurgia (١٤٧)، أما النصف الثانى من الجزء العملى ؛ فقد ترجمه إلى اللاتينية تلميذ قسطنطين الأفريقى ألا وهو يوحنا الشرقى،

أو يوحنا الأفريقى Johannes Africanus وطبيب بيزى يسمى روستيكوس Rusticus وذلك فى عام ١١١٤م / ٥٠٨هـ (١٤٨). وتفيد الإشارة السابقة فى توضيح أن البيازنة شاركوا فى الترجمتين اللاتينيتين لكتاب على بن العباس المجوسى سواء فى إيطاليا أو فى أنطاكية ، والجدير بالذكر أنه فى ختام ترجمة ستيفن الأنطاكى وضع شرحًا لبعض المفردات التى وردت فى الكتاب كما لدى ديو سقوريدس Dioscorides كبير العشابين اليونانيين القدامى . وتعليل ذلك أن القراء الذين كانوا يجدون صعوبة فى متابعة وفهم التعبيرات اللاتينية عندئذ كان بمقدورهم استشارة الخبراء ؛ إذ أنه فى صقلية ، وسالرنو ، كان هناك طلاب لتلك الموضوعات، وكان هناك اليونانيون الذين كانوا على دراية باللغة العربية (١٤٩).

والواقع أننا ينبغى أن نلاحظ أهمية إدراك ذلك المترجم فى ذلك الوقت المبكر أن يضع قاموسًا للمصطلحات اللاتينية واليونانية ، والعربية الطبية (١٥٠). وفى ذلك دعم كامل لمشروعه فى الترجمة المذكورة . كما أنه تعبير عن التقاء الأمم والشعوب التى ترتبط باللغات الثلاث من خلال مشروع الصليبيات ذاته .

والجدير بالذكر هنا ، أن قيمة الجهد الذى قام به ستيفن الأنطاكى أنه أورد فى ترجمته اسم المؤلف الأصلى للكتاب (١٥١)؛ وهو على بن العباس المجوسى ، وفى هذا رد اعتبار لذلك الطبيب المسلم البارز ، كما أن عمله يكشف لنا عن حرص الصليبيين على الإفادة من معارف المسلمين الطبية ؛ وبالتالى لا ينبغى ألا ننظر إلى الوجود الصليبى على أنه لم يحتو أية توجهات علمية فى مجال الطب .

ومن الملاحظ أنه خلال المرحلة الممتدة من ١٠٨٩ - ١١٧٤م / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ . لم يكن ستيفن الأنطاكى هو المترجم الوحيد . بل أن هناك مترجمًا آخر هو برنارد سلفستر Bernard Silvester الذى تصفه إحدى المخطوطات اللاتينية على أن مترجم من العربية ومن المحتمل أنه عاصر عهد الملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤ / ١١٥٩ - ٥٧٠هـ)(١٥٢) وإن كنا لا نعرف ما قام به فى مجال الترجمة من العربية إلى اللاتينية ووجود مترجم آخر مثل برنارد سلفستر إلى جانب ستيفن الأنطاكى يثبت لنا الأخير لم يكن هو المترجم الوحيد ، ومن المحتمل وجود مترجمين آخرين ، فى نفس المجال لدى الصليبيين ، ولم تصل إلينا عنهم إشارات كافية ، من خلال انهماك المؤرخين بالكتابة عن الأحداث السياسية والحربية الطابع .

على أية حال ، من الممكن الخروج بعدة نتائج من البحث يمكن إجمالها على النحو التالى :

أولاً : حرص الصليبيون على الاهتمام بالناحية الطبية للحفاظ على ما لديهم من قوة بشرية كانت تعانى أصلاً من قلة عددها وبالتالى دخل الطب فى دائرة الصراع بين الصليبيين والمسلمين . وقد وضح كيف أن المناطق الصليبية كان بها تياران للطب : الأول الأطباء اللاتين والثانى يضم الأطباء المسلمين ، والمسيحيين الشرقيين ، واليهود ، وكان الفريق الأخير أكثر تقدمًا من الفريق الأول وذلك باعتراف المصادر الصليبية ذاتها ، ومن ثم استعان بهم الصليبيون وفضلوهم على الأطباء اللاتين .

ثانيًا : على الرغم من أن الرؤية المتأنية للطب فى المناطق الصليبية تكشف لنا عن شعف المستوى العلاجى لدى الأطباء اللاتين ، إلا أنه من الإنصاف أن نقرر أنهم مثلما أخفقوا فى علاج بعض الحالات المرضية ، إلا أنهم نجحوا فى علاج البعض الآخر على نحو اعترفت به المصادر العربية المعاصرة من جانب غير الصليبيين .

ومن ثم فإن تعميم الحكم بأن الصليبيين كانوا متخلفين فى المجال الطبى أمر يحتاج إلى تصحيح لأنهم نجحوا فى بعض الحالات ولم يفشلوا تمامًا فى هذا الجانب بصورة كاملة .

ثالثًا : من الأمور الجديرة بالملاحظة بالنسبة للمرحلة موضوع البحث الممتدة من ١٠٩٨ - ١١٧٤ / ٤٩١ - ٥٧٠ هـ - وحتى فيما بعد - أن الصراع الإسلامى الصليبى لم يكن فقط على المستوى الحربى ؛ بل إن هناك مواجهة حضارية وقعت بين الجانبين وقد سعى فيها الصليبيون للاستفادة من علوم المسلمين الطبية المتقدمة ، ويمثل كتاب " كامل الصناعة الطبية" ودور الصليبيين فى ترجمته دليلاً على سعيهم للإفادة من علوم المسلمين . ذلك ؛ عرض عن الطب فى المناطق الصليبية خلال المرحلتين ١٠٩٨م إلى ١١٨٧م.

الهوامش :

(1) Hume, Medical Work of the Kinghts Hospitallers of St. John of Jerusalem, institute of History of Medicine of the John Hopkins University, Baltimore 1940 .

(2) Woodings, The Medical Resources and practice of the Crusader States in Syria and Palestine (1096 - 1193) " , M.H., Vol. XV, No. 3, July 1971, pp. 268 - 277 .

(3) Ency. Brit., " History of Medicine", Vol. XI, Chicago 1976, p. 828 .

(٤) زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ت . كمال الدسوقي وإبراهيم بيضون ، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ٢٢٠ .

وعن جريجورى التورى انظر : علية الجنزورى ، جريجورى التورى وقيام دولة الفرنجة ، ط. القاهرة - ١٩٨٨م ، ص ١٢ - ص ٢١ .

(5) Mackinney, Medical Illustrations in Medieval manus-cripts, London, 1969, p. 3 .

(6) Ency. Brit., "Hospital", Vol. VIII, Chicago 1967, p. 1114 .

(7) Sidiqui, Main Springs of western Civilization, Lahore 1923, p. 95 - 96 .

(8) Miller, "The Knights of saint John and the Hospitals of The Latin west", S., Vol. LIII, No. 3, July 1973, p. 705 .

(9) Ibid, p. 810 .

(10) Mackinney, p. 3-4 .

(11)Miller, p. 711.

(12)Ibid, p. 711 .

(13) Mackinney, p. 4 .

(١٤) كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ت . جوزيف نسيم يوسف ، ط. الإسكندرية ١٩٩٢م ، ص ٢٥٧ .

(15) Ency. Brit., "Hospital", Vol. VIII, p. 1114 .

(16) Thompson, Alchemy Source of Chemistry and midicine, New York 1974 , p. 138 .

(١٧) ول ديورانت ، " إحياء علم الطب " ، ضمن كتاب قصة الحضارة ، جـ٦ ، م ٤ ، ت .محمد بدران ، ط. القاهرة ، ب . ت ، ص ١٩٧ .

(18) Mackinney, p. 9 .

(19) Ibid, p. 20 .

(٢٠) سعيد عبد الفتاح عاشور ، " الطب الإسلامى فى الجامعات الأوروبية فى فجر عصر النهضة " ، ضمن كتاب بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٦٢٥ .

(21) Makinney, p. 9 .

ويلاحظ أن الطائر المسمى كالديوس Caladius هو نفسه الطائر الذى يسمى كالاريوس تكرار كالاردبوس Caladarius الذى أشار إليه أرسطو ، وهو طائر أبيض وصف بأن لونه أبيض كالثلج دون أية بقع سوداء ، ونجد أن من الشعراء المحدثين من استعمل مدلولاته من ذلك تناول شستر Chester (١٨٧٨م) له ، وكان الطائر المذكور يستخدم فى المرحلة موضع البحث للتطير ومعرفة هل ستكتب الحياة للمريض أم أنه سيموت وهناك من يشير إلى أن الطائر المذكور كان يشيح بوجه فى حالة أن الموت سيدرك المريض أما إذا كان سيعيش فإنه يقبل على المريض . ونجد صورة لذلك الأمر فى مخطوطة طبية من القرن ١٢م / فى مكتبة جامعة كمبردج Cambridge رقم (١٢) فسيولوجيا ٥ ، ورقة (٨٦) .

عن ذلك انظر : The Oxford English dictionary, Vol. II, Oxford 1978, p. 23. Mackinney, p. 22 .

(٢٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٤٦ .

(٢٣) إنجيل متى ، الإصحاح (١٠) ، فقرة (٨) ، وانظر أيضًا : Miller, p. 711

(24) Ency. Brit., "History of Medicine"

وفيما يتصل بالقديسين المذكورين كوزموس Cosmus وداميان Damian ، نعرف أن يوم الاحتفال بهما يوافق ٢٧ سبتمبر وهناك من يرى وجود اثنين من الشهداء المبكرين فى تاريخ المسيحية كانا يحملان الاسمين السابقين ، ومع ذلك فإن ما يعرف عنهما جد قليل ويقال إنهما عاشا فى منطقة تسمى Cyrrhus فى بلاد الشام وسرعان ما انتشرت شهرتهما بصورة كبيرة ، وانتشرت عبادتهما على نحو متسع ، وصارا بمثابة القديسين الحاميين للأطباء ، كشهيدين من شهداء المسيحية بذلا روحيهما من أجل عقيدتهما ، وهناك من يذكر أنهما لم يوجدا قط إنما هما صورة مسيحية من ديسكورى Discuri وأمى زيوس Zeus كبير آلهة الأوليمبس عن ذلك انظر :

Attwater, The Penguin dictionary of saints, London 1977. p. 49 .

(25) Ency. Brit., " History of Medicine", p. 328 .

وأبولونيا Apolonia إحدى شهيدات المسيحية استشهدت فى الاسكندرية عام ٢٤٩م ، ويوم الاحتفال بها يوافق التاسع من فبراير ، وقد وقعت أحداث شغب ضد معتنقى المسيحية ، فقتل أهل المدينة المذكورة عدداً من المسيحيين ، وكان من بين القتلى تلك الشماسة المتوسطة العمر ، ويقال أنها ماتت حرقًا ، ونستمد معلوماتنا عنها من خلال خطاب أرسل من جانب القديس ديونيسيوس Dionysius الذى كان أسقفًا للإسكندرية فى ذلك الحين .

عنها انظر: Attwater, p. 52 .

أما القديسة إيراموس St. Eramus أيلمو Elmo ، فهو قديس يوم الاحتفال بذكراه يوافق يوم الثانى من يونيو ، وقد وجدت عبادته فى منطقة فورمياى Formiae فى إقليم كمبانيا Campanian وذلك فى القرن السادس ، ويقال إنه كان أسقفًا فى بلاد الشام وتم اضطهاده فى عهد الإمبراطور دقلديانوس Dio-cletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) ويقال إن القديس إيراموس قد مات من جراء اضطهاده وذلك فى عام ٣٠٣م ، فى فورمياى Formiae ، وفيما بعد نشأت بشأنه أسطورة تتناول حياته وموته ، وقد ثار حاميًا لعناصر البحارة .

عنه أنظر : . Attwater, p. 117

(26) Ency. Brit., "History of Medicine", p. 828 .

(27) Mackinney, p. 62 .

(28) Kristeller, "The School of Salerno, its development and its contribution to the History of Learninng:, B.H.M., Vol. XVII, 1975, p. 145 .

(29) Chevalier, "The Beginnings of the School of Salerno" C.S., Vol. V, 1941, p. 1721 .

(30) Ency. Brit., " History of Medicine" p. 828 .

(31) Chevalier" Constontinus Africanus and the influence of the Arabs on Salerno", C.S., Vol. p. 1725 .

وعنه انظر أيضًا : " Ben yahiya, " Constantine l'African : et l'ecole de Salerno" lern" C.T., Année 3, T.IX, 1955, p. 49 - 90 ، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، جـ٤ ، ت . السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٩٣ ، جاك ريسلر ، الحضارة العربية ، ت . خليل أحمد خليل ، ط. بيروت ١٩٩٣م ، ص ٢١٠ ، على عبد الحليم محمود ، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى ، ط. جدة ١٩٨٢م ، ص ٢٩١ .

(32) Conder, " The Rise of Medicine at Salerno in The Twelfth century", A.M.H., Vol. III, January 1931, p. 3 .

(٣٣) أحمد فؤاد باشا ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة ، ط. القاهرة ١٩٨٣م ، ص ١٨٥ .

(٣٤) محمود الحاج قاسم ، الطب عند العرب والمسلمين ، تاريخ ومساهمات ط. جدة ، ١٩٨٧م ، ص ٣٨٨. عنه بالتفصيل انظر :

Chevalier, " The Regimen Sanctais" C.S., Vol. V, p. 1732 - 1737 .

(٣٥) محمود الحاج قاسم ، المرجع السابق ، ص ٣٨٥ ، محمود الجليلى ، " تأثير الطب العربى فى الطب الأوروبى فى القرون الوسطى والنهضة الأوروبية " مجلة المجمع العلمى العراقى م (٣٢) ، جـ٣ ، ٤ ، عام ١٩٨١م ، ص ١٩٤ .

(36) Ency. Brit., "History of Medicine", Vol. p. 828 .

ويلاحظ أن روبرت النورمندى هو الابن الأكبر لوليم الفاتح William The Conqueror وقد أطلق عليه معاصروه الطيب ، وقام برهن دوقيته لأخيه وليم روفوس William Rufus من أجل جمع المبالغ اللازمة لكى يشارك فى الحملة الصليبية الأولى . واشترك مع الصليبيين فى معارك نيقية ، وأنطاكية ومات عام ١١٣٤م / ٥٢٨ هـ ، عنه انظر :

David, Robert Curthose of Normandy, Cambridge 1920, Haskins, The Normans in European History, New York, 1959, p. 212 .

(٣٧) عن خطاب البابا أوربان الثانى انظر :

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennesse 1967, pp. 62 - 65 ; Munro, "The Speech of pope Urban The Second at Clermont", A.H.R., Vol. II, 1905, p. 231 - 242 .

جوزيف نسيم يوسف ، " الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية " ، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ، م (١٦) ، عام ١٩٦٩م ، ص ١٩٨ – ٢٠٥ .

(38) Prawer, Crusader Institutions, Oxford 1980, p. 123 .

(39) Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907. p. 39 .

(40) Daniel, Pilgrimage of the Abbot Daniel in the Holy Land, Trans. by Willson, P.P.T.S., Vol. IV. London 1895, p. 9 .

(٤١) جوناثان رايلى سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ، ت . محمد فتحى الشاعر ، ط. القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٧٥ .

(42) William of Tyre, A History of the deeds done beyond the sea, Vol. I. Trans. by Babcock and Krey, New York 1943, p. 214 .

(43) Ibid, p. 215 .

(٤٤) جوناثان رايلى سميث ، المرجع السابق ، ص ٧٥ ، انظر أيضًا :

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana in R.H.C. Hist. Occ. T.IV, Paris 1897, p. 435 .

(٤٥) جوناثان رايلى سميث ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(46) William of Tyre, Vol. I, p. 377 .

(٤٧) ميشيل الشامندى ومحمد صلاح الدين الكواكبى ، مبحث فى السموم ، ط. دمشق ١٩٢٨م ، ص ٨ .

(٤٨) كمال السامرائى ، مختصر تاريخ الطب العربى ، جـ١ ، ط. بغداد ١٩٨٥م ، ص ٣٣٦ .

(٤٩) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٣٧٠ .

(50) . ulcner of Chartres, p. 286 .

(51) Runciman, A History of the Crusades, Vol. II, London, 1978, p. ???

(52) William of Tyre, Vol. I, p. 239 .

(53) Ibid, p. 128 .

(54) Ibid, p. 121 - 122 .

(٥٥) حسن عبد الوهاب ، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م ، ص ٤٤ .

(56) William of Tyre, Vol. I, p. 74 - 75 .

(57) Fulcher of Chartres, p. 175 .

(58) Runciman, Vol. II, p. 205 .

(٥٩) كمال السامرائى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ .

(60) William of Tyre, Vol. I, p. 220

أيضًا وصف رايموندا چيل للصليبيين فى ظروف حصار أنطاكية على أنهم زناة . رايموندا چيل ، تاريخ الفرنج غزاة بيت المقدس ، ت. حسين عطية ، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م ، ص ٨٩ .

(٦١) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ت. قاسم عبده قاسم وخليفة ، ط. الإسكندرية ١٩٨١م ، ص ٢٢١.

(٦٢) العماد الأصـ ى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط. القاهرة ب.ت ، ص ١٧٠ .

(63) Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. by. Stewart, P.P.T.S, Vol. XI, London 1896, p. 46 .

جمعة الجندى ، حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م ، ص ٢٩٩ - ص ٣٠٠ .

(٦٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١٧٤ .

(65) Miller, p. 212 .

(66) Joannaes Phocas, A Brief Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 11 .

(٦٧) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ت . عزرا حداد ، ط. بغداد ، ١٩٤٣م ، ص ١١١ .

(٦٨) السمعانى ، الأنساب ، جـ٤ ، ط. بيروت ، ب.ت ، ص ٤٢ .

(٦٩) السائح الهروى ، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق دومنيك سورديل ط. دمشق ١٩٥٣م ، ص ٢١ .

(70) John of Wurzburg, Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S, Vol. London 1896, p. 51 .

(71) Euphrosine, Pelerinage au Palestine de L'Abbesse Euphrosine Traduit par de Khitrroux, R.O.L.T. III, Année 1895, p. 33 .

(72) William of Tyre. Vol. II, p. 346 .

(٧٣) أمالفى : مدينة وقعت فى سهل كمبانيا Campania بإيطاليا فى مقاطعة سالرنو Salerno على بعد سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربى من مدينة سالرنو على الساحل الشمالى من الخليج الذى حمل اسم المدينة Gulf of Salerno ، ودخلت تلك المدينة مع علاقات تجارية مزدهرة مع مصر والشام ، عنها انظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 242 , Ency. Amer, " Amalfi" Vol. I, U.S.A. 1970, p. 659 .

Pirenne, Mohammed and Charlemgne, London 1945, p. 132.

Citarello, "The Relations of Amalfi with the Arab World befor the Crusades", S., Vol. XLII, No. 2. April 1967, p. 299 - 312 .

أرشيبالدلويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ت . أحمد عيسى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٣٣٩ - ص ٣٤٠ .

(٧٤) عن ذلك انظر :

Krueger, " The Italian Cities and The Arabs before 1099", in setton, A History of the Crusades, Vol, Pennsylvania 1958, p. 52 ; Langer, Western Civilization, New York 1968, p. 561 .

(٧٥) عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ت . فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٢٥ .

(٧٦) شفيق جاسر ، القدس تحت الحكم الصليبى ، ص ١٠٣ .

(٧٧) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ، ص ٩٠ .

(78) Thompson, p. 139 .

(79) Saewulf, Pilgrimage of Saewulf, Trans. By Bishopof Clifton, P.P.T.S., Vol. IV. London 1896, p. 14 .

(80) John of Wurzburg, p. 44 .

(81) Ibid, p. 44 ; Woodings, " The Medical resources in Syria and Palestine (1096-1193), M.H., Vol. XV. No. 3, July 1971, p. 15 .

(82) John of Wurzburg, p. 44 .

(83) Ibid, p. 44 .

(84) Benjamin of Tudela, travels of Benjamin of tudela, in wright Early travels in Palestine, London 1848, p. 43; Peters, Jerusalem The Holy City, Princeton 1985, p. 382 .

ويلاحظ أن المستشفى الثانية التى أشار إليها بنيامين التطيلى هى مستشفى الداوية عن ذلك انظر :
Hume, Medical work of the Knights Hospitallers of St. John of Jerusalem, institute of the History of medicine of the John Hopkins University, Baltimore 1940, p. 15 .

(85) heoderich, Theoderich's, Description of the Holy places, Trans. By Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 27 .

(86) Ibid, p. 27 .

(٨٧) حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأرض المقدسة حوالى ١١٩٠ - ١٢٩١م / ٥٨٦ - ٦٩٠ هـ . ط. الإسكندرية ١٩٨٩م ، ص ٦٢ .

(٨٨) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٦٤ .

(89) William of Tyre, Vol. II, p. 462 .

(٩٠) سعيد البيشاوى ، نابلس " الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية فى عصر الحروب الصليبية " ، ط١ ، عمان ١٩٩١م ، ص ٢١١ .

Richard, "Hospitals and Hospital Congregation in the Latin Kingdom during the first period of the Frankish conquest", in Outremer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, Jerusalem 1982, p. 90 .

(91) Ibid, p. 91 .

(92) Delaville le Roulx, Cartulaire generale de L'Ordre des Hospitatiers de St.Jean de Jerusalem (1110-1130), Vtol. I., Paris 1894, p. 90 .

(93) William of Tyre , Vol. II, p. 292 .

(94) Ibid, p. 292 .

(٩٥) عن الأوضاع السكانية فى المناطق الصليبية بصفة عامة انظر :

Prawer, Crusader Instiutions, pp. 181, pp. 380 - 382. Russell, "The population of the crusder", in setton, A History of the Crusades, Vol, V, Madison 1989, pp. 295 - 314 .

قاسم عبده قاسم ، " بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية " مجلة عالم الفكر ، م (٢٢) ، العدد (٢) ، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م ، ص ٣٦٨ - ص ٣٦٩ .

(96) John of Wurrzburg, p. 69 , Social Classes in The Crusader states : The Minorities", in Setton, A History of the Crusades, Vol., New Jersy 1983, p. 60 .

(٩٧) هنرى لامنس ، " الحياة فى بيروت فى عهد الصليبيين " ، المشرق ، العدد (١) ، السنة (٣١) ، عام ١٩٣٣ ، ص ٧٢٥ .

(٩٨) عن ذلك انظر : William of Tyre, Vol. II, p. 458 .

(99) William of Tyre, Vol. II, p. 395 .

(100) Ibid, p. 292 .

(101) Ibid, p. 293 .

(102) Runciman, Vol. III, p. 318, Note (1).

(١٠٣) كمال السامرائى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٩ . انظر أيضًا : ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، ط. بيروت ، ب.ت ، ص ٥٨٧ .

(104) William of Tyre, Vol. II, p. 355 .

(١٠٥) عبد السلام التونجى ، المسئولية المدنية للطبيب ، ط. بيروت ١٩٦٧م ، ص ٤٠ ، وهناك إشارة مفيدة لدى : Woodings, p. 279 .

(106) William of Tyre, Vol, II, p. 355 .

انظر أيضًا : محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٣٠ .

(١٠٧) محمد كامل حسين ، " فى الطب والأقربازين " ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م ، ص ٢٦٠ .

(١٠٨) الاعتبار ، ص ١٧٠ ، Woodings, p. 271 .

(١٠٩) نفسه ، نفس الصفحة .

(١١٠) نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(١١١) مونتجومرى وات ، فضل الإسلام على الحضارة العربية ، ت . حسين أحمد أمين ، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٩١ .

(١١٢) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ت . اليازجى ، ط. بيروت ١٩٥٩م ، ص ٢٥٨.

(١١٣) عبد الله الربيعى ، أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى خلال الحروب الصليبية ، ط. الرياض ١٩٩٤م ، ص ١١٥ .

(١١٤) محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

(١١٥) الاعتبار ، ص ١٧١ .

(١١٦) نفسه ، نفس الصفحة ؛ انظر أيضًا : حسان حلاق ، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (الأندلس - صقلية - بلاد الشام)، ط. بيروت ١٩٨٦م ، ص ٢٣٨ .

(١١٧) مونتجومرى وات ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

(١١٨) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م ، ص ٢٣٣.

(١١٩) عمر عبد السلام تدمرى ، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور ، ص ٤٧٨ .

(١٢٠) محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ ؛ أيضًا : أحمد طه ، الطب الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٩١ ويلاحظ أن الباحث الأخير أنكر فكرة تأثر الصليبيين بطب المسلمين ثم عاد ليذكر بعد ذلك أمر ترجمة " كتاب كامل الصناعة الطبية " لعلى بن العباس المجوسى ، مما أوقعه فى تناقض بين .

(١٢١) أنتونى ويست ، الحروب الصليبية ، ت . شكرى محمود نديم ، ط. بغداد ١٩٦٧م ، ص ٣٥ .

(١٢٢) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ت . السيد الباز العرينى ، ط. بيروت ١٩٩٣م ، ص ٨٢٢ .

(١٢٣) قدرى قلعجى ، صلاح الدين الأيوبى ، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، ط. بيروت ١٩٧٩م ، ص ٦٢١ .

(١٢٤) ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٢١٩ ، هيكل نعمة الله وإلياس مليحة ، موسوعة علماء الطب . ط. بيروت ١٩٩١م ، ص ٢١٠ .

(125) Mackinney, p. 177 .

١٢٥) عنه انظر : ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية (١) ، كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٢٩١ ، كمال السامرائى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٢٧ ، إدوارد براون ، الطب العربى ، ت . داود سليمان ، ط. بغداد ١٩٨٦م ، ص ٥٦ - ٥٧ .

Sezgin, Geschichte des Arabischen Schrifttum, Band III, Leiden 1970, p. 320 .

(١٢٧) حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، ط. استانبول ١٩٤٣م ، ص ١٣٨ .

(١٢٨) سامى حمارنة ، " علوم الحياة " ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوربية ، ت . عبد الكريم مخفوظ ، ط. دمشق ١٩٨٢م ، ص ٢٩٣ .

(١٢٩) جاك ريسلر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(١٣٠) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، وضع حواشيه الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، ط. بيروت ١٩٨٣م ، ص ٥ ٣٠، ص ١٥٦ ، الفاضل نجيب عمر، الطب الإسلامى عبر القرون ، ط. الرياض ١٩٨٧م ، ص ١٧٥ ، حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بغداد ، ب.ت ، ص ٥٥ ، محمد حسين الزبيدى ، ملامح من النهضة العلمية فى العراق فى القرنين الربع والخامس الهجريين ،ط. بغداد ١٩٨٠م ، ص ٩٨ .

(١٣١) حنيفة الخطيب ، الطب عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٨م ، ص ٢٩ .

(١٣٢) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تطوره ،ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٠ .

(١٣٣) ماهر عبد القادر ، مقدمة فى تاريخ الطب العربى ، ط. بيروت ١٩٨٨م ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٣٤) من هؤلاء ريختر P.Richter وجى ويبرج ودى كونينج De Koning الذين عملوا على نشر الأجزاء الخاصة بالأمراض الجلدية والتشريحية وطب العيون خلال المرحلة من ١٩٠٠ - ١٩١٤م ، عن ذلك انظر :

كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٢٩٣ . وبصفة عامة عن المؤلف والكتاب وأهميته انظر ؛
Campbell, Arabian medicine and its influence on the Middle Ages, Vol. I, London 1976, p. 74 - 75, Schipperes, Die Assismilation des Arabishen medizin des Lateinischen mihelater, Wiesbaden 1966, PP. 34 - 39 .

(١٣٥) عبد الله الربيعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .
El Rooby, "East meets West, A panorama of Arabian medicine in Lectures in the History of Arabian medicine, Riyadh 1988, p. 10.

(١٣٦) تقديم فؤاد سركين لتصوير مخطوط كامل الصناعة الطبية من جانب معهد العلوم العربية والإسلامية فى فرانكفورت بألمانيا عام ١٩٨٥م .

(١٣٧) زيغريد هونكة ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(١٣٨) محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، على الغمراوى ، الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم ، نقل اسطفان بن باسيل من كتاب ديوسقوريدس هيولى الطب ، دراسة المنهج التطبيقى لتاريخ الطب ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ١٢٧ .

(١٣٩) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٤م ، ص ٢٨١ ، حاشية (٦) ، فيليب حتى، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ .

(١٤٠) عبد الجليل حسن محمد المهدى ، الحركة الفكرية فى ظل المسجد الأقصى ط. عمان ١٩٨٠م ، ص ٤١ ، حاشية (١٥٣) .

(١٤١) حسان حلاق ، " الطب ، ضمن كتاب تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ١٩٩٠م ، ص ١٦٩ .

142) Haskins, Studies in the History of medieval Science, Cambridge 1927, p. 134 .

143) Ibid, p. 131 .

144) Ibid, p. 134 .

(١٤٥) أحمد فؤاد باشا ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

146) Haskins, p. 131 .

147) Ibid, p. 132 .

148) Ibid, p. 132 .

149) Ibid, p. 132 - 133 .

150) Daniel, The Arabs and medieval Europe, London 1979, p. 268 .

(١٥١) كمال السامرائى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٣٣ ..

152) Haskins, p. 136 .

(٤)

ملامح تاريخ موارنة لبنان

عصر الصليبيات

يتناول هذا البحث بالدراسة موارنة لبنان خلال عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣م ، من أجل إلقاء الضوء على حجم الدور التاريخي الذين قاموا به حينذاك ، وتواجه الباحث عدة صعاب يمكن إجمالها في الآتي :

أولاً : ندرة الإشارات المصدرية إذ عنى المؤرخون المعاصرون سواء في ذلك لدى الجانب الإسلامي أو الصليبي بالتعرض للملوك والسلاطين على المستويين السياسي والحربي دون وجود إشارات عن القوى الطائفية والعرقية التي استقرت في بلاد الشام ومنها العناصر المارونية في لبنان إلا ما ندر . ولذلك فعلى الباحث التنقيب بدقة في نصوص المصادر التاريخية وصولاً إلى الشذرات المتناثرة هنا وهناك كي يعمل على الإفادة منها بأخذ دلالاتها دون اعتساف الأحكام .

ثانيًا : اتجه المؤرخون الموارنة المحدثون إلى كتابة تاريخهم خلال عصر الحروب الصليبية فعملوا على المبالغة في حجم دورهم حينذاك . كذلك سعوا ما بوسعهم السعي نحو تعميق الارتباط بفرنسا حتى بصورة مفتعلة أحيانًا . وهكذا فإن مؤلفاتهم – على الرغم من أهميتها الخاصة – فإنها تعاني من الزوايا المذكورة ، ولذلك على الباحث التأني في التعامل معها لأنها على عمومها كتبت من ناحية طائفية من قبل أن تتسم بالروح الموضوعية الأكاديمية الواجبة ، وحتى لا أقع في مأزق التعظيم من الممكن القول بوجود بعض الدراسات الأكاديمية التي تتسم بالرؤية الثاقبة ومن أمثلة النوع الأول ما ساهم به يوسف ضو في كتابه تاريخ الموارنة ، ومن أمثلة النوعية الثانية ما ساهم به كمال الصليبي تحت عنوان " الموارنة صورة تاريخية " .. وغيرها .

ثالثًا : يلاحظ أن الأصول الأولى لتاريخ الموارنة تمثل زاوية جدلية ، اختلف حيالها المؤرخون وأدلى كل برأيه فيها ، وهي زاوية من الضروري تناولها كمقدمة لدراسة تاريخية

خلال عصر الحروب الصليبية ، وكذلك اهتم البحث بالتعرض لها من قبل تناول الصراع الصليبى - الإسلامى وانعكاسه على توزيعات وأدوار القوى الدينية فى بلاد الشام حينذاك ومنها - بطبيعة الحال - موارنة لبنان .

وقد شهدت مرحلة الحروب الصليبية ازدهار وتفوقًا للدور الذى لعبته القوى المسيحية الشرقية فى بلاد الشام حينذاك ، ويعتبر الموارنة بحق من أهم القوى الدينية المسيحية المحلية التى قدر لها أن ترتبط بالقوى الصليبية ارتباطات وثيقة على المستوى الدينى والسياسى ، على نحو جعلها تقف ضد المسلمين وجهودهم فى سبيل صد الغزو اللاتينى لبلادهم وقد كان تواجد الموارنة لعدة قرون من قبل مقدم الصليبيين وسط محيط من الوجود الإسلامى المعادى ، كان لذلك أثره فى انعزالهم ثم انفتاحهم على الصليبيين عندما غزوا بلاد الشام وبالتالى كان تاريخهم قد ارتبط بتاريخ الوجود الصليبى هناك على نحو واضح .

وينتسب الموارنة للقديس مارون St.Maron [١]، والذى تتردد من حوله العديد من الروايات عن نشأته وحياته ودوره فى نشر المسيحية والرهبنة فى عصره ، ولكن أهم تلك الروايات تلك التى يرددها ثيودريك أسقف قورس ، ونعرف من خلالها أن القديس مارون كان أحد النساك وأنه ولد فى نواحى أفامية بشمالى بلاد الشام فى أخريات القرن الرابع الميلادى توفى فى عام ٤٣٣م بالقرب من فيروس فى الشام ، وعرف عنه العفاف والتقوى وقد ارتبط به العديد من الأتباع والمريدين[٢] الذين رغبوا فى أن يشاركوه حياة الزهد والتقشف التى عاشها.

وندرك أن من أصدقاء القديس مارون كان القديس يوحنا ذهبى الفم وقد قويت عرى الصداقة وأواصرها بين القديسين المذكورين .

وقد توفى القديس مارون ودفن فى مكان وقع بين أفامية وحمص ، حيث تم تشييد دير هناك وحرص أتباعه على بنائه وقد نظروا إلى القديس مارون على أنه بطريركهم وقديسهم الحامى لهم ولذلك عرف الدير باسمه " دير القديس مارون " ، وعرف أتباعه باسم أتباع القديس مارون [٣].

ويلاحظ أن ذلك الدير الذى بناه أنصاره القديس مارون قدر له أن يلعب دوراً دينيًا هامًا فى حياة المنطقة المجاورة له ، ولدينا إشارة عنه يذكرها المسعودى حيث يصفه بأنه بنيان ضخم

حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة تحوى الرهبان ، كذلك تحدث عن ثراء الدير وما يحويه من نفـائس [٤]. وهكذا فإنه كان لا يزال قائمًا حتى أواسط القرن الثامن الميلادى ، وإن لحق به الخراب بعد ذلك فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ويمكننا أن نخلص من الإشارة التى قدمها المسعودى إلى أن دير الموارنة قد حظى بازدهار كبير على أيدى الرهبان التابعين للقديس مارون وبطاركة الموارنة على امتداد المدة الواقعة من القرن الخامس حتى القرن الثامن الميلادى وأن الرهبان حرصوا على تشييد مئات الصوامع الملحقة بالدير ، مما يدل دلالة واضحة على أن الرهبان تزايد عددهم وبالتالى تزايدت مهام الدير ونشاطه ونفوذه الدينى فى التبشير بالمسيحية فى المنطقة المجاورة له ، ويبدو أن الهبات التى كان يتلقاها الدير من المسيحيين بالشام كان لها أثرها فى ازدياد ثرائه وبالتالى نفوذه ونشاطه التبشيرى .

وإذا كان القديس مارون قد لعب دوراً مهمًا فى حياة الموارنة الباكرة ، فإن القديس يوحنا مارون (ت ٨٩ هـ / ٧٠٦م) قد أعطى هذه الطائفة طابعها القومى ، ونعرف أنه ولد فى سروج قرب أنطاكية ودرس بعض اللغات مثل السريانية ، واليونانية فى مدينة أنطاكية ، وذلك من قبل التحاقه بالدير على ضفاف نهر العاصى وقد ذهب إلى القسطنطينية وتم ترسيمه فيما بعد أسقفًا على البترون - التى هى من أولى المناطق التى ارتبط بها الموارنة فى تاريخ تواجدهم فى بلاد الشام - وتنقل بين العديد من المناطق الأخرى ودفن فى أحد الأديرة التى بناها فى منطقة كفر حى [٥].

ولكن ما هى العقيدة التى كان عليها عناصر الموارنة الذين قدر لهم أن يهبطوا من وادى العاصى إلى الجنوب حيث استقروا فى لبنان مكونين ما عرف فيما بعد بالأصول الأولى للموارنة الحاليين فى لبنان .

ويلاحظ أن الموارنة اعتنقوا المسيحية على المذهب المونوثولينى الذى ابتدعه الإمبراطور البيزنطى هرقل فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، وهو ما عرف بمذهب المشيئة أو الإرادة الواحدة .

ومن قبل الفتح العربى تحولت عناصر من السوريين الذين وقفوا ضد الحكم البيزنطى إلى اتباع الكنيسة اليعقوبية وهى التى اعتقدت أن المسيح له طبيعة واحدة لها كل الصفات البشرية والإلهية[٦] ومع رحيل البيزنطيين فإن الكنيسة الملكانية التى اتبعت الأرثوذكسية

البيزنطية والتى رأت أن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية لا اختلاط بينهما[٧] صارت أكثر قدرة على مواجهة الكنيسة اليعقوبية ولذلك نجحت فى إقرار نفسها ، وذلك بوصفها الكنيسة السورية الرائدة [٨]، ومع ذلك فإن الكنيسة اليعقوبية لم تختف وكذلك بالنسبة للأشكال المختلفة الأخرى من المسيحية الشرقية فإنها لم تستأصل وقدر لها البقاء والاستمرار .

ويرتبط بتلك الأحداث ذلك الدور الذى لعبه الإمبراطور البيزنطى هرقل للتوفيق بين المذاهب الدينية المسيحية المتعددة والمتنازعة فى أنحاء الإمبراطورية البيزنطية وقد كانت الأرثوذكسية البيزنطية قد اعتقدت فى أن المسيح كان فى نفس الوقت إلهًا وبشراً ولذا فإنه امتلك طبيعتين طبيعة إلهية وأخرى بشرية وقد اتحدتا فى شخصيته بإحكام وعلى نحو لا يمكن التمييز بينهما وقد اعتقد اليعاقبة بأن المسيح كان إلهًا ثم صار إنسانًا وكان ذلك بالنسبة للأرثوذكسية نوعًا من الهرطقة فقد اعتقدت أن المسيح فى جوهره له طبيعة إلهية واحدة وأن طبيعته البشرية مجرد شكل ومن هنا جاء تعبير مونوفيزيقى أو الطبيعة الواحدة .

وقد أصدر الإمبراطور هرقل فى عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م ما عرف بمرسوم توضيح الإيمان Ex-position of Faith واتجه فيه نحو تخفيف حدة الفوارق بين الأرثوذكسية والمونوفيزيقية وقد أقر عقيدة الإيمان الخلقدونى وأضاف القول بالمشيئة الواحدة أى (Theliema) ومن الكلمة اليونانية تم اشتقاق مصطلح المونوثيليتيه Monotheletism [٩].

والواقع أن هرقل كان يهدف من وراء ذلك إلي تسوية الخلافات القائمة بين تلك المذاهب وكذلك محاولة الاحتفاظ بسيطرته على الولايات الشرقية للإمبراطورية ولكن ذلك لم يؤد إلا لإثارة غضب أهالى تلك الولايات وزيادة كراهيتهم وحنقهم على الإمبراطورية البيزنطية[١٠].

مهما يكن من أمر ، فالناحية الهامة التى تعنينا عند تناول الموارنة بالبحث أن رهبان دير القديس مارون قد أيدوا ووافقوا على ذلك المذهب التوفيقى المعروف بمذهب المشيئة الواحدة[١١]، وهكذا فقد وجد فى بلاد الشام العديد من القوى المسيحية المحلية مثل الأرثوذكس اليونانيين واليعاقبة والموارنة والنساطرة[١٢] واستمر وجودهم حتى مقدم الصليبيين أواخر القرن الخامس هـ / الحادى عشر م .

وإذا كان المذهب الدينى الذى اعتنقه الموارنة قد اتفق عليه الباحثون فإن أصولهم العرقية كانت موضع نقاش وجدل بينهم وقد حدد المؤرخون الموارنة أصولهم على أنهم أسلاف عناصر

المردة ، وهم الذين كانوا بمثابة الحد من المحاربين المستقرين على يد البيزنطيين فى جبال اللكام أو أمانوس Ammanus (١٣) ولكن إلى جانب عنصر المردة كان هناك عنصر الجراجمة الذى قدر له أن يؤثر فى تكوين الموارنة .

ونجد أن الجغرافيين اوالمؤرخين المسلمين جعلوا هناك ارتباطًا بين الجراجمة ونسبتهم إلى مدينة الجرجومة (١٤)، وهى التى وقعت فى جبل اللكام دون الإشارة إلى أصولهم العرقية وهناك من يشير إلى أن نسبة المردة Mardaites كانت تعنى العصاة (١٥).

وقد استفاد البيزنطيون من الجراجمة وتواجدهم على الحدود البيزنطية الإسلامية ، وعملوا على أن يتخذوا منهم عناصر حربية موجهة ضد أعداء الإمبراطورية البيزنطية ، فعملوا على أن يدفعهم نحو شن الغارات المتكررة على الأعمال الإسلامية المجاورة لهم (١٦).

ومع ذلك ، فإن الخلاف يقع بين المؤرخين حول الصلة بين المردة والجراجمة ، وهل هم شعب واحد أم أن كلاً منهم كان يعنى تكوينًا عرقيًا خاصًا ؟ ومن الخطأ بالتالى الخلط بين الطرفين فيرى أحد الباحثين أن المردة والجراجمة لم يكونوا شعبًا واحداً (١٧)، ومع ذلك فإن المؤرخ ميشيل السورى يرى أن المردة كانوا يدعون جراجمة فى كافة أنحاء بلاد الشام (١٨).

ويلاحظ أن الجراجمة اعتنقوا المسيحية بعد أن كانوا وثنيين فى مناطق جبال اللكام عند أخريات القرن الرابع وأوائل القرن الخامس م ، وقد قصدهم أحد المبشرين وهو سمعان العتيق فنشر المسيحية فى صفوفهم وقد سعى إلى تشييد بعض الأديرة فى مناطق الجراجمة ، أحدهما فوق الجبل والآخر أسفله ، ومن المحتمل أنه كان يقوم بنشاطه التبشيرى من خلال اتصاله بالقديس مارون (١٩).

وقد وقعت بعض التطورات المهمة فى تاريخ الموارنة عندما اتجهوا إلى النزول فى لبنان وترك منطقة وادى العاصى ويرى لامنس أن اليعقابة كانوا يمثلون أكثرية عددية خاصة فى المناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام وأنهم وقعوا فى خلاف مستمر مع غيرهم من أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى(٢٠) وخاصة الموارنة ، مما دفع الآخرين إلى التقدم صوب جبل لبنان(٢١) وذلك من أجل توفير الحماية والأمن لهم من خطر أعدائهم ، ويرى آخر أن من المحتمل أن يكون انتقالهم كان للفرار من جور الروم (٢٢)، وتصور ثالث أن فشل الدولة الإسلامية فى مواجهة هجمات وغارات عناصر البدو كان من العوامل التى شجعت على قيام الموارنة بمثل ذلك التحرك (٢٣)، ومن الممكن أن نضيف إلى كافة العوامل السابقة احتمال أنه

كان لحملات الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكس على بلاد الشام أثر فى اتجاه الموارنة إلى مغادرة وادى نهر العاصى إلى منطقة جبل لبنان ولم يبق منهم إلا أقل القليل خارج ذلك الجبل[٢٤]، مثال ذلك تواجدهم فى مدينة حلب بشمال الشام ، وكان لجوء الموارنة إلى تلك المدينة حينذاك تحت ضغط البيزنطيين ، ومن أجل الحصول على حماية الحمدانيين وفيما بعد من المرداسيين [٢٥].

ونتيجة لذلك ، من الممكن أن نتصور أن تلك التحركات كانت على امتداد مرحلة زمنية ليست بالقصيرة ، وأن الدوافع السياسية وضغوط البيزنطيين كان لها أثرها فى ذلك ، ومع مرور الوقت تأكد الوجود المارونى فى جبل لبنان .

وقد اتجه التغلغل المارونى فى لبنان من الشمال إلى الجنوب حيث دخلوا وادى الأرنط وتمكنوا من اجتياز أفامية وحماه وحمص إلى أن انتهى أمرهم بالاستقرار فى جبل لبنان ، فسكنوا شماله ثم وسطه وأخيراً جنوبه [٢٦]. وقد اتجهوا إلى احتلال أودية الجبة وخاصة اهدن، وبشرى ، كذلك فإنه من المحتمل أن يكونوا قد نزلوا بعض الأماكن التى وقعت فى منحدر جبل لبنان تقريبًا مثل البترون [٢٧]. عند دير كفر حى القديم وقد تطور الأمر بقرية البترون التى كانت من أولى المناطق التى استقر بها الموارنة فى ظروف مقدمهم من وادى العاصى إلى جبل لبنان حتى صارت تحتل مكانة هامة فى تاريخ الموارنة وكذلك تاريخ بطاركتهم على نحو خاص .

ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ أن الموارنة انتشروا فى مناطق أخرى خارج نطاق جبل لبنان ، وإذا أخذنا بما أورده المسعودى (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م) فإنه يوضح أنه فى وقته كانت عناصر منهم فى سنير وحمص وأعمالها كحماة ، وشيزر ، ومعرة النعمان .

وتبقى خلال تلك المرحلة نقطة هامة وهى علاقات المسلمين بعناصر الجراجمة عندما اتصل الطرفان من خلال حركة الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى / القرن السابع الميلادى، ذلك أن مثل تلك العلاقات لها شأنها فى فهم طبيعة العلاقات بين المسلمين والموارنة خلال عصر الصليبيات .

ويلاحظ أن المسلمين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح عندما اتجهوا إلى فتح أنطاكية بشمال الشام فإن الجراجمة تجنبوا الاصطدام بالمسلمين واتجهوا إلى اللحاق بالروم (البيزنطيين) وقد عمل المسلمون على مهاجمة الجراجمة حتى صالحوهم [٢٨].

كذلك يشير البلاذرى إلى اتفاقية وقعت بين الجراجمة والمسلمين من أجل أن يكونوا للمسلمين بمثابة عيون ضد أعدائهم فى منطقة جبل اللكام [٢٩]، ويبدو أن المسلمين خلال تلك المرحلة حرصوا أشد الحرص على اصطناع الجراجمة قوة مساعدة لهم بدلاً من معاداتهم ، ثم أنهم عملوا على إسكانهم فى بعض المناطق فى شمال الشام مثل مدينة حمص [٣٠].

ونجد أنه فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان عندما انشغل بحرب أهل العراق صالح الجراجمة على أن يؤدوا ما عليهم من أموال للمسلمين ومن أجل إلزامهم بتنفيذ ذلك فإنه أخذ منهم رهناء وضعهم فى مدينة بعلبك [٣١].

وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) حدثت عدة تحركات من جانب الجراجمة ضد الأمويين ، ذلك أنهم عرقلوا حركة الصوائف والشواتى فى شمال الشام ضد الروم [٣٢].

وفى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بنى المسلمون حصن " مرة " عند جبل اللكام فى مناطق الجراجمة ، وعمل على أن يخصص عدة عناصر من المرابطين قدرت بنحو أربعين مرابطًا ، وصار الحصن بمثابة قلعة مسلحة وكان يتم تعزيزها كل صيف بأعداد أخرى منهم[٣٣].

وقد جرى صدام بين الجانبين عندما تمرد الجراجمة على عامل الخراج المسلم فى بعلبك وهو صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، فعمل الأمويون على قتالهم[٣٤] وقد وقف الأوزاعى[٣٥] (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٣م) إلى جوار الجراجمة فى نزاعهم مع الإدارة الأموية .

أما العباسيون ؛ فإن علاقاتهم بالجراجمة قد ارتبطت إلى حد بعيد بمسألة الجزية التى فرضت عليهم من جانب المسلمين ، ففى عهد الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) كان بعض عماله قد ألزموا الجراجمة بدفع الجزية فى أنطاكية فرفضوا ذلك واتجهوا إلى الخليفة طالبين إسقاطها فأسقطها [٣٦]، ومع ذلك فإن الخليفة المتوكل عاد ففرضها عليهم[٣٧] ومعنى ذلك أن الجزية التى فرضت على الجراجمة كانت موضع اختلاف فى أمر إبقائها أو إلغائها من جانب الخلفاء العباسيين .

ومن ناحية أخرى اتجه العباسيون إلى إسكان بعض العشائر العربية فى لبنان من أجل إيجاد نوع من التوازن بين الوجود العربى الإسلامى والوجود المارونى المسيحى هناك ولكى يتمكنوا من مواجهة أعداء الخلافة العباسية من أمثال تلك القوى المسيحية المحلية [٣٨].

مهما يكن من أمر ، فإن الموارنة باستقرارهم فى المناطق الجبلية فى لبنان على نحو خاص قد توفر لهم نوع من الاستقلال الذاتى إلى حد كبير [٣٩] ، وقد نظر أحد الباحثين إلى المواقف التى اتخذها الموارنة من الصليبيين عندما قدموا إلى الشام فلاحظ أنه كان بإمكانهم اتخاذ قرارات سياسية خاصة بهم[٤٠] وضد المسلمين أو مصلحتهم على الرغم من أن الأخيرين كانوا يحيطونهم سواء المسلمون السنيون أو أصحاب المذاهب الشيعية المختلفة مثل الإسماعيلية والدروز والنصيرية .

والجدير بالإشارة أنه على امتداد المرحلة الزمنية الواقعة فيما بين القرن الثالث والخامس هـ / التاسع والعاشر م ، فإننا نفتقر إلى مصادر تاريخية كافية من أجل تناول تاريخ الموارنة خلال تلك المرحلة[٤١] ولكن مع مقدم الصليبيين إلى الشام دخل الموارنة مرحلة جديدة من تاريخهم .

ولكن ما هى توزيعات الموارنة الجغرافية خلال مرحلة الحروب الصليبية وعلى امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى والثالث عشر م ؟ والواقع أنه من العسير التقرير بأن تلك التوزيعات كانت ثابتة على امتداد تلك المرحلة ، ولكن لا يغيب عن أذهاننا أن الجماعات البشرية التى تجد فى المناطق الجبلية مراكز رئيسية لتوزيعاتها فإنها تمتاز بالثبات إلى حد ما خاصة إذا كان استقرارها قد تدعم على امتداد مراحل زمنية طويلة ووسط محيط دينى مختلف كالوضع الذى نجد عليه الموارنة آنذاك .

ويلاحظ أن الموارنة قد تركزوا خلال ذلك العصر بصورة رئيسية فى جبل لبنان ، حيث انتشرت فيه مدنهم وقراهم حيث شكل الموارنة فى تلك المدن والقرى أعداداً وتجمعات من السكان .

وجبل لبنان مطل على مدينة حمص[٤٢] وهو عبارة عن سلسلة جبال تبدأ بالقرب من جبال النصيرية من وادى قلعة الحصن ودير الخميرا التى تمتد إليها السلسلة جنوبًا وتنتهى فى وادى الليطانى ولسان قلعة الشقيف ومن هناك فإن السلسلة تمتد إلى نواحى صفد جنوبًا تجاه شمال فلسطين وتنحرف إلى جهات نابلس شرقًا وإلى جنوبى الناصرة[٤٣] وبذلك يكون هذا الجبل قد امتد إلى نهر القاسمية [٤٣].

ولدينا أوصاف هامة ومتعددة لجبل لبنان من جانب الرحالة اللاتين الذين زاروا بلاد الشام للحج إلى المحارم المسيحية المقدسة ، وأشاروا إلى التركيزات المسيحية فى ذلك الجبل ويذكر

الأب دانيال أنه جبل عال ضخم وقمته تكون مغطاة بالثلوج حتى فى شهور الصيف من السنة، وينبع منه اثنا عشر نهراً ستة منها فى اتجاه الشرق وستة أخرى فى اتجاه الجنوب (٤٥)، ونجد وصفًا آخر له فى خلال ما كتبه يوحنا فوكاس واهتم بتحديده (٤٦)، أما الفارس أرنول فإنه يقدم لنا إضافات هامة ، فهو يوضح أن جبل لبنان قد احتوى على أرض جيدة واحتوى على عدة مدن وأن مناطقه انقسمت بين المسيحيين والشرقيين نصفًا لنصف ، هذا المكان يغطيه كله الشرقيون ، وذلك المكان يغطيه كله المسيحيون (٤٧)، وتدل الإشارة السابقة التى قدمت من جانب الفارس أرنول الذى يكتب فى وقت معاصر لعهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى- تدل على أن استقرار المسلمين فى نصف الجبل والمسيحيين فى النصف الآخر ، وقد تثبت خلال ذلك العهد ، أما تحديد الأماكن التى تواجد فيها المسلمون والمسيحيون من أقسام الجبل فإننا نجد إشارة لدى يوحنا فوكاس يشير فيها إلى أن الجانب الذى يلى البحر يسكن العناصر المسيحية - والتى كانت بالطبع مارونية - بينما يسكن الشرقيون الجانب الذى يبدو وتجاه دمشق وبلاد العرب (٤٨)، ويلاحظ أن مثل تلك التحديدات من جانب أولئك الرحالة والمؤرخين تتفوق على إشارات وليم الصورى الذى اكتفى بالقول إن الموارنة سفوح جبال لبنان (٤٩).

وقد كان جبل لبنان يمثل صعوبة فى التنقل بين أجزائه ، ولذا فقد كان بمثابة ملجأ للجماعات ذات العقائد والمذاهب الخاصة مثل عناصر الموارنة(٥٠) والدروز والنصيرية ، ولا شك فى أن عناصر الموارنة شكلوا فيه واحداً من أهم التنظيمات التى اشتملها ذلك الجبل ، ومن قبل مجىء الصليبيين كان الموارنة يسكنون ذلك الجبل (٥١)، الذى ارتبطوا به قرونًا عديدة وكانت توزيعات التكوينات الدينية فيه على النحو التالى : عناصر الموارنة فى الشمال يليهم النصيريون (العلويون) وإلى الجنوب منهم عناصر الدروز وشيعة جبل عامل (٥٢).

وقد وفر جبل لبنان للموارنة أهمية استراتيجية كبيرة فقدكان بمثابة حصن طبيعى يقوم ويتقدم الطرق الحربية للساحل الفينيقى ومنطقة جوف سوريا Coele Syria (٥٣).

أما من الناحية الاقتصادية فكما ذكر الرحالة اللاتين ، فقد امتازت مناطق جبل لبنان بجودة أراضيها على نحو وفر للموارنة نشاطًا زراعيًا مزدهراً من خلال تواجدهم فيه ، كذلك عملوا فى خلاله بالنشاط التجارى بحكم موقعه كمركز اتصال بين المناطق الواقعة إلى شرقه والساحل ، وقد ساعدت الأنهار(٥٤) التى وجدت فى ذلك الجبل على مثل تلك الأنشطة الحضارية للموارنة .

ومن مراكز استقرار الموارنة خلال ذلك العهد مدينة جبيل(٥٥) وهى التى وقعت فيما بين بيروت وطرابلس ، وبعدت عن بيروت بنحو ثمانية فراسخ وقد قرر وليم الصورى صراحة أن الموارنة سكنوا مدينة جبيل ، ويبدو أنها غدت على امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى والثالث عشر م واحدة من أهم المدن فى لبنان ولا أدل على أهميتها من زيارة الرحالة اللاتين واهتمامهم بوضعها .

أما البترون(٥٦) فقد كانت تقع على ساحل البحر المتوسط فيما بين طرابلس وجبيل وقد وقع إلى الشمال منها نهر الجوز ، وبحكم موقعها الجغرافى على البحر مباشرة ، لقد تمتعت منذ عهد باكر بازدهار تجارى منذ عهد الفينيقيين ، كذلك ارتبطت بالتاريخ المارونى منذ أقدم عهوده حيث دفن فيها القديس يوحنا مارون (٥٧)، وكان الموارنة يقومون بزيارة ضريحه على امتداد العام وفى عهد الوجود الصليبى فى الشرق احتوت المدينة على عدة عناصر لها انتماءات مذهبية متباينة فكان بها مسيحيون موارنة ومسلمون من الشيعة (٥٨)، وقد اعتبرت البترون من أهم مراكز الوجود المارونى فى لبنان خلال عصر الحروب الصليبية (٥٩).

أما جبة المنيطرة فقد كانت من أهم مناطق استقرارهم وامتدت من برويادناريا فى منطقة كسروان جنوبًا حتى حدود تنورين شمالاً ، ومن الميمونة شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا(٦٠)، وكانت كلمة المنيطرة تعنى الوادى وفى المصادر الصليبية سميت المونستير ,Le Monestre Le Moinestre (٦١).

وبالنسبة لجبة بشرى ، وقعت إلى السفح الشرقى لجبل لبنان ، ويرى البعض أنها كانت بمثابة القاعدة المارونية الثانية بعد جبة المنيطرة واحتوت فى غالبيتها على الموارنة (٦٢)، ويبدو أنها لم تكن تحوى عناصر أخرى من المسلمين الشيعة على عكس الحال فى جبة المنيطرة.

أما دير القمر ؛ فقد اعتبرت من أهم القواعد المارونية فى لبنان بعد جبة المنيطرة وجبة بشرى (٦٣)، مما يعكس أهميتها ضمن مناطق التركز المارونى خلال مرحلة الحروب الصليبية، كذلك وجد الموارنة فى طرابلس حيث يقرر وليم الصورى ذلك ضمن إشاراته عن مراكز تواجدهم(٦٤)، ثم أنهم تركزوا أيضًا فى عكار (٦٥)، ومن ناحية أخرى فإنهم تواجدوا فى مناطق أخرى خارج لبنان وتناثروا فى مناطق شمال الشام وعلى نحو خاص فى مدينة حلب حيث وجدت أعداد منهم ولم ينتقلوا منها إلا فى القرن التاسع والعاشر هـ / الخامس عشر

والسادس عشر م [٦٦]، وربما كان تواجدهم فى مناطق أخرى مثل منبج وحماة وقنسرين وغيرها[٦٧] كان يرجع إلى العصر البيزنطى حيث تركزوا فى تلك الأنحاء منذ ذلك الحين .

مهما يكن من أمر ، فإن الموارنة كانوا عشية قيام الصليبيات فى وسط محيط إسلامى على الرغم من الخلاف المذهبى الذى كان قائمًا بين المسلمين حيث انقسموا إلى سنة وشيعة إسماعيلية ودروز ونصيرية ، وقد كانت جبيل وبيروت تحت حكم الفواطم ، وطرابلس تحت حكم بنو عمار ، وفى الجنوب كان الأرسلانيون والتنوخيون من الدروز وفى الجهات الشرقية والشمالية كان هناك حكم السلاجقة المتحمسين للإسلام السنى [٦٨].

وقد جعل الوضع السابق للموارنة بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الموارنة شاركوا فى استدعاء الصليبيين إلى الشرق [٦٩].

ويلاحظ أن الصليبيين عندما كانوا فى طريقهم إلى مدينة بيت المقدس مروا بالمناطق التى كان يقطنها الموارنة ، ولدينا وصف هام للطريق الذى سلكوه من خلال رواية المؤرخ المجهول صاحب الجستا Gesta فيقول أنه بعد أن تم الاتفاق مع حاكم طرابلس غادر الصليبيون المدينة وساروا خلال طريق ضيق الانحدار وأدركوا قلعة البطرون ، حيث أدى السير بهم إلى مدينة مجاورة للبحر سميت " جبيل " ثم وصلوا إلى نهر إبراهيم[٧٠]، وكافة المناطق السابقة احتوت على عناصر الموارنة ، وعندما وصلوا فى ٤١٢ هـ / ١٠٩٩م إلى عرقة بالقرب من مدينة طرابلس نزلت وفود من عناصر الموارنة من أجل استقبالهم فى يوم عيد الفصح فى العاشر من أبريل ، ويقرر الباحثون أن هذا كان بمثابة اللقاء الأول بين الصليبيين والموارنة [٧١]، ومنذ ذلك الحين ارتبط الطرفان بحكم رابطة الدين على الرغم من اختلاف المذهب ، ولاريب فى أن الموارنة رأوا فى هؤلاء القادمين من الغرب الأوروبى المسيحى نصيراً قويًا لهم فى مواجهة المحيط الإسلامى المعادى للوجود المارونى .

ومن ناحية أخرى أرسل الصليبيون فى ظروف الحصار الصليبى لمدينة بيت المقدس فى صيف عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م عدداً من رجالهم يجوسون خلال بعض النواحى مستعينين فى ذلك بالجماعات المسيحية المحلية خاصة الموارنة ، ومن الطبيعى أن هؤلاء كانوا على معرفة جيدة بمواضع المدينة ومداخلها ومخارجها أكثر من معرفة الصليبيين القادمين من الغرب وأوضحوا لهم الأماكن التى تتوافر فيها الأخشاب[٧٢] من أجل الاستعانة بها فى صناعة أدوات الحصار اللازمة للاستيلاء على المدينة ، وبصفة عامة فإن الموارنة مثلوا للصليبيين قوة

معضدة فى خلال تلك المرحلة الهامة من غزو الأرض المقدسة وعملوا بمثابة مرشدين وأدلاء لخدمتهم .

وقد احتل الصليبيون القدس فى صيف عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م واتجه فريق منهم إلى الشمال فاستولوا على جبيل عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢م وطرابلس عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩م وتأسست فى طرابلس إمارة صليبية هامة امتدت أجزاؤها من كسروان جنوبًا إلى اللاذقية شمالاً ، ومن مشارف وادى نهر العاصى شرقًا إلى البحر من جهة الغرب ، وبالتالى فمن الممكن أن نقرر أن إمارة طرابلس اشتملت على معظم مناطق النفوذ المارونى فى جبل لبنان(٧٣).

ومن بعد قيام المملكة اللاتينية فى الشرق فإن عهد الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin I (٤٩٤ - ٥١٢ هـ / ١١٠٠ - ١١١٨م) قد شهد أحداثًا هامة جعلت من الاستعانة بالعناصر المارونية أمراً ملحًا على الصليبيين ، والملاحظ أنهم واجهوا نقص العنصر البشرى وهى مشكلة طالما هددت الوجود اللاتينى فى الشرق بأسره عن طريق إنشاء القلاع والحصون فى المناطق الاستراتيجية الهامة فى مناطق هجمات المسلمين ، ثم أيضًا اتجه الصليبيون إلى الاستعانة بقوة السكان المسيحيين المحليين مثل الموارنة (٧٤)، وذلك من أجل المحافظة على الأراضى التى احتلوها والسعى إلى الاستيلاء على مناطق جديدة وضمها إلى مناطق نفوذهم ولذلك اتجه بلدوين الأول إلى تشجيع الهجرة وتشجيع المسيحيين الوطنيين على الانتقال إلى مملكة بيت القدس من أجل التعاون معه (٧٥)، ويلاحظ أنه على أثر المذابح البشعة التى أقامها الصليبيون فى مدينة بيت المقدس عند دخولهم إياها وأدى ذلك إلى إخلائها من سكانها المسلمين واليهود إلى حد كبير قد قرر الملك الصليبى تعميرها بالنصارى الشرقيين وقام الموارنة بهذا الدور بالإضافة إلى عناصر السريان والروم الذين قطنوا الأردن (٧٦).

ويلاحظ هنا ناحية هامة ذلك أن الظروف التى أحاطت بالمملكة اللاتينية الوليدة فى عهد الملك بلدوين الأول ، هى التى دفعت إلى الاستعانة بالعناصر المسيحية المحلية وأهمها الموارنة، وهى نفس الظروف التى ساهمت بدورها فى استعانة المملكة بالتنظيمات الدينية المسيحية مثل تنظيم الاسبتارية والداوية وتنظيم التيوتون وفرسان القديس لازاروس وفرسان القديس توماس أوف كانتربرى .

ومن الطبيعى أن نتناول مسألة أعداد الموارنة السكانية فى ذلك العهد طالما أنهم شكلو قوة عددية للمملكة اللاتينية ، وهنا نجد أن اختلافًا واضحًا يقع لدى المؤرخين ، فعلى حين يقرر وليم الصورى أعدادهم بنحو أربعين ألفًا وأيده بعض الكتاب الموارنة في ذلك الحين[٧٨] إلا أننا نلاحظ أن جاك دى فترى Jacque de Vitry قد ذكر أنهم كثيرو العدد دون أن يحدد رقمًا معينًا[٧٩]، بينما وجدت محاولات من جانب الكتاب المارونيين للمبالغة فى أعداد بنى أمتهم خلال تلك المرحلة فذكر دربان أنهم بلغوا ستين ألفًا واعتقد أن هذا العدد يقتصر على الرجال من دون النساء ، لأن النساء لم يكن يحتسبن فى عمليات التعداد[٨٠]، ورأى آخر أن الموارنة قدموا للصليبيين أعداداً كبيرة من الفرسان والمقاتلين بلغت خمسة وعشرين ألفًا فى حروب لويس التاسع عندما قدم إلى الشام بعد فشل مشروعه الصليبى فى مصر [٨١].

والواقع أن كافة الأرقام السابقة ليست بالأرقام الدقيقة التى ينبغى أن نأخذها بمأخذ التصديق ، لعدم القدرة فى ذلك العصر على إيجاد إحصاء دقيق للموارنة فى لبنان وأنحاء بلاد الشام الأخرى ، ومع ذلك فمن الممكن أن نتصور - بصفة عامة - أن الموارنة في ذلك العصر شكلوا قوة لها شأنها من الناحية العددية على نحو دفع ملوك مملكة بيت المقدس اللاتينية على ضمهم إلى جانبهم ضد المسلمين .

وإذا كان الصليبيون قد وجدوا فى الموارنة مثل هذه القوة العددية ورغبوا فى اكتسابها إلى جانبهم ، فإن الموارنة أنفسهم وجدت لديهم دوافع للارتباط بالغزاة الجدد تتمثل فى ناحية الوحدة الدينية [٨٢]، حيث دان كل طرف بالمسيحية دينًا وإن اختلف كل جانب عن الآخر فى المذهب ، وكانت مثل هذه الناحية المحورية هى التى دفعت بالموارنة إلى تلك الوجهة .

وحيث أن دوافع الارتباط قد تدعمت من جانب كل من الموارنة والصليبيين فإن المصادر اللاتينية تؤكد أن الموارنة قدموا العون الحربى للصليبيين فى معاركهم ضد المسلمين[٨٣] وقد صار هذا أمراً تقليداً بالنسبة للموارنة خلال مدة الاحتلال الصليبى لبلاد الشام ، وقد عملوا على أن يساهموا فى عناصر المشاة ورماة الأسهم المتطوعة ضمن فرق الجيش الصليبى [٨٤]، والمعروفين بالتركيولى turcopoles وساعدهم على ذلك ما قد عرف عنهم من براعتهم فى رمى السهام [٨٥]، ثم أنهم اتصفوا - وفق ما يقرره وليم الصورى نفسه - بقوة الشكيمة والشجاعة [٨٦]، وأغلب الظن أن تواجد الموارنة فى المناطق الجبلية خاصة فى نواحى جبل لبنان هى التى جعلتهم يمتلكون تلك الصفات العسكرية الهامة المتصلة بالشجاعة والبراعة فى

استعمال آلات الحرب ، ويلاحظ أن نفس تلك الصفات وجدت لدى عناصر الدروز الذين أشارت المصادر عنهم أنهم اتصفوا بالشجاعة والإقدام .

وإلى جانب مساعدة الصليبيين فى مشاريعهم الحربية ضد المسلمين وجدت هناك بعض الأدوار الهامة التى شارك فيها الموارنة فى تدعيم المملكة اللاتينية من الناحية الصحية والإدارية فالحقيقة أن عناصر الموارنة بعد ارتباطهم بالغزاة الجدد كان منهم من عمل فى الطب لخدمتهم(٨٧) وكذلك الصيدلة فى الجيوش والمعسكرات الصليبية ، أما الناحية الإدارية فإنهم قاموا بالعمل كمترجمين(٨٨) الأمر الذى أدى إلى تدعيم الجهاز الإدارى الصليبى .

وعلى الرغم من ذلك ؛ تؤكد مصادرنا أن الدعم الحربى الذى قدمه الموارنة للوجود الصليبى فى الشرق كان أكثر فاعلية من قيامهم بخدمتهم فى النواحى الحضارية الأخرى ، ومن ثم فمن الأهمية بمكان تناول ذلك الجانب من دور الموارنة خلال ذلك العهد .

والواقع أن بعد الدور الذى لعبه الموارنة عند تقدم الصليبيين نحو بيت المقدس ظهر دور آخر لهم عند طرابلس وذلك فى خلال التحركات التى قام بها رايموند دى سانت جيل Raymond de Saint Gilles والحقيقة أن رايموند كما تذكر المصادر العربية كان قد استولى على أنطرطوس فى ربيع الآخر ٤٩٥ هـ / فبراير ١١٠٢م وجعلها قاعدة لنشاطه العسكرى فى المنطقة ، واتجه إلى حصار مدينة طرابلس ، وعلى الرغم من استعانة بنى عمار فى طرابلس بصاحب دمشق وهو حينذاك ظهير الدين طغتكين ، وصاحب حمص جناح الدولة حسين ، إلا أن الصليبيين تمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم وقتل عدد كبير من المدافعين وفق ما أورده ابن القلانسى (٨٩).

وقد عاد رايموند إلى حصار طرابلس من جديد وطلب فخر الملوك بن عمار صاحب طرابلس معاونة حربية جديدة من دمشق وحمص وتقدمت قوات المسلمين لمساعدة الإمارة المحاصرة من جانب قوات الصليبيين ، وهنا ظهر دور حربى للموارنة من أجل وقف تقدم القوات المدعمة للمسلمين فى طرابلس ، حيث نزل الموارنة من المناطق الجبلية وعملوا على مهاجمتها(٩٠)، ويقرر ابن الأثير هذه الناحية قائلاً : " أتى لمساعدة رايموند الصنجيلى سكان الجبل المجاور وأهل الأرياف الذين كان معظمهم مسيحيين (٩١)، ومن الطبيعى أن نلاحظ أن أولئك المسحيين هم أنفسهم الموارنة الذين استقروا فى بعض مناطق طرابلس .

وينبغى ألا نتصور أن الموارنة قاموا بدور رئيسى فى حصار طرابلس ، ذلك أننا لا نجد فى المصادر المعاصرة أو اللاحقة سواء العربية أو اللاتينية ما يدعو إلى مثل هذا الاعتقاد بل أن دورهم - أغلب الاحتمال - كان دوراً مدعمًا لنشاط الصليبيين الحربى ، ومن المحتمل أن المدينة كان من الممكن أن تسقط بدون المساعدة المارونية نظراً للظروف السياسية والحربية التى أحاطت بوجود بنى عمار فى طرابلس ، ومن ناحية أخرى ينبغى ألا نغفل أن هذا هو أول عمل حربى معضد للوجود الصليبى فى بلاد الشام يقوم به الموارنة بعد مساعدتهم لهم فى التقدم صوب مدينة بيت المقدس . ومن المستبعد أن يكون أول دور رئيسى لهم على المستوى الحربى .

والمرجح أن المساندة الفعالة التى قدمت من جانب الموارنة للصليبيين فى طرابلس كانت من أهم العوامل المؤثرة التى ساعدت إمارة طرابلس الصليبية على أن تواجه خطر الهجمات الإسلامية عليها على امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى والثالث عشر م ، ولذا نجد أن تلك الإمارة - كانت آخر الإمارات الصليبية فى سوريا التى سقطت فى أيدى المماليك(٩٢) عندما تمكن المنصور قلاوون من إسقاطها .

أما الدور الحربى التالى الذى نجده للموارنة بجانب الوجود اللاتينى فى الشرق فقد تمثل فى اتجاه الملك الصليبى بلدوين الأول نحو حصار بيروت عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠م حيث نازلها وحاصرها براً وبحراً (٩٣) ، وكان فى المدينة الأمير شجاع الدولة وجماعة من أتباعه وأقاربه ، ولما وجد صعوبة فى الاستيلاء عليها استعان بالصليبيين فى الساحل الشامى وأمراء الموارنة(٩٤) ، ويبدو أن الاستعانة بهم تمت عندما واجه الغزاة مقاومة عنيفة من جانب القوى الإسلامية المسيطرة على المدينة ، وقد أنجد فرنج الساحل والموارنة الصليبيين بالفعل وتجمع الموارنة وحلفاؤهم فى مدينة جبيل وكذلك الصليبيون فى الجنوب وتجمعوا فى مرج الغازية ثم نهض الفريقان ، الشماليون عن طريق الجرد والجنوبيون عن طريق الساحل وقاموا بمهاجمة منطقة الغرب ونهبوها وأحرقوها(٩٥) إلى أن أسقطت المدينة فى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠م .

ويبدو أن دوراً ما قد قام به الموارنة فى ظروف انبعاث حركة الجهاد الإسلامية على يد شرف الدين مودود . ويظهر ذلك فى صدامهم مع قواته عند شيزر فى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١م ، ووفقًا لما يورده الشدياق فإن العناصر المارونية قد شاركت مجهودات الصليبيين من أجل وقف قوات المسلمين ، ويرى البعض أنه لم تجر عمليات حربية كبيرة بين الجانبين (٩٦).

والحقيقة أن المصادر العربية(٩٧) التى تناولت مرحلة الزنكيين والأيوبيين لا تقدم أدنى إشارات عن موقف القيادات الإسلامية من الوجود المارونى فى لبنان ، ويبدو أن الموارنة استمروا يعيشون فى المناطق الجبلية هناك ولم يشتركوا فى صراع حربى مع المسلمين منفردين بل أن الملاحظ هنا وبصفة دائمة أن الموارنة كانوا يتحركون ضدهم من خلال تواجدهم إلى جانب الجيوش الصليبية ومن ثم فإن عبارات " الفرنج " التى تتردد فى مصادر ذلك العصر ينبغى أن ندركها على أنهم الصليبيين ومن يشايعهم من العناصر المسيحية المحلية فى بلاد الشام .

ويلاحظ أن دور الموارنة فى مساندة الصليبيين قد استمر حتى مقدم القديس لويس التاسع إلى الشرق ومن قبل وصوله عندما مر بجزيرة قبرص وكان الموارنة قد استقروا فيها ربما بحكم التقارب والتجاور الجغرافى من الساحل اللبنانى - واستقبلوه هناك استقبالاً طيبًا مدعمين نشاطه الصليبى المرتقب (٩٨).

أما عن طبيعة العلاقات التى ربطت بين القديس لويس والعناصر المارونية عندما اتجه إلى الشام بعد فشل مشروعه الصليبى على ضفاف النيل فى مصر ، فقد كانت قوية ومتميزة وقد ذكر الشدياق أن أمير الموارنة حينذاك قد أرسل ولده الأمير سمعان عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م إلى القديس لويس وكان على رأس خمسة وعشرين ألفًا من الخيالة الموارنة ، وذلك عندما وصل إلى عكا لعرض خدماتهم الحربية عليه ، وقد أثر ذلك الموقف أطيب الأثر فى نفس الملك الفرنسى الذى قام بإرسال رسالة إلى الأمير المارونى يشكره فيه على هذا الموقف ودعمه للدور الحربى للفرنسيين فى الشرق اللاتينى وقرر له رعايته لأمة القديس مارون فى الشام (٩٩)، وقد أخذ بالرواية السابقة كثير من الباحثين واتفقوا على صحة تلك الرسالة (١٠٠).

غير أن تلك الحادثة من الممكن أن نفندها على أساس عدة عوامل :

أولاً : نجد أن جان دى جوانفيل Jean de Joinville وهو الذى كتب ترجمة وافية لحياة الملك الفرنسى وحملاته على الشرق لا نجد لديه أدنى إشارة عن تلك الحادثة على الرغم من حرص جوانفيل على أن يذكر كافة الأحداث المتصلة بالملك الفرنسى فى مصر أو الشام ، ومن المستحيل أن يغفل ذكر مثل ذلك الحدث الهام الذى شارك فيه عشرات الآلاف من الموارنة إلا إذا كان هذا الحادث لم يقع أصلاً ، وهذا هو التبرير المنطقى لعدم توافره فى سيرة القديس لويس التاسع .

ثانيًا : نجد الأرقام عن حجم المساعدة المارونية يظهر فيها بوضوح طابع المبالغة وأغلب التصور أن الموارنة عند منتصف القرن الثالث عشر م / القرن السابع هـ كان بإمكانهم تكوين عدة آلاف قليلة من المقاتلة وليست مثل تلك الأرقام التى أوردها مؤرخوا الموارنة .

ثالثًا : يبدو أن تلك الرواية السابقة قد شارك فى صنعها خيال المؤرخين الموارنة إلى حد كبير ، وربما هدفوا من وراء ذلك إلى إيجاد تأصيل تاريخى فى العصر الوسيط للعلاقات الوطيدة بين لبنان وفرنسا فى العصر الحديث ، ويبدو أن لامنس كان أكثر حصافة عندما أغفل فى كتابه تلك الرواية ولم يتناولها حتى بالإشارة [١٠١].

وقد كان عصر سلاطين المماليك البحرية العصر الذى وجهت فيه أكبر الضربات الحربية الإسلامية للنفوذ السياسى والحربى المارونى فى بلاد الشام ، وقد قام المماليك بشن حملات عنيفة على معاقل الموارنة فى لبنان [١٠٢]، وذلك ضمن استراتيجيتهم العامة نحو القضاء على ما بقى للوجود الصليبى فى بلاد الشام ، ولما كان الموارنة حلفاء للصليبيين فقد كان طبيعيًا أن يدخلوا ضمن هدف المماليك .

وقد تمثل دور المماليك السابق فى صورة عهود السلطان بيبرس البندقدارى والسلطان المنصور قلاوون وخلفائه ، أما بالنسبة للظاهر بيبرس فنعرف أنه قام بحملتين على مناطق الموارنة فى عامى ٦٤٣ هـ / ١٢٦٤م ، عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م ، ففى العام الأول تمكن من الاستيلاء على القليعات وعرقه ، وعندما أراد أن يستولى على إمارة طرابلس قامت عناصر الموارنة بالنزول من الجبال وهاجمت قوات الجيش المملوكى ، ووفق ما ذكرته المصادر المارونية فإنهم تمكنوا من إلحاق الهزيمة بقوات المماليك [١٠٣]، أما الثانية فقد تمكن فيها بيبرس من الاستيلاء على يافا وهدمها وهدم قلعتها وحاصر شقيف أرنون وتمكن من الاستيلاء عليها ، وقد شجعه ذلك على الاتجاه لإحكام حصار طرابلس والاستيلاء عليها ، وقد عمل على قطع الأشجار وتخريب القرى ، وعندئذ قام الموارنة بنفس الدور الذى قاموا به منذ عامين ، فهاجموا قوات المماليك[١٠٤] وتدل الحادثتان على أن الموارنة كانوا من العناصر التى عوقت حركة المماليك ضد الصليبيين خلال تلك المرحلة فى تاريخ بلاد الشام .

وفى المرحلة التى تلت سقوط إمارة أنطاكية على يد الظاهر بيبرس عكست الأحداث التالية مدى تمسك الموارنة بالصليبيين وقوة العلاقات بين الطرفين ، وقد فر عدد كبير من الصليبيين إلى مناطق الموارنة فى جبل لبنان وقد استقبلهم بطريرك الموارنة بالترحاب ، الأمر الذى جعل

البـــابا إسـكندر الرابـع Alexander IV يشكره على موقفه فيمـا يتصل بإيواء الصليبيين الفارين من وجه المسلمين [١٠٥].

ويلاحظ أن السلطان المنصور قلاوون كان يدرك مدى خطورة الموارنة خاصة أن تجربة الظاهر بيبرس معهم كانت ماثلة أمامه ، وقد قتل بسببهم عدد كبير من قوات المسلمين ، وكذلك الأمراء الكبار مثل الأمير عز الدين معن والأمير ركن الدين منكورس بن عبد الله الفارقانى والأمير أحمد بن الأشل [١٠٦]، وكان من جراء ذلك أن اتجه قلاوون إلى مهاجمة مناطقهم ولما بلغت قواته وادى حيرونا عمل على أن يفرض الحصار على أهدن[١٠٧]- وكـــانت من أهم معاقل الموارنة- ففتحها المسلمون بعد أربعين يومًا[١٠٨] وعملوا على نهبها وسلبها ثم اتجهوا أيضًا إلى مهاجمة أهالى حصرمون وكفر حارون، وقد جرى ذلك عام ٦٨١ هـ/١٢٨٣م[١٠٩].

ويرى البعض أن حملات المماليك فى عهد المنصور قلاوون على أهدن والحدث وغيرها من مناطق الموارنة قد أدت إلى هجرتهم إلى جزيرة قبرس المقابلة للساحل اللبنانى وبلغ عدد النازحين إلى هناك عـدة آلاف[١١٠] ومع ذلك فقد كان الوجود المارونى فى الجزيرة قد سبق ذلك وكانوا من قبل قد استقبلوا القديس لويس التاسع .

والواقع أن مهاجمة المنصور قلاوون لأماكن الموارنة السابقة كان مقدمة لمهاجمة طرابلس وبالفعل تمكن من إسقاطها فى عام ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م وإن ساهم الموارنة فى مقاومة القوات المملوكية وتمكنوا بالفعل من قتل العديد من أفراد جيش السلطان المملوكى [١١١].

لقد كان لسقوط إمارة طرابلس ثم ما تلاه من سقوط باقى مراكز الصليبيين فى بلاد الشام تأثير بالغ على وضع الموارنة السياسى هناك وقد اعتبر أحد الباحثين ذلك بالنسبة للموارنة بمثابة " نكبة نادبة " ، فالتاريخ السياسى للموارنة بعد المماليك والذى قد أكمل غزو الساحل الفينيقى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م قد اختلف إلى حد كبير عن تاريخهم خلال المرحلة الصليبية، فبعد أن كان الموارنة أحد أكثر العناصر تميزاً وحصولاً على الامتيازات المتعددة من الجماعات المحلية صاروا مجرد جماعة من سكان الجبال الهاربين ، مثلما كان عليه الحال قبل مقدم الصليبيين [١١٢].

وقد تركز اهتمام سلاطين المماليك فيما بعد عصر المنصور قلاوون على توجيه ضرباتهم نحو كسروان[١١٣] وأهلها وهم عناصر من الموارنة والشيعة وكانوا قد وقفوا موقفًا معضداً للصليبيين ضد المنصور قلاوون عندما قام بحصار وإسقاط إمارة طرابلس .

ويقع الخلاف بين المؤرخين بشأن عقيدة الكسروانيين ونوعية سكان تلك المدينة اللبنانية ، ويقرر الشدياق أن أهل كسروان كانوا من الدروز والنصارى من نسل الموارنة [١١٤]، ومعنى ذلك أنه لم يقصر سكنها على عنصر واحد دون غيره بل جعلها تحوى الموارنة والشيعة معًا ، ونجد أن هنرى لامنس يقرر أن الحركة المضادة للمماليك فى كسروان لم تكن من جانب العناصر المسيحية بل من جانب النصيرية والدروز[١١٥] وإن انعكست حركتهم على الموارنة فيما بعد ، وهناك من الباحثين من تناول بالإشارة نوعية سكان كسروان وذكر أنهم كانوا من العناصر الشيعية [١١٦]، والمرجح أنه من الممكن التقرير بأن كسروان سكنتها عناصر مارونية مسيحية وشيعية مسلمة وأن حركة المماليك كانت موجهة أساسًا إلى الموارنة وذلك امتدادًا لمهاجمتهم فى أهدن وما حدث من قبل فى عهد المنصور قلاوون .

والواقع أنه ربما كان من العوامل التى دفعت المماليك إلى مهاجمة الموارنة فى تلك المدينة أنهم وقفوا ضد قوات الأشرف خليل بن قلاوون بعد إسقاطه لمدينة عكا وغيرها من المناطق الساحلية الأخرى ، وقد لجأ بعض الصليبيين إلى جبل لبنان وشجعوا - على ما يبدو - أهل كسروان على العصيان ضد السلطة المملوكية ، فأرسل الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩١ هـ / ١٢٩٢م قواته بقيادة الأمير عز الدين بيدرا[١١٧] لمهاجمتهم غير أن الكسروانيين تفوقوا عليهم مما دعم نفوذهم ومركزهم السياسى ، وفى عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م تم تكرار مهاجمتهم وذلك فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بعد انتهاء مرحلة الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، ويبدو أن ذلك ألحق خسارة كبيرة بهم [١١٨].

كذلك فعلى الرغم من انسحاب الصليبيين ، فإن الموارنة ظلوا يمنون أنفسهم بأن تعود من جديد عهود ارتباطهم المشترك وتحالفهم بأعداء المسلمين ، ولدينا نص هام أورده المؤرخ هايتون الأرمنى Hayton وهو ابن أخ هيثوم الأول Hetheum I ملك أرمينيا الذى ذكر خطة الغرب اللاتينى لكى يعود لمواصلة نشاطه الصليبى من جديد والاستيلاء على الأرض المقدسة ، وفى هذه الخطة نجد أن من عناصرها الاتصال بالعناصر المارونية في طرابلس وفى جبل لبنان ، وتصير طرابلس بذلك قاعدة الانتشار الصليبى لتنفيذ باقى خطط الغزاة [١١٩].

ويلاحظ أن الموارنة أنفسهم تعلقوا بالصليبيين وانتظروا ذلك اليوم الذى تعود فيه الحركة الصليبية إلى نشاطها السابق فيعود الموارنة بذلك إلى وضعهم المتميز السابق ، ولدينا إشارة هامة تدل على ذلك من جانب لويس دى روششوارت Louis Rocochouart الذى قام بالحج

إلى بيت المقدس فى عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦١م ، أى بعد ما يقرب من مائة وسبعين عامًا من رحيل الصليبيين وكان قد اتصل بالمجتمع المارونى اتصالاً وثيقًا ، ووفق ما يقرره فإنهم كانوا قلقين إلى درجة كبيرة بشأن مسألة ما إذا كان الصليبيين عازمين على العودة إلى الأرض المقدسة ؟ (١٢٠).

ومن بعد تناولنا قضية تعضيد الموارنة للوجود الصليبى فى بلاد الشام على امتداد تاريخ ذلك الوجود قرابة قرنين من الزمان تظهر فى الأفق قضية هامة وهى وضع الموارنة المتميز تحت حكم الصليبين .

ويلاحظ أن الغزو اللاتينى لبلاد الشام قد أعطى الموارنة فرصة جديدة وهامة للحياة من خلال الدعم الصليبى ووجدوا فيه دعمًا واضحًا (١٢١).

وقد خضع الشمال اللبنانى - موطن الموارنة - فى المدة من عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢م حتى عام ٥٠٣ هـ / ١٢٨٩م لسيطرة إمارة طرابلس الصليبية ، وقد شغل الموارنة فى الواقع العنصر الرئيسى من بين عناصر سكان الإمارة وتلقوا معاملة طيبة من جانب الصليبيين هم وغيرهم من العناصر المسيحية الأخرى(١٢٢) ، وشكلوا فى غالبيتهم عناصر من الفلاحين(١٢٣) فى أراضيهم وقراهم المتناثرة والتجار(١٢٤) وعناصر الحرفيين وقد لقى نشاطهم الاقتصادى ازدهاراً واضحًا إلي درجة كبيرة إلى حد جعل أحد المؤرخين يرى أن موارد البلاد كادت تكون فى قبضة الموارنة (١٢٥).

أما عن موقف الصليبيين من عقيدة الموارنة ومذهبهم الدينى فإنهم لم يثيروا صعوبات فيما يتعلق بعقيدتهم ، كذلك فإنهم - فى دهاء سياسى من جانبهم - لم يحاولوا أن يفرضوا عليهم حلاً واحداً لاتحاد العناصر التى تعتنق المسيحية فى بلاد الشام(١٢٦) ، وقد شعر الصليبيون بالارتياح للموارنة ووجدوا فيهم حلفاء مخلصين ، وفى هذا المجال أظهروا عطفًا تجاه جميع العناصر المسيحية وكما يذكر البعض لم يكن أمام الصليبيين سوى عدو واحد هو المسلمون(١٢٧).

ويلاحظ أنه عندما تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس وتكوين الإمارات الصليبية لم يعترضوا على العناصر المارونية فى تدبير شئونهم الداخلية ولم يمسوا ما كانوا عليه من الاستقلال إلى حد كبير ، فلا تراهم ينصبون عاملاً من قبلهم على غير المدن الساحلية ولا وجدنا ما يدل على أنهم حاربوا السكان الموارنة أو أن الأخيرين استسلموا لهم (١٢٨).

والواقع أن الموارنة خلال القرنين السادس والسابع هـ / الثانى والثالث عشر م كانوا بعد الصليبيين من حيث الأهمية[١٢٩] فى المجتمع الصليبى ، بل لم تكن هناك طائفة أقرب إلى الحكام اللاتين من ذلك العنصر المسيحى الشامى [١٣٠]، ومن ثم فقد كانت مرحلة الحروب الصليبية بمثابة العصر الذهبى لهم وفى خلال ذلك العهد ازدادت كنائسهم وأديرتهم وعمائرهم وتوفرت لهم أساليب الرزق ووجدوا من اللاتين التأييد والدعم [١٣١].

وقد كان الموارنة يتمتعون بالحقوق والامتيازات المتعددة التى تمتعت بها عناصر المجتمع الصليبى ، ومن تلك الامتيازات حق تملك الأرض فى مملكة بيت المقدس وفى هذا المجال نعرف أن بعض المنح قد قدمت لأشخاص من الموارنة فى عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م وفى عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م من جانب جوليان صاحب صيدا Julian of Sidon وهمفرى صاحب بيروت Hum-phrey of Beirut ، وكان هذا الأخير صاحب الإقطاع [١٣٣].

ومن مظاهر العلاقات التى ربطت بين الجانبين الصليبى والمارونى أن بطاركة الموارنة ارتبطوا بصداقات قوية مع الملوك والأمراء اللاتين ، فالبطريرك أثناسيوس السابع Ath-anasius VII (٤٨٤ - ٥٢٤ هـ / ١٠٩١ - ١١٢٩م) كانت له منزلة رفيعة لدى جوسلين صاحب إمارة الرها وقد زاره فى إمارته وفى مدينة تل باشر والتى كانت من أهم مراكز وحواضر إمارة الرها الصليبية [١٣٤].

ومع ذلك فإذا كانت مدة التواجد الصليبى فى الشام على امتداد القرنين السادس هـ / الثانى والثالث عشر م قد شهدت تقوية عرى التحالف بين الجانبين فلا يعنى ذلك أن تلك العلاقة الوطيدة لم تتهدد بين الحين والآخر ببعض الهزات الموجهة لعلاقة الجانبين القوية ، فمن المعروف أنه قد وجدت بعض العناصر من الموارنة لم تأبه بالقيام بأعمال السرقة والسلب والنهب من أجل شىء من المال ، بل أن هناك من يقرر أن الموارنة استخدموا إدراكهم المزدوج لقوة المسلمين والصليبيين ومميزات ونقائص كل طرف من الناحية الحربية من أجل العمل كجواسيس عند كل من الجانبين [١٣٥].

كذلك فقد وجدت بعض الأمثلة لأعمال تمرد قام بها الموارنة ضد الوجود الصليبى فى لبنان[١٣٦] وجهازه الإدارى هناك ، كذلك جرت بعض أحداث تآمر من جانبهم ضد القيادات اللاتينية ، ويذكر أحد الباحثين أن ابن القلاعى يقرر أن سكان جبة المنيطرة وقرية لحفد تمردوا ضد صاحب جبيل وعينوا مقدمًا وأسقفًا من بينهم [١٣٧]، وقد حدث فى خلال تلك الفترة

اضطراب بالغ فى جبل لبنان ويضيف أن البطريرك دانيال من سمعات Danial of Samat (٦٢٨ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٣٩م) كان عليه أن يترك مقره فى ميفوق Mayfuq (بالقرب من لحفد) واضطر إلى أن يتخذ مسكنًا فى دير القديس فى كفايفان Kfaufan إلى الشرق من البترون (١٣٨). أما بالنسبة لأحداث التآمر على قادة الصليبيين من جانب الموارنة فقد تمثل ذلك على أوضح صورة من خلال ظروف مقتل كونت بونز صاحب طرابلس Pons of Tripoli (٥٠٦ - ٥٣٢ هـ / ١١١٢ - ١١٣٧م) ، ولدينا عدة روايات عن الحادثة من خلال المصادر اللاتينية والعربية ، فيقرر وليم الصورى أن الحادثة جرت بعد أن أكمل الصليبيون بناء قلعة بيت جبرين وبعدها بوقت قصير فإن بزواج (يسميه Baswaj) قائد جيش دمشق قام بغزو أرض إمارة طرابلس وتصدى له كونت بونز بكل قواته وتلاقى الجيشان بالقرب من حصن يسمى جبل الحجاج وجرى قتال مروع هناك ، غير أن خطوط جيش صاحب طرابلس كانت قد تحطمت وأخذ الكونت نفسه أسيراً وذلك بفعل وشاية أحد عناصر السوريين (الموارنة) - وتم قتله (١٣٩).

أما المصادر العربية فإنها تلقى ضوءاً مهمًا على الحادثة ونتائجها فيقرر ابن القلانسي وغيره أن غارات العناصر التركمانية بقيادة الأمير شجاع الدولة بزواج قد تكررت على الأعمال الصليبية فى طرابلس فقد قام بغارة على تلك الإمارة الصليبية فى رجب ٥٣١ هـ / مارس ١١٣٧م ، وقد تقدم بقواته من عناصر الدماشقة وأغاروا على المناطق التابعة للإمارة وقد ساعد المسلمين على هذه الحملة عناصر من الموارنة وقد خرج الأمير بونز على رأس قواته واصطدم بقوات الدماشقة وانسحب بعد هزيمته إلى مناطق الجبال ولكن المسلمين تمكنوا من قتله(١٤٠).

وإذا نظرنا على النتائج التى ترتبت على تلك الحادثة إلى جانب قتل قيادة صليبية هامة على المستويين الحربى والسياسى فإن إمارة طرابلس صارت بدون أميرها الحاكم (١٤١)، فإن المصادر العربية تقرر أن المسلمين ملكوا " حسن وادى ابن الأحمر وغيره " (١٤٢)، وفى نفس الشهر نهض أبو حماة ابن صلاح فى رجاله إلى حصن الخربة فملكه (١٤٣).

وقد كان طبيعيًا أن يقوم رايموند الثانى صاحب طرابلس بالانتقام من الموارنة بسبب ما بدر من ذلك الفلاح المارونى الذى دل قوات المسلمين على مكان الكونت بونز ، وتقرر المصادر اللاتينية أن رايموند تقدم بقوات كبيرة من الجنود المشاة صوب جبل لبنان وألقى القبض على

العديد من الرجال وأبنائهم وقادهم مصفدين بالأغلال صوب طرابلس [١٤٤]، وذلك لأنه اعتقد بمسئوليتهم عن قتل والده ومذبحة الصليبيين [١٤٥]، ويبدو أن رايموند الثانى قد وجد عملية الانتقام من الموارنة مجالاً لتدعيم نفوذه السياسى ووضعه داخل الإمارة خاصة أنه كان فى الأيام الأولى من حكمه . وبالفعل فإن الصليبيين فى طرابلس شعروا بالارتياح والتقدير لمسلك الكونت الحديث العهد بحكم الإمارة [١٤٦].

وقد عكست تلك الحادثة عدة دلالات هامة ، فقد أثبتت أن الموارنة كانوا من الممكن أن ينقلبوا فى سياستهم تجاه الصليبيين بل ويتآمروا على قيادات الصليبيين السياسية ، وأنهم بالتالى لم يظلوا بخط سياسى ثابت تجاه المملكة اللاتينية ، بل أن مصلحتهم الخاصة لعبت دورها فى هذا المجال ، وشابهوا بذلك تنظيم الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام خلال نفس العهد ، فلم يحتفظوا فى علاقتهم بالصليبيين بخط سياسى واضح المعالم محدد الأهداف ، وفى خلال مراحل الوفاق بين الطرفين كانت خناجر الفداوية تجد طريقها إلى كبار القادة الصليبيين .

ومع ذلك فينبغى ألا نبالغ فى حجم حادثة مقتل بونز صاحب طرابلس وتسبب الموارنة فى ذلك ، إذ أن السياسة المارونية بصفة عامة كانت معضدة للوجود اللاتينى فى الشرق ، ولم تردد المصادر اللاتينية ما يشابه حادثة بونز السابقة فى المرحلة التالية حتى خروج الصليبيين من الشام .

وفى خلال تلك المرحلة من تاريخ الموارنة لعبت الكنيسة المارونية دوراً هامًا ومؤثراً فى حياة الموارنة فى لبنان خلال عصر الحروب الصليبية ، ولا ريب فى أن تلك الكنيسة قد مرت بمراحل عديدة فى تطورها من القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى حتى كان الغزو الصليبى لبلاد الشام .

ومن المرجح : أن الموارنة أنفسهم لم يكن لهم طائفة مستقلة لها كيانها التنظيمى الكنسى الخاص بها إلا فى القرن المذكور ففى خلال ذلك القرن الصاخب بالأحداث على المستويات الدينية والسياسية ظهر الإسلام وتم إخضاع الشام ومصر تحت السيادة العربية الإسلامية بعد أن خضعتا من قبل للإمبراطورية البيزنطية وانقطعت نتيجة للفتح العربى - أغلب الاحتمال - الصلات المنتظمة بين بطاركة القسطنطينية وبطاركة القدس والإسكندرية كما انقطعت بين تلك الكنائس وكنيسة روما وقد شغلت الأخيرة بأحوال الغرب اللاتينى [١٤٧]، وقد ضعفت صلات

كنيسة روما بالكنائس الشرقية ، ومن المرجع أنه خلال تلك المرحلة العصيبة أن التقى أبناء قرى نهر العاصى حول رهبان دير القديس مارون الذى تزايد نشاطهم التبشيرى وفى الغالب فإن هذا الارتباط كان له دوره فى ميلاد الكنيسة المارونية ، ويلاحظ أن مذهب المشيئة الواحدة الذى ارتبط به الموارنة منذ أصولهم الباكرة قد عدل عنه نهائيًا وانعقد المجمع السادس فى القسطنطينية عام (٦١ هـ / ٦٨٠م)[١٤٨] فحرم القول بالمشيئة الواحدة وأقر القول بالمشيئتين أما فى وادى نهر العاصى فقد استمر اعتقاد الموارنة فى مذهب المشيئة الواحدة[١٤٩] ويبدو أن ذلك الوضع قد استمر لعدة قرون إلى أن دخلت الكنيسة المارونية مرحلة هامة من تاريخها بدخولها فى ارتباط بكنيسة روما مثلما أشار وليم الصورى .

ويلاحظ أن تطور الأحداث فى بلاد الشام مع مقدم الصليبيين قد أثبت تفوق الغرب الأوروبى على الإمبراطورية البيزنطية كقوة حامية للمسيحية الأمر الذى دفع بطاركة الموارنة - أغلب الاحتمال - إلى التقرب من كنيسة روما [١٥٠].

وعلى ما يبدو وجدت بعض الخطوات التى مهدت إلى مثل هذا الارتباط بين الموارنة وكنيسة روما ، وقد جرت اتصالات بين البطريرك المارونى وبابا روما عندما تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس ، حيث أرسل بطريرك الموارنة يوسف الجرجسى مع وفود الصليبيين إلى الحبر الأعظم فى روما بعض الرسائل من أجل التهنئة بنجاح المشروع الصليبى فى تحقيق هدفه الأول ، وقد سر البابا بذلك وأرسل إلى البطريرك المارونى " تاجًا وعصاة"[١٥١] رمزاً للعلاقة بين الطرفين التى بدأت مرحلة هامة .

وهناك من يرى أن أساقفة الموارنة قد أقسموا يمين الولاء والطاعة لبابا روما فى لقاء وقع بين الجانبين ، ومثل البابا مندوب من قبله فى إمارة طرابلس الصليبية ، وذلك فى عهد البطريرك غريغورس الحالاتى[١٥٢] (٥٢٥ - ٥٣٦ هـ / ١١٣٠ - ١١٤١م) ومن المحتمل أن ذلك قد وقع عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩م عندما قام البابا اينوسنتيوس الثانى بإرسال مندوب من قبله للنظر فى بعض المشاكل الكنسية المتعلقة هناك .

ويقرر وليم الصورى أن ارتباط الموارنة بكنيسة روما تم أمام بطريرك أنطاكية وأن الصليبيين قد سروا غاية السرور لمثل ذلك التحول الهام [١٥٣]، الذى اعتبره البعض بمثابة "حادثة هائلة فى تاريخ لبنان إن لم تكن فى التاريخ الكنسى بأسره " [١٥٤].

ويقع الخلاف بين المؤرخين الحديثين بشأن التاريخ الذى وقع فيه ذلك الحدث الهام ، ومرجع هذا الخلاف إلى أن وليم الصورى نفسه لم يحدد تاريخاً بعينه لذلك (١٥٥)، ومن هنا تباينت آراء الباحثين ، فهناك من يرى أن ذلك حدث فى عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م (١٥٦)، وهناك من تصور أن ذلك وقع فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١م(١٥٧) إو أن عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م(١٥٨) كان تاريخ ارتباط الموارنة بكنيسة روما وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك فتصور وقوعه فى عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م (١٥٩).

ويلاحظ أنه من الممكن أن نجد إجابة لذلك من خلال نص المؤرخ اللاتينى نفسه ، فقبل حادثة الموارنة يشير إلى أحداث وقعت فى عام ٥٧٧هـ (١٦٠)، وهو ما يقابله عام ١١٨١م(١٦١)، لذا فمن المرجح أن يكون عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١م ، هو عام تحول الموارنة إلى الارتباط بكنيسة روما اعتماداً على نص وليم الصورى نفسه الذى يتضح منه أن الحادثين - وفاة ملكشاه وحادثة الموارنة - وقعا فى وقت متزامن .

مهما يكن من أمر فقد عاد الارتباط بين الفريقين بعد أن ظل الموارنة فى نظر الصليبيين مجرد هراطقة طوال عدة قرون خارجين عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية (١٦٢).

ومع اعتراف الموارنة بالخضوع لسيادة كنيسة روما ومع الاحتفاظ بشعائرهم القديمة وتقاليدهم السريانية اعتاد الموارنة طريق روما مركز الوحدة الكاثوليكية وصارت تدور بين الكنيستين المارونية وكنيسة القديس بطرس العديد من المراسلات المتبادلة والكتابات الرسمية التى عكست - بلا ريب الصلات الوطيدة الى صارت تربط بين الجانبين ويلاحظ أن أقدم المراسلات بين الجانبين رجعت إلى عهد أينوكنت (زخيا) الثالث الذى استدعى عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م بطريرك الموارنة أرميا العمشيتى (٦٠٣ - ٦٢٨هـ / ١٢٠٦ - ١٢٣٠م) لحضور المجمع اللاتيرانى الرابع ومنحه العديد من الامتيازات للموارنة (١٦٣).

وفى المرحلة التالية توالت المراسلات من جانب رؤساء كنيسة روما للموارنة من جانب أينوكنت الرابع (٦٤١ - ٦٥٢ هـ / ١٢٤٣ - ١٢٥٤م) فى العامين ١٢٤٣م ، ١٢٤٦م ومن جانب إسكندر الرابع (٦٥٢ - ٦٦٠ هـ / ١٢٥٤ - ١٢٦١م) عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م ثم انقطعت المراسلات بين الجانبين سنوات عديدة نظراً لما أصاب الشرق من غزوات المغول المدمرة ثم استيلاء المماليك على الشام ثم تجددت الصلات بين الجانبين فيما بعد (١٦٤).

كذلك فقد كان الارتباط بين الكنيستين قد صاحبه نهضة كنسية عمرانية من جانب الموارنة فشيدت العديد من الكنائس(١٦٥) عكست جانبًا حضاريًا من حياة المجتمع المارونى خلال ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى فقد كان عصر الحروب الصليبية مجالاً لازدياد نفوذ البطريرك المارونى داخل مجتمعه ، ويلاحظ أن الصليبيين عندما قدموا إلى الشرق فى أخريات القرن الخامس هـ / الحادى عشر م كان يتولى أمر البطريركية المارونية يوسف الجرجسى(١٦٦) وأغلب الاعتقاد أن المساندة المارونية للغزاة الجدد فى تقدمهم نحو بيت المقدس قد تمت بتوجيه من يوسف الجرجسى نفسه ، ومما يدعم القول بأن البطاركة الموارنة لعبوا أدواراً سياسية نشطة خلال ذلك العهد أن المنصور قلاوون عندما قام بمهاجمة المناطق المارونية أمر بإلقاء القبض على البطريرك الذى تواجد حينذاك وهو لوقا الينهرانى (١٦٧).

ويلاحظ أن أولئك البطاركة لم يكن لهم مقر ثابت بل أن مقرهم تغير من حين لآخر مثل أبرشيات البترون وجبيل وطرابلس ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٦٨٥ م كان الكرسى البطريركى فى دير مار مارون فى قرية حى من أعمال البترون قبل نقله بعد تولى البطريرك جبرائيل الأول إلى سيدة يانوح فى أبرشية جبيل حيث استمر إلى عام ١١٢٠م / ٥١٤هـ ثم نقل للمرة الثالثة إلى البترون (١٦٨).

مجمل القول أن الموارنة كقوة مسيحية محلية لعبت دورها فى دعم الوجود الصليبى فى بلاد الشام على امتداد القرنين السادس والسابع هـ / الثانى عشر والثالث عشر م على نحو أقرته المصادر اللاتينية وقد ساهم هذا الدعم فى إطالة عمر ذلك الوجود فى مناطق توزيعات الموارنة خاصة فى المناطق اللبنانية . وفى المقابل وقف الموارنة موقفًا عدائيًا من القوى الإسلامية ، وذلك كله يعكس لنا بجلاء كيف أن المشروع الصليبى عزف على وتر التركيبة العقائدية لبلاد الشام فى ذلك العصر ، وبالتالى أفادوا من عناصر ضمن المسيحيين الشرقيين هناك خدمة لأهدافهم الاستعمارية العليا الرامية إلى سلب ونهب ثروات المنطقة لصالح القوى الأوروبية .

ويلاحظ أن فرنسا فى العصر الحديث عملت على احتواء العناصر المارونية من أجل أن تجد لنفسها موضع قدم للتدخل فى الشئون اللبنانية ، وهو ذات الدور الذى قامت به فى العصور الوسطى من خلال تبنيها المشروع الصليبى .

وذلك عرض عن ملامح تاريخ موارنة لبنان عصر الحروب الصليبية .

الهوامش :

(*) أتوجه بالشكر للقائمين على دير الآباء الدومينكان ودير الآباء الفرنسيسكان ومكتبات جامعة القاهرة وجامعة عين شمس والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية والمعهد الألمانى للآثار . وللأستاذ الدكتور / حسين سلمان سليمان بالجامعة اللبنانية الفرع الرابع بكساره ، فلهم جميعًا الشكر ووافر التقدير .

(1) William of Tyre, Vol II, p. 458, Jacques de Vitry, p. 79 .

كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ط. بيروت ، ١٩٧٠م ، ص ١١ .

(٢) هنرى لامنس ، " بحث تاريخى فى سيرة القديس مارون الناسك " ، المشرق ، السنة (٦) ، العدد (٦) لعام ١٩٠٣م ، ص ٢٤٤ - ٢٥٠ ، كمال الصليبى ، الموارنة صورة تاريخية ، ص ١١ ، فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ط. بيروت ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٦٢، حاشية (٢٥١) ، جوزيف نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣٠٠ ، حاشية (١) ، حامد غنيم ، " جغرافيو القرن الرابع الهجرى ، الخريطة الدينية والمذهبية لعربى آسيا الإسلامية " ، مجلة الدارة ، السنة (٥) ، العدد (٢) لعام ١٩٧٨م ، ص ٤٨ ، لويس شيخو ، أثر قديم عن دير مارمارون غرب العاصى " ، المشرق ، السنة (٢٣) لعام ١٩٢٥ ، ص ٩٥٨ .

(٣) كمال الصليبى ، المرجع السابق ، ص ١١ .

(٤) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ط. بيروت ١٩٦٨م ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٥) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص ٦٣ ، حاشية (٢٥٣) .

عن القديس يوحنا مارون انظر أيضًا :

بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ط. بيروت ١٩٧٧م ، ص ٢١٠ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ، كمال الصليبى ، الموارنة صورة تاريخية ، ص ١٣ .

(6) Ency. Of Religions and Ethics, "Monophysitism", Vol. VII, pp. 811 - 816 . Salibi, Syria under Islam, p. 28 .

محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٥٩ ، عبد الغنى عبد العاطى ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور اليكسيوس كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٤٨ ، حاشية (٦٥) .

(7) Salibi, Syria under Islam, p. 28 .

هسى ، العالم البيزنطى ، ت . رأفت عبد الحميد ، ط. القاهرة ، ص ١٠٦ ، حاشية (١) ، أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(8)Salibi, Syria under Islam, p. 28 .

(٩) عن المذهب المونوثيليني انظر :

Ency. Of Religions and Ethics, "Monophysitism", Vol. VII, pp. 817 - 827 .

Vasilieve, Hist. Of the Byzantine Empire, Madison 1958, Vol. I, p. 223 .

Diel, Hist. Of the Byzantine Empire, London, pp. 42-45 .

هسى ، العالم البيزنطي ، ص ٣٥١ ، حاشية (١) ، رأفت عبد الحميد ، كنيسة بيت المقدس في العصر البيزنطي ، ص ١٠٥ ، شارلز أومان ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى طه بدر ، ط. القاهرة ١٩٥٣م ، ص ١٣٥ ، حاشية (١) ، السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص ١١٧ ، عبد القادر اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية . بيروت ١٩٩٦م ، ص ٩٧ - ٩٨ ، عمر كمال توفيق ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٧٤ - ٧٥ ، أسد رستم، الروم ، ط. بيروت ١٩٥٥م ، ص ٢٣٠ ، زاكية رشدي ، تاريخ الأدب السرياني ، مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس ، م (١٧) لعام ١٩٧٣م ، ص ٣٦٤ .

(١٠) عمر كمال توفيق ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١١) نفسه .

(12) Smail, The Crusaders in Syria and the Holy Land, p. 13 .

(13) Salibi, " The Maronites of Lebanon under the Frankish and Mamluk rule", REA, IV, Année 1957, p. 289 .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٥ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٢ ، ورقة (٣٠١) ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الجراجمة ، جـ١١ ، ص ١٥١ .

(١٥) ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، جـ٢ ، ص ٣٣ .

(16) Michael the Syrian, Chronique, Paris, 1908, T.II, p. 455 .

(17) Islam, Hist. De Loban, Paris1955, t, I, p. 169 .

(18) Michael the Syrian, Chronique, p. 455 .

(١٩) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٢٠٦ .

(٢٠) هنري لامنس ، " سوريا في زمن الفتح العربي ، شعوبها ولغاتها وأديانها " المشرق ، م(٣) ، العدد الأول لعام ١٩٣٢م ، ص ١٥ .

(٢١) هنري لامنس ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢٢) كمال الصليبي ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٣ .

(23) Salibi, Syria under Islam, p. 30 .

(٢٤) كمال الصليبي ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٢٥) نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

(٢٦) هنرى لامنس ، " انتشار الأمة المارونية فى لبنان " ، المشرق ، السنة (٦) ، العدد (٣) لعام ١٩٠٣ ، ص ١٣٣ .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) عن ذلك بالتفصيل : البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ، ص ١٨٩ .

(٢٩) انظر ذلك الاتفاق بالتفصيل عند البلاذرى ، نفس المصدر ، ص ١٩٠ ، أيضًا فتحى عثمان ، الثغور الشامية والجزرية إلى عهد المتوكل العباسى ، رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة ، ص ١١١ .

(٣٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٩٠ .

(٣١) نفسه .

(٣٢) نفسه ، وتفصيل ذلك أن الجراجمة كما ذكر البلاذرى قطعوا الطريق على المتخلف واللاحق فعمل الخليفة على أن يوجد بعض المسالح ، والتحصينات من أجل تأديب عناصرهم وتمت جراية لبعضهم بلغت ثمانية دنانير من أجل كسبهم إلى جانب المسلمين (البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ١٩٠) ويبدو أن تحرك الجراجمة ضد المسلمين كان بتحريض من البيزنطيين حيث أن الأخيرين قد قوضوا الاتفاق الذى كان موقعًا بينهم وبين المسلمين وعملوا على تحريض الجراجمة فى جبل اللكام (فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٨٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " الجراجمة " جـ١١ ، ص ١٥٢) ويبدو أنهم استغلوا انشغال الأمويين بحروبهم الخارجية ضد القوى السياسية المعارضة لحكمهم فقد انشغل عبد الملك بن مروان بصراعه مع عبد الله بن الزبير فى الحجاز وكذلك الفتنة التى قام بها عمرو بن سعيد الأشدق الذى كان متوليًا أمر دمشق (فلهوزن ، المرجع السابق ، ص ١١٢) ومن ناحية أخرى يذكر المؤرخون الموارنة أن أمير الموارنة وكان يسكن قرية بسكنتا وهى من القرى التابعة لبيروت قد شن بعض الهجمات على أرض البقاع وعمل على نهبها وقتل الكثيرين هناك فقد اتجه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان إلى أن يدس عليه من قتله عام ٦٦هـ / ٦٨٥م وتمكن من القضاء على حركته (الدويهى ، تاريخ الطائفة المارونية ، ط. بيروت ١٨٩٠م ، ص ٩٨) .

(٣٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ١٧٤ .

(٣٤) البلاذرى ، المصدر السابق ، ق١ ، ص ١٩٢ ، هنرى لامنس ، تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الاثار ، ط. بيروت ١٩١٤م ، ص ٥٣ .

(٣٥) هو عبد الرحمن الأوزاعى ؛ والأوزاع بطن من بطون همدان وهو بالتالى عربى الأصل وقد طاف الأوزاعى أنحاء عديدة من جزيرة العرب طلبًا للعلم مثل مكة والبصرة ودمشق وعرف بتقواه ، ويلاحظ أن مذهبه لم يستمر مثل المذاهب الأخرى وكذلك مثل حال المذهب الثورى ت ١٦١ هـ / ٧٧٨م ، وقد ألف

أبو يوسف صاحب كتاب الخراج كتابًا فى الرد على الأوزاعى وقد توفى الأخير عام ١٥٧ هـ / ٧٧٣م ، عنه انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ٣١٠ .

(٣٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ق١ ، ص ١٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " الجراجمة " ، جـ١١ ، ص ١٥٤ .

(٣٧) نفسه .

(٣٨) عن ذلك انظر : عجاج نويهض ، أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، ط. بيروت ١٩٦٠م.

(٣٩) سيدة كاشف ، الوليد بن عبد الملك ، ط. القاهرة ، ص ١٦٦ .

(٤٠) يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ط. القاهرة ١٩١٦م ، ص ٤٠ .

(٤١) يعلق كمال الصليبى على ذلك بقوله ما ترجمته " لا يوجد تاريخ للموارنة خلال تلك المرحلة الزمنية " وهو يعنى بالطبع عدم توافر مادة تاريخية من المصادر المتعددة للكتابة عنهم .

Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 290 .

(٤٢) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ ؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

(٤٣) إلياس ديب ، العقود الدرية ، ص ١٣٦ .

(٤٤) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص ١٦ .

(45) Abbot Daniel, p. 65 - 66 .

(46) Joannes Phocas, p. 9 .

(47) Ernoul, p. 51 .

(48) Joannes Phocas, p. 9 .

(49) William of Tyre, Vol. II, p. 459 .

(٥٠) أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص ١٦ .

(٥١) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٤٣٧ .

(٥٢) نقولا زيادة ، سوريا زمن الصليبيين ، ص ١٧ .

(53) Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 289 .

(54) Abbot Daniel, p. 65 - 66 .

عن جغرافية وتاريخ جبيل انظر : المصادر والمراجع التالية :

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣٢ ، سامية محمد أحمد ، جبيل تحت حكم اللاتين وعلاقتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٣م ، ص ٤٣ .

Van Berchem et Fatio, Voyage en Syria, pp. 105 - 113 .

(٥٥) عنها انظر : أحمد فارس الشدياق ، أخبار الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٠ ، هنرى لامنس ، السواحل اللبنانية ، المشرق العدد (١٩) السنة (٧) لعام ١٩٠٤م ، ص ٩٤٧ ، إلياس ديب ، العقود الدرية ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، فيليب دى طرازى ، أصدق ما كان من تاريخ لبنان ، جـ١ ، ص ٢٤ ، ميشيل سليم ، ط. القاهرة ١٩٥٥م ، ص ٦٤ ، وديع نقولا ، قاموس لبنان ، ص ١١ .

(٥٦) الشدياق ، المصدر السابق ،جـ١ ، ص ٢٠ .

(٥٧) نفسه .

(58) William of Tyre, Vol. II, p. 459 .

(٥٩) هنرسى لامنس ، تسريح الأبصار ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(60) Dussaud, Topographie Historique, p. 78 .

Rey, Colonies Franques, p. 368 .

(٦١) الشدياق ، أخبار الأعيان ، جـ١ ، ص ١٩ .

(٦٢) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ١٨٠ .

(63) William of Tyre, Vol. II, p. 489 .

(٦٤) إلياس ديب ، العقود الدرية ، ص ٩٥ .

(٦٥) بطرس ضو ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٤٨٢ .

(٦٦) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ط. بيروت ١٩٠٩م ، ص ٢٠١ .

(٦٧) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٦٨) نفسه .

(69) Anoymous, The deeds of the Franks and Other Pilgrims, p. 860 .

(٧٠) اسطفان الدويهى ، تاريخ الطائفة المارونية ، ص ١٠١ ، كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٥ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٧١) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص ١٧٦ ، يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٠ ، حاشية (٤) .

(٧٢) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٦ ، ويلاحظ أنه منذ أن أسس رايموند الصنجيلى أمير تولوز أسرة حاكمة فى لبنان أصبحت تنتمى من ناحية اللغة والعادات إلى جنوب فرنسا وصارت ملجأ للقادمين من جبال البرانس حتى حوض الرون الأدنى وكتالونيا ومنذ ذلك الحين خضعت لمؤثرات فرنسية واضحة حتى الآن ، انظر : يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٠ .

(٧٣) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص ٢١ ، بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٤٨٤ .
·oussel, Vol. I.,P. 540 .

(٧٤) رنسيمان ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢١ .

(٧٥) جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦٣ .

5) William of Tyre, Vol. II, p. 459 .

(٧٧) يوسف الدبس ، الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، ط. بيروت ١٩٠٥م ، ص ٢٠٨ .
3) Jacques de Virtry, p. 79 ; Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 291 .

(٧٩) يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٠ ، حاشية (١) .

(٨٠) يوسف غبريل " رحلة إلى الشام " ، المقتطف ، م (٥٦) لعام ١٩٢٠م ، ص ٤١٩ .

(٨١) لويس شيخو ، " الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية " ، المشرق العدد الخامس ، السنة (١٧) ل
١٩١٤م ، ص ١٢ ؛ جوزيف نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣٠٠ .

!) William of Tyre, Vol. II, p. 459; Gibb, The Damascus Chronicle, p. 28, Mayer, the
usades, p. 274, Grousset, T. I, p. 142, Smail, The Crusaders in Syria, p. 161 .

;) Smail, The Crusders in Syria, p. 183 .

زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص ١٦١ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسط
جـ٢ ، ص ٢٣٥ ، لويس الحاج ، الجيش الفرنسى ، ط. بيروت ١٩٤٥م ، ص ٤٨ .

(٨٤) ابن الشحنة ، الدر المنتخب ، ص ١٦٤ ، Salibi, The Maronites, p. 289, not(2) ، يوسف در
أصل الطائفة المارونية ، ص ٥١ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٩٢ ، إرنست بارك
الحروب الصليبية ، ص ٥٥ ، يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٠ .

) William of Tyre, Vol. II, p. 459, Salibi , The Maronites, p. 289, not (2) .

(٨٦) هنرى لامنس ، " الحياة فى بيروت فى عهد الصليبيين " ، المشرق ، العدد الأول السنة (٣١) ل
١٩٣٣م ، ص ٧٢٥ ، جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦٠ .

(٨٧) يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ - ٥٤ ، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ،
٩٠ - ٩١ ، فيليب دى طرازى ، تاريخ لبنان ، ص ٦٥ ، جاك تاجر ، المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٨٨) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٤١ .

(٨٩) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٩١ .

(٩٠) الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٢٨ ، سمايل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٣ ، بطرس ضو ، تاريخ الموار
جـ٣ ، ص ٤٤٠ ، فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٢ ،

ibi, The Maronites of Lebanon, p. 291 .

(91) Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 294 .

(٩٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " بيروت " ، جـ٨ ، ص ٥٧٦ .

(٩٣) اسطفان الدويهى ، تاريخ الطائفة المارونية، ص ١٠٢ ، بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ٤٨٧.

(٩٤)أسطفان الدويهى ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٩٥) أخبار الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٠٥ ، الدويهى ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، بطرس ضو ، تاريخ الموارنة، جـ٣ ، ص ٤٤٠ .

(٩٦) أعنى هنا المصادر العربية المطبوعة وربما وجد فى بطون المخطوطات ما يغير شيئًا مما هو معروف .

(٩٧) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٤٤١ .

(٩٨) الشدياق ، أخبار الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٥١ .

(٩٩) اسطفان الديوهى ، تاريخ الطائفة المارونية ، ص ١١١ ، يوسف الدبس ، الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٥ - ٥٦ ، حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٢ ، بطرس ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ ، السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٢٢٦ ، حاشية (٦٨) ، جوزيف نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ط. الإسكندرية ، ص ٣٠١ ، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص ٩١ .

(١٠٠) هنرى لامنس ، تسريح الأبصار ، ص ٥٥ .

(١٠١) نقولا زيادة ، دمشق فى عصر المماليك ، ص ٥٨ .

(١٠٢) اسطفان الدويهى ، تاريخ الأزمنة ، ص ١٣٥ ، تاريخ الطائفة المارونية ، ص ١١١ ، يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٦٠ ، بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ٤٤١ ، ص ٤٨٢ .

(١٠٣) أسطفان الدويهى ، تاريخ الأزمنة ، ص ١٣٦ ، تاريخ الطائفة المارونية ، ص ١٢٢ ، بطرس ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٨٣ .

(١٠٤) يوسف الدبس ، الجامع المفصل ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٤٧ ، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص ٦١ .

(١٠٥) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٢٩٠ .

(١٠٦) عن مهاجمة أهدن من جانب المنصور قلاوون انظر : ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٧، الشدياق ، تاريخ الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٥١ ، الشهابى ، الغرر الحسان ، جـ١ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ ، يوسف دريان ، المرجع السابق ، ص ٦١ ، بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، جـ٣ ، ص ٤٤١ ، فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٧٩ ، سالم ، المرجع السابق ، ص ٢٩١ ، كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٩ .

(١٠٧) حيدر الشهابى ، المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .

(١٠٨) نفسه ، نفس المصدر السابق . ويبدو أن خلال ذلك تم أسر البطريرك المارونى لوقا البنهرانى ، انظر : كمال الصليبى ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(١٠٩) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٧ ، السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٩١ ، ويلاحظ أن القرنين ، ٧هـ / ١٢ ، ١٣ م قد شهدا انتقالاً لعناصر من الموارنة إلى بعض جزر البحر المتوسط مثل قبرس ورودس وغيرها وقد سكنت عناصرهم جزيرة قبرس منذ القرن ٥هـ / ١١م وبنوا ديراً لهم عام ١١٢٠م وتطور نفوذهم فيها حتى امتلكوا نحو ثلاثين ضيعة فيها وكان لهم بطريرك بالجزيرة وتواجدوا فى مدنها الرئيسية ، انظر : هنرى لامنس ، تسريح الأبصار ، ص ٥٦ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص ٢٦٠ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص ٦٤ .

(١١٠) أسطفان الدويهى ، تاريخ الأزمنة ، ص ١٤٨ ، كرد على ، خطط الشام ، جـ٢ ، ص ١٢٦ ، سعيد عاشور ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام ، ص ١٣ .

(111) Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 296 .

(١١٢) كسروان ، مقاطعة فى وسط جبل لبنان وكان يطلق عليها العاصية وذلك لوعرة جبالها الداخلية نظراً لدخولهم البحر وكان يحدها من جهة الجنوب نهر الجعمانى وهو نهر بيرون ومن الشمال نهر العاملتين أو نهر إبراهيم ، انظر : شيخ الربوة الدمشقى ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ص ١٩٩ ، يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٦٢ - ٦٣ ، حاشية (١) .

(١١٣) الشدياق ، أخبار الأعيان ، ص ٢٠٢ ، كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ٢٠ .

(١١٤) هنرى لامنس ، انتشار الأمة المارونية فى لبنان ، ص ١٧١ .

Lamans, la Syrie. Vol. II. p. 16 .

(١١٥) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٠٧ ، المجتمع الإسلامى ، ص ١٣ .

(١١٦) هو بيدرا بن عبد الله المنصورى نائب السلطان فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد خرج على السلطان وتعاون مع الأمير حسام الدين خليل وتوفى عام ١٢٩٤م / ٦٩٣ هـ ، عنه انظر :

ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ص ١٣٦ ، ص ١٦٧ ، ص ١٦٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ٣٢٤ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٨ ، ص ١٧١ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٧٩٢ ، الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٩٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص ٣٣ .

(117) Laoust, Remarques sur les expeditions de Kasrawan sous les Premiers Mamluks. BMB, IV, 1960, p. 93 .

(118) Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, R.H.C. Doc. Arm. T. II. p. 250 .

(119) Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 296 .

(120) Ibid, p. 297

(١٢١) نقلاً عن : براور ، عالم الصليبين ، ص ١٢٠ ، Ibid, p. 297 .

(١٢٢) نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

(123) Jacques de Vitry, p. 58 .

(124) Rey, Les Colonies Franque de Syrie, p. 78 .

(١٢٥) جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦١ .

(١٢٦) نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

(١٢٧) يوسف الدبس ، الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، ص ١٨٧ ، نفسه ، تاريخ سوريا ، جـ٦ ، ص ١٨٤ .

(١٢٨) عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٥٦ .

(١٢٩) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١١ .

(١٣٠) يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٣١) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٢٩٢ ، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص ٩٢ .

(132) Riley-Smith, The Feudal Nobility, p. 10 .

(١٣٣) فيليب دى طرازى ، أصدق ما كان من تاريخ لبنان ، جـ١ ، ص ٦٤ .

(١٣٤) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٥ .

(١٣٥) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٨ .

(136) Salibi, The Maronites of Lebanon, p. 295.

(137) Ibid, p. 295 .

(138) William of Tyre, Vol. II, p. 82 .

(١٣٩) انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، وعن نفس الحادثة انظر أيضًا :

Runciman, Vol. II, pp. 202 - 203 ; Stevenson, The Crusaders, p. 137 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٧٤ . ويلاحظ أن تاريخ مقتل بونز هو ٢٥ من مارس عام ١١٣٧م .

(١٤٠) خلفه فى الحكم ابنه رايموند الثانى Raymond II

William of Tyre, Vol. II, p. 82 .

(١٤١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ .

(١٤٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢١ .

(143) William of Tyre, Vol. II, p. 82 .

(144) Ibid, p. 83 .

(145) Ibid, p. 83 .

(١٤٦) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١١ .

(١٤٧) عن ذلك المجمع وقراراته انظر : محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٢ .

(١٤٨) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١١ .

(١٤٩) نفسه .

(١٥٠) يوسف الدبس ، الجامع المفصل ، ص ١٨٩ .

(١٥١) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ، ص ١٦ .

2) William of Tyre, Vol. II, pp. 457-458 .

يوسف الدبس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٥٣) يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١١ .

4) William of Tyre, Vol. II, p. 452 .

(١٥٥) كمال الصليبى ، الموارنة ، صورة تاريخية ،ص ١٦ ، nail, The Crusaders in Syria, p. 64 .

6) Mayer, the Crusades, p. 169 - 170 , Parker, Hist. Of Palestine, p. 119 .

(١٥٧) يوسف دريان ، أصل الطائفة المارونية ، ص ٤٩ ، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص زاكية رشدى ، تاريخ الأدب السريانى ، ص ٣٦٤ ، محمد أبو زهرة ، محاضرات فى النصرانية ١٨٢ .

(١٥٨) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١١ .

(١٥٩) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٨١ . انظر : إشارة وليم الصورى :

iam of Tyre, Vol. II, p. 457 .

(١٦٠) وستنفيلد ، جدول السنين الهجرية ، ص ٥٦ .

iam of Tyre, Vol. II, pp. 457-458 .

يوسف الدبس ، الجامع المفصل ، ص ٩٠ .

(١٦٢) لويس شيخو ، الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية ، ص ٣٢٣ .

(١٦٣) نفسه ، نفس الصفحة .

(١٦٤) هنرى لامنس ، " كنائس لبنان القديمة " ، مجلة المشرق ، العدد الأول ، لعام ١٨٦٨م ، ص ٦٣ .

(١٦٥) يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ، جـ٦ ، ص ١٨٦ .

(١٦٦) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٧ .

(١٦٧) الدويهى ، " سلسلة بطاركة الطائفة المارونية"، المقتطف ، السنة الأولى ، العدد السادس ١٨٩٨م ، ص ٢٤٧ .

(٥)

معركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧ هـ
ودورها فى الصراع الإسلامى - الصليبى

يتناول هذا البحث بالدراسة معركة أرسوف التى جرت بين الجيش الأيوبى بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ، والجيش الصليبى بقيادة الملك الإنجليزى ريتشارد الأول عام ١١٩١ م / ٥٨٧ هـ ، ويتعرض لدراسة الموقف العسكرى بين الجانبين المتصارعين فيما بعد إسقاط مدينة عكا خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، وملابسات المواجهة العسكرية بين الجانبين عند أرسوف ، وكذلك تنظيمات كل جيش ، وعوامل انتصار الصليبيين وعوامل هزيمة المسلمين ثم تلك النتائج التى نتجت عن المعركة بالنسبة للطرفين .

والجدير بالذكر ، أنه على الرغم من أهمية معركة أرسوف ، فإنها لم تحظ بالاهتمام الجدير بها من جانب الباحثين في دراسة عربية مستقلة باستثناء دراستها ضمن أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، ومن ثم دعت الحاجة إلى التصدى لذلك من خلال الاعتماد على المصادر الصليبية المعاصرة والمصادر التاريخية للعصر الأيوبى سواء المعاصرة أو المتأخرة نسبيًا ، وكذلك مناقشة تصورات الباحثين الأوربيين القدامى ، والمحدثين لتلك المعركة وفعالياتها وتأثيرها على الصراع الإسلامى - الصليبى حينذاك .

ومن المعروف أن المسلمين بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبى تمكنوا من تحقيق انتصار حاسم على الصليبيين فى معركة حطين[1] فى ٣ يوليو ١١٨٧ م / ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ ، وتمكنوا من الاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية وإسقاط قلاع الصليبيين واستعادة مدينة بيت المقدس فى ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م / ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ، على نحو أدى إلى قدوم الحملة الصليبية الثالثة بقيادة فردريك بارباروسا[2] Frederick Barbarossa إمبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠م/٥٤٧ - ٥٨٥ هـ) الذى غرق وهو فى طريقه إلى بلاد الشام [3]، ثم هناك ريتشارد الأول[4] Richard I الملقب بقلب الأسد Heart of Lion ، ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩م / ٥٨٥ - ٦١٩هـ) ، وفيليب أغسطس Philip Augustus ملك فرنسا

(١١٨٠ - ١٢٢٣م/ ٥٧٥ - ٦١٩هـ) ، وقد تمكن الصليبيون من استعادة مدينة عكا الساحلية وانتزاعها من قبضة المسلمين[٥] فى ١٢ يوليو ١١٩١م / ١٧ جمادى الآخر ٥٨٧ هـ وذلك بعد صراع عنيف دام عامين كاملين استهلك كل طرف طاقته العسكرية إلى حد كبير خلاله ، وعدت معركة عكا خلال الحملة المذكورة أطول معارك الحروب الصليبية فى بلاد الشام على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / القرنين السادس والسابع الهجريين دون مغالاة فى القول .

وفى المرحلة التاريخية التالية ، وقعت أحداث معركة أرسوف Arsuf بين المسلمين والصليبيين فى عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ ، ومن الضرورة بمكان إلقاء نظرة موجزة على جغرافية وتاريخ مدينة أرسوف ذاتها التى جرت عندها وقائع ذلك الصدام الحربى .

فأرسوف : مدينة وقعت على ساحل فلسطين بين قيسارية Caesarea ويافا Joppa ، وبعدت مسافة عشرة أميال إلى الشمال من يافا ، وكانت المسافة بينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً [٦] ، ومن المحتمل أن اسم أرسوف Arsuf مشتق من اسم الإله السامى رسيف Reseph [٧] ، وسميت أرسوف فى المصادر الجغرافية الأوربية فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى بعدة أشكال ، فهي أحيانًا أتسوف Atsuph[٨] ، أو أزوتس Azotus [٩] ، أو أرسور Arsur أو تارسوف Tarsuf [١٠] ، ولاريب فى أن كثرة ترددها لدى مؤلفى تلك المصادر يعكس أهمية موقعها على الساحل الفلسطينى ، وكثرة مرتاديها على مدى مراحل زمنية متعددة .

ومن زاوية أخرى ، مما يذكر عن طبوغرافية المنطقة أن إحدى الغابات الكثيفة الأشجار[١١] وجدت عند أرسوف ، وقد توافرت هناك فوق عدد من التلال [١٢] .

زد على ذلك ، أن هناك عدة أنهار فى المنطقة الواقعة بين قيسارية وأرسوف ، وهى بالترتيب النهر الميت Dead River ، ووقع إلى الجنوب من قيسارية ، ثم نهر الملح Salt River ، ووقع إلى الجنوب من النهر السابق ، ثم أخيراً نهر روشيتايل Rochetaille River أو نهر الفالق ؛ ووقع إلى الشمال من أرسوف [١٣] .

والواقع أنه فى القرون الأولى من عهد الخلافة عُدَّت أرسوف واحدة من المدن الحصينة الرئيسية فى فلسطين [١٤] ، وارتبط بها عدد من المجاهدين المرابطين كما انتسب إليها فيما بعد عدد من العلماء الذين حرصت كتب الأنساب على إيراد أسماء بعضهم [١٥] .

وفى عصر الحروب الصليبية ؛ نجد أن أرسوف كانت فى دائرة الأطماع الصليبية التوسعية على حساب المسلمين وذلك منذ وقت مبكر، وتعليل ذلك كونها بوابة ميناء يافا الشمالية حيث عدت يافا بدورها ميناء بيت المقدس . ويقرر المؤرخ الصليبى فوشيه دى شارتر Fulcher de Chartres أن جودفرى دى بويون Godfrey de Bouillon - أول حاكم لبيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ - قد اتجه إلى حصارها خلال المرحلة الممتدة من نهاية شهر أكتوبر حتى منتصف شهر ديسمبر ١٠٩٩م / منتصف ذى الحجة ٤٩٢ إلى نهاية المحرم من عام ٤٩٣ هـ[١٦] ؛ أى على مدى شهر ونصف تقريبًا دون أن يتمكن من إسقاطها .

ووفق ما تقرره المصادر الصليبية ، فإن سكان أرسوف عملوا على مهاجمة الصليبيين ، والفتك بهم على نحو أدى إلى سقوط الكثير من بينهم من جراء تلك الهجمات [١٧].

وقد اتجه الملك الصليبى بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠ - ١١١٨م/ ٤٩٣ - ٥١١هـ) إلى الاستيلاء على أرسوف ضمن سياسته التوسعية حيال الساحل الشامى ، وقد تمكن بالفعل من تحقيق ذلك بمساعدة أساطيل الجنوية وذلك في ٢٩ أبريل ١١٠١م / ٢٧ جمادى الآخرة ٤٩٤ هـ [١٨]. فنجح بذلك فيما فشل فيه جودفرى دى بويون من قبل .

وهكذا ظلت أرسوف خاضعة للسيادة الصليبية باعتبارها لوردية Lordship كانت تقدم للملك الصليبى خمسين من عناصر السرجنت Serjeant[١٩] إلى أن تمكن المسلمون بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى من استردادها فى أعقاب معركة حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ[٢٠].

تلك كانت لمحة جغرافية وتاريخية موجزة ، عن تلك المدينة التى ارتبطت بها المعركة الحربية التى جرت بين الجيش الأيوبى والجيش الصليبى ؛ وهو ما سنتناوله مفصلاً على مدى الصفحات التالية .

والجدير بالذكر ؛ أن الصدام الحربى بين الطرفين فى أرسوف قد حدث فى أعقاب سقوط عكا فى قبضة الصليبيين وقد كان هدفهم العسكرى التالى يتمثل فى إقامة قاعدة توفر لهم إمكانية مهاجمة بيت المقدس من خلالها ، ولذلك اتجهوا صوب يافا ، وقد اتخذوا فى سبيل ذلك الطريق الساحلى Via Marina ، أو الرومانى Via Romana ، ووفق ما تقرره المصادر التاريخية المعاصرة ، فإن الصليبيين بعد فراغهم من أمر عكا ؛ برزوا منها فى ٢٢ أغسطس

١١٩١م / ٢٨ رجب ٥٨٩ هـ ، واتجهوا فى مستهل شهر شعبان صوب حيفا Haifa ، وقد اتجه الجيش الأيوبى إلى مضايقتهم فى سيرهم ، ومناوشتهم ، وتمت مهاجمتهم بالسهام على نحو وصف بأنه « ما كان يحجب الشمس » ، وقد قتلوا وجرحوا من أعدائهم عدداً كبيراً(٢١).

ومن الواضح أن المسلمين عملوا على مهاجمة القوات الصليبية من أجل تحقيق عدة أهداف مجتمعة ، وفى مقدمتها ، وقف أو على الأقل إعاقة وتأخير تقدم تلك القوات جنوبًا صوب عسقلان ، إذ أن تلك المدينة احتلت أهمية استراتيجية كبيرة من خلال قربها من بيت المقدس حيث يمكن للصليبيين شن هجماتهم نحو المدينة المقدسة من خلال عسقلان ، ولا نغفل هنا أن حامية عسقلان الفاطمية - قبل سقوط المدينة فى قبضة الصليبيين من قبل فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢م / ٥٣٩- ٥٥٧ هـ) عام ١١٥٣م / ٥٤٨ هـ ، كثيراً ما هددت العاصمة الصليبية ، وهكذا ، فإن المسلمين بعد استردادهم لها فى أعقاب معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ ، أراد الصليبيون استعادتها كى تكون موضع قدم لهم على ساحل جنوب بلاد الشام ، كما أنهم أرادوا - من ناحية أخرى - قطع اتصال مصر بالشام من خلال إخضاع تلك المدينة الاستراتيجية فى قبضتهم .

وهكذا ، من الممكن إدراك توجه الصليبيين جنوبًا ؛ من خلال تلك المدينة ، الذين أدركوا حيويتها البالغة فى تلك المرحلة على نحو خاص ، وبالتالى يصدق القول أن أرسوف ذاتها لم تكن سوى إحدى محطات مرور الصليبيين بالطريق إلى عسقلان ؛ ومنها إلى بيت المقدس .

أضف إلى ذلك ، أن المسلمين أرادوا إلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية والمادية فى صفوف أعدائهم ، وبالتالى إنهاك الجيش الصليبى على نحو يؤدى إلى ضعف فعالياته الحربية بصورة أو بأخرى ، وهكذا ، فإن تلك الهجمات الأيوبية لاسيما من خلال السهام كان لها دورها فى بعث الاضطراب فى القوات المعادية على نحو كان له أثره على الانضباط العسكرى أو ما عرف لدى الصليبيين باسم Disciplina Militarisi .

ولا نغفل ناحية أخرى ، وهى رغبة المسلمين فى الثأر لإخوانهم الذين سقطوا من أفراد حامية عكا والذين أمر ريتشارد بضرب أعناقهم جميعًا وكانوا زهاء ٢.٥٠٠ رجل ، خاصة أن الفارق الزمنى كان قصيراً بين معركة عكا ، ومعركة أرسوف والمناوشات التى سبقتها .

ومن الملاحظ أنه خلال عملية الزحف من جانب الصليبيين بمحاذاة البحر ، أظهروا جلداً واضحا عرف عنهم من قبل ، كذلك امتازوا بتنظيم العمل ، فكان جيشهم يتبادل الراحة حتى

لايرهق . فهناك قسم يشارك فى الصدام مع المسلمين ، وهناك قسم آخر يستريح لا يقاتل ، فإذا لحق الإرهاق القسم الأول تولى الثاني الأمر بدلاً منه ليستريح القسم المجهد ، بينما كانت عناصر الخيالة فى الوسط لاتخرج إلا عندما تحمل على المسلمين فقط [٢٢]، ولاريب أن ذلك كله يعنى أن المشاه كان عليهم العبء الأكبر فى الطريق إلى أرسوف ، مع عدم إغفال دور عناصر الفرسان بطبيعة الحال .

والجدير بالذكر هنا ، أن ما حدث من صدام بين الجانبين فى الطريق إلى أرسوف يمكن أن يوصف بأنه نموذج لأسلوب عسكرى عرف بالقتال أثناء الزحف ، وذلك من خلال هجمات خاطفة للجيش الأيوبى ، وكان الهدف التكتيكى يتمثل فى وقف طابور العدو أو اختراقه ، ولذا فقد بذل الصليبيون جهدهم الجهيد من أجل الانضباط والبقاء فى صورة طابور متراص[٢٣].

ومن الممكن ملاحظة أن ذلك الأسلوب القتالى الذى اتبعه الجيش الأيوبى وكذلك الصليبى لم يكن فريداً ، بل أن القرن الثانى عشر الميلادى / القرن السادس الهجرى احتوى على العديد من أمثلة القتال أثناء الزحف ، ومنها ما حدث فى صراع بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣١م / ٥١٢ - ٥٢٥ هـ) مع ايلغازى الثانى فى عام ١١١٩م / ٥١٣ هـ ، وكذلك خلال الحملة الصليبية الثانية وماحدث للملك الفرنسى لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠م / ٥٣١ - ٥٧٤هـ) فى آسيا الصغرى فى شتاء عام ١١٤٧ - ١١٤٨م / ٥٤٢ هـ فى أفسوس [٢٤].

مهما يكن من أمر ؛ فإنه من خلال الهجوم الأيوبى بالسهام على الجيش الصليبى تم ايقاع الخسائر فى الصليبيين وكذلك خيولهم[٢٥] ، بالإضافة إلى أن السهام ذاتها كان من شأنها فرض التوتر العصبى الشديد على الجنود الذين تعرضوا لها [٢٦]. كذلك نجد أن المسلمين عملوا على تخطف الصليبيين وقتلهم[٢٧] ، وقد وضح ذلك الأسلوب على نحو خاص خلال عملية الزحف من قيسارية إلي أرسوف ذاتها[٢٨].

والواقع أن ذلك الأسلوب القتالى قد استمر حتى الوصول إلى غابة أرسوف وخاصة عند قرية تعرف بدير الراهب [٢٩]؛ إذ تطور الأمر من خلال طلب الصليبيين التفاوض مع المسلمين[٣٠]، وتؤكد المصادر العربية على أن الطرف الصليبى أقدم على طلب التفاوض ، ومن الممكن تعليل سبب الإقدام على التفاوض مع المسلمين من جانب الصليبيين على اعتبار الرغبة فى كسب الوقت وإعادة تنظيم قواتهم بعد أن أجهدهم السير جنوبًا ومهاجمتهم طوال

الزحف ، ومثل هذا التصور له مبرره على اعتبار أن الصدام بين الجانبين فى أرسوف قد أثبت كفاءة الصليبيين الحربية على نحو عكس لنا أنهم أعادوا تنظيم صفوفهم ، وترتيب قواتهم قبل المعركة ؛ وهو أمر اتاحته فرصة الدخول فى المفاوضات مع أعدائهم .

ومن زاوية أخرى ؛ من المرجح أن الخسائر التى لحقت بالصليبيين ؛ كانت من العوامل إقدامهم على طلب الدخول فى المفاوضات .

أما إذا انتقلنا إلى الطرف الآخر ، ونعنى به المسلمين ، فنعرف أن السلطان الأيوبى عمل على الإفادة من المفاوضات من أجل كسب الوقت هو الآخر ، حيث أن هناك إشارة صريحة أوردها ابن شداد تفيد بأنه أوصي العادل بأن " يطاول الفرنج فى الحديث "(٣١) ، والمبرر فى ذلك أن الجيش الأيوبى كان ينتظر عناصر التركمان التى تم استقدامها من أجل تدعيم الفعالية الحربية ضد الجيش الصليبى(٣٢) فى الصدام المرتقب .

وتفيد الإشارة السابقة فى توضيح أن الأيوبيين كانوا على يقين كامل من ضرورة المواجهة الحربية مع الصليبيين وأن المسألة لاتعدو أن تكون مجرد كسب وقت لضمان إعداد أفضل لقواتهم .

وقد وردت إشارات تفيد وجهة النظر الصليبية التفاوضية ؛ إذ أن ريتشارد الأول ذكر أن القتال طالت مدته بين الجانبين ، وأن الصليبيين القادمين من الغرب الأوربى ما قدموا إلا من أجل مناصرة صليبيى الشام، وطالب المسلمين بأن يصالحوه من أجل أن يعود كل إلي موقعه(٣٣) ، وعندما استفسر العادل الأيوبى - الذى كان يمثل الطرف الأيوبى فى المفاوضات - عن الأساس الذى ستقوم عليه أية مصالحة بين الطرفين أوضح له الملك الإنجليزى أن علي المسلمين أن يسلموا للصليبيين ما استردوه من أملاك(٣٤)، ومن الجلى البين أن تلك الأملاك تمثلت فى بيت المقدس وغيرها من المناطق الداخلية، وكذلك الساحلية التى استولى عليها المسلمون فى أعقاب معركة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣ هـ .

وهناك زاوية مهمة ، تتمثل فى شروط التفاوض لدى كل طرف ، والواقع أن المصادر العربية لا تبرز ما يمكن وصفه « بشروط » من الجانب الأيوبى ، بل أنها توضح الشروط الصليبية التى سبق ذكرها ، وقد كشف العادل الأيوبي عن موقف الأيوبيين الرافض لمقترحات الملك الإنجليزى ، وأوضح أنه على استعداد لبذل دماء كل فارس من أفراد الجيش الأيوبى فى سبيل ألا يحقق ما يطلبه الصليبيون(٣٥) ، وبالتالى باءت المفاوضات بالفشل المبين .

ومن الممكن - في يسر وسهولة - إدراك الأسباب الكامنة وراء إخفاق المفاوضات بين الطرفين ، وتتمثل في البون الشاسع بينهما ؛ إذ أن ريتشارد الأول اقترح عودة المسلمين عما حصلوا عليه بعد معركة حطين، وهو أمر لم يكن من الممكن قبوله بأي حال من الأحوال ، لأنه كان يعني إجهاض حصاد جهاد مضن بقيادة السلطان الأيوبي استمر لأعوام طوال.

والجدير بالذكر هنا ؛ أن ذلك الاختلاف الكبير بين وجهتي النظر الأيوبية ، والصليبية مرجعه الوضع الحربي لكل منهما ؛ فقد خرج الجيش الأيوبي مثقلاً بالجراح بعد معركة عكا المريرة والعكس بالنسبة للصليبيين الذين تمكنوا من استعادة ذلك القلب التجاري الصليبي على ساحل فلسطين ، وذلك بالإضافة إلى الإمكانات العسكرية الكبيرة التي جلبوها معهم من خلال مشاركة ملك انجلترا على نحو خاص في أحداث الحملة الصليبية الثالثة . وفي تقديري المتواضع أن القيادة الإنجليزية قومت الموقف السياسي من خلال انتصارها في عكا ، وتصورت أن من الممكن طرح مقترحات مجحفة تمامًا بالمسلمين ، يقبلونها من خلال وضعهم العسكري بعد هزيمة عكا ، الأمر الذي لم يحدث على اعتبار تماسكهم ومواصلتهم الصراع مع الصليبيين .

وهكذا ، من الممكن القول بأن فشل المفاوضات في دير الراهب أثبتت أن الإحتكام للقوة العسكرية صار أمراً لامفر منه لعلها تغير مركز أي طرف من الطرفين على نحو قد يجعله يتنازل عن إصراره على موقفه من المفاوضات ، إذ في حالة نجاح الأخيرة - جدلاً - لما حدث ذلك الصدام الحربي ، غير أنه جاء كنتاج لاخفاق أي حل دبلوماسي .

والجدير بالذكر ، أن ذلك الاجتماع التفاوض بين الجانبين قد وقع في ٥ سبتمبر ١١٩١م / ١٢ شعبان ٥٨٦ هـ [٣٦]، أي قبل خوض غمار معركة أرسوف بيومين فقط ، وقد مثل آخر فرصة ممكنة من أجل التوصل إلى حل سلمي بين الجانبين وتجنب الصدام الحربي بينهما علي نطاق متسع في المرحلة التالية .

على أية حال : من الملاحظ أن ما تحت أيدينا من المصادر التاريخية الصليبية يقدم لنا إشارات مهمة عن تنظيم الجيش الصليبي وعناصره ، وأهم القيادات المشاركة في أحداث المعركة في أرسوف . أما المصادر العربية المعاصرة خاصة ما ألفه العماد الأصفهاني ، وابن شداد ، وابن الأثير ، فإنها لا تشير إلى تنظيمات الجيش المعادي إلا من خلال حادثة الهجوم

المفاجئ من جانب الفرسان الصليبيين التى كان لها أثرها القوى على تحديد مسار المعركة لصالحهم .

وفيما يتعلق بتنظيم الجيش الصليبى نعرف أن قطار الأمتعة الذى احتوى على معداته ومتعلقاته المختلفة قد انتشر على امتداد ساحل البحر ، وقد تولى حراسته هنرى دى شامبنى Henry de Champagne وعناصر من المشاة ، واتخذ الرماة مواقعهم فى الصف الأمامى ، ووقف الفرسان من خلفهم ، كذلك هناك عناصر الداوية Templars فى الميمنة، ثم عناصر الإسبتارية Hospitallers فى الميسرة ، أما قلب الجيش الصليبى فكان فيه الملك ريتشارد الأول ملك انجلترا ، وعساكره من الإنجليز والنورمان ، ثم هناك أيضًا عناصر الفلمنكيين والبارونات المحليين من الصليبيين ، وكانوا تحت قيادة جاك دى أڤيسن Jacques de Aves-nes وكان ذا شهرة فائقة في مجال الفروسية . أما الفرنسيون فإنهم كانوا تحت قيادة هيو دوق برجنديا[٣٧] Hugh of Burgandy .

ومن الممكن ملاحظة أن التشكيل القتالى الصليبى قد شمل ضمن عناصره ، الإسبتارية والداوية وهما من الهيئات الحربية الصليبية التى ساهمت بنصيب وافر فى الصراع الحربى الصليبى - الإسلامى في بلاد الشام على مدى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى . ولذا لانجد معركة حربية كبرى على مدى ذلك القرن - وحتى القرن التالي له ونعنى به القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى - دون أن تشارك بدور بارز فيها مثل تلك الهيئات الحربية الصليبية ، ولسوف تثبت أحداث معركة أرسوف ذاتها أهمية الدور الذى لعبته تلك الهيئات - خاصة الإسبتارية منها - فى تغيير مسار المعركة لصالح الصليبيين .

ولا نغفل زاوية مهمة ، تتمثل فى أن الجيش الصليبى المشارك فى أحداث المعركة احتوى على نخبة كبيرة من كبار القيادات العسكرية سواءً من تلك القادمة من الغرب الأوربي مع جيش ريتشارد الأول ، أو تلك التي وجدت في ضمن صفوف الصليبيين المحليين فى بلاد الشام ، ومن المتصور أن مثل تلك القيادات الخبيرة كان لها دورها فى تقديم النصح والمشورة للملك الإنجليزى فى صراعه مع الجيش الأيوبى .

ومن تلك القيادات نذكر روبرت كونت أوف ليسستر[٣٨] Count of Leicester ، وهيوى دى جورناى Hugh de Gurnay ، ونعرف أنه إحدى الشخصيات البارزة من بين الصليبيين ؛ إذ أنه كان ذا إقطاع كبير في نورماندى Normandy وأراضى فى وندوفر Wondover[٣٩] ،

وهناك أيضًا وليم دى بوريس William de Borris ، ومن المعروف أنه فارس فرنسى ، ولم يكن من عناصر الصليبيين المحليين فى بلاد الشام ، ويلاحظ أن هناك شخصًا آخر يسمى وليم دى بارا William de Barra – كما يلاحظ المؤرخ جون لامونت John la Monte – تردد ذكره فى وثائق بيت المقدس خلال المرحلة الزمنية الممتدة فيما بين عامى ١١٤٢، ١١٥٦م / ٥٣٧ ، ٥٥١ هـ ، غير أن ذكره ينقطع فيما بعد عام ١١٥٦م / ٥٥١ هـ ، ولذلك فمن المتصور أنه ليس نفس الشخص ، ومن الممكن القول بأنه كان رجلاً فرنسيًا ، ولم يكن من فرنجة بلاد الشام (٤٠).

وبالإضافة إلى ذلك ؛ هناك والشلين دى فرير Walchelin de Ferriéres ، وكذلك روجر دى تيونى Roger de Teoni ، وجاك دى أفيسن Jacques de Avesnes والكونت روبرت دى درو Robert de Dreux ووليم دى ميلو William de Mello (٤١)، ولا نغفل أيضًا مقدم هيئة الاسبتارية جارنييه دى نابلس Garnier de Nablus الذى ولد فى بلاد الشام وصاحب ريتشارد الأول فى حملته الصليبية من انجلترا . وتدرج فى عدد من المناصب حتى صار مقدمًا لتنظيم الإسبتارية من ١١٩٠ – ١١٩٢م / ٥٨٦ – ٥٨٨ هـ (٤٢). ثم هناك قيادة صليبية مهمة ونعنى بها ملك مملكة بيت المقدس الصليبية جى دى لوزينيان Guy de Lusignan (١١٨٦ – ١١٩٤م / ٥٨٢ – ٥٩٠هـ) الذى تعهد بعد حطين بعدم حمل السلاح فى وجه صلاح الدين الأيوبى، بيد أنه نكث بتعهده وعاد ليحاربه من جديد . ثم هناك أخوه جيوفرى Geoffrey وكذلك هنرى دى شامبنى (٤٣).

وتجدر الإشارة إلى أن من عناصر الجيش الصليبى التى لها دورها عناصر لم تكن عسكرية بل كانت ذات صفة دينية ، وكان وجودها له أثره في رفع الروح المعنوية لدى القوات الصليبية من خلال إشعال الحماس الدينى فى الصراع ضد المسلمين ، وهكذا نجد المصادر الصليبية المعاصرة قد أقرت أن أسقف بوفيه Bishop of Beauvais – الذى التحق بأخيه فى يوم المعركة – قد وجد فى صفوف الصليبيين (٤٤).

وتبقى ناحية على جانب كبير من الأهمية ضمن تنظيم الجيش الصليبى ونعنى بها دور الأسطول الإنجليزى فى المعركة ؛ إذ أن ريتشارد الأول أرسل قبل خوض غمارها يطلب نجدة فبلغته فى ثمانى سفن كبيرة مشحونة بالرجال والمعدات(٤٥) ، ومن المنطقى تصور أن مثل تلك القوات كان لها تأثيرها الواضح فى دعم فعاليات الصليبيين . ويلاحظ أنه على الرغم من

أن معركة أرسوف تعد وبحق معركة برية الطابع بصفة عامة ، إلا أن الأسطول الصليبى تدخل من أجل دعم القوات الصليبية قبل خوضها كما أوضحت ، مع ملاحظة الندرة الشديدة فى الإشارات المصدرية المعاصرة عن تلك الناحية .

أما تنظيمات الجيش الأيوبى ، فنعرف أن السلطان صلاح الدين الأيوبى قسم جيشه - إلى جانب القلب - إلى أربعة أقسام ، المقدمة وتحتوى علي العناصر التى تقوم بتمهيد الطريق بعد الأمراء المرتبين من أجل الارتجال . أما القسم الثانى ؛ فإنه احتوى على الساقة ، وهم الذين يسيرون فى المؤخرة يراعون الذين يتخلفون من عناصر الجيش ، ثم هناك أيضًا القسمان الثالث، والرابع ؛ ويتمثلان فى الميمنة والميسرة ، ويقوم القسمان المذكوران برعاية الجوانب(٤٦).

وقد احتوي الجيش الأيوبى على عناصر المشاة ، وكذلك الخيالة الثقيلة ، أما قياداته فإلى جانب السلطان الأيوبى . كان هناك العادل أبو بكر شقيق صلاح الدين(٤٧) ، وكذلك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين ، وعلاء الدين هرمشاه ابن عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم الأمير شكار موسك ، وكذلك أبعوش(٤٨) ، وقيماز الطويل(٤٩) ، وهم من مماليك صلاح الدين الأيوبى الذين كانوا على كفاءة حربية عالية تردد ذكرها فى المصادر العربية والصليبية على حد سواء .

ووفق مايقرره أحد المصادر التاريخية الصليبية ؛ فإن من ضمن القيادات الأيوبية التى شاركت فى المعركة الأمير Dequedin أى تقى الدين الذى وصفه المصدر بأنه كان قريبًا لصلاح الدين وتم حمل علمه فى ساحة المعركة (٥٠)، غير أن هناك من يعارض ذلك التصور ؛ إذ أن تقى الدين المشار إليه هو تقى الدين عمر صاحب حماه ، وهو ابن أخ صلاح الدين . وقد كان وقت المعركة فى أرسوف مشتبكًا فى معركة أخرى فى الشمال على نحو يجعل من حضوره الصدام فى أرسوف أمراً مشكوكًا فيه ، أما تواجد علمه فى ساحة النزال فربما كان علمه موجوداً فى المعركة مرفوعًا على أيدى بعض أتباعه من حماه الذين خدموا فى الجيش الأيوبى (٥١).

أما التحديد الزمنى للمعركة ذاتها ، فهناك شبه إجماع من المصادر التاريخية المعاصرة واللاحقة سواءً كانت لمؤرخين صليبيين أو مسلمين على أن المعركة جرت أحداثها فى ٧ سبتمبر عام ١١٩١م / ١٤ شعبان عام ٥٨٧ هـ (٥٢)، ومع ذلك نجد أن أبا شامة (٦٦٥ هـ /

١٢٦٨م) قد أورد توقيتها على أنه ١٤ رمضان عام ٥٨٧ هـ [٥٣]، وهو أمر مستبعد تمامًا ؛ إذ أنها حدثت من قبل ذلك ، والتحديد الخاص بـ ١٤ شعبان عام ٥٨٧ هـ قال به المؤرخ المعاصر وشاهد العيان لأحداثها ونعنى به المؤرخ بهاء الدين بن شداد ، ووجد صدى لدى المصادر التاريخية الصليبية الأخرى مثل أمبرواز وغيره - فيما يتصل بالمقابل الميلادى - على نحو يجعلنا لا نقبل التحديد الذى ذهب إليه أبو شامة المتأخر عن تلك الأحداث .

ومما يدعم التصور بأن تحديد المؤرخ الأخير لا يطابق الواقع التاريخى؛ أننا ندرك أن تخريب عسقلان كان تاليًا لأحداث معركة أرسوف ، حيث أن ذلك التخريب قد وقع فى ١٩ شعبان ٥٨٧ هـ [٥٤]/ ١٢ سبتمبر ١١٩١م ، فمن غير المنطقى أن تكون المعركة ذاتها وقعت فى شهر رمضان ، والتخريب كان فى ٧ سبتمبر ١١٩١م / ١٤ شعبان ٥٨٧ هـ .

وبالإضافة إلى ما سبق ، هناك ناحية حيوية تتصل بالروح المعنوية للطرفين ، فمن الواضح بعد انتصار الصليبيين فى معركة عكا واستيلائهم عليها ، ارتفعت روحهم المعنوية ، وتأجج لديهم الأمل فى تحقيق المزيد من الهزائم العسكرية بالمسلمين والوصول إلى بيت المقدس ، أما المسلمين فإن تلك الزاوية كانت تمثل نقطة معاناة لديهم ، خاصة بعد افتقادهم معقلهم السابق، ومع ذلك فإن الرغبة فى الثأر من الصليبيين كانت متأججة فى نفوس المسلمين بشكل كبير ، وقد أججها بصورة غير مسبوقة فى نفوسهم النهاية المأساوية للأبطال المسلمين الذين حوصروا فى عكا وذبحوا بأوامر من الملك الإنجليزى كما أسلفت الذكر .

أما الخطط العسكرية المتبعة من الجانبين ، فنعرف أن ريتشارد الأول اتجه إلى الزحف من عكا صوب يافا من خلال الطريق الساحلى Via Marina أو الروماني Via Romana ودل ذلك على كفاءته فى التخطيط من أجل تجنب الإصطدام مع الجيش الأيوبى فى معركة مكشوفة ، وفى نفس الحين يكون على مقربة من أسطوله الذى أمده بالمؤن والإمدادات - كما أسلفت - وكذلك من أجل تأمين ميمنة الجيش الصليبى من جهة البحر[٥٥] .

والواقع أن ذلك الطريق لم يكن فى ذهن القيادة الأيوبية التى اعتقدت أن الصليبيين سيسلكون أحد طريقين أولهما شرقًا إلى طبرية ، ودمشق ، على حين يتجه الثانى صوب الجنوب الشرقى إلى بيت المقدس، ولذلك أعدت القيادة الأيوبية قواتها من أجل توزيعها على الطريقين المذكورين وعندما تبين عدم صحة ذلك التصور ، سارعت تلك القيادة إلى نقل قواتها كى تكون فى محازاة القوات الصليبية [٥٦].

ولا مراء فى أن اتجاه الملك ريتشارد إلى ذلك الطريق عكس براعته العسكرية ، فقد توجه صوب الطريق الساحلى من أجل الإفادة من قوة الأسطول الإنجليزى المعدة له بالمؤن والإمدادات، ولذلك يمكن القول أنه فرض على الأيوبيين موقع النزال معهم على نحو أعطاه ميزة المبادرة ، وفرض على القيادة الأيوبية أن تبادر بنقل قواتها من المناطق التى توقعت أن الصليبيين سيطرقونها إلى الطريق الجديد التى ارتضته القيادة الصليبية .

أما تفاصيل الصدام الحربى فى أرسوف ، فيمكن تقسيمه من خلال ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى وهى خاصة بتفوق الهجوم الأيوبى ، وإلحاقه الخسائر بالصليبيين الذين اتخذوا جانب الدفاع أما المرحلة لثانية فهى الهجوم الصليبى المفاجئ ، والتحول من الدفاع إلي الهجوم ، وفى المرحلة الثالثة وجدنا الإنسحاب من جانب الجيش الأيوبى إلى غابة أرسوف ، ومحاولة القيادة الأيوبية تدارك الموقف والصمود فى وجه الصليبيين قدر المستطاع ، ومن الممكن ملاحظة أن المراحل الثلاث كانت متواصلة ، ومتعاقبة ، ولا انفصال بينها ، وأملتها الظروف المختلفة المصاحبة لأحداث معركة أرسوف ذاتها . وإن اختلفت المدة الزمنية لكل مرحلة من تلك المراحل ، ومن المتصور أن المرحلة الأولى كانت أطولها جميعًا ؛ بحكم كونها إمتداداً طبيعياً لنفس الأسلوب الحربى الذى اتبعه الجيش الأيوبى خلال التعامل مع الجيش الصليبى في طريقه إلى أرسوف.

مهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن المرحلة الأولي اتسمت بأن الجيش الأيوبى بادر بالهجوم على الصليبيين – على اعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع – وكان سلاحه فى ذلك المشاة بأسلحتهم الخفيفة التى تسمح بقدر أكبر من المناورة وخفة الحركة ، وقد اعترفت المصادر الصليبية ذاتها بأن أولئك الجنود المشاة فى الجيش الأيوبى امتازوا بأنهم سريعين وخفيفى الحركة ، وقد تسلحوا بالسهام ، واندفعوا أمام الجيش الصليبى ، ولم يتوقف هجومهم . أو رغبوا في أن ينالوا قسطًا من الراحة [٥٧]. وأقرت نفس المصادر فعالية الهجوم الذى شنه المشاة المسلمون ؛ إذ أنهم هاجموا بشدة وعنف على نحو أدى إلى خسارة الصليبيين خسائر فادحة ، وكذلك تساقطت الخيول الصليبية فى أعداد كبيرة صرعى[٥٨] ، ومن الجلى البين من خلال الملاحظة الأخيرة أن قتل الخيول أفقد عدداً من الخيالة الصليبيين ميزات تعاملهم القتالى مع المسلمين وهم يمتطون صهوات الخيول . ثم أن من الممكن تصور أن تلك الخيول منها ما كان يقوم بجر الأمتعة الخاصة بالجيش الصليبى على نحو كان له أثره بصورة أو أخرى على قطار الأمتعة المذكور .

ومن الجلى البين خلال تلك المرحلة الأولى أن الجيش الأيوبي تسيد الموقف ، وأن هجمات عناصر المشاة وصفت بأنها "موجات متلاحقة"(٥٩) أدت إلى إلحاق الاضطراب فى صفوف الصليبيين ، ومن بعد موجة الهجوم بالمشاة ، تدخل الفرسان الترك من أجل أن يوجهوا بسيوفهم ضربات للصليبيين ، وكانت أشد الهجمات الأيوبية خلال تلك المرحلة موجهة صوب عناصر الإسبتاريين ، والفلمنكيين ، وكذلك البارونات الصليبيين المحليين ، وكان الهدف من هذا الهجوم القضاء على الجناح الأيسر للجيش الصليبى(٦٠) الذى كان الجيش المسلم يستطيع أن يؤثر فيه بضربات أكثر قوة خاصة أن الجناح الأيمن كان محتميًا بالبحر .

ومع ذلك ؛ ينبغى ألا يتبادر للذهن أن الجيش الأيوبى كان مركزاً فعالياته على الجناح الأيسر للجيش الصليبى فقط ، إذ أنه فى موقف من مواقف الصراع خلال تلك المرحلة الأولى، أقرت المصادر الصليبية بأن الجيش الصليبى كان محاصراً بصورة كبيرة من جهة اليسار ، ومن جهة اليمين أيضًا(٦١) . غير أن من المتصور أن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً بل في مرحلة صغيرة لأنه فى حالة استمراريته على مدى زمني طويل لأثر بصورة أو أخرى على نتيجة الصراع بين الجيشين المتحاربين .

ومن زاوية أخرى ؛ من الملاحظ أن الهجوم الأيوبى خلال ذلك الحين ؛ شمل كذلك قطار الأمتعة الصليبى (٦٢)، من أجل إلحاق أكبر قدر من الخسائر فى عتاد الجيش المعادى ، وتوزيع الهجوم علي أكثر من ناحية دون أن يقتصر على مهاجمة الأفراد فقط ، بل ومعداتهم أيضًا ؛ من أجل بعث أكبر قدر من الفوضى والاضطراب فى صفوف العدو .

وهكذا ، يمكن القول بحق أنه خلال تلك المرحلة من القتال " تأهب المسلمين للقائهم (أى الصليبيين) فأزعجوهم ، وأبلوهم ببلائهم "(٦٣) ، وفى تصور آخر لأحد المؤرخين ذكر أن المسلمين أحاطوا بأعدائهم وأوشكوا أن يقضوا عليهم مثلما حدث من قبل فى معركة حطين(٦٤) عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ .

ومن الجلى البين أن من العوامل التى أدت إلي تفوق المسلمين خلال تلك المرحلة ؛ اتخاذهم أسلوب المهاجمة السريعة الخاطفة لإلحاق أكبر قدر من الخسائر سواء في الرجال أو الدواب والأمتعة واتخاذ الصليبيين جانب الدفاع في مواجهتهم .

ومن الملاحظ ، أنه إذا كان ذلك هو حال المرحلة الأولى من المعركة والتى شهدت اكتساحًا أيوبيًا بالهجوم ، إلا أن المرحلة الثانية لم تكن على نفس شاكلة سابقتها على نحو سيكون له أثره على النتيجة الختامية للمعركة .

ولحسن الحظ ؛ لدينا من المصادر الصليبية ، والعربية ما يعكس بجلاء التطور الدقيق للموقف العسكرى بين الجانبين ، وكيف تحولت خطط الصليبيين من الدفاع المنتظم إلى الهجوم المفاجئ العنيف(٦٥) ، على نحو أفاد فى إلقاء الضوء على ملابسات تلك المرحلة .

والواقع أن الملك الإنجليزى كان قد أصدر أوامره لقواته بعدم الرد على هجمات الجيش الأيوبى(٦٦)، وضبط النفس لأقصى درجة . ولكن ، ما الأسباب الكامنة وراء مثل ذلك الموقف من جانب الملك الإنجليزى ؟ . ومن الممكن أن نجد تعليلاً لذلك فى زاويتين ، الأول ، الرغبة فى امتصاص فعاليات الهجوم الأيوبى إلى أن يصاب الجند الأيوبيين بالإجهاد . وعندئذ يتم مواجهتهم بهجوم صليبى كاسح ، أما الزاوية الثانية ، فهى تتمثل فى الطبيعة الحذرة للصليبيين خلال مواجهاتهم الحربية مع المسلمين ، وهى زاوية كان قد أدركها من قبل أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م) - الخبير بطبائع الصليبيين وأخلاقهم - عندما أوضح أنهم من أكثر الشعوب حذراً عند القتال مع أعدائهم (٦٧). كما لا نغفل ما أشار إليه أحد المؤرخين من أن الصليبيين كانت لهم أسباب أخرى دفعتهم للحذر ، فقد أدركوا أن أية نتيجة لمعركة ما من المعارك الحربية لابد وأن تكون مجالاً للشك ، وعدم التأكد منها (٦٨). وأن عواقب الهزيمة قد تكون وخيمة فى صورة تزايد أعداد القتلى والجرحى ؛ خاصة إذا مالاحظنا أن الصليبيين أنفسهم عانوا من مشكلة نقص العنصر البشرى ، وأن ارتفاع معدل الفاقد البشرى فى جيوشهم من خلال صراعهم مع المسلمين لم يكن من اليسير أو السهل تعويضه .

وهكذا ، وجدت عدة عوامل مجتمعة أدت إلى ذلك الموقف من جانب الصليبيين فى تأخر ردهم على الهجوم لأيوبى .

علي أية حال ؛ فإن ذلك الأسلوب لم يلق الرضا من جانب بعض القيادات العسكرية الصليبية الأخرى لا سيما هيئة الإسبتارية ، ومنهم جارنييه دى نابلس Garnier de Nablus ؛ الذى اتجه صوب الملك ريتشارد موضحًا له أن جنده ضاقوا ذرعًا بسياسة الدفاع التى انتهجها ، وعدم الرد على الهجوم الأيوبى ، بيد أن الملك الإنجليزى طالبه بالانصياع للأوامر العسكرية والمزيد من ضبط النفس (٦٩).

وإذا كان مقدم الاسبتارية قد التزم بنصائح الملك الإنجليزى إلا أنه لم يتمكن من فرض ذلك على رجاله ، ولذا وجدنا اثنين من عناصر الهيئة ، وهما مارشالها وليم بوريل William Borrel وكذلك فارس فلمنكى أو نورمانى وهو بلدوين لى كارون Baldwin de Caron لم يتمكنا من الاحجام عن المشاركة فبادرا بالقتال وقتلا فارسين من الأتراك ، وصاحا صيحة قوية تتعلق بالقديس جورج St . George ، وردد الباقون الصيحة ذاتها ، واشتبكوا مع المسلمين [٧٠]. وعندما لاحظ ريتشارد أن زمام المعركة بدأ يفلت من قبضته أصدر أوامره الفورية بالإصطدام مع المسلمين[٧١] ، والتوقف عن مرحلة الدفاع المنظم وتحويلها إلى مرحلة الهجوم العنيف . ويقدم لنا شاهد عيان مسلم معاصر أثر الهجوم الصليبى بقوله : " لقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجالة ، وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وخرج لهم رجالهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة ، وطائفة على الميسرة ، وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين أيديهم " [٧٢].

ومن الممكن استنتاج عدة دلالات مهمة خاصة بالنص المذكور ، فالصيحة الواحدة التى أشار إليها المؤرخ المسلم خاصة بالقديس جورج St. George ، وهو القديس الحامى لانجلترا ، كما يلاحظ أن الهجوم كان على الميمنة ، والميسرة ، والقلب بالنسبة للجيش الأيوبى ؛ أى كان هجومًا شاملاً . ولم يختص بقطاع منفرد دون القطاعات الأخرى مما زاد من تأثيره ، وفعالياته ضد ذلك الجيش . وبعث الاضطراب فيه فى كافة الجوانب . ومن الممكن استنتاج أن الأحداث المتصلة بالهجوم الصليبى سارت بسرعة كبيرة ، ولذا من الممكن تصور أن المرحلة الثانية من الصراع امتازت بتلك الصفة وذلك على عكس المرحلة الأولى التى استهلكت وقتًا طويلاً علي مدى مسيرة الجيش الصليبى متجهًا صوب الجنوب .

وقد أدى الهجوم السابق إلي تفرق عناصر الجيش الأيوبى حتى ليقال أن صلاح الدين الأيوبى لم يبق معه فى طلبه سوى سبعة عشر رجلاً فقط من رجاله [٧٣]. وهكذا يصدق قول بعض المؤرخين أن تلك المعركة " نال المسلمون وهن شديد " فيها [٧٤].

وأمام تلك الملابسات ، والظروف العصيبة ، لجأ المسلمون إلى الاحتماء بأية منطقة توفر لهم ذلك ، فكان اللجوء إلى منطقة الأشجار[٧٥]. فلجأوا إليها بأعداد كبيرة ، وكان ذلك التوجه له فائدتين، الأولى أنه حماهم من تزايد نسبة القتلى ، والجرحى فى صفوفهم ، والثانى

أن الصليبيين تصوروا أن فى الأمر خدعة ما ، وأنه كمين معد من جانب الجيش الأيوبى ، ولذلك لم يلاحقوا المسلمين[٧٦] ، وكان لذلك دوره فى مسار المعركة وتقييمها النهائى .

والآن من الممكن التعرض للمرحلتين معًا ، مرحلة الدفاع من جانب الصليبيين ، ثم مرحلة الهجوم التى قاموا بها ، والعوامل التى تحكمت فى توجيه كل مرحلة .

فبالنسبة للمرحلة الأولى ، تحكم فيها مخطط الملك ريتشارد الدفاعى الذى أراد استهلاك وامتصاص الهجوم الأيوبى حتى تظهر علامات الوهن عليه ، ويزداد اقترابه أيضًا من الجيش الصليبى[٧٧] ، من أجل أن يتمكن الأخير من تحقيق إصابات مباشرة فيه عندما يتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، أما المرحلة الثانية فقد تحكم فيها عدم قدرة الفارسين الصليبيين من عناصر الإسبتارية على ضبط النفس والإنصياع لأوامر الملك الإنجليزى على نحو أدى إلى التبكير بشن الهجوم الصليبى على القوات الأيوبية .

ومن الممكن تصور أن ذلك الأسلوب الذى اتبعه ريتشارد من خلال ضبط النفس ، وامتصاص هجمات الخصم ، لم يعتاده بعض عناصر الجيش الصليبى لاسيما هيئة الإسبتارية ، بدليل عدم الرضوخ لأوامره والمبادرة بالهجوم على أفراد من الجيش الأيوبى ، وطبيعى أن تاريخ تلك الهيئة العريق فى الصراع مع المسلمين قد دعم لدى فرسانها روح المبادرة بالهجوم والاندفاع لقتال أعدائهم . ولاريب أن تلك المبادرة من جانب عناصر الإسبتارية هى التى دفعت بالملك الإنجليزى إلى إعطاء أوامره بالهجوم حتى لايضيع زمام القيادة من يده على نحو ينجم عنه أوخم العواقب بالصليبيين .

أما المرحلة الثالثة ، فقد أتت كرد فعل أيوبى للمرحلة الثانية من جانب الصليبيين ؛ إذ أن السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى وجد جيشه بمثل تلك الصورة ثبت فى ميدان المعركة ، وعمل على تجميع أمرائه وقواته مرة أخرى لشن هجوم آخر على الصليبيين . وقد عمل على دق طبول الحرب وإثارة الحماس فى صفوفهم ، من أجل إعادتهم إلى التماسك من جديد[٧٨] ، وقد بذل فى ذلك جهداً مضنيًا ، ولذا فلا أبالغ إذا ما تصورت أن المرحلة الثالثة من الصراع الحربى قامت من خلال ذلك الدور القيادى للسلطان الأيوبى .

والواقع أن هناك من المصادر العربية المعاصرة مايوضح بجلاء أن الجيش الأيوبى عاود مهاجمة الجيش الصليبى ؛ فالعماد الأصفهانى يقرر ما نصه " كرت عليهم نخب الرجال كرة

أردتهم وردتهم " (٧٩)، ولايمكن حدوث ذلك ما لم يكن هناك إعادة تنظيم سريع للقوات الأيوبية لكى تعود للعمل بفعالية على الرغم من الظروف العصيبة التى مرت بها ، ولكن من الجلى البين أن ذلك الأمر تم بعد أن كانت الهجمة الصليبية قد نالت من الجيش الأيوبى ، وعلى ذلك يمكن القول بأن المرحلة الثالثة التى مثلت رد الفعل الحربى الأيوبى بعد الهجوم الصليبى المباغت لم تؤت ثمارها على نحو يوحى بأن فعاليات الهجمة الصليبية كانت أكبر من أن يواجهها إعادة تنظيم سريع للقوات الأيوبية .

على أية حال ، كان نتاج ذلك كله ؛ إلحاق الهزيمة بالأيوبيين وانتزاع الصليبيين الظفر من أيديهم ، وعلى الرغم من أن هناك اتفاق بين المصادر التاريخية العربية والصليبية على أن المسلمين قد منوا فيها بالهزيمة ؛ إلا أن ابن كثير أشار إلى أن النصرة كانت للمسلمين (٨٠). والواقع أن ذلك يخالف ما ذكرته المصادر المعاصرة خاصة تلك التى أرخت للعصر الأيوبى، ومنها مؤلفات لمؤرخين شاهدى عيان .

أما بالنسبة لخسائر كل طرف ، فنجد أن المسلمين والصليبيين أصيبوا بخسائر بشرية من خلال عناصر القتلى والجرحى ، ويلاحظ أن تلك الزاوية ليس من اليسير استقصاؤها على اعتبار عدم وجود أرقام ذات أبعاد إحصائية فى ذلك العصر ، بالإضافة إلى أن طابع المبالغة قد غلب على مصادر كل جانب فى الحديث عن خسائر الخصم .

وهكذا ، ففى تقديرى أن المصادر التاريخية المعاصرة عندما كانت تذكر مقتل أو جرح قيادات معينة فمن الممكن الأخذ بما ورد فيها خاصة إذا ما تردد ذلك لدى مصادر الطرفين معًا ، أما فيما يتصل بالجانب الرقمى فمن الضرورة الحذر حياله وعدم أخذ كل ماورد فى تلك المصادر من دلالات رقمية فيما يتعلق بالخسائر البشرية خاصة فى تقدير المنتصر لخسائر الخصم المهزوم . أما بالنسبة لخسائر المسلمين ، فيقرر رنسيمان ما نصه : " لم تكن خسائر المسلمين كبيرة أيضًا ، ولم يسقط فى المعركة أمير نابه "(٨١) ... بينما خالف ذلك الرأى البير شاندور الذى أشار إلى أن من بين القتلى والجرحى عدد من الأمراء (٨٢).

والواقع أن المصادر التاريخية للعصر الأيوبى تشير إلى بعض أسماء من سقطوا فى المعركة، وعدد المماليك الكبار البارعين عسكريًا ، ومن أمثلتهم : قيماز الطويل ، الذى وصفه ابن الأثير بأنه " لم يكن فى زمانه مثله في شجاعته ، وشهامته "(٨٣)، وكذلك من بين الذين

قتلوا فى المعركة الأمير شكار موسك ، وأيضًا أبعوش[٨٤] ، ويلاحظ أن إيراد أسماء تلك العناصر الحربية فى نصوص المصادر يعكس أهميتها وخسارة الأيوبيين بافتقادها .

ويقرر أحد المؤرخين الصليبيين أن عدد الأمراء والقادة الذين سقطوا من جانب المسلمين فى المعركة قد بلغ اثنين وثلاثين أميراً وقائداً [٨٥]؛ بيد أن ذلك لايجد دعمًا من المصادر التاريخية العربية ؛ على نحو يجعلنا لا نقبل ماورد فيه أمام صمت تلك المصادر ، بالإضافة إلى الطبيعة العدائية للمصادر الصليبية تجاه المسلمين بصفة عامة .

أما أعداد القتلى من المسلمين فنجد أن أمبرواز يشير إلى أنهم قد بلغوا سبعمائة من الجند[٨٦] ، بينما اعتقد تشارلز أومان Charles Oman أنهم سبعة آلاف [٨٧] ، بينما تصور آخر أنهم بلغوا ثمانية آلاف[٨٨] ، والواقع أن مثل تلك الأرقام - من خلال طبيعتها السالفة الذكر - لايمكن الإرتكان إلى مدلولاتها ، مع ملاحظة أن من المؤرخين البريطانيين المحدثين من سعى إلى المبالغة فى تقييم تلك المعركة ، وكذلك فى تقدير خسائر المسلمين فيها ، من أجل أن يجعلوها تقف بجوار معركة حطين الفاصلة ، لإبراز فعاليات تاريخية أكبر للجيش الإنجليزي فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية لاسيما عصر الصليبيات.

وخير مثال على صحة التصور السابق ، التحديد الذى ذكره المؤرخ تشارلز أومان ؛ إذ من الواضح طابع المبالغة خاصة إذا ما لاحظنا تقدير المصادر الصليبية لجيش صلاح الدين قد بلغ ٣٠٠٠٠٠ رجل[٨٩] ، ومن غير المنطقى تصور أن يتم فى المعركة المذكورة القضاء على قرابة ربع الجيش الأيوبى خاصة أنه تسيد المرحلة الأولى من أحداثها ، وفى حالة حدوث ذلك فعلاً لبالغت المصادر الصليبية فى الأمر ، وجاء تصويرها لأحداث المعركة بصورة أكبر دعائية عما أوردته فى نصوصها . ولا تعليل لمثل ذلك التصور لدى أومان وغيره سوى ذلك التوجه السابق الإشارة إليه لدي قطاع من المؤرخين البريطانيين .

أما خسائر الصليبيين فى معركة أرسوف ؛ فنجد أن رنسيمان يقرر أنها كانت من الضآلة مما يدعوا إلى إثارة الدهشة [٩٠] ، والواقع أن هذا الرأى لايتفق مع منطق الأحداث التاريخية، إذ أن المرحلة الأولى التي شهدت اندفاع الجيش الأيوبى بالهجوم كثر قتلى الصليبيين فيها[٩١] ، على نحو اعترفت به المصادر الصليبية ذاتها ، كما أن العماد الأصفهانى أقر صراحة أن قتلى الصليبيين كانوا عدداً كبيراً[٩٢] ، وعلى الرغم مما عرف عن ذلك المؤرخ من طابع دعائى وبلاغى واضح فى كتاباته عن السلطان صلاح الدين الأيوبى إلا أن ماورد لدى

المصادر التاريخية الصليبية بشأن تلك الزاوية يجعلنا نقبل ما أورده لاتفاقه مع منطق الأحداث ذاتها .

ومن الملاحظ أن الصليبيين قد خسروا فى معركة أرسوف عناصر قيادية ، ومن أبرز القيادات التى سقطت فى ساحة النزال جاك دى أفسين Jacques d'Avesnes وهو الذى أشارت إليه المصادر الأيوبية على أنه جاك أو السير جاك ، وقد وصف من جانبها بأنه كند كبير [٩٣] ، ويعبر أحد المؤرخين الصليبيين عن مقتله من خلال إضفاء طابع البطولة عليه ؛ إذ أشار إلى أن جاك قد قتل غير أنه قاوم وهو مترجل المسلمين، كما ذكر أنه وجد بجوار جثته بعد أن قضى نحبه خمسة عشر تركيًا قد قطعوا إربًا ويختتم روايته بالدعاء له بأن يجعله الرب قديسًا فى الجنة[٩٤] .

والجدير بالذكر هنا ، أن رواية المصادر العربية لمقتل تلك القيادة الصليبية مغايرة لما ذكرته المصادر الصليبية ، فعلى حين أشارت الأخيرة إلى أنه وجد بجوار جثث المسلمين الذين قتلوا من قبل أن يقتل ، نجد أن أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين أشار إلى أن الصليبيين عملوا على حمايته فما قتل إلا وكان قد قتل بجواره عدد منهم بذلوا أرواحهم من أجل الدفاع عنه[٩٥] ، وذلك هو التصور المنطقى للواقعة ، إذ أن مثل تلك القيادة الصليبية البارزة والتى وصفت بأنها مسموعة الكلمة ، مرهوبة الجانب قبل مقدم الملكين الفرنسى والإنجليزى للمنطقة، وكان لها نفوذها حتى على الإسبتارية والداوية[٩٦] ، من المتوقع بالضرورة وجود عدد من المدافعين عنها من العناصر الصليبية التى استماتت فى الدفاع عنه ، ويلاحظ أن الملك ريتشارد الأول قد تملكه الفزع لمقتله[٩٧] ، مما عكس ثقل وزنه العسكرى ، وخسارة الصليبيين بفقده .

ونصل الآن إلى زاوية مهمة من البحث ، وهى تتصل بتقييم معركة أرسوف من أجل تحديد موقعها فى تاريخ الحروب الصليبية ؛ خاصة معارك القرن الثانى عشر الميلادى / القرن السادس الهجرى ، وأهم ناحية فى هذا الصدد هى : هل معركة أرسوف معركة حاسمة أم لا .

والواقع أن أحد المؤرخين البريطانيين المحدثين قد أشار إلى أن معركة أرسوف تعد معركة حاسمة ، وأعطت للصليبيين كل الأراضى الساحلية الواقعة جنوبى فلسطين[٩٨] ، غير أن هذا التصور لاتؤيده منطقية الأحداث التاريخية ذاتها ، فالدليل على أنها لم تكن حاسمة ؛ أن الصليبيين أنفسهم بعد أن لجأ المسلمون إلى غابة أرسوف لم يتبعوهم وخشوا أن يكون هناك

كـمين من وراء ذلك الاتجاه . ويقـرر أحد المؤرخين المسلمين المعـاصـرين المعـروفين بميـولـهم للزنكيين، وتحاملهم - أحيانًا - ضد صلاح الدين الأيوبى أن الفرنج لو علموا أنهـا هزيمة لتبعوهم واشتهرت هزيمة المسلمين(٩٩) . مما يعكس أنهم أنفسهم لم يتثبتوا - حينذاك - من تلك النتيجة على نحو يدعو إلى القول بعدم حسمها .

ومن زاوية أخرى ، نجد أن الجيش الأيوبى بعد أحداث المعركة ظل يحتفظ بفعالياته الحربية، وقدراته على الأخذ بزمام المبادرة (١٠٠) ، وفى حالة القول بحسمها لأمر الصراع بين المسلمين والصليبيين حينذاك لما وجدنا ذلك هو وضع الجيش الأيوبى من بعد أحداثها . زد على ذلك؛ أن منطقة أرسوف ذاتها . حيث البحر المتوسط ، والوادى الضيق . والغابات ؛ لا تسمح بوجود معركة حاسمة تحقق مكاسب عسكرية كبيرة لأحد طرفى الصراع ضد الطرف الآخر ، وفى حالة كون أرسوف -جدلاً- فى منطقة متسعة لايعيقها البحر من الغرب والغابات من الشرق لكان من الممكن افتراض توافر الصفة السابقة لتلك المعركة .

أما القول بأن معركة أرسوف جعلت الصليبيين يسيطرون على كافة الأراضى الساحلية جنوبى فلسطين فيحوى مغالطة لأنه يعكس أنهم تمكنوا بإمكاناتهم الحربية من تحقيق ذلك ، بينما اتجه الجيش الأيوبى إلى التخلى عن بعض مواقعه من خلال استراتيجية دفاعية مميزة ، وخير مثال دال على ذلك ما حدث بالنسبة لعسقلان ، وهو أمر سنوضحه فى موضع تالٍ من البحث .

أضف إلى ذلك : أن سيطرة الأيوبيين علي داخلية فلسطين وعلى نحو خاص بيت المقدس الذى بذل ريتشارد قصارى جهده لإسقاطها دون جدوى ، وعجز الصليبيين عن الاستيلاء عليها بعد معركة أرسوف ، يدل بجلاء على أنها كانت أبعد ماتكون عن الحسم ، ولم تغير خريطة المنطقة على المستوى الجغرافي السياسى والحربي بالصورة التى وجدناها لدي معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ والتى أدت بالفعل إلى نتائج حاسمة . وبصفة عامة ، فإذا كان القول بأن أرسوف معركة حاسمة ردده أومان منذ سنوات طوال . فإن ذلك التوجه صار يحاذر حياله عدد من المؤرخين الأوربيين ، وكذلك المسلمين المحدثين (١٠١).

ومن الممكن الآن تناول العوامل المتعددة التى أدت إلي نجاح الصليبيين فى إلحاق الهزيمة بالمسلمين فى تلك المعركة ، وكذلك العوامل التى أدت إلى عجز الجيش الأيوبى عن مواجهة الهجوم الصليبى الكاسح في المرحلة الثانية من الصدام .

والواقع أن من العوامل المهمة التى أدت إلى نجاح الصليبيين فى إلحاق الهزيمة بالمسلمين ، نوعية القيادة الصليبية ذاتها ، إذ أن ريتشارد تمتع بمهارات حربية واضحة ، ولا أدل على ذلك من اتجاهه نحو السير فى الطريق الرومانى Via Romana القديم الموازى لساحل البحر المتوسط ، على نحو لم تتوقعه القيادة الأيوبية ذاتها ، ثم خطته فى امتصاص الموجة الأولى من الهجوم الأيوبى إلى أن تضعف وعندئذ يبادر بالمواجهة والتحول من الأسلوب الدفاعى إلى الأسلوب الهجومى ، نقول ذلك على الرغم مما اتصفت به تلك القيادة الصليبية من وحشية ودموية كشفت عنها أحداث صراعها مع المسلمين .

ومن جهة أخرى ، من الممكن ألا نغفل فعاليات الأسطول الصليبى الذى عمل على تقديم المساعدات الحربية فى صورة الرجال والمؤن اللازمة قبيل خوض المعركة ، كما أنه عمل على تأمين الجانب الأيمن للجيش الصليبى ، فإذا أضفنا إلى ذلك : وجود عناصر حربية على كفاءة عالية فى القوات الصليبية خاصة عناصر الرهبان الفرسان كالإسبتارية والداوية؛ وهى من أكفأ العناصر الحربية الصليبية فى قتال المسلمين ؛ لاتضحت لدينا صورة المعركة .

ولا مراء فى أن كافة العناصر السابقة كان لها دورها فى صنع الانتصار الصليبى على الأيوبيين .

أما العوامل التى أدت إلى عجز الجيش الأيوبى عن تحقيق الانتصار، فبالإضافة إلى العوامل السابقة الخاصة بتفوق الجانب الصليبى ، نجد أن هناك عدداً من جوانب القصور لدى الأيوبيين كان لها أثرها فى الإخفاق النهائى . فهناك مثلاً غياب فعاليات الأسطول الأيوبى ، الأمر الذى كان له أثره فى إضعاف قوة المسلمين ، وهكذا ، فعلى حين كان الأسطول الصليبى موجوداً فى صورة تقديم المؤن والإمدادات كان الأسطول الأيوبى غائبًا عن المعركة فلم يقدم إمدادات لقواته . كما لم يقم بإعاقة تقدم القطع البحرية الصليبية .

والواقع أننا ينبغى - مع ذلك - ألا نتوقع فعاليات كبيرة لذلك الأسطول الذى خرج مجهداً من معركة عكا ، ولم يكن بمقدوره مواجهة فعاليات الأسطول الإنجليزى الذى قدم فى صحبة الملك ريتشارد الأول.

ومع ذلك ، فمن الإنصاف التقرير بأن الجيش الأيوبى خاض معارك طاحنة ولم تتوقف تقريبًا إلا لتعود مرة أخرى خاصة خلال الأعوام من عام ١١٨٧ إلي ١١٩١م/ ٥٨٣ - ٥٨٧ هـ فى مواجهته الصليبيين، وقام بدوره الفعال فى جهادهم علي نحو يجعلنا لا ننظر للأمور من خلال نتيجة معركة أرسوف فقط دون الاعتبارات الأخرى .

أما إذا انتقلنا إلى زاوية أخرى من البحث ونعنى بها نتائج معركة أرسوف بالنسبة لطرفى الصراع ، فنجد أنه نجم عنها عدد من النتائج دون أن نبالغ فى حجمها .

أما بالنسبة للصليبيين ، فنجد أن معركة أرسوف عدت بمثابة الانتصار الثانى الذى حققته الحملة الصليبية الثالثة بعدما انجزت انتزاع عكا من أيدى المسلمين ، وأدت نتيجتها إلى رفع معنويات الصليبيين إلى درجة كبيرة (١٠٢)، ومن الملاحظ هنا أن المكاسب المعنوية - فى تقديرى - التى نتجت عن تلك المعركة فاقت غيرها من المكاسب الأخرى.

أما القيادة الصليبية ممثلة فى ريتشارد الأول ، فقد تألق نجمه بصورة كبيرة وبلغت شهرته ذروتها(١٠٣) ، وتأكدت مكانته الحربية على نحو يمكن ملاحظته بجلاء من خلال نصوص المصادر التاريخية الصليبية ذاتها التى كالت له عبارات الإطراء بعد أن حقق إنتصاره المذكور.

فإذا اتجهنا صوب الجانب المسلم ؛ نجد أن تلك المعركة كان لها أثرها النفسى السئ على القيادة الأيوبية ، وكذلك على المسلمين ، ففى إشارة قوية الدلالة يقدمها لنا أحد المؤرخين المعاصرين يوضح أنه كان في قلب السلطان الأيوبى من أثر تلك المعركة ما لايعلمه إلا الله تبارك وتعالي ، وأن الناس كانوا إما في أزمة نفسية أو من المجروحين بدنيًا(١٠٤) ، الأمر الذى يعكس لنا أن نتيجة المعركة كانت سيئة علي المستوى المعنوي لدي المسلمين وعلى نحو خاص لدى قيادتهم السياسية والعسكرية .

ويرى أحد المؤرخين الألمان المحدثين أن أسطورة تفوق صلاح الدين قد انهارت (١٠٥)، ويرى مؤرخ بريطانى آخر أنه تعرض لمهانة شخصية وإذلالاً عند الناس(١٠٦) ، والواقع أن مثل ذلك التصور فيه مبالغة بعض الشئ ؛ إذ أن تلك الهزيمة لم تستطع أن تنال شيئًا من مكانة القيادة الأيوبية ذاتها في نفوس المسلمين . فانتصار حطين ١١٨٧م/٥٨٣ هـ ، واسترجاع الساحل وإسقاط القلاع الصليبية وبيت المقدس كانت آثاره لاتزال قائمة ، ولم تستطع تلك المعركة - المحدودة النتائج كما أوضحت- أن تنال من مكانة القيادة الأيوبية التاريخية ، التى أثبتت قدراتها القيادية لسنوات طويلة خلت قبل عام ١١٩١م / ٥٨٧ هـ .

وفى تصورى أن الإذلال الحقيقى كان من الممكن أن ينال تلك القيادة فى حالة أن تؤدى تلك المعركة لاسترجاع بيت المقدس على أيدى الصليبيين وعندئذ تذهب أدراج الرياح مجهودات كبيرة خاصة بتوحيد الجبهة الإسلامية وثمار ذلك التوحيد ، الأمر الذى لم يحدث ؛ مما ينفى الفكرة أصلاً .

ويرى أحد الباحثين الغربيين - ضمن تقييمه لنتائج معركة أرسوف - أن تيار الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبـيين والذى صار فى صالح المسلمين منذ سنة ١١٧٠م/٥٦٦هـ ، بدأ يتحول بعد تلك المعركة ليكون فى جانب الصليبيين لمدة طويلة من الزمان تصل إلي منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وبالتحديد عام ١٢٥٠م / ٦٤٦ هـ [(١٠٧)].

والواقع أن هذا القول يحوى مبالغة غير منطقية ، فإذا كانت تلك المعركة لم تحدث فعاليات كبيرة فى المرحلة الزمنية التالية مباشرة ، فكيف يتم التصور بأن فعالياتها امتدت لتشمل قطاعًا زمنيًا أمتد بدوره إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى .

والأمر المؤكد أن قطاعًا من الباحثين الأوربيين أعطى لتلك المعركة حجمًا أكبر مما لها أصلاً، وتصور لها فعاليات لا تعتمد على واقع تاريخى حقيقي ، وإنما حماس دينى ووطنى . ومن ناحية أخرى ، ينبغى أن نلاحظ أن هناك بعض النتائج التى نتجت عن تلك المعركة على الصعيد الأيوبى وخططه العسكرية ، إذ أن القيادة الأيوبية فى أعقابها اتجهت إلى اتباع سياسة تدمير بعض المواقع الاستراتيجية الخاضعة لسيادتها حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين على نحو يجعلهم يحققون مكاسب عسكرية على أرضية الصراع ، ولا أدل على ذلك من أن تلك القيادة اتجهت إلي عقد اجتماع مهم مع باقى القادة العسكريين من أجل تقرير أمر مدينة عسقلان .

والواقع أن الصليبـيين قد نزلوا بيافا ، وهى ميناء بيت المقدس ، وأيقن المسلمون أن أعدائهم إذا ما وصلوا إلى عسقلان أخضعوها لسيطرتهم مثلما وقع الأمر فى عكا من قبل[(١٠٨)] ، ومن المتصور أن الصليبيين أرادوا من الاستيلاء عليها الضغط العسكرى على بيت المقدس ، وكذلك الضغط السياسى على الأيوبيين وإشعارهم بأنه لاجدوى من استمرار الصراع العسكرى بعد سقوط معاقلهم الواحد تلو الآخر ، ولاريب فى أن ذلك كله يعكس لنا أهمية عسقلان خلال تلك المرحلة على نحو خاص فى الصراع الإسلامى - الصليبى .

ومن المنطقى تصور أن الجيش الأيوبى لم يكن من اليسير أمامه أن يحصن عسقلان ويجعلها مركزاً لصراع عسكرى مرتقب بعد أحداث عكا ، وأرسوف ، لأن قيادته نظرت إلى قضية بيت المقدس على أنها الهدف الأكثر خطورة الذى ينبغى المحافظة عليه وحرمان الصليبيين من اخضاعها لسيادتهم ولذلك صدر القرار بتخريب المدينة حتى إذا ما وصل إليها

الأعداء وجدوها أطلالاً [١٠٩]، وقد تم بالفعل إخلاء سكان عسقلان منها ثم تدميرها في يوم ١٢ سبتمبر ١١٩١م / ١٩ شعبان ٥٨٧هـ [١١٠]، أى بعد خمسة أيام فقط من الصدام الحربى فى أرسوف مما يدعم الاعتقاد بأن سياسة التخريب حدثت بعد تلك المعركة مباشرة وبصورة مكثفة ، وعكست حجم السياسة الدفاعية التى اتجه إليها صلاح الدين وإصراره على منع الصليبيين من اكتساب أرض جديدة بمرافقها ومظاهرها العمرانية المتعددة ، ولاشك فى أنه فى ذلك الأمر كان فى سباق محموم مع الزمن من أجل إنجاز هدفه الذى اضطر إليه اضطراراً من خلال وقائع الصراع الحربى مع الصليبيين .

وقد قسم السلطان الأيوبى مبانى المدينة على أمرائه من أجل أن يتولى كل منهم تدميرها[١١١]، وقد حث هو وابنه الأفضل نور الدين على باقى أهل عسقلان على تخريبها قبل أن يصل إليها الصليبيون[١١٢] ، وبالفعل اكتمل تدميرها كما دمر مراكز أخرى مجاورة فهناك إشارات واضحة تفيد إلى أنه دمر اللد ، وقلعة الرملة ، وقلعة النطرون[١١٣] ، مما يعكس أن التخريب حينذاك شمل المدن والقلاع وأنه لم يكن قاصراً على عسقلان ، وإن أبرزت المصادر المعاصرة الإسلامية كانت أم الصليبية أمر تلك المدينة بالمقارنة بالمراكز الأخرى لما لها من أهمية خاصة .

وكانت المرحلة التالية بالنسبة لتعامل القيادة الأيوبية مع الأحداث المتلاحقة من جراء تقدم الحملة الصليبية الثالثة للمنطقة ترتبط بالاهتمام بأمر بيت المقدس وزيادة دفاعاتها[١١٤] ، من أجل قصر نجاحات الجانب الصليبى على جنوب الساحل الشامى وعدم امتداده شرقًا صوب المدينة المقدسة .

وفى هذا المجال نعرف أن السلطان الأيوبى قد عمل على تحصينها وعمارة أسوارها ، وحفر عدداً من الخنادق ، وحمل هو نفسه الحجارة ، وكذلك أولاده ، والأمراء ، والعلماء ، والجنود[١١٥]، كما أنه سعى إلى هدم ماكان حول المدينة المقدسة من صهاريج وآبار[١١٦] ، حتى يحرم الصليبيين إذا ما أتوا إليها من أية موارد لقواتهم عند حصارها .

والحقيقة أن احتفاظ المسلمين فى غمار كل تلك الأحداث العصيبة بمدينة بيت المقدس أدى إلى إجهاض الحملة الصليبية الثالثة ، ولم تستطع معركة أرسوف وانتصار الصليبيين فيها أن ترفع رأس تلك الحملة التى تأكد إخفاقها فى تحقيق الأهداف التى كانت مرجوة منها على نحو

جعل نتائجها متواضعة [١١٧]، ولا تصل إلى حجم الآمال الكبار التى علقت عليها باشتراك أباطرة وملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا.

وننتقل الآن إلى تساؤل جدير بالأهمية وهو خاص بأثر معركة أرسوف على صلح الرملة الذى وقع بين الطرفين المتحاربين فى ٢ سبتمبر ١١٩٢م/ ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ ، وعما إذا كان لتلك المعركة أى أثر على عقده خاصة أنها المعركة الحربية الكبيرة السابقة عليه .

والواقع أن صلح الرملة عقد بعد عام واحد تقريبًا من معركة أرسوف، ونص على أن تكون هناك هدنة شاملة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، وثلاثة أشهر - على الأرجح - وثلاثة أيام ، ويحصل الصليبيون بمقتضاه على المنطقة الممتدة من يافا إلى عكا ، وأن تكون اللد ، والرملة مناصفة بين الجانبين وأن يتم ترك عسقلان مخربة ، وقد تدخلت الإسماعيلية النزارية فى الصلح من الطرف الإسلامى ، وأنطاكية وطرابلس من الطرف الصليبى [١١٨].

ولاريب فى أهمية ذلك الصلح باعتباره قد انهى مرحلة حربية مريرة بين الجانبين ، كما أنه لاينص فيه على إعادة بيت المقدس للصليبيين ، على الرغم من كافة مجهوداتهم الحربية السابقة ، وإن أعطى قسمًا من الساحل للصليبيين وأبقى على الأمر الواقع Ipso Facto بالنسبة لتخريب عسقلان .

والتساؤل هنا خاص بإمكانية أن يكون هناك تأثير لهزيمة المسلمين فى أرسوف على عقد ذلك الصلح . ومن المرجح - وفق تقديرى المتواضع - أن هزيمة أرسوف لم يكن لها التأثير المباشر على عقده ، على اعتبار أن الفاصل الزمنى بين الحادثتين عام كامل ، وفى حالة وجود ذلك التأثير - على سبيل الافتراض - لكان قد عقد صلح الرملة فى أعقابها مباشرة كتعبير عن عجز الأيوبيين عن مواصلة الحرب ولجوئهم إلى البديل الدبلوماسى مع أعدائهم ؛ الأمر الذى لم يحدث من خلال تسلسل الأحداث التاريخية ذاتها .

وهناك تصور آخر من الممكن الأخذ به فيما يتصل بنظرة الصليبيين لواقع الأحداث ؛ إذ أن إخفاق معركة أرسوف فى إحداث أية تغييرات كبيرة على خريطة الصراع الصليبى مع المسلمين، كل ذلك يجعلنا نتصور أن تلك المعركة والأحداث التالية لها ؛ من المرجح أنها اقنعت القيادة الصليبية بأن الاستمرار فى الصراع الحربى مع أعدائها لن يؤدى إلى تحقيق مكاسب جديدة ، وأن المكسب الأكبر للحملة ذاتها تمثل فى استعادة عكا ، وهو أمر لم يتأت

إلا بعد جهد جهيد ، ومن ثم كان الخيار الدبلوماسى أمراً لامفر منه ، عندما تعجز الجيوش المقاتلة عن تحقيق تفوق عسكرى لصالح أحد الأطراف علي حساب الآخر ، وعندما يكون الموقف العسكرى والسياسى متوازنًا ، عندئذ يكون الخروج من دائرة الصراع من خلال الدبلوماسية ، ويلاحظ أنه طوال العام المذكور الواقع بين معركة أرسوف ، وصلح الرملة نشطت الجهود الدبلوماسية الأيوبية ، وكذلك الصليبية من أجل التوصل إلى اتفاق ما متوازن يوفق بين تطلعات كل طرف .

والدليل الآخر على أن المعركة لم تؤثر علي المسلمين وقيادتهم بل على الطرف الآخر الصليبى نفسه ، أن الاجتماع الذى عقد فى دير الرهب - السالف الذكر - والذى أظهر فيه الصليبيون تشدداً واضحًا ، وكان نصيبه الفشل لرفض الأيوبيين لشروط أعدائهم ، عاد الصليبيون من بعد عام من معركة أرسوف ليوافقوا على جوانب ونصوص رفضوها من قبل فى الاجتماع المذكور ، إذ أن الصلح أكد على بقاء عدة مناطق بخلاف المنطقة الواقعة بين يافا وعكا فى قبضة المسلمين ، كما أنه لم يقدم بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين ، وكانت مطلبًا ملحًا للأخيرين فى تل الراهب .

نخلص من ذلك ، أن انتصار الصليبيين المحدود فى أرسوف لم يكن له أثره فى إضعاف القيادة الأيوبية على نحو يجعلها تقدم تنازلات فى صلح الرملة بل استمر تماسك تلك القيادة، وإصرارها على موقفها فى رفض كل ما يعارض مصالح المسلمين الإستراتيجية العليا .

ولا نغفل أهمية عنصر خارجى ، فى صورة تطور الأحداث السياسية فى إنجلترا التى ألحت على الملك الإنجليزى ريتشارد الأول بالعودة إلى هناك [١١٩]، من أجل مواجهة الصراع مع ملك فرنسا فيليب أغسطس الذى كان يتحرق شوقًا لضم نورمنديا Normandy للسيادة الفرنسية ، وكذلك كان على الملك الإنجليزى مواجهة مؤامرات أخيه يوحنا ، ولا ريب فى أن ذلك كله دفع بذلك الملك إلى قبول ما رفضه من قبل .

من ناحية أخرى ، يحسن بنا أن نعمق دراستنا لمعركة أرسوف من خلال المقارنة بينها وبين معركة أخرى خاض غمارها الجيش الأيوبى على أرض فلسطين فى صورة معركة الرملة التى جرت عام ١١٧٧م/٥٧٣ هـ، ويدعم مشروعية المقارنة وجود عدة جوانب اتفاق واختلاف بينهما ، كما أن الفارق الزمنى بينهما لايتجاوز أربعة عشر عامًا فقط .

وبداية من الضرورة بمكان التعرض بصورة موجزة لمعركة الرملة من أجل إدراك ملابساتها .

فالملاحظ أنه بعد أن أطمأن صلاح الدين الأيوبى إلى سلامة جبهته الداخلية ، اتجه إلى انتهاز فرصة انشغال جيش مملكة بيت المقدس الصليبية فى شمال الشام من أجل مهاجمة حماه وحارم ، وأراد أن يوجه ضربة حربية للصليبيين فى عقر دارهم ، ولذا غادر بقواته القاهرة فى نوفمبر ١١٧٣م / جمادى الأول ٥٧٣ هـ ، واتجه صوب فلسطين(١٢٠) ، ونزل على عسقلان التى كان الصليبيون يخضعونها لسيطرتهم منذ عام ١١٥٣م / ٥٥٣ هـ ، وقد تمكن من أسر عدد من جنودهم وأمر بضرب أعناقهم (١٢١).

والواقع أن الجيش الأيوبى ، لم يلق أية مقاومة صليبية جديرة بالذكر، وتفرق الجنود من أجل جمع الغنائم ، ثم قام صلاح الدين بتجميع قواته ، وتقدم نحو مدينة الرملة ، واعترض نهر تل الصافية ، وتفرق الجند للبحث عن موضع يصلح لعبوره ، وبينما هم كذلك ؛ باغتهم الصليبيون بهجوم كاسح (١٢٢)، وكان الأمير الصليبى رينودى شاتيون Renauld de Cha-tillon المعروف فى المصادر الصليبية باسم إرناط يقود الصليبيين فى تلك المعركة (١٢٣)، ومعه الملك الصليبى بلدوين الرابع Baldwin IV (١٢٤)(١١٧٤ - ١١٨٥م / ٥٧٠ - ٥٨١ هـ) ، ويقدم لنا المؤرخ الصليبى وليم الصورى ، معلومات ضافية عن تلك المعركة التى من الجلى البين خلالها ، تقهقر الجيش الأيوبى فى انسحاب مضطرب وغير منظم مصابًا بخسائر كبيرة ، وكان حلول الظلام الذى أرخى سدوله عاملاً فعالاً فى إنقاذ عناصر الجيش المذكور من مطارديهم من الصليبيين ، وقام الجنود الأيوبيين الأكثر قوة والذين كانت معهم خيول سريعة بإلقاء أسلحتهم وعتادهم ، وألقوا أحمالهم من أجل أن يسهل عليهم الفرار(١٢٥). وقد عبر صلاح الدين الأيوبى الصحراء ، ولاقى من المتاعب الشئ الكثير فى طريق عودته ، ووصل بقواته إلى القاهرة سالمًا(١٢٦) بعد تلك الأحداث العصيبة .

والجدير بالذكر هنا ، أن تلك المعركة كانت بمثابة نقطة تحول مهمة فى سياسة الأيوبيين الاستراتيجية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية ؛ فقد وضح للسلطان الأيوبى بجلاء صعوبة اتخاذ مصر قاعدة للإنطلاق ضد المملكة الصليبية وذلك نظراً لبعد المسافة ولصعوبة تأمين خطوط الإمداد والتموين لقواته ، وبناء على ذلك قرر الإنتقال إلى مدينة دمشق واتخاذها قاعدة لعملياته الحربية ضد الصليبيين (١٢٧).

ومن الملاحظ أن معركة الرملة تتفق مع معركة أرسوف فى بعض الزوايا ، وتختلف عنها فى البعض الآخر .

فمن مظاهر الاتفاق بينهما أن كلتاهما جرت على أرض فلسطين ، كما أن كلتاهما كانت تحت قيادة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، كما أن الهزيمة لحقت فى كل منهما بالجيش الأيوبى، مع عدم اتصاف أى منهما بصفة الحسم .

أما جوانب الاختلاف ، فهى متعددة ، فالملاحظ أن القوات الصليبية فى معركة الرملة كانت متمثلة فى إمكانيات الصليبيين المحليين فى بلاد الشام ، بينما فى معركة أرسوف كانت تدعم صليبيى الشام قوات أوروبية فى صورة عناصر الفرنسيين والإنجليز ممن خدموا خلال الحملة الصليبية الثالثة .

زد على ذلك ، أنه فى عام ١١٧٧م / ٥٧٣ هـ لم يكن الجيش الأيوبى قد حقق انتصارات حربية بارزة ضد الصليبيين تؤكد فعالياته الحربية أما فى عام ١١٩١م / ٥٨٦ هـ فإنه كان قد حقق أعظم انتصاراته فى صورة معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ .

ومن ناحية أخرى ؛ نجد أن معركة الرملة لم نجد فيها فعاليات تصادمية حربية حقيقية للجيش الأيوبى ضد الصليبيين ؛ إذ أنها - كما وضح فى العرض الموجز السابق - عبارة عن عمليات سلب ونهب لأملاك الصليبيين ، ثم انسحاب وتقهقر غير منظم على نحو أدى إلى إلحاق الخسائر بالجانب المسلم ، أما فى أرسوف ؛ فمن الجلى البين أن المرحلة الأولى من المعركة تقدم فيها المسلمون بصورة واضحة كما أسلفت القول من قبل .

وأخيراً ، من الممكن ملاحظة أنه فى معركة الرملة كانت هناك قيادة صليبية معروفة على المستوى الحربى فى صورة إرناط ، أما معركة أرسوف ؛ فقد اختفت فيها تلك القيادة ؛ نظراً للفتك بها فى أعقاب معركة حطين .

وختامًا للدراسة ، من الممكن إيراد عدد من النتائج التى خلصت إليها وهى كالآتى :

أولاً : حاول عدد من الباحثين الغربيين تضخيم معركة أرسوف والنتائج التى نتجت عنها من خلال توضيح أنها كانت معركة حاسمة أثرت بصورة كبيرة على الصراع الإسلامى - الصليبى ؛ لصالح الصليبيين ، غير أنه من خلال الصفحات السابقة أمكن معارضة ذلك التوجه ورفض فكرة أنها معركة حاسمة ، كما أنها لم تسفر عن نتائج فعالة في ذلك الصراع ، ومن المرجح - فى هذا الصدد - أن المؤرخين الغربيين - ولا سيما البريطانيين منهم - حرصوا على إضفاء هالة من التألق والجدارة الحربية الغير عادية

بشخص الملك ريتشارد الأول من أجل جعل معركة أرسوف تناطح معركة حطين رغم البون الشاسع بينهما .

ثانيًا : لم يكن لمعركة أرسوف تأثير على صلح الرملة الذى وقع بين الطرفين الإسلامى ، والصليبى ، وفى حالة كون تلك المعركة لها ذلك التأثير وتلك الفعالية لاستطاع الصليبيون الحصول على مكاسب أكبر من تلك التى حصلوا عليها من خلال نصوص الصلح نفسه .

ثالثًا : من الموضوعية التقرير بأن انتصار الصليبيين فى معركة أرسوف قد جاء من خلال كونه انتصاراً سريعًا وخاطفًا ، ولم تتمكن القيادة الأيوبية من تجميع قواتها من جديد من أجل مواصلة الصراع مع أعدائها . ومع ذلك ، أمكن للجيش الأيوبى اتباع سياسة دفاعية فى أعقابها ولم يمكن ذلك الانتصار الصليبيين من استعادة بيت المقدس على نحو عكس محدودية فعاليات المعركة المذكورة ، وهكذا فإن الهدف الأصلى المعلن عن مقدم الحملة الصليبية الثالثة لم تستطع أن تحققه وباءت بالفشل المبين .

ذلك عرض لمعركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧ هـ باعتبارها إحدى معارك الصراع الإسلامى الصليبى .

الهوامش :

(١)عن معركة حطين انظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط . القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٧٥ - ص ٧٩ ؛ العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد صبيح ، ط . القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٨١ .

Eracles, L'Estoire d' Eracle Empereur et La Conqueste de la Terre d' Outremere , in R.H.C., Hist . Occ., T.I , pp. 68 - 71 .

Richard, " La bataille de Hattin , Saladin defait L' Occident , H., T.XLVII, Année 1982 , pp . 104 - 111 , Fuller , Decisive battles of Western Europe and Their influences upon History , London 1954 , p . 427 .

(٢) عن دور فردريك بارباروسا في الحملة الصليبية الثالثة انظر :

Otto of St. Blasion , The Third Crusade 1183 - 1190 , From The chronicle of Otto of st . Blasion , in Thatcher , Source Book of Medieval History , New york 1902 , pp . 529 - 535 .

(٣) غرق في نهر كيدنس Cydnus من أنها كيليكيا Cilicia في آسيا الصغرى Asia Minor في ١٠ يوليو عام ١١٩٠م / ٥ جمادى الأولى ٥٨٦ هـ ، عن ذلك انظر :

Otto of St. Blasion , p. 535 .

وأحيانًا يورد الاسم على أنه نهر الفاتر ، كما لدى ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٣ ، تحقيق سامي الدهان ، ط. دمشق ١٩٦٧م ، ص ١١٤ ، أو نهر اللامس كما لدى لسترانج

Le Strange, The lands of the Eastern Caliphate, Mesopotamia, Persia and Central Asia From the Moslem conquest to the time of timur , London 1966 ., p . 141 .

(٤) عن دور ريتشارد الأول في تلك الحملة انظر :

Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of the Crusades. London 1908 , Geoffrey of Vinsauf , Crusade of Richard Coeur de Lion , in Chronicles of the Crusades, London 1908, Ambroise, The Crusade of Richerd Heart of Lion , Trans , by Hubert , New York 1943 .

زينب عبد القوى ، الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة من ١١٨٩ - ١٢٩١م، ط . القاهرة ١٩٩٦م ، ص ١٢٢ - ١٣٧ .

(٥) عن ذلك انظر :

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ / ق ١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط . القاهرة ١٩٥٦م ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٦ ، ط . القاهرة ١٩٣٦م ، ص ٤٥ .

Ambroise , p . 229 .

Lane Poole , Saladin and The Fall of the latin Kingdom of Jerusalem , London 1898 , p. 293 .

(٦) عن موقع أرسوف انظر :

Guide Book to palestine , Trans. by J.H. Bernard, P.P.T.S., vol . V , London 1897 , p . 34 .

المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى جويه ، ط . ليدن ١٩٠٩م ، ص ٥٤ ؛ ياقوت، معجم البلدان ، جـ ١ ، ط . بيروت ١٩٧٧م ، ص ١٥١ - ص ١٥٢ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان ، ط . دمشق ١٩٦٢م ، ص ٢٥٣ ، حاشية (١) ؛ أبو الفداء، تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان ، ط . باريس ١٨٤٠م ، ص ٢٣٨ - ص ٢٣٩ ، شيخ الربوة الدمشقى ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ط . بطرسبرج ١٨٦١م ، ص ٢١٣.

(٧) هاملتون جب ، " أرسوف " دائرة المعارف الرسلامية ، ت . إبراهيم خورشيد وآخرون . ط . القاهرة ب . ن ، ص ٦٠٠ .

(8) Saewulf , Pilgrimage of Sawulf , Trans . by Bishop of Clifton , P.P.T.S., vol . IV, London 1896 , p. 27 .

(9) Ibid, p. 27 .

(10) Daniel , Pilgramage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land, Trans. by Wilson P.P.T.S., vol . IV, London 1895 , p. 54 , Theoderich, Description of The Holy Land , Trans. by. Aubrey Stewart , P.P.T.S. vol . V , London 1890 , p. 64 .

(١١) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٥ ، ط . بيروت ١٩٧١م ، ص ٣٢٦ ، بسام العسلى ، فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية ، ط . بيروت ١٩٨٨م ، ص ١٦٤ .

(١٢) جنفياف شوفيل ، صلاح الدين بطل الإسلام ، ت . جورج أبى صالح . ط . بيروت ١٩٩٢م ، ص ٤٠٧.

(١٣) عن تلك الأنهار انظر الخريطة الموجدة لدى : Ambroise , p . 229 .

ويلاحظ أن ياقوت الحموى أشار إلى نهر أسماه العوجاء وحدده بأنه بين أرسوف والرملة ولم استطع تحديده على الخريطة ، وأن كان من الواضح من خلال تلك الإشارة أنه وقع إلى الجنوب من أرسوف وبالتالى فمن المفترض أنه لم يدخل فى نطاق توسعات الجيش ، عن إشارته ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ط . بيروت ١٩٩٠م ، ص ١٨٨ .

(١٤) عبد الهادى شعيرة ، " الرملة ورباطاتها السبعة " ، المجلة التاريخية المصرية ، م (١٥) ، عام ١٩٦٩م، ص ٤٣ .

(١٥) السمعانى ، الأنساب ، جـ ١ ، ط . بيروت ب . ت ، ص ١١٢ ، ومنهم أبو يحيى زكريا بن نافع الأرسوفى ، وقد روى عن سفيان بن عيينه ، وعباد بن عباد وروى عن يعقوب بن سفيان الفارسى : نفسه، نفس المصدر والصفحة .

(16) Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem , Trans by Rita Rian, Tennesse 1969 , p. 152 .

حسن عبد الوهاب ، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى ، ط . الأسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٦٢ .

(17) Fulcher of Chartres , p . 152 .

أيضًا : فايد حماد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ط . بيروت ١٩٨٥م ، ص ١٢١ .

(18) Fulcher of Chartres, p . 152 , William of TYre , AHistory of the deeds done beyond The Sea , vol . I , Trans . by Babcok and Krey , New York 1943 , p. 434 - 445 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط . بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٣٩ ؛ ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ، ت . الياس شاهين ، ط . موسكو ١٩٨٦م ، ص ١٢٩ ؛ فهمى توفيق مقبل ، الفاطميون والصليبيون ، ط . بيروت ١٩٧٩م ، ص ٨٢ .

(19) Prawer, Crusader Instituions, Oxford 1980 , p. 154 .

(٢٠) العماد الأصفهانى ، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان ، تحقيق كلود كاهن - B . E . O . , T . VII - VIII Années 1957 - 1958 ، ص ١٤٦ .

مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، جـ ٤ / ق ٢ . ط . بيروت ١٩٧٢م ، ص ٣٥١ .

(٢١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ط . بيروت ١٩٦٧م ، ص ٢١٥ .

ويلاحظ أن المؤرخ الصليبى جوفرى أوف فينزوف يقرر أن الأتراك (ويعنى بهم المسلمين) رموا السهام على الجنود كالمطر أو البرد المتساقط من السماء ويقول ما معناه يا لعدد الخيول التى تساقطت ويا لأولئك الرجال الذين سقطوا من جراء جراحهم.

عن ذلك انظر :

Geoffrey of Vinsauf, p . 232 .

(٢٢) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط . القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٣٦٥ – ص ٣٦٦ .

(23) Smail , Crusading warefare (1097 - 1193) , Cambridge 1956, p . 156 .

(24) Ibid , p . 157 .

(25) Geoffrey of Vinsauf, p . 231 .

وفى هذا الصدد نجد أن هناك نوعًا معينًا من السهام يتردد ذكره فى مصادر العصر الأيوبى على نحو خاص ، وهو الزنبورك وهو سهم فى سمك الإبهام ، وطوله مقدار ذراع وله أربع أوجه ، وله طرف من الحديد ، وهو أيضًا ذو ريش من أجل أن يكون أكثر ثباتًا عند الإنطلاق ، وقد وصف الزنبورك بأنه أينما سقط فإصابته مؤكدة ، ويقال أنه يخترق درع الجندى وملابسه ، وبإمكانه كذلك إصابة أحجار الأسوار ، والجدير بالذكر هنا أن الزنبورك سمى بهذا الاسم لأنه يشبه في صوت إنطلاقه صوت حشرة الزنبور .

عن الزنبورك انظر :

الطرطوسى ، تذكرة أرباب الألباب ، تحقيق كاهن . B.E.O., T. XII, Années 1947 - 1948 ؛ ص ١٥٣ – ص ١٥٤ ، ابن واصل، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، حاشية (٤) .

(26) Smail , p . 156 .

(٢٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٢١٥ .

(٢٨) نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

(٢٩) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣٠) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣١) النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ ، محمود الحويرى ، العادل الأيوبى ، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، ط . القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٣٧ .

(٣٢) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٣٣) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣٤) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ . ت . السيد الباز العرينى ، ط . بيروت ١٩٨٠م ، ص ١٠٩ ؛ البير شاندور ، صلاح الدين الأيوبى البطل الأنقى فى الإسلام ، ت . سعيد أبو الحسن ، ط . دمشق ١٩٨٨م ، ص ٣٤٣ ، محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ، ط . بيروت ١٩٨٦م ، ص ٤٧٣ .

(٣٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣٦) نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ط . القاهرة ١٩٦١م ، ص ٣٦ – ص ٣٧ .

(37) Runciman , A History of The Crusades , Vol. III, London 1971, p . 54 - 55 .

(38) Ambroise , p. 200 , Note (11) .

(39) Ibid , p . 250 , Note (20) .

(40) Ibid , p . 250 , Note (21) .

(41) Ibid , p . 251 .

(42) Ibid , p . 257 , Note (24) .

(43) Runciman, Vol . III , p . 35 .

(44) Geoffrey of Vinsauf, p . 233 .

والجدير بالذكر أن اشتراك الشخصيات الدينية فى حروب أوروبا فى العصور الوسطى كان أمراً معتاداً حتى فى معارك الأوروبيين على أرض الغرب الأوربى ذاته ، وليس على أرض بلاد الشام فقط ، ومن ذلك ما نعرفه من أن كبير أساقفة تربين Turpin قام بدور قتالى بارز خلال أحداث مواجهة شارلمان Carolus Magnus وقواته لعناصر الباسك فى شمال أسبانيا كما صورت ذلك أنشودة رولان La Chanson de Roland ، ومن جهة أخرى نجد فى موشاة Tapestry بايوه Bayeaux من الملاحظ أن أسقف أودو Odo من بايوه يقاتل فى معركة هاستنجز Hastings عام ١٠٦٦ م / ٤٥٩ هـ والتى وقعت بين قوات وليم دوق نورمندى - وليم الفاتح William The Conqueror - فيما بعد ، وقوات هارولد Harold ملك انجلترا السكسونى حينذاك أما أمثلة وجود عناصر رجال الدين فى معارك الصليبيين فى بلاد الشام فنجده فى صورة معركة الرملة عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ . ، عن ذلك انظر:

William of Tyre , Vol . II , p . 430 .

شين ماك جلين ، " بعض الأوهام عن التكتيك الحربى في العصور الوسطى " ؛ ت . اسحق عبيد ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد (٦٥) ، يوليو ١٩٩٤م ، ص ٥٣، جوزف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ت . محمد فتحى الشاعر ، ط . القاهرة ١٩٩٢م ، ص ٩١ .

(٤٥) محسن محمد حسين ، المرجع السابق ، ص ٤٧٣ .

(٤٦) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصري فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ط . القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢١٦ - ص ٢١٧ .

(٤٧) العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٥٤٧ .

(٤٨) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٤٩) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

(50) Ambroise , p. 262 .

(51) Ibid, p . 262 , Note (29) .

(٥٢) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، ط . عمان ١٩٧٣م ، ص ٣٧٩ .

(٥٣) الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جـ ١ ، ط . بيروت ب. ت ، ص ١٩١ .

(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جـ ٩ ، تحقيق إحسان عباس ، ط . بيروت ١٩٦٧م، ص ١٦٧ .

(٥٥) نظير حسان سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٥٦) نفسه ، نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

(57) Ambroise, p. 252 .

(58) Ibid, p . 253 .

السيد الباز العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ط . القاهرة ١٩٦٣م ، ٩٦٣ .

(59) Runciman , Vol . III , p . 56 .

(60) Ibid , p . 65 .

(61) Ambroise , p . 253 .

(62) Ibid , p. 254 .

(٦٣) أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

(٦٤) سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ط . بيروت ١٩٧٢م ، ص ٥٩ .

(٦٥) عبد الرحمن زكى ، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة ، ط . القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ١٤٨ .

(66) Ambroise, p. 257 .

(٦٧) الاعتبار ، نقلاً عن: Smail, p. 138 .

(68) Smail, p. 138 .

(69) Ambroise, p. 257, Geoffrey of Vinsauf , p. 234 .

(70) Geoffrey of Vinsauf , p. 238 - 239 .

والقديس جورج St. George ، وهو جورج الشهيد عاش بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، واعتبر القديس الحامى لانجلترا ، ويعد أحد أكبر الشهداء المسيحيين شهرة فى عهد المسيحية المبكرة ، ومن المحتمل أنه قتل فى اللد Lydda فى أخريات القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الميلاديين ، ونسجت حوله أسطورة عرفت بأسطورة القديس جورج ، ويقال أنه قتل تنيناً ، وهناك من يرى أن قصة التنين وارتباطها بذلك القديس قد أضيفت إلى أسطورته فى أخريات العصور الوسطى ، أما ارتباط ذلك القديس بانجلترا فيلاحظ أن اسمه كان معروفًا في انجلترا وإيرلندا منذ أمد بعيد سابق على الغزو النورمانى فى عام

١٠٦٦م ، ومن المحتمل أن الصليبيين العائدين من بلاد الشام قد ساهموا في دعم شعبيته ، أو ربما كان لقب القديس الحامى القومى قد حدث عندما أسس الملك إدوارد الثانى ماعرف بنظام the Order of the Gater ، وجعله تحت حمايته ، والجدير بالذكر هنا أنه فى عام ١٤١٥م صار يوم الاحتفال بالقديس جورج من أكثر الأيام المحتفل بها أهمية من جانب الإنجليز ، ويلاحظ أن يوم ٢٣ أبريل اعتبر يوم الاحتفال بذكراه .

عنه انظر :

Attwater, The pengain dictionary of saints, London 1977 , p . 148.

صباح محمود محمد : " التنين فى المصادر العربية " ، ضمن كتاب دراسات في التراث الجغرافى العربى، ط . بغداد ١٩٨١م ، ص ٩٠ .

(71) Ambroise, p. 260 .

(٧٢) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

نبيلة مقامى ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ط . القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٦٣

(٧٣) أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩١ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٦٨ .

والطلب جمعه أطلاب ، وهو لفظ كردي يعني الأمير الذى يقود مائتي فارس في ساحة الوغي ويطلق أيضًا على قائد المائة ، وكذلك على قائد السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا التعبير في مصر والشام فى عهد الناصر صلاح الدين ، ثم تطور مدلوله ليعني الكتيبة من الجيش ، عن ذلك انظر :

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، حاشية (٣) ، ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٩ ؛ نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط . القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص ٩ ، حاشية (٢) .

(٧٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ١٩٧ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٤٥ .

(٧٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٥ ؛ ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٣٢٦ ؛ قدرى قلعجى ، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر م ، ص٤٠٦ ؛ فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين فى العصر الأيوبي، ط . القاهرة ١٩٧٧م، ص ٢٢٤ .

(٧٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٥ ؛ ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٦ .

Smail, p. 165

(77) Runciman, vol. III . p. 56 .

(٧٨) عن دور السلطان صلاح الدين الأيوبى خلال تلك المرحلة العصيبة انظر :

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩١ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٧٩) العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

(٨٠) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٥ ، واتجه ذات الوجهة شفيق جاسر ، القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين في تحريرها ، ط . عمان ١٩٨٩م ، ص ٧١ . حيث يذكر أن المسلمين انتصروا فيها .

(81) Runciman, vol. III , p. 57 .

(٨٢) البير شاندور ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

(٨٣) المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٢١٦ ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ ٨/ ق١ ، ط . حيدر اباد الدكن ١٩٥١م ، ص ٤٠٩ ؛ ويلاحظ أن نفس الأمر وجدناه لدي أحد المؤرخين الصليبيين ونعنى به جوفرى أوف فينزوف إذ وصف قيماز بأنه كان رجلاً بالغ القوة حتى أن أى رجل لم يكن يستطيع إنزاله من صهوة جواده ، وكان يحمل رمحًا ثقيلاً فى وزن رمحين من تلك الرماح التى في أيدي الصليبيين، وأشار ذلك المؤرخ الصليبي إلي أن الأتراك (أى المسلمين) حزنوا لفقده حزنٌ كبيراً .

Geoffrey of Vinsauf , p. 231 .

(٨٤) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(85) Ambroise , p. 265 .

وقد أخذ بذات التحديد قدرى قلعجى ، المرجع السابق ، ص ٤٠٦ .

(86) Ambroise , p. 265 .

(87) Oman , A History of The art of War in The Middle ages , vol . I , London . 1924 , p. 317 .

(88) King, The Kinghts Hospitallers in The Holy land, London 1931, p. 151 .

(89) Ambroise , p. 265 .

(90) Runciman, vol. III , p. 57 .

(91) Ambroise , p. 252 .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٩٣) العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٥٤٨ ؛ ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٥ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩١ .

(94) Ambroise , p. 265 .

وانظر دوره الحربي ومقتله لدى :

Geoffrey of Vinsauf , p. 234 ; Painter, " The Third Crusade, Richard The Lion hearted and philip Augustus " , in Setton, A History of The Crusades, vol. III, Madison 1969, p. 75, Oman, p. 316 .

(٩٥) العماد الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٩٦) نفسه ، نفس المصدر ، والصفحة .

(٩٧) نفسه ، نفس المصدر ، والصفحة .

(98) Oman, p. 315 .

(٩٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٥ .

(100) Gibb, The life of Saladin, Oxford 1973, p. 71 .

(101) Smail, p. 165 ; Runciman, vol. III , p. 57 .

حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ط . القاهرة ١٩٨٣م ، ص ١٥٩ ؛ بسام العسلي ، صلاح الدين الأيوبي ، ط . بيروت ١٩٨٤م ، ص ١٧٤ .

(102) Smail, p. 80 , King, p. 152 .

(103) Runciman, vol . III , p. 57 .

(١٠٤) ابن شداد ، المصدر السابق ، ط . بيروت ب . ت ، ص ١٧٧ ؛ Oman , p. 318 .

(105) Mayer, The Crusades, Trans. by John Gillingham , Oxford 1987, p. 145 .

(106) Runciman , vol. III .p , 57 .

(107) Grousset , Histoire des Croisdes et de royaume Franc de Jerusalem, T. III, Paris 1946, p. 71.

(١٠٨) الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ .

(١٠٩) يقول ابن الأثير ما نصه : " حتى لايبقي للفرنج في قصدها مطمع " ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٦ .

وعن تدمير عسقلان انظر :

Geoffrey of Vinsauf, p. 231 .

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ١٩٨ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٦٩ - ص ٣٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٦ - ص ٤٧ ؛ السيد الباز العريني ، الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، الأيوبيون ، ط . بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ١٠١ .

(١١٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢١٦ ؛ الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، ويقرر حامد غنيم أن تاريخ ذلك هو أول رمضان عام ٥٨٧ هـ/١١٩١م ، ومن الجلى البين أن ذلك التحديد يختلف تمامًا مع ما أوردته المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة على نحو يجعلنى لا أميل إلى الأخذ به ، انظر :

حامد غنيم ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(١١١) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ١٩٨ .

(١١٢) نفسه ، نفس المصدر ، والصفحة .

(١١٣) عن سياسة التخريب التى سار عليها الأيوبيون بعد عسقلان انظر :

Geoffry of Vinsauf , p. 231 .

شاهنشاه بن أيوب ، كتاب التاريخ ، منتخبات منه منشورة فى ختام كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ، ط . بيروت ، ص ٣٠٠ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ - ص ٢٧١ ؛ أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ط . بيروت ب . ت ، ص ٧٦ - ص ٧٧ .

(١١٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٧٠ ؛ أحمد عبد الجواد الدومى ، صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله ، ط . بيروت ب . ت ، ص ١٢٦.

(١١٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٧٥ ؛ شاهنشاه بن أيوب ، المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(١١٦) يوسف درويش غوانمه ، إمارة الكرك الأيوبية ، ط . عمان ١٩٨٢م . ص ١٦٦ .

(117) Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land , London 1963 , p. 24 .

وعن أسباب فشل الحملة الصليبية الثالثة انظر :

Barker, The Crusades , London 1943, p. 66 .

(١١٨) عن صلح الرملة وشروطه انظر :

العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٦٠٥ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ . ص ٤٠٤ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٢١ - ص ١٢٢ .

Ambroise, p. 429 - 430 ; Geoffrey of Vinsauf ,p. 429 - 330 ; Richard of Devizes , p. 63 - 64 ; Roger of Wendover , Flowers of History, vol. I, Trans. by J.A. Giles, London 1848 , p. 123 ; Campbell, The Crusades, London 1925, p. 328 .

محمود سعيد عمران ، الهدن بين المسلمين والصليبيين في عصر الدولة الأيوبية ، ضمن كتاب دراسات في بحوث تاريخ العصور الوسطي ، ط . الأسكندرية . ١٩٩٦م ، ص ٢٦ - ص ٢٧ ؛ عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، دراسات تحليلية وثائقية فى التاريخ الدبلوماسى، ط . الأسكندرية ١٩٨٦م ، ص ١٨٢ - ص ١٨٣

(119) Roger of Wondover, p. 123 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ط . القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٨٦١ ؛ على عبد الحليم محمود ، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى ، ط . الرياض ١٩٨٢م . ص ١٠٨ .

ويلاحظ أن ريتشارد بعد مغادرته لبلاد الشام وقع أسيراً عند عودته في يد ليوبون دوق النمسا فقام بتسليمه إلى الإمبراطور هنرى السادس فقام بدوره بإلقائه في السجن حتى جمعت حكومته فدية كبيرة لإطلاق سراحه ، وما إن عاد إلى انجلترا حتى شن حربًا ضد ملك فرنسا فيليب أغسطس ، وكذلك أخيه حنا ، وقد لقى ريتشارد حتفه فى عام ١١٩٩م / ٦١١ هـ أثناء حصار قلعة شاتوس Chatus .

عن ذلك انظر :

Geoffrey of Vinsauf , p. 358 - 359 ؛ نظير حسان سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ، ط . القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٩٢ - ص ٩٣ .

(١٢٠) يوسف درويش غوانمه ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(١٢١) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٩ .

(١٢٢) الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى . ط . القاهرة ١٩٧٩م ، ص ١٣٠ ؛ ابراهيم طرخان ، الناصر صلاح الدين وتحرير القدس ، ط. القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٧٦ .

(١٢٣) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٩ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٤ .

(١٢٤) عنه : . William of Tyre, vol . II , p. 397 - 454

ويلاحظ أن الباحث محسن محمد حسين قد تصور أن الملك الصليبى فى ذلك الحين هو بلدوين الثالث Baldwin III غير أن ذلك يخالف الواقع التاريخى ، إذا أن بلدوين الثالث قد حكم خلال المرحلة من ١١٤٣ - ١١٦٣م / ٥٣٨ - ٥٥٩ هـ ، والصواب أنه بلدوين الرابع Baldwin IV ؛ الذى حكم خلال المرحلة من ١١٧٣ إلي ١١٨٥م/ ٥٦٩ - ٥٨١ هـ .

انظر إشارته : محسن محمد حسين ، المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

والتصحيح من خلال : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ١٣٠٥ .

125) William of Tyre, Vol. II, p . 431 .

(١٢٦) يوسف درويش غوانمه ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(١٢٧) نفسه ، نفس المرجع ، ص ١٢١ ، دراسات فى تاريخ الأردن وفلسطين فى العصر الإسلامى ، ط عمان ١٩٨٣م ، ص ١٨٩ .

(٦)

نور الدين محمود (١١٤٦-١١٧٤م)
مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م)
رؤية فى التاريخ المقارن لعصر الحروب الصليبية[١]

يتناول المقال التالى بالدراسة ؛ رؤية مقارنة لكل من الملك العادل نور الدين محمود (١١٤٦ - ١١٧٤م) ، والإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م) ؛ من أجل تقديم صورة بانورامية موضوعية للدور التاريخى لكل منهما خلال القرن ١٢ م وإدراك أيهما كان صاحب الأثر الأكبر فى توجيه دفة السياسة الدولية والعلاقات بين الشرق والغرب خلال القرن المذكور .

وبداية ؛ من الملاحظ أن عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢ ، ١٣م ؛ احتوى على العديد من الشخصيات القيادية التى تصلح بجدارة لعقد مقارنة بينها فى صورة الملك الصليبى بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م) والسلطان صلاح الدين الأيوبى (١١٧١-١١٩٣م) وكذلك الأخير والملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ - ١١٩٩م) وغيرها من الأمثلة التى يضيق المقام هنا عن إيراد المزيد منها .

ويتطلب الأمر ؛ تقديم تعريف موجز بإنجازات كل من القيادتين الإسلامية ، والبيزنطية كمقدمة طبيعية لعقد المقارنة بينهما .

ويلاحظ أن نور الدين محمود هو ابن عماد الدين زنكى الذى قاد المسلمين ؛ من أجل إسقاط إمارة الرها Edessa الصليبية وذلك عام ١١٤٤م ، وورث قسمًا كبيراً من أملاك والده، وأخضع مدينة حلب حاضرة شمالى بلاد الشام المزدهرة لسيطرته عام ١١٤٦م عقب اغتيال والده ، ثم تمكن من السيطرة على دمشق العاصمة التاريخية لبلاد الشام وذلك عام ١١٥٤م . ومن بعد ذلك ؛ اغتنم فرصة الصراع الوزارى فى مصر الفاطمية فى عصرها الثانى الذى اتسم بالضعف وسيطرة الوزراء العظام ، انتهز ذلك من أجل التسابق بينه وبين الملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤م) لإخضاعها ، وحسم الأمر لصالحه بفضل كل من

أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، وقد تمكن الأخير من إسقاط تلك الدولة عام ١١٧١م محققًا بذلك أعظم إنجازات السياسة الخارجية النورية .

ويلاحظ أن نور الدين محمود دخل فى علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية مع كل من مملكة بيت المقدس الصليبية والإمارتين التابعتين لها حينذاك فى صورة أنطاكية وطرابلس وكذلك امتدت علاقات الإمبراطورية البيزنطية خلال عصر الإمبراطور مانويل كومنين بالإضافة إلى الخلافة العباسية خاصة خلال عهد الخليفة المقتفى لأمر الله (١١٣٦ - ١١٦٠م) ، ثم المستنجد بالله (١١٦٠ - ١١٧٠م) ، وأخيراً بالمستضىء بالله (١١٧١ - ١١٨٠م) ناهيك عن علاقاته بالدولة الفاطمية ، ومعنى ذلك اتساع نطاق فعاليات سياساته الخارجية وقدرته على التعايش والتأقلم مع كافة القوى المذكورة .

ولا نغفل هنا ؛ أن تلك القيادة المسلمة بعد ٢٧ عامًا من الفعالية والنشاط السياسى والحربى توفيت عام ١١٧٤م . فى ذات العام الذى توفى فيه الملك عمورى الأول آخر ملوك المملكة الصليبية الكبار .

أما إذا اتجهنا إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين ؛ فنعرف أنه تولى العرش البيزنطى عام ١١٤٣م ؛ خلفًا للإمبراطور حنا كومنين الذى حكم خلال المدة من ١١١٨ إلى ١١٤٥م ، وقد تصور ذلك الإمبراطور فكرة السيادة العالمية للإمبراطورية ، ودخل فى علاقات سياسية وحربية مع كل من السلاجقة والدولة النورية ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية بالإضافة إلى النورمان . ولا ريب فى أن ذلك كله يعكس لنا - هو الآخر - اتساع رقعة علاقات الإمبراطورية البيزنطية فى عهده بحيث شملت العديد من القوى السياسية فى الشرق والغرب على حد سواء .

على أية حال ؛ من الملاحظ أن ذلك الإمبراطور قام بجهد واسع نحو تعميق الاتجاه نحو الغرب الأوروبى ومنح اللاتين الوظائف الكبيرة فى دولته ، كذلك قدم لعناصر من الإيطاليين العديد من الامتيازات التجارية ، على نحو أوغر صدر البيزنطيين وكان مقدمة لكارثة عام ١٢٠٤م ، حيث سقطت القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها منذ تشييدها وافتتاحها عام ٣٣٠م فى عهد الإمبراطور قسطنطين .

على أية حال ؛ حكم الإمبراطور مانويل كومنين الإمبراطورية البيزنطية إلى أن توفى عام ١١٨٠م ويلاحظ أنه عاصر إلى جانب نور الدين محمود - صلاح الدين الأيوبى والإمبراطور فريدريك الأول باربا روسا Frederich Barburossa (١١٥٢ - ١١٩٠م) ؛ أى عدد من كبار رجالات القرن ١٢م .

ومن أجل تعميق الرؤية لكل من القيادتين المسلمة والبيزنطية ؛ من المهم إلقاء الضوء على المصادر والمراجع المتخصصة العربية ، والأجنبية عن كل منهما .

وفيما يتصل بنور الدين محمود من الملاحظ أن أهم المصادر التاريخية العربية بشأنه تتمثل فى ابن القلانسى (ت ١١٦٠م) مؤلف كتاب ذيل تاريخ دمشق (٢)، لاسيما خلال الأحداث الواقعة بين عامى ١١٥٤ ، وهو عام إخضاع نور الدين لدمشق - حتى عام ١١٦٠م، ثم هناك ابن عساكر (ت ١١٧٦م) الذى خصص ترجمة مهمة عن الملك العادل ضمن كتابه تاريخ مدينة دمشق (٣)، كذلك لا نغفل المؤرخ الحلبى ابن العديم (ت ١٢٦١م) وكتابيه زبدة الحلب وبغية الطلب (٤)، حيث فصل الإشارات عن مدينة حلب وسياسة نور الدين محمود تجاهها .

ويضاف إلى ذلك ؛ هناك ما ألفه مؤرخ متأخر فى صورة ابن قاضى شهبة (ت ١٤٤٨م) الذى ألف سيرة لنورة الدين محمود بعنوان الكواكب الدرية فى السيرة النورية (٥)، اعتمد فيها على المصادر التاريخية المعاصرة واللاحقة وأضاف إليها أحيانًا إشارات مهمة .

كذلك لا نغفل أهمية أبو شامة المقدسى (ت ١٢٦٧م) مؤلف كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية (٦). وقدم فيه إشارات ضافية عن سياسات الدولة النورية تجاه العديد من القوى المعاصرة لها .

أما إذا اتجهنا إلى المصادر غير العربية نذكر المؤرخ الصليبى الكبير وليم الصورى Wil-liam of Tyre وكتابه تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر Historia Rreum im-partibus Transmainis gestarum(٧) حيث أورد تفصيلات عن سياسة مملكة بيت المقدس الصليبية خاصة خلال عهد كل من الملك بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤ - ١١٦٣م) . وكذلك الملك عمورى الأول ، ويلاحظ أن ذلك المؤرخ اعترف صراحة بالطابع الدينى لشخصية نور الدين محمود وأثنى عليه فى لفتة نادرة من عصر الحروب الصليبية الذى اشتهر بالتعصب وانعكس ذلك على كتابات المؤرخين .

ولا نغفل ذكر المؤرخ المجهول مؤلف الحولية السريانية Anonymous Syriac Chronicle[٨]، حيث قدم العديد من الإشارات المهمة عن دور نور الدين محمود وسياساته تجاه العديد من القوى السياسية فى بلاد الشام والجزيرة الفراتية .

بالإضافة إلى ذلك هناك ما ألفه المؤرخ البيزنطى كيناموس Cinnamus[٩] عن أعمال حنا ومانويل كومنين وقد تطرق للعلاقات بين نور الدين محمود والإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين .

أما المراجع الحديثة ؛ فهناك العربية والأجنبية ، وبالنسبة للأولى ؛ نذكر دراسة رائدة للراحل المؤرخ والمحقق والمترجم الكبير أ. حسن حبشى أستاذ العصور الوسطى بكلية التربية - جامعة عين شمس بعنوان نور الدين والصليبيون ، وصدرت بالقاهرة عام ١٩٤٨م ، وتعد أول عمل أكاديمى بالعربية عن عصر الحروب الصليبية بصفة عامة ونور الدين محمود خاصة علاقاته بمملكة بيت المقدس الصليبية وقد خصص فصلاً أخيراً عن الأوضاع الحضارية للصليبيين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية .

من بعد ذلك ؛ أصدر المؤرخ الرائد أ. حسين مؤنس دراسة عنوانها : نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، ط. القاهرة ١٩٥٩م ، غير أنها لا تصل بأى حال من الأحوال إلى المستوى الأكاديمى لدراسة العلامة أ.د. حسن حبشى السالفة الذكر ، مع تقديرى الكامل للجهد العلمى المبذول فيها من جانب رائد االتاريخ الأندلسى .

ومن بعد ذلك ؛ قام المؤرخ العراقى أ.. عماد الدين خليل بإصدار كتابه نور الدين محمود وتجربته الإسلامية ، ط. دمشق ١٩٨٧م وهى دراسة لها أهميتها العلمية خاصة فى المقالات المتخصصة عن الأوضاع الحضارية فى عهد نور الدين محمود .

ولا أغفل هنا ؛ إحالة القارئ إلى دراستى بعنوان : فى الصراع الإسلامى - الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤م التى صدرت بالقاهرة عام ١٩٩٨م .

تلك أهم الإصدارات بالعربية عن نور الدين محمود ؛ أما الأجنبية فهى تتمثل فى مقال المستشرق البريطانى السكندرى المولد هاملتون جب Hamilton Gibb بعنوان سيرة نور الدين The Career of Nur Al.Din ضمن كتاب سيتون وبلدوين ، تاريخ الحروب الصليبية، الجزء

الأول Setton, A History of the Crusades, Vol.I, Pennsylvania 1958 [١٠] ويغلب على جهد المؤلف الإيجاز والتركيز بالإضافة إلى قلة التحليلات ، وقد تفوقت عليها - بلا ريب . دراساته عن صلاح الدين الأيوبى . ثم هناك دراسة المستشرق الفرنسى نيكيتا اليسيف Nikita Elisseeff عن نور الدين محمود أمير مسلم فى عصر الحروب الصليبية . دمشق ١٩٦٧م Nur Ad-Din un prince Musulman au temps des Croisades, Damas . 1967

ويلاحظ أن المؤلف على الرغم من الجهد الكبير المبذول فى دراسته ؛ إلا أنها جاءت تحاكى أسلوب المدرسة الفرنسية القديمة التى تتسم أعمالها بالتفاصيل الزائدة واتباع المنهج السردى الوصفى وندرة التحليل إلا القليل من أعلامها .

ولا نغفل وجود مقالات متخصصة لنفس المستشرق مثل ألقاب نور الدين التى نشرت فى مجلة الدراسات الشرقية عدد عام ١٩٥٢ - ١٩٥٤ .

" La Titualiture le Nur Al. Din" B.E.O., T.XIV, Année 1952 - 1954 .

وكذلك مقال عن آثار نور الدين فى ذات الدورية السابقة ونشرت خلال المرحلة بين عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥١م .

" Les Monuments le Nur Al-Din" B.E.O., T. XII, Année1949 - 1951 .

وهى مقالة على جانب كبير من الأهمية فى إيراد المنشآت الأثرية التى شيدت فى عهد نور الدين محمود .

ذلك شأن نور الدين محمود والمصادر والمراجع التى تناولته على نحو مفصل بصورة أو أخرى ، أما إذا اتجهنا إلى الإمبراطور مانويل كومنين فنجد أن أهم مصدرين بيزنطيين تناولاه يتمثلان فى كيناموس Cinnamus [١١]، ونيكيتاس خونياتس Nicetas Choniates [١٢].

ويلاحظ أن كيناموس رافق الإمبراطور مانويل كومنين فى عدد من عملياته العسكرية ومن أمثلتها الحملة التى قام بها فى الجنوب الإيطالى عام ١١٥٥م ، ويؤخذ على تاريخه الانبهار بالإمبراطور البيزنطى المذكور .

أما المؤرخ الثانى وأعنى به نيكتاس خونياتس ؛ فقد ألف حوليته بعد أن سقطت الإمبراطورية البيزنطية فى قبضة اللاتين عام ١٢٠٤م ، وقد اتسم عرضه بالنقد الشديد عمومًا لأسرة آل كومنين وقد حملها مسئولية المصير المأساوى لبيزنطة .

ويضـاف إلى ذلك هناك مـصـدران لاتينيـة فى صـورة كل من أودو الدولى Odo of Deul(١٣)، مؤرخ حملة لويس السابع على الشرق وفيه قدم إشارات على جانب من الأهمية بشأن العلاقات الفرنسية - البيزنطية خاصة خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ - ١١٤٩م ؛ كذلك لا نغفل مؤرخ آخر فى صورة أوتو الفريزى Otto of Frising مؤلف أعمال فردريك باربAروسا The Deeds of Frederick Barbarossa حيث قدم تناولاً مهماً لعلاقات ذلك الإمبراطور البيزنطى بكل من الإمبراطورين كونراد الثالث Conrad IIIوفـــــردريك باربAروسا .

ذلك أمر المصادر البيزنطية واللاتينية ؛ أما المصادر العربية فلسنا فى حاجة إلى تكرار الإشارة إلى أن المصادر العربية التاريخية التى تعرضت لنور الدين محمود تناولت الإمبراطور مانويل كومنين خاصة ما اتصل بحملته عام ١١٩٥م على بلاد الشام والتى انتهت بتوقيع الصلح بين القائدين المسلم ، والبيزنطى .

أما الدراسات الحديثة الأجنبية فنذكر دراسة شالندون الرائدة عن آل كومنين ، يوحنا ومانويل كومنين ، الصادرة فى باريس عام ١٩١٢م Chalandon , Les Comnenes ; Jean II et Manuel I Comnene, Paris 1912 ، وهى دراسة رائدة بالفرنسية ولكن بإمكانات أوائل القرن العشرين بطبيعة الحال ، ولكن لا يمكن البتة الاستغناء عنها نظراً للجهد البارز والريادى المبذول فيها .

وأفضل دراسة متخصصة بالإنجليزية عن مانويل كومنين هى دراسة ماجدولينو عن إمبراطورية مانويل كومنين ١١٤٣ - ١١٨٠ الصادرة فى كمبردج عام ١٩٩٧م ؛ أى منذ ثمانى سنوات .

Magdalino, The Empire of Manuel I Komnenos 1143-1180, Cambridge 1997 .

وهى دراسة فذة لمؤرخ فذ قدم تفاصيل مسهبة عصر مانويل كومنين فلم يترك شاردة أو واردة وذلك فى ما يزيد على ٥٠٠ صفحة ، وتجعل من يؤلف عملاً عن ذلك الإمبراطور بعد عام ١٩٩٧م يسأل نفسه أولاً ما جدوى ما يكتبه ! أو ما الجديد الذى سيقدمه بعد تلك الدراسة الشاملة الضافية الوافية !!! .

وبالإضافة إلى الدراستين السابقتين ؛ هناك مقالات متخصصة ، ومن أمثلتها مقالة ماجدولينو عن ظاهرة مانويل كومنين المنشورة فى كتاب بيزنطة والغرب بين عامى ٨٥٠ - ١٢٠٠م الصادر فى امستردام عام ١٩٨٨م :

Magdalino, " The Phenomeuon of Manuel I Komnenos", in Byzantium and West ed. Howard-Johnson, Amsterdam 1988 .

أما باللغة العربية - والعبرة هنا لما هو منشور فعلاً - فهناك دراسة رائدة للمؤرخ السكندرى البارز أ.د. محمود سعيد عمران استاذ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة الأسكندرية بعنوان ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنين ١١٤٣ - ١١٨٠م ، الصادرة بالقاهرة عام ١٩٨٠م . وقد امتازت بالعودة إلى المصادر البيزنطية واللاتينية والسريانية والعربية ثم بالتحليل والنقاش - وهو أهم ما يمكن فى الدراسات التاريخية الجديرة بالتقدير . وكل ذلك بخبرة أستاذ حقيقى ؛ واليوم وبعد ربع قرن من صدور ذلك الكتاب الذى هو فى الأصل أطروحة دكتوراه لا يمكن لباحث ما يتناول ذلك الإمبراطور البيزنطى - لا يمكن أن يتجنب أطروحة أ... محمود سيعد عمران الرائد المتميزة والممتدة الأهمية .

لم تأت الدراسة المذكورة متعجلة أو مبتورة أو فى صفحات قليلة يمكن مطالعتها فى سويعات قليلة بل دراسة مفصلة لا تترك شاردة أو واردة وهى تذكرنا بدراسة ماجدولينو الصادرة بعدها بسبعة عشر عامًا مع ملاحظة أن دراسة المؤرخ الأخير عامة عن عصر مانويل كومنين وليست متخصصة عن سياسته الشرقية فقط . ولا ريب فى أن دراسة السياسة الشرقية لذلك المؤرخ قد أوفاها بحثًا أستاذنا أ.د. عمران بما لا مزيد عليه ويرهق أى باحث آخر يتصدى بالدراسة لسياسات ذلك الإمبراطور البيزنطى .

نأتى الآن إلى تقويم دور كل من نور الدين محمود ومانويل كومنين ؛ من أجل التوصل إلى رؤية موضوعية عنهما ، ويمكن إجمال تصورى عن دور نور الدين محمود على النحو التالى :

أولاً : ظهر ذلك الفارس المسلم فى عصر تزايدت فيه الأطماع الصليبية المدعومة من الغرب الأوروبى ، حقيقة أن والده الأتابك عماد الدين زنكى يسر له الأمر نسبيًا من خلال إسقاط أولى الإمارات الصليبية فى الشرق وأعنى بها إمارة الرها عام ١١٤٤م [١٦]؛ إلا أن

الدعم الأوروبى لم يتوقف وقدمت إلى المنطقة الحملة الصليبية الثانية ، وهكذا ؛ كانت مهمة نور الدين محمود اتباع سياسة التوازنات من أجل الوصول إلى ترجيح كفة المسلمين فى مرحلة تالية؛ وهى تحتاج إلى سياسى خبير محنك فى الشئون السياسية والحربية ولا يتورط فيما لا تحمد عقباه وقد أدى الرجل دوره فى هذا الصدد بكفاءة يحسد عليها ويمكن أن يوصف - وبحق - بأنه مهندس حركة الجهاد الإسلامى فى النصف الثانى من القرن ١٢م .

ثانيًا : يذكر لنور الدين محمود انتصاراته فى معارك يغرى ١١٤٨م ، أنب ١١٤٩م ، وحارم ١١٦٣م ضد الصليبيين [١٧] ، وبالتالى؛ لم يورط جيشه فى هزيمة توصف بأنها " فضيحة " على الرغم من تعدد معارك الصراع الإسلامى - الصليبى فى عهده ، حقيقة أنه لم يتمكن من استغلال انتصاراته تلك من أجل إخضاع إمارة أنطاكية الصليبية ، وذلك نظراً لوقوف بيزنطة سداً منيعًا أمام طموحاته فى هذا الشأن ، ومع ذلك تبقى الانتصارات السابقة مكاسب مشرفة تذكر لتاريخ الرجل الذى عدَّ من أعلام حركة الجهاد الإسلامى عصر الصليبيات .

ثالثًا : من الإيجابيات التى تورد هنا ؛ توحيد نور الدين محمود لمدن الظهير الموصل - حلب - دمشق - القاهرة ، وذلك لأول مرة منذ مقدم الغزاة الصليبيين إلى المنطقة فى أخريات القرن ١١م وزرعهم كياناتهم الدخيلة فى بلاد الشام وأعالى الفرات ، ولاريب فى أن ذلك كله كان له أثره الكبير - فيما بعد - فى صنع يوم حطين ٤ يوليو ١١٨٧م الحاسم [١٨]؛ حيث انهارت مملكة بيت المقدس الصليبية على أيدى المسلمين بقيادة تلميذ نور الدين محمود الفذ وأعنى به السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه فارسًا مسلمًا بطلاً ضد الغزاة الصليبيين .

غنى عن البيان ؛ أن نور الدين محمود اكتشف صلاح الدين الأيوبى وأعطاه الفرصة الذهبية للذهاب إلى مصر حيث تفجرت طموحاته هناك وتمكن من إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م ، محققًا بذلك حلم طالما راود العباسيين الأعداء التقليديين للفواطم .

رابعًا : حرص مؤسس الدولة النورية الحرص العميق على ألا يتورط فى صدام حربى غير محسوب العواقب بدقة مع بيزنطة بل اتجه إلى جعلها تقف على الحياد - قدر الإمكان - وهو أمر عكس مدى حنكته وحصافته وقدرته على التعايش مع القوى السياسية المتصارعة وهو

أمر سيكون بمثابة درس ملهم لصلاح الدين الأيوبى فى صنع سياسته تجاه القسطنطينية ، وكل ذلك يعكس لنا أن فهم السياسة الأيوبية يمكن أن يبدأ - وبحق - من جذورها فى صورة السياسة النورية ذاتها .

أما فيما يتصل بالإمبراطور مانويل كومنين فيمكن تركيز تصوراتى لدوره على النحو التالى:

أولاً : الإمبراطور البيزنطى المذكور لم يكن يتمتع بخبرة سياسية حقيقية ، وكان من الواهمين ؛ إذ تصور فكرة الإمبراطورية العالمية وأنه إمبراطور على القسم الغربى أيضًا ، وهو أمر أبعد ما يكون عن الواقعية التاريخية ، فقد عاصر القرن ١٢م وتغيرت القوى السياسية وتعددت فى الغرب الأوروبى وكان الادعاء البيزنطى بالسيادة على الغرب لا يعتمد على سند حقيقى من المنطق وهو بذلك يحاول إعادة عقارب الساعة إلى الوراء أو كأنه يضرب طواحين الهواء دون جدوى ، وفى حالة كونه واقعيًا لأدرك استحالة أن ترضى البابوية بمثل ذلك التصور الواهم ، ثم أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى رأسها فريدريك باربروسا كانت ترى فى ذلك الادعاء نوعًا من الوهم الكاذب .

ثانيًا : أخفق الإمبراطور مانويل كومنين فى الغرب الذى ظل دائمًا ينظر إليه على أنه الإمبراطور اليونانى ، وأضاف إلى فشله فشلاً آخر فى الشرق من خلال هزيمته فى معركة مرياكيفالون Meryakephalon [١٩] عام ١١٧٦م حيث هاجمه السلاجقة الأشداء أثناء مروره فى أحد الممرات الجبلية فى آسيا الصغرى Asia Minor ، وكانت الهزيمة فضيحة عسكرية بكافة المقاييس ، بل إنه وصفها فى أحد رسائله على أنها مانزكرت الثانية ، إذ أن مانزكرت الأولى وقعت عام ١٠٧١م[٢٠] عندما هزم الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٧ - ١٠٧١م) على يدى السلطان ألب أرسلان السلجوقى ، وأخذ الإمبراطور البيزنطى المذكور أسيراً ، والتساؤل الآن : أين كرامة وكفاءة الإمبراطور المولود فى العباءة الأرجوانية ؟ أنه لا فارق كبير بينه وبين رومانوس ديوجنيس فى القرن ١١م إلا فى حادثة الأسر فقط ، مع ملاحظة أن العدو الذى أذل الاثنين بجدارة كان فى صورة السلاجقة .

بل ونضيف فشلاً ثالثًا لذلك الإمبراطور ، فقد أخفق فى حل المشكلة الأنطاكية ؛ وهى التى تولدت من خلال مطالبة بيزنطة للصليبيين بتنفيذ معاهدة القسطنطينية عام ١٠٩٧م ،

ورفض الصليبيون إعطاءها لهم وتم تأسيس إمارة نورمانية فيها - مع عدم إغفال العداء المتأصل بين النورمان والإمبراطورية الرومانية الشرقية وأعنى بها بيزنطة - وحاولت الأخيرة بكافة الوسائل السياسية بل وبالتلويح أحيانًا بالقوة العسكرية حاولت استعادة أنطاكية دون جدوى ، ومن المعروف أن مانويل كومنين دخلها دخولاً مسرحيًا على صهوة جواده . وكأننا أمام ممثل بارع للأدوار التاريخية لكن النورمان لم يمكنوه من تحقيق ذلك الهدف البعيد المنال وكأنه كالسراب .

ويلاحظ أن ذلك الإمبراطور الفاشل مثَّل جزءاً أصيلاً من إخفاق الأسرة الكومنينية فى حل تلك المشكلة التى لم تجد حلاً طوال القرن ١٢م وامتداد القرن ١٣م إلا عام ١٢٦٨م على أيدى المماليك البحرية بقيادة الظاهر بيبرس عندما أسقطها فى قبضة المسلمين وبالتالى لم تعد فى أيدى النورمان أو البيزنطيين على حد سواء .

ومن الممكن القول ؛ أنه فى التاريخ البيزنطى الذى امتد من القرن الرابع الميلادى وتحديداً عام ٣٣٠م حتى القرن الخامس عشر الميلادى وتحديداً عام ١٤٥٣م لدينا اثنين من الأباطرة الفاشلين فشلاً تاريخيًا من نوع خاص هما الإمبراطور جستينان Justinian ٥٢٧ - ٥٦٥م الذى يحلو للبعض وصفه بأنه آخر إمبراطور رومانى ، والإمبراطور مانويل كومنين ١١٤٢ - ١١٨٠م ، ويلاحظ أن الأول حاول من قبل إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ؛ فحارب البرابرة الجرمان مثل القوط الشرقيين فى إيطاليا . والقوط الغربيين فى أسبانيا ، والوندال فى شمالى أفريقيا . وأجهد قائده الموهوب بليزاريوس فى معارك طاحنة هنا وهناك ومع ذلك فى أخريات أيامه عادت الأمور إلي سابق عهدها ، وتأكد فشل مشروعه الاستردادى الواهم الذى كان بمثابة أكذوبة كبرى ، وترك جستنيان خزائن بيزنطة من بعده خاوية خاصة أنه قدم الذهب الإمبراطوري للفرس شراء للسلام معهم وحتى لا يظل بين مطرقة الفرس ، وسندان القبائل الجرمانية .

ومع ذلك ؛ فإحقاقًا للحق أن الإمبراطور جستنيان يتفوق هو الآخر على مانويل كومنين فالأخير لم يقدم أثراً حضاريًا يخلده فى التاريخ البيزنطى أو فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، أما جستنيان فقد ترك أثراً حضاريًا فى صورة الصحوة القانونية فى عهده وإحيائه للقانون الرومانى من خلال المجموعات القانونية المعروفة بالجامع ، والمختار ، والمتجددات والتى كانت أساسًا لأى تطور قانونى فى أوروبا العصور الوسطى فيما بعد عصره ، كذلك يذكر له المؤرخون تشييده كنيسة الحكمة الإلهية Hagia Sophia ، والتى عدت تحفة معمارية

قائمة بذاتها وآية من آيات الفن المعمارى البيزنطى ولاتزال قائمة إلي اليوم شاهدة على النهضة العمرانية فى عهده .

ثالثًا : اتجه البعض إلى الدفاع المستميت عن الإمبراطور مانويل كومنين دون وجه حق من خلال الوقوع فى كاريزما البطل Carisma ، وكذلك الرغبة فى الاختلاف مع جهابذة التاريخ البيزنطى ، وحاول ذلك الفريق جاهداً - دون جدوى - تجميل وجه الإمبراطور البيزنطى المهزوم فى مرياكيفالون ، وقدم البعض مثالاً فريداً لكتابة التاريخ بصورة تبريرية غير أن التحليل المتأنى للأحداث يكشف لنا بحق ابتعاده عن الموضوعية الواجبة .

رابعًا : قد يرد البعض بأن مانويل كومنين ينبغى ألا يتحمل بمفرده مسئولية كارثة ١٢٠٤م[٢١]، ومعهم بعض الحق فى ذلك لأن " السقوط " فى التاريخ عملية معقدة ومركبة تتداخل فيها العوامل خاصة الداخلية قبل الخارجية ، ومع ذلك ؛ فإن سياسات ذلك الإمبراطور نحو الغرب والامتيازات الكبيرة التى قدمها للإيطاليين أوغرت صدور البيزنطيين وكانت عاملاً حاسمًا وراء كارثة العام المذكور .

خامسًا : قد يتصور البعض أن نور الدين محمود هزم هو الآخر فى معركة البقيعة عند سفح حصن الأكراد التابع لإمارة طرابلس الصليبية عام ١١٦٢م ؛ وبالتالى فإنه هو الآخر تعرض للهزيمة وليس الإمبراطور البيزنطى المذكور فقط ، وللرد على ذلك نقول شتان بين البقيعة ومرياكيفالون ؛ فالأولى محدودة وتكاد تكون بلا نتائج حقيقية - وهى تشبه معركة أرسوف ١١٩١م - بل ظل بعدها مؤسس الدولة النورية يصارع الصليبيين ، أما مرياكيفالون؛ فكانت كارثة حقيقية وقضت على أى أمل بيزنطى فى استرداد آسيا الصغرى من السيادة السلجوقية بصورة نهائية .

سادسًا : إن التقويم التاريخى الموضوعى للإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين تجعلنا ندرك أنه لم يكن على نفس المستوى من الكفاءة للإمبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III The Ausaurian (٧١٧ - ٧٤١م) ، كما لم يكن نداً للإمبراطور باسل الثانى قصاب البلغار Basil II Bulgaroctonos (٩٧٦ - ١٠٢٥م) ، بل عندما يقارن بكل من ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨٠ - ١١١٨م) ، ومن بعده حنا كومنين John Comnenus (١١١٨ - ١١٤٢م) نجد أنهما يتفوقان عليه على الرغم من أن الثلاثة ينتسبون إلى أسرة واحدة هى أسرة آل كومنين التى قادت صحوة واهمة فى التاريخ البيزنطى .

ذلك عرض عن الدور التاريخى لنور الدين محمود ومانويل كومنين كرؤية مقارنة من عصر الحروب الصليبية .

الهوامش :

(١)أدين بفكرة هذا المقال لندوة ٨٠٠ عام على الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية ١٢٠٤م التى عقدت من جانب سمنار العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الذى أتشرف برئاسته وعقدت الندوة المذكورة فى يوم ٢٠٠٤/١٢/٣٠م وحاضر فيها أ.د. إسحق عبيد أستاذ العصور الوسطى وكاتب هذه السطور وذلك بقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

(٢) تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨م ، وهناك تحقيق آخر بعنوان تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، ط. دمشق .

(٣) تحقيق نيكيتا اليسيف ، وقد نشرها فى مجلة الدراسات الشرقية ، م (٢٥) ، عام ١٩٧٢م

B.E.O., T.XXV, 1972 .

(٤) حقق سامى الدهان زبدة الحلب ، وصدر الجزء الثانى فى دمشق عام ١٩٥٤م ، أما بغية الطلب فقد حقق تراجم السلاجقة منه على سويم ، ط. الجمعية التاريخية التركية ، ط. أنقرة ١٩٧٦م ، وفيما بعد حققه كاملاً سهيل زكار ، وصدر بدمشق .

(٥) تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م.

(٦) صدرت من الكتاب المذكور طبعة تجارية بالقاهرة ، ثم حققه المحقق الراحل أ.د. محمد حلمى أحمد ، ط. القاهرة .

(٧) قام كل من بابكوك وكراى بترجمة النص اللاتينى المنشور فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المجلد الأول إلى الإنجليزية وصدر جهدهما فى نيوريورك عام ١٩٤٣م :

William of Tyre, A History of the deeds done beyond The Sea, Trans.By Babcock and Krey, Vol. I, New York, 1943 .

(٨) قام ترتون بترجمة الحولية السريانية المجهولة إلى الإنجليزية ، وصدرت الترجمة المذكورة فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد عام ١٩٣٣م :

Anonymous Syriac Chronicle, The Frist and Second Crusade, Trans.By Tritton, J.R.A.S., 1933 .

(9) Cinnamus, The deeds of John and Manuel Comneuus, Trans. By Charles M.Brand, Colombia 1976 .

وقد ترجمه الراحل أ.د. حسن حبشى إلى العربية وعلى وشك الصدور .

(١٠) قمت بترجمة عمل هاملتون إلى العربية ، وصدرت الترجمة ضمن كتاب الحروب الصليبية لسيتون ويلدوين فصول مختارة ، بالإشتراك مع أ.د. سعيد البيشاوى ، ط. رام الله ٢٠٠٥م.

(١١) عن كيناموس انظر : مقدمة الترجمة العربية التى أعدها الراحل أ.د. حسن حبشى .

(١٢) عن نيكتاس خونياتس انظر : مقدمة الترجمة العربية التى أعدها الراحل أ.د. حسن حبشى .

(١٣) قامت الباحثة الأمريكية فرجينيا بيرى بترجمة عمل أودو الدولى إلى الإنجليزية وصدرت الترجمة فى نيويورك .

Odo of Dol , De profectione Ludovici VII in Orien, ed. Berry, New York.

(14) Otto of Frising, The deeds of Frederick Barburossa, Trans. By Charles Christopher Microw, Toronto 1966 .

(١٥) عن أ.د. محمود سعيد عمران انظر الكتاب التذكارى الذى خصص على شرفه وصدر بالإسكندرية عام ٢٠٠٤م . وتشرفت بإعداد دراسة فيه لتكريم ذلك العلم السكندرى .

(١٦) عن سقوط الرها انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦٨، علية الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٩٥ - ٣١٢ .

(١٧) عن تلك المعارك انظر : محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى - الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤م ، ط. القاهرة ١٩٩٨م ، ص ١٧٠ - ١٧٧ .

(١٨) عن معركة حطين انظر : العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٨١ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٧٩ .

Jacques de Vitry, p. 102, Oman, A History of The art of War, Vol. II, p. 332 .

محمد مؤنس عوض ، تاريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية ، ط. رام الله ٢٠٠٤ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١٩) عن معركة مرياكيفالون انظر :

Nicetas Choniates, p. 234 - 245 ; Nicol, A Biographical dictionary of the Byzatine Empire, London 1991, p. 79 .

شارلز أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى بدر ، ط. القاهرة ١٩٩٦م ، ص ٢١١ ، محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين، على عوده الغامدى ، "معركة مرياكيفالون ١١٧٦م " مجلة كلية الشريعة - جامعة أم القرى ، ١٤٠٤م .

(٢٠) عن معركة مانزكرت انظر : العماد الأصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٤٠ - ٤٤ .

Psellus Chronographiu, in Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History, Cairo 1971, pp. 58-60, Cahen, "la Campayne de Mantzikert", B., Vol. IX, Année 1943. p. 613-642 .

شاكر مصطفى ، " دخول الترك الغز إلى الشام " ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر ، مؤتمر بلاد الشام ، ط. بيروت ١٩٧٤م ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢١) عن الحملة الصليبية الرابعة انظر : إسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، محمد مؤنس، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، ط. القاهرة ١٩٩٩م - ٢٠٠٠م ، ص ٢٥٣ - ٢٧٥ .

(٧)

د. أحمد فؤاد سيد (١٩٥١-٢٠٠٥م)

مؤرخ تاريخ مصر الإسلامية

أضواء على حياته ومؤلفاته

غيّب الموت فى دولة تشاد، يوم الأربعاء الموافق ٢٦/٥/٢٠٠٥م، المؤرخ النابه الدكتور/ أحمد فؤاد سيّد، الأستاذ المساعد بقسم التاريخ بكليّة الآداب - جامعة عين شمس؛ وبالتالى فقد القسم المذكور واحداً من أبرز أبنائه؛ وفى الصفحات التالية؛ أقدّم للقارىء العربى فى كل مكان لمحة عن حياة ذلك المؤرخ، وإسهاماته العلميّة.

وقد ولد شقيقى الروحى، وصديقى، وزميلى الراحل؛ بالقاهرة فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٥١م، فى حىّ الدرب الأحمر، ووالده هو المحقّق الكبير الأستاذ/ فؤاد سيّد، الذى عمل بدار الكتب المصريّة، ووصف بأنه كان حجّة فى المخطوطات العربيّة. وهكذا؛ نشأ مؤرخنا فى بيئة علميّة، ولا أغفل أن شقيقه أ.د./ أيمن فؤاد سيّد، الأستاذ فى معهد الدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة، حجّة هو الآخر فى تحقيق المخطوطات العربية، وكذلك فى تاريخ الفاطميين، وتدرّج أحمد فؤاد سيد، فى مراحل التعليم المختلفة؛ إلى أن التحق بقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس، وذلك عام ١٩٧٠م، وتخرّج منه عام ١٩٧٤م، ثم حصل على السنة التمهيدية للماجستير عام ١٩٧٥م، وقام بمناقشة أطروحته للماجستير عام ١٩٨٣م، بعنوان: "نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر(٥٦٧هـ- ٦٤٨هـ)"، كلّ من الراحل أ.د./ السيد عبد العزيز سالم، أستاذ التاريخ الأندلسى بكلية الآداب - جامعة عين شمس، أ.د./ صلاح الدين البحيرى، أستاذ تاريخ الأيوبيين، والمماليك بكليّة الآثار- جامعة القاهرة. وقد حظيت الرسالة المذكورة بتقدير وافر من لجنة المناقشات التى أثنت عليها ثناءً كان بها جدير.

من بعد ذلك؛ قام بتسجيل أطروحته للدكتوراه، تحت عنوان "تاريخ الدعوة الإسلاميّة بمصر إلى نهاية عصر الولاه (٦هـ - ٢٥٤هـ)"، وناقشه كلّ من أ.د./ عبد المجيد أبو الفتوح،

الأستاذ بكليّة الآداب - جامعة المنصورة، أ.د./ فتحى عبد الفتّاح أبو سيف، الأستاذ بقسم التاريخ بكلّية الآداب - جامعة عين شمس. وبالفعل حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٠م.

مما يذكر عن المؤرخ الراحل إبتعاثه إلى تونس؛ حيث إلتقى هناك بالمؤرخ التونسى البارز أ.د./ الحبيب الجنحانى، وكان ذلك من عوامل إفادته من إسهامات المؤرخين التونسيين المعاصرين، دون أن يتأثّر بمنهجية ذلك الأستاذ القائمة على الماديّة التاريخيّة.

جدير بالذكر؛ إعتمد مؤرخنا على قاعدة تراثية متميّزة؛ فكان خبيراً بكُتب التراث، وخاصة المصادر التاريخية العربية، وكُتب الفقه، والتفسير بصورة تدعو للإعجاب، ويصعب أن نجد لها نظيراً لدى الجيل الحالى من الباحثين؛ ويكفى مطالعة مئات المصادر فى رسالتيه للماجستير، والدكتوراه، كى يتأكّد لنا ذلك دون كبير عناء.

كذلك؛ يذكر عن المؤرخ الراحل حاسّته الدينية القويّة، والمتدفّقة؛ فقد حافظ على هويّته الإسلاميّة، ورفض اعتناق أى مذهب تفسيرى للظواهر التاريخيّة يتعارض مع تلك الهويّة. وظهرت بجلاء عاطفته الدينية فى ثنايا كُتبه؛ خاصة كتابه الضخم "تاريخ الدعوة الإسلامية فى عهد النبى (صلّى الله عليه وسلّم) والخلفاء الراشدين بُلاغ الدعوة"، ط. القاهرة ١٩٩٧م، وظلّ مخلصاً للإسلام، وشهدت كافة كتاباته سواءً الكتب، أو المقالات على تلك الناحية.

ولا أغفل هنا؛ أن تلك الزاوية -على نحو خاص- نجدها كذلك بجلاء فى كتابه "الحكم الإسلامى لفلسطين فى ظلّ دولة الخلافة الإسلاميّة (١٥هـ- ٤٩٢هـ)، ط. القاهرة ٢٠٠١م؛ ويكفى أن أقدّم للقارىء مثالاً من كلّ كتاب، دالاً على ذلك؛ ففى الكتاب الأولّ يشير إلى ما نصّه: "ولقد شغلتنى القضايا، والمسائل التاريخية المرتبطة، والمتعلّقة بتاريخ الدعوة الإسلامية، واستأثرت بجانب كبير من تفكيرى، واجتهادى، وجهدى، على طول دراساتى، وقراءاتى فى التراث الإسلامى باختلاف جوانبه، ومجالاته، ولأنها فى الواقع تمثّل حدثاً تاريخياً فريداً لا نجد نظيراً له فى تاريخ الإنسانيّة؛ فمنذ عهد آدم، وإلى أن تقوم الساعة؛ فليس ثمة دين من الأديان ظهر على الدين كلّه كما ظهر الإسلام، وندر أن توجد أمّة من الأمم، أو يوجد شعب من الشعوب لم تبلغه الدعوة الإسلاميّة، ولم تستحوذ على أعداد غفيرة من أبنائه"(١).

أما الكتاب الثانى؛ فأجد فيه بعض السطور التى تعكس عاطفته الإسلاميّة الجيّاشة؛ إذ يقول ما نصّه: "يتزامن ظهور هذا الكتاب، مع انتفاضة الأقصى المباركة للشعب الفلسطينى الباسل، لمطالبته بحق تقرير مصيره، واستكمال تحرير أرضه، وقيام دولته الفلسطينية، وعاصمتها القدس عاصمة أبديّة لها، وهو يجلو صفحة مشرقة من تاريخ الدعوة الإسلامية، والحكم الإسلامى لفلسطين فى عهد النبى (صلّى الله عليه وسلّم) والخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم)، حتى انتهاء حكم الخلفاء الفاطميين لفلسطين (من سنة ٧هـ- ٤٩٢هـ)؛ أى طوال ما يقرب من خمسة قرون مستمرّة، نعمت فلسطين خلالها بعدالة الحكم الإسلامى، وبتطبيق الشريعة الإسلامية العصماء السمحة، وما تحققه للناس من عدالة، وحريّة، ومساواة، وإخاء، ورحمة، وسعادة"(٢).

ويضاف إلى ذلك؛ نجد أن ذلك المؤرّخ الراحل امتلك صفة يندر وجودها حالياً لدى عشرات من المؤرخين من الجيل الحالى، فى صورة الصبر، والجلد، والرغبة النهمة من أجل البحث فى المصادر التاريخية، والمراجع الحديثة لساعات، وساعات دون أن يصيبه الكلل، أو يدركه الملل؛ وهذا أمر لاحظته شخصياً عندما ترددت على منزله، أو بمعنى أدقّ مكتبته فى حى الظاهر، حيث أدركت أنه عاشق حقيقى للتراث العربى، وأنه بالفعل إمتداد صادق لوالده المحقق البارز الكبير فؤاد سيّد، الذى صارت له مكانة محليّة، وعربيّة، ودوليّة(٣).

وضمن حديثى عن صفات مؤرّخنا الراحل؛ أجد لزاماً علىّ تنبيه القارىء الكريم إلى امتلاكه صفة محورية فى شخصيّته فى صورة الرغبة فى التحدّى، والإصرار على مواصلة جهده العلمى مهما صادفته من صعاب، وعقبات(٤). فقد تعرّض للعديد من الصعاب خلال مرحلتى الماجستير، والدكتوراه؛ وكذلك عندما تقدّم بإنتاجه العلمى للحصول على درجة أستاذ مساعد؛ وعلى الرغم من ذلك؛ ومع توالى الأعوام، العام تلو الآخر، وتأخّره عن تحقيق أهدافه؛ إلا أنه لم يفقد البتّة الأمل الأخضر الوثّاب الذى غمر قلبه، بفضل الله تبارك وتعالى، وواصل طريقه، وصارت مؤلفّاته تمثّل معلماً خاصاً فى تاريخ مصر الإسلامية؛ ظهرت فيها شخصيته العلمية بصورة جليّة، وحظيت بتقدير القاصى، والدانى، فى داخل مصر، وخارجها؛ وأقول ذلك دونما مبالغة، أو اعتساف فى الأحكام، وأتصوّر أن من طالعها بذهن واع؛ يدرك أن ذلك بمثابة إحقاق حقّ لا أكثر.

ولا أغفل هنا؛ فى معرض حديثى عن صديقى، وزميلى الذى نكبت برحيله، الإشارة إلى دماثة خلقه، فلم أجده يوماً يغتاب أحداً، أو يهاجمه إلا فى القليل النادر، كما كان متسامحاً حتى مع من تسبّب فى تأخّره عن بلوغ أهدافه العلميّة، وفى الوقت الذى تعجّ فيه الساحة العلميّة بالأدعياء، والمتآمرين من شباب الباحثين، والباحثات الصغار. فقد كان د. أحمد فؤاد، صاحب قامة علميّة، وخلفيّة فارعة تُذكر له، ونتذكرها عندما يشتدّ الظلام الدامس فى عصر غاب فيه القمر!!!

والآن؛ أود تقديم عرضاً ببليوغرافياً عن مؤلّفات ذلك المؤرخ الراحل، من أجل أن يتعلّم من سيرته الكثيرون.

أولا: الكتب

١- مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ٥٦٧هـ- ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المملوكى، مع ترجمة، ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية؛ تنشر لأول مرّة)، ط. القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢- الإسلام والثقافة العربية فى بلاد ما وراء النهر الإسلامية (آسيا الوسطى، والقوقاز) من عصر الخلفاء الراشدين إلى عصر الخلفاء العثمانيين، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

٣- تاريخ الدعوة الإسلامية فى عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، والخلفاء الراشدين بُلاغ الدعوة، ط. القاهرة ١٩٩٧م.

٤- الحكم الإسلامى لفلسطين فى ظل دولة الخلافة الإسلاميّة ١٥هـ- ٤٩٢هـ)، ط. القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م(٥).

٥- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب (٥٦٧هـ- ٦٤٨هـ)، زوال الخلافة الفاطمية، والفكر الشيعى الإسماعيلى، وعودة سيادة الخلافة العباسيّة على مصر، والفكر السنّى إليها؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، لإسترداد بيت المقدس، ط. القاهرة ٢٠٠٢م.

ثانيا: البحوث والمقالات

١- "ملاحظات جديدة حول ظهور المماليك"؛ ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداه إلى أبى فهر محمود محمد شاكر، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

٢- "عدالة الحكم الإسلامي لمصر في عصر الولاة (١٨هـ- ٢٥٤هـ)، ومظاهر التسامح الديني بها، في ضوء "أوراق البردي العربية"، مجلّة الدراسات البرديّة- مركز الدراسات البرديّة والنقوش، جامعة عين شمس، عام ١٩٨٧م.

٣- " التعريب الإداري في الإسلام من خلال البرديّات الإسلامية"، بحث ألقي في ندوة مركز الدراسات البرديّة، في ١٩/١٢/١٩٩٤م، في ندوة عنوانها: "الأوضاع القانونية، والإدارية، والإجتماعية في مصر على مرّ العصور من خلال البردي والنقوش".

٤- "نزول القبائل العربية ريف مصر، واستيطانها له، وغلبة الإسلام على قرى مصر في القرن الثالث الهجري في ضوء أوراق البردي العربية"، مجلّة الدراسات البرديّة- مركز الدراسات البرديّة والنقوش، جامعة عين شمس، عام ١٩٩١م.

٥- "عدالة شروط حق الذمّة الذي منحه عمرو بن العاص للقبط، وأثره في تآلفهم على الإسلام تدريجياً"، بحث ألقي في المؤتمر العشرين للبردي الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٨٩م.

٦- " الدلالات التاريخية، والأثرية لأماكن العثور على البرديّات العربية"، مجلّة الدراسات البرديّة- مركز الدراسات البرديّة والنقوش، جامعة عين شمس، عام ١٩٩٦م.

٧- " طرز البردي العربي الإسلامي ودلالاتها الدينية، والسياسية، والإدارية"، محاضرة ألقيت يوم ٥ أبريل عام ٢٠٠٠م، بمركز الدراسات البرديّة والنقوش، جامعة عين شمس، ضمن محاضرات الموسم الثقافي للمركز عام ٢٠٠٠م.

٨- "وثائق الجنيزة؛ هل هي امتداد للبرديات العربيّة؟" بحث ضمن المؤتمر الأول للبردي العربي.

٩- المخطوطات العربية لمؤلّفات السخّاوي، بحث ضمن المؤتمر الخاص بالسخّاوي، الذي عقد في جامعة عين شمس عام ١٩٨٢م.

ولا ريب في أن تلك المؤلّفات تدلّ على العديد من الدلالات يمكن إجمالها في الآتي:

أولاً: إهتمّ مؤرخنا الراحل: بالتأليف في مجال مصر الإسلامية التي عشقها، وأخلص لتاريخها إلى درجة كبيرة! ، وبالتالي كانت مؤلّفاته في المجال المذكور علامة بارزة ضمن التأليف العربي الحديث عن مصر تحت ظلال الإسلام، وفي كافة مؤلّفاته عنها إهتم اهتماماً خاصاً بالتوثيق المصدري في المقام الأول دون إغفال المراجع الأجنبية، والعربية، والمعرّبة.

ثانيًا: من الملاحظ؛ أن د. أحمد فؤاد عشق البرديّات العربية، ولذلك ساهم فى أمرها بالعديد من الدراسات الجادة، وهى مادة تاريخية يصعب التعامل معها، وتحتاج إلى خبرة علميّة واسعة بالعصر التاريخى، وبطبيعة البرديّات ذاتها، وكذلك ما ورد بشأنها فى المصادر التاريخية الأخرى. وحقيقة الأمر؛ أنه من الممكن أن يتبادر إلى ذهن الباحث ثلاثة مؤرخين اهتمّوا بالبرديّات العربية؛ المستشرق أدولف جروهمان، والراحل د. أحمد فؤاد، ود. سعيد مغاورى. والأخير تُعقد عليه الآمال الكبار فى الإهتمام بالبرديّات العربية، ونشرها نشراً علمياً دقيقاً.

ثالثًا: عنى مؤرخنا الراحل بالعصر الأيوبى عناية خاصة؛ وتشهد رسالته للماجستير عن خبرة "أستاذ" حقيقى بذلك العصر؛ وما زلت أتذكّر شهادة مؤرخين بارزين راحلين؛ الأول الراحل أ.د. عبد المنعم ماجد الذى درس على يدى المستشرقين الفرنسيين ماريوس كنار Marius Canard، وليفى بروفنسال Levi Provencalحيث قال بالحرف الواحد وهو يحمل رسالة أحمد فؤاد، بعد أن طالع قسما منها:"أحمد فؤاد هذا... بحر"، كناية عن غزارة علمه؛ أما المؤرخ الثانى فهو ابن جامعة الإسكندرية الراحل أ.د. السيد عبد العزيز سالم، الذى أشاد بها، وقال: "إنها عدّة رسائل جامعية، وليست رسالة واحدة"؛ وذلك فى يوم المناقشة.

ويلاحظ أن تلك الرسالة لم تنشر كاملة؛ وعندما تنشر، سيتأكّد للقاصى، والدانى، أن الراحل د. أحمد فؤاد، كان خبيراً بالعصر الأيوبى بصورة لافتة للنظر، وأنه لم يكن مؤرخاً عادياً، بل ظاهرة استثنائية من الصعب أن تتكرّر فى المستقبل القريب على الأقل، من خلال مشاهداتى الحالية لنوعية الجيل الجديد من المؤرخين الشبّان السريعى التكوين العلمى، والمتعجلين لقطف الثمار بل، ومنهم من يتآمر على أساتذته، وهو لا يملك عشر أعشار معرفتهم العلميّة، ولن يمتلكها!!!.

رابعًا: إمتد اهتمام مؤرخنا الراحل إلى العصر المملوكى؛ فكتب عنه باقتدار ملفت للإنتباه، ويكفى مطالعة كتابه "مصادر تاريخ مصر الإسلامية" كى يتأكّد القارىء الكريم كيف أن تلك السطور التى أخطّها بقلمى لم تغادر الحقيقة فى شىء، وأتصوّر أن القدر لو أطال فى عمر ذلك المؤرخ المتميّز، لقدّم للمكتبة العربية دراسات جادة عن العصر المملوكى على نفس مستوى إجادته فى الكتابة التاريخيّة عن مصر فى عصر الولاة، والعصرين الفاطمى، والأيوبى، وهذه من المحاسن التى تذكر للراحل الفاضل.

خامساً: أفاد مؤرخنا؛ من إجادته للإنجليزية، والفرنسية فى إعداد مؤلفاته، واستفاد من بعض المترجمين فى الترجمة من الألمانية، والإيطالية، وبالتالى يتأكّد لنا اعتماده على المؤلفات الأوروبية الحديثة، فى حين ينأى عن ذلك عدد من الباحثين المصريين، والعرب إيثاراً للسلامة؛ وبالتالى؛ يمكن القول أن ذلك المؤرخ أفاد من إجادته للغات الأجنبية فى إعداد أبحاثه.

سادسًا: من الجلىّ البيّن؛ مدى النشاط الزاخر الذى توافر لمؤرخنا الراحل؛ فلم يترك عاماً من الأعوام دون أن يساهم فيه بإصدار كتاب، أو بحث، أو مقال، أو إعداد محاضرة هنا، أو هناك؛ وهو أمر يذكّرنا بجيل انقرض من المؤرخين، والأدباء، لم يكن يركن إلى الدعة، والهدوء، بل كانت حياته بمثابة عمل علمى متواصل؛ لا يهدأ من إنجاز عمل علمى، إلا ويبادر بالسعى لإتمام عمل آخر.

سابعًا: من الملفت للإنتباه؛ أن أسلوب مؤرخنا الراحل إمتاز بالدقة، والسلاسة، وعدم الإطناب، والتزامه بالطابع الأكاديمى، وهو أسلوب عكس تفوّقه حتى منذ أن كان معيداً، ويشارك فى المؤتمرات الدولية؛ مثل مؤتمر السخّاوى، على نحو عكس أنه ابن عائلة علميّة، وأن المناخ العلمى الذى عاش فيه أثمر لنا مؤرخاً ذا أسلوب علمى دقيق، وبالتالى لم يكن ذلك الأسلوب وليد الصدفة، بل من خلال تكوّن استمرّ عشرات السنين.

ثامنًا: يوصف المؤرخ الراحل؛ بأنه من أشدّ مؤيّدى كفاح الشعب الفلسطينى، ولذلك فإن كتابه: "الحكم الإسلامى لفلسطين"، صفعة حقيقية على وجه سياسات التهويد التى يحاول من خلالها الصهاينة طمس حقائق التاريخ؛ حيث أكّد على عروبة فلسطين عامة، والقدس خاصة؛ وأشار إلى أن الأبحاث الأثريّة التى يقوم بها الآثاريون الإسرائيليون منذ عام ١٩٦٧م، إلى الآن، لا تجد إلا ما يدعم الحقوق العربية؛ التى بدأت منذ أن أسّس اليبوسيون مدينة القدس منذ آلاف السنين؛ وهكذا؛ ذهبت أحلام الغزاة أدراج الرياح، واعترفت الأرض بعروبتها؛ وبالتالى لم ينفصل د. أحمد فؤاد عن قضايا أمّته العربيّة، والإسلاميّة؛ وكان عرضه التاريخى دفاعاً عن عروبة فلسطين، والقدس، يتّسم بالدقّة، والموضوعيّة، وغزارة العرض العلمى بصورة تدعو للتقدير، والإعجاب[٦]. ويكفى أن أقدم النصّ التالى للقارىء الكريم من أجل تأكيد ذلك؛ إذ يقول: "برع اليهود فى التدليس على الحقيقة التى تقطع بعدم وجود أى أثر مقدّس لهم فى أرض فلسطين، لذلك فإنهم عقب

المؤتمر الصهيونى الأول المنعقد فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧م، أخذ زعماؤهم فى البحث عن أثر مقدّس يجمع يهود العالم للإيمان به، ويثير العواطف الدينية لديهم؛ واشتدّت حاجتهم لذلك إثر زيادة الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين. فما كان من هؤلاء الزعماء إلا أن ابتدعوا ما يسمّى حائط المبكى كجزء باق من هيكل سليمان بطول ثلاثين (٣٠) متراً، ومن الحائط الغربى للمسجد الأقصى البالغ طوله (١٠٠) متر، وعلوّه (٢٠) متراً ؛ وحين أصدر بلفور وعده سنة ١٩١٦م، بأن فلسطين وطن قومى لليهود، أخذ اليهود فى استغلال ما ابتدعوه، وما أسموه بحائط المبكى، فى الدعاية لجذب المهاجرين اليهود لفلسطين لربطهم بأثر مقدّس لهم بفلسطين. والملاحظ أنه قبل عام ١٩٠٠م، لم يرد إسم حائط المبكى فى أى وثيقة يهوديّة"(٧).

ويواصل مؤرخنا العشمسىّ شهاداته للتاريخ؛ قائلا: "ولقد ثبت ملكيّة هذا الحائط - وهو حائط البراق- لعرب فلسطين، فى عصر دولة الخلافة العثمانية (ق١٤هـ / ق ٢٠م). بحجج الوقف الإسلاميّة الشرعيّة الصادرة عن المحاكم الشرعية الفلسطينية، وبالأحكام القضائية لقضاة فلسطين فى عصر الخلافة العثمانية، وحتى بنصوص تقارير لجان التحقيق الدولية، التى كونتها عصبة الأمم (السلف الأول للأمم المتحدة)، إبان الإحتلال البريطانى لفلسطين، فقد عرض الجانب اليهودى على لجنة الأمم المتحدة ٣٥ وثيقة، ومستنداً مقابل ٢٦ وثيقة من العرب المسلمين إلى عصبة الأمم، وحكومة الإنتداب البريطانى، وجاء فيه ما مجمله: "للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربى، ولهم وحدهم الحق العينى فيه، لكونه يؤلّف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التى هى من أملاك المسلمين (.....) الخ(٨)".

ويستمر فى عرضه؛ قائلا: "... وغنى عن البيان أن إدعاء إسرائيل أن هيكل سليمان المزعوم لا يزال موجوداً تحت المسجد الأقصى، أمر لا يقبله، ولا يصدّقه عقل، نظرا لما تقدّم بيانه، وتقصّيه، أن هذا الهيكل خُرّب، وسُوّى بالتراب أكثر من مرّة على يد الملك البابلى بختنصّر، ثم على يد أباطرة روما الوثنيين، تيتوس، وفسبازيانوس، ثم على يد الأمبراطورة هيلانة، أم الأمبراطور قسطنطين الأول، أول أباطرة بيزنطة المتنصّرين؛ وليس أدلّ على زيف دعوى إسرائيل، وبطلانها، وتهافتها من الحفائر الأثرية المستمرّة التى قامت بها إسرائيل، منذ احتلالها للقدس سنة ١٩٦٧م، وحتى اليوم؛ أى على مدى ٣٣ سنة؛ ولم تسفر عن العثور على حجر واحد يمكن نسبته إلى هيكل سليمان" (٩).

تاسعًا: جدير بالملاحظة: أدرك مؤرخنا أهمية التصدى لتصورات المستشرقين الذين وجد منهم من يهاجم الإسلام، وتاريخ المسلمين فى العصور الوسطى، ولذلك نجد اتجاهاً واضحاً فى مؤلفاته يهدف إلى تحقيق رؤية تاريخية موضوعية تواجه ذلك الفريق من الباحثين الغربيين، وهكذا؛ وجدناه يهتمّ بكتابات المؤرخ اليهودى سيمون جويتاين الذى اهتم بدراسة اليهود من خلال كتابات الجنيزة، وتعدّ إسهامات الدكتور أحمد فؤاد عن تلك الوثائق من أهم ما كتب باللغة العربية، مع عدم إغفال جهد كلّ من: الأستاذ الدكتور عطية القوصى بجامعة القاهرة، وما قامت به الدكتورة محاسن الوقّاد من جامعة عين شمس، مع ملاحظة أن د. أحمد فؤاد سبق الباحثة الأخيرة فى الإهتمام بوثائق الجنيزة، ومواجهة كتابات الباحثين اليهود بشأنها، وجاءت إسهاماته تتسم بالتحليل والتفسير، والخروج برؤية علمية دقيقة، وليس مجرّد جمع المادة، وترتيبها فى شكل أكاديمى دون أدنى قدر من التحليل، وهو أمر فى مقدور طلاب قسم التاريخ القيام به فى يسر دون بذل مجهود كبير!.

ولا أغفل هنا؛ الإشارة إلى أن مؤرخنا الراحل تصدى للمستشرقين من خلال الكتابة ، والمناقشة، أى أنه نازلهم بالقلم، واللسان، فعندما زار جامعة عين شمس مسيو شيفالييه، وهو من كبار المؤرخين الفرنسيين من جامعة السوربون، وألقى محاضرة فى كلية الآداب، وكذلك فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وقدم رؤية "فرنسية" للعديد من زوايا تاريخ المسلمين فى القرون الوسطى، وكان من أشدّ المعارضين له، الراحلة أ.د. نازلى اسماعيل أستاذة الفلسفة الحديثة، ورئيسة قسم الفلسفة سابقا، وكذلك مؤرخنا الراحل، وما زلت أتذكّر كيف تلعثم الأستاذ الفرنسى ، وهو يردّ على الدكتور / أحمد فؤاد الذى فاجأه بالعديد من الملاحظات النقدية، وكان منها ما تعلّق بإسهام المستشرق الفرنسى الكبير، لويس ماسينيون، فى دراسته الضافية عن الصوفى الشهير الحلاج.

عاشراً: فى تصورى أن أ.د. أحمد فؤاد كان يتحرك فى اتجاهات متعددة، بتعدد مراحل تاريخ مصر فى العصور الوسطى، وكذلك فيما يتّصل بالكتابة التاريخية عند المسلمين فى تلك العصور، وأعلامها، وأيضا كتابات المستشرقين، والردّ عليها، ومن الملفت للإنتباه؛ أن تلك الإتجاهات المتعددة كمّا، واكبها تفوّق كيفى لا يتأتّى إلا لمن امتلك تكوينا علميًا خاصا، وشخصية تملك روح المبادرة، وروحا تدرك أنها صاحبة رسالة، وأتصوّر أن تلك الكلمات تنطبق تمام الإنطباق على جهد مؤرخنا الراحل.

على أية حال؛ كان للموت- وهو ليس منه بدّ- كلمة، وفيض روح أخي، وصديقي، وزميلو د. أحمد فؤاد، ليصيب قسم التاريخ بكليّة الآداب - جامعة عين شمس، فى أبرز أبناء جيل الوسط.

والآن؛ ماذا أقول فى سطورى الأخيرة... "نم يا أحمد فؤاد، هانئاً مطمئناً فى قبرك، فلا ب لفارس تاريخ مصر الإسلاميّة من أن يترجّل من على صهوة حصانه بعد طول حرب؛ والعزاء أنك كالأشجار تموت واقفة، وهكذا قدّمت لنا مثالاً يفيض بالحياة، حتى وأنت جثة هامدة، دا على المؤرخ الشجاع، الذى ظُلم كثيراً، وعشق عصره، ومات غريباً عن أرض الكنانة، ولكن مصر أبداً... أبداً لن تنسى إبنها المؤرخ البار".

الهوامش :

(١) أحمد فؤاد سيِّد، "تاريخ الدعوة الإسلاميَّة فى عهد النبي (صلى الله عليه وسلَّم) والخلفاء الراشدين بُلاغ الدعوة"، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص ٧ .

(٢) أحمد فؤاد سيِّد، "الحكم الإسلامى لفلسطين فى ظل دولة الخلافة الإسلامية ١٥هـ- ٤٩٢هـ"، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص ٧ .

(٣) عن المحقِّق الراحل الأستاذ/ فؤاد سيِّد، أنظر حسام عبد الظاهر؛ فؤاد سيِّد، عاشق المخطوطات (١٩١٦- ١٩٦٧م)، ط. القاهرة ٢٠٠٤م. وأغتنم هذه الفرصة للإشادة بالكتاب المذكور، ومؤلِّفه الشاب النابغ إبن جامعة القاهرة، الجامعة الأم، لكافة جامعات أرض الكنانة.

(٤) ولا أغفل كذلك؛ روح الدعابة ، والسخرية اللاذعة التى امتلكها بجدارة، وما زلت أحفظ عشرات النكات التى كان يطلقها، ويضحك عليها مقهقهاً؛ وأعتقد أن تلك الروح كانت بمثابة الوقود الذى أمدَّه بالحياة، وقهر به خصومه.

(٥) يحتوى الكتاب المذكور على نحو خاص على عدد كبير من مقالات المؤرخ الراحل، وقد أعانتنى فى إعداد مقالتى الحالية؛ أنظر ص ٢٣٢- ص ٢٣٣، بالإضافة إلى متابعاتى الببليوغرافية.

(٦) أنظر على نحو خاص: أحمد فؤاد سيِّد، الحكم الإسلامى لفلسطين، ص ٩٨ - ص ١٠٠ .

(٧) نفسه، ص ، ٩٩ .

(٨) نفسه، نفس الصفحة.

(٩) نفسه، ص ١٠٠ .



(٨)

أ.د. حسن حبشى
مؤرخ مصرى رائد للعصور الوسطى

نكبت أرض الكنانة والعالمين العربى والإسلامى فى يوم السبت الموافق ٢٠٠٥/٧/١٦م، بوفاة ابن بار من أبنائها الأفذاذ الذين يندر أن يجود الزمان بأمثالهم مهما طال، فى صورة المؤرخ الأستاذ الدكتور حسن حبشى الأستاذ بكلية التربية -جامعة عين شمس؛ والذى كان بمثابة ظاهرة علمية فريدة تأليفا، وتحقيقا، وترجمة؛ وفى المقال التالى أقدّم سطورا قليلة عن عملاق شامخ لاّ ولن تفيه حقّه، فهى حصاد الهشيم غير أنها بمثابة ناقوس يدق ويحذّر بأن مصرنا الغالية تفتقد رائدا وراء آخر من جيل حمل على اكتافه إضاءة الطريق لمئات الباحثين من بعده؛ ورحل فى صمت مكتفيا بثواب الآخرة.

ويلاحظ أننى أعتمد فى إعداد هذا المقال على أوراق سيرته العلمية بالإضافة إلى ساعات طوال اقتنصتها من عمر الزمان مجالسة مع ذلك الرائد الفذّ، بالإضافة إلى إتصالى الشخصى به فى مواقف حياتية متعددة علمية، واجتماعية، على نحو سوف يلاحظه القارىء مع قراءته لهذا المقال.

ولد أستاذنا حسن حبشى محمد محمود فى القاهرة عام ١٩١٥م ، وتدرج فيما بعد فى مراحل التعليم المختلفة حتى حصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ بتقدير ممتاز من جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، وذلك فى عام ١٩٣٨م، ثم نال دبلوم التربية، وعلم النفس فى العام التالى أى عام ١٩٣٩م من معهد التربية العالى للمعلمين، وواصل طريقه العلمى فحصل على درجة الماجستير فى موضوع نور الدين والصليبيون بإشراف المؤرخ الرائد أ. د. محمد مصطفى زيادة عام ١٩٤٦م، ومن بعد ذلك أوفد إلى انجلترا وبالتحديد جامعة لندن فنال منها الدكتوراه عام ١٩٥٥م.

وكثيرا ما حدّثنى كيف ان السنوات التسع التى أمضاها فى انجلترا كانت أخصب من الخصوبة ذاتها؛ فقد تعلّم على أيدى كوكبة من المستشرقين الرواد، واتصل ببرنارد لويس

الإنجليزى، وديلا فيلا الإيطالى؛ وأخذ من كل منهما خبرته العلمية، ناهيك عن استفادته من تلك الإقامة الطويلة هناك فى إجادته للإنجليزية بصورة تثير الإعجاب، والإحترام ، والتقدير فى آن واحد؛ ومن الإنصاف القول أن حسن حبشى قد تكون تكوينا علميا راقيا من قبل الإبتعاث إلى إنجلترا ، وذلك بفضل أستاذه الراحل/ محمد مصطفى زيادة، وذلك مكّنه من أن يحسن إستغلال فرصة وجوده هناك.

ومن بعد ذلك، عاد مؤرخنا إلى أرض الكنانة كى يواصل رحلته العلمية، فعمل مدرسا فى قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة عين شمس. ثم أستاذا مساعدا حتى حصل على درجة الأستاذية فى التاريخ الإسلامى والوسيط عام ١٩٥٥م. وفيما بعد أوفد معارا إلى ليبيا ، وباكستان، والسعودية حيث علّم أبناء تلك الدول تاريخ العصور الوسطى والعلاقات بين الشرق والغرب خلالها . كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه التى بلغت (٨٠) رسالة وهو رقم كبير على كافة المقاييس والمستويات.

على أية حال؛ من الممكن ايراد الوظائف التى عمل بها أستاذنا الجليل على النحو التالى:

- مدرس فى South Ealing College of (London)
- عمل مدرسا فأستاذا مساعدا فى كلية الآداب - جامعة عين شمس.
- عمل كأستاذ كرسى التاريخ الإسلامى، والوسيط بالكلية المذكورة، وحاليا يعد أستاذا غير متفرغ بكلية التربية - جامعة عين شمس.
- شغل وظيفة رئيس قسم المواد الإجتماعية بجامعة طرابلس بليبيا .
- قام بالتدريس فى كلية الملك فيصل ببغداد فى العراق.
- تم انتدابه كملحق ثقافى بسفارة مصر فى باكستان.
- عمل أستاذا للتاريخ، ورئيس قسم الدراسات العليا بكلية الآداب، والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

من زاوية أخرى؛ يذكر عن ذلك العالم الرائد عضويته فى العديد من المؤسسات العلمية مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد المخطوطات العربية، ومعهد الدراسات الإسلامية وغيرها...

حقيقة الأمر؛ أن كافة تلك الوظائف والمناصب التى عمل بها مؤرخنا تقدم الدليل الحى على كفاءته العلمية والإدارية على نحو جعله محط أنظار كافة تلك المؤسسات العلمية التى عمل بها.

ولا نغفل؛ تعدد مؤلفاته العلمية بين تأليف، وترجمة، وتحقيق، بصورة يمكن القول عنها - دونما أدنى مبالغة- أنها غير مسبوقة من جانب مؤرخ عربى.

أما المؤلفات فيمكن إجمالها على النحو التالى:

- نور الدين والصليبيون حركة الإفاقة الإسلامية فى القرن السادس للهجرة، ط. القاهرة ١٩٤٩م.
- الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٥٠م.
- الشرق العربى بين شقى الرحى، ط. القاهرة.
- زنجبار من ١٨٩٠- ١٩١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
- الجزائر عبر التاريخ (بالإشتراك)، ط. القاهرة ١٩٥٧م.
- الإحتكار فى العصر المملوكى، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٦م.
- " أضواء جديدة على هجوم القبارصة على الإسكندرية" للنويرى، المجلة التاريخية المصرية عام ١٩٦٧م.
- " الشيال مؤرخا"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦٧م.
- قصة إسلام الصحابة، فى (١٠) أجزاء، وقد تم نشر ٣ أجزاء، ط. القاهرة ١٩٩٧م.
- سرايا رسول الله (صلعم)، جزآن ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- صحابيات صنعن التاريخ، ط. القاهرة ٢٠٠٢م.
- تاريخ العالم الإسلامى منذ الهجرة- دراسة عرضية للعالم منذ الهجرة حتى الوقت الحاضر، (٤) أجزاء، ط. القاهرة.
- الفتح المبين، تمثيلية عن تاريخ مكة حتى فتحها على يدى الرسول (صلعم).

أما فى مجال الترجمة؛ فكان للرائد أ. د. حسن حبشى الباع الأكبر من خلال إجادته التامة للغة الإنجليزية، والتى جعلته يعمل المترجم الشخصى للزعيم الخالد جمال عبد الناصر لعدة أعوام. ويمكن إجمال إسهامه فى المجال المذكور على النحو التالى:

- مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ط. القاهرة ١٩٥٨م.
- طاغور، رحلة طاغور فى عالم القرن الخامس عشر، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- جوانفيل، القديس لويس حياته، وحملاته على مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ط. القاهرة ١٩٦٤م.
- فلهاردوين، مذكرات فلهاردوين عن الحرب الصليبية الرابعة، ط. جدة ١٤٠٣هـ.
- وليم الصورى، الحروب الصليبية، ٤ أجزاء، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- جى لسترانج، فلسطين فى ظل الحكم الإسلامى، تحت الطبع.
- مجهول، ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين، جزآن، ط. القاهرة ١٩٩٨م.
- انا كومنينا، الكسياد، سيتم نشرة من خلال المجلس الأعلى للثقافة.
- بروكوبيوس، التاريخ السرى، تحت الطبع.
- نيكتاس خونياتس، الأمبراطورية البيزنطية بعد عام ١١١٨م.
- إمبرواز، حملة ريتشارد الصليبية (ملحمة شعرية تقع فى ١٣٥٥٢ بيتا)، من جزأين، تحت الطبع.
- كيلى، تاريخ بابوات روما منذ القديس بطرس حتى سنة ٢٠٠٠م، سيصدر من ٣ أجزاء.
- دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ط. القاهرة.
- ترتون، أهل الذمة فى الإسلام، ط. القاهرة.
- دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، (٣) أجزاء، ط. القاهرة.

أما فى مجال التحقيق؛ فقد ساهم رائدنا البارز بالعديد من الإسهامات يمكن إجمالها على النحو التالى:

- الصيرفى، إنباء الهصر بأبناء العصر، ط. القاهرة ١٩٧٠م.
- البقاعى، إظهار النصر لأسرار أهل العصر، مجلدان، ط. القاهرة.
- مجهول، حوليات دمشقية، ط. القاهرة ١٩٦٨م.
- ابن شاهنشاه الأيوبى، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ط. القاهرة ١٩٦٩م.

- ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، (٤) أجزاء اكتملت ط. القاهرة ١٩٩٥م.

- ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر بأنباء العمر، (٤) مجلدات، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

- البقاعى، عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران، جزآن، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

وهكذا؛ قدم لنا عشرات المؤلفات، والأعمال المترجمة، والتحقيقات، ولا يملك المرء إلا أن يندهش ويتملكه العجب من كثرتها، وكذلك نوعيتها العالية القيمة على المستوى العلمى، كيف تمكن رائد واحد بمفرده إنجاز كافة تلك الأعمال، والتى يصعب على فريق عمل كامل من الباحثين فى وقتنا الحالى انجازها، دون أدنى مبالغة أو مجاملة.

على أية حال؛ هناك عدة ملاحظات يمكن استنتاجها من خلال الأعمال العلمية المتعددة التى اوردها فى الصفحات التالية، وهى تجمل فى الآتى:

أولاً: امتلك رائدنا إرادة فولاذية، ورغبة بارزة فى أن يكون "صاحب رسالة" علمية خاصة، ولذلك لم يضع وقته سدى، بل استفاد منه جيدا على نحو جعله يوالى الإصدارات المختلفة، واذكر القارىء بأن مؤرخنا أخبرنى عن أمر إصابته فى حادثة سيارة فى صدر شبابه، ومكث فى المستشفى شهورا عديدة قام خلالها بترجمة أحد الكتب!! على نحو عكس إرادته البالغة القوة.

ثانياً: أدرك ذلك المؤرخ الفذّ الأهمية القصوى لعنصر الزمن، ولذلك ندر أن نجد عاماً لم يصدر فيه كتابا مؤلفاً، أو محققاً، أو مترجما؛ وكان حريصاً أشد الحرص على عدم إضاعة وقته، وهذا هو تعليل حزنه الشديد على مرضه الذى أقعده عن مواصلة البحث والدراسة؛ وأتصور أنه امتلك آمالاً كباراً، ولذلك كان دائم النصح لى بمواصلة التأليف عن مرحلة الحروب الصليبية، والترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وكان لتوجيهاته العلمية السديدة الأثر الفعّال، حيث حرصت الحرص أجمعه على تنفيذها قدر الجهد والطاقة.

ثالثاً: تنوّعت أعمال رائدنا بين تأليف، وترجمة، وتحقيق، وامتلك الثلاث مواهب مجتمعة، موهبة المؤلف، ثم المترجم البارع الخبير، والمحقق، وهو أمر لا نجده متوافرا حاليا لدى عشرات الباحثين الذين نجد منهم المؤلف، ثم هناك المحقق، وغيره من المترجمين، وهى ملاحظة لا تخلو من دلالة؛ لأنها تعكس أن جيل الرواد تعددت إمكاناته العلمية، وهو أمر

لم يستمر - للأسف الشديد- لدى الأجيال التالية؛ والحقيقة أن هناك فجوة يستشعرها كل مؤرخ منصف بين جيل الرواد ومن أتى من بعدهم، وأتصور أن الوضع الحالى يشهد اتساع الفجوة بصورة يصعب مواجهتها.

رابعــا: كانت إجادة رائدنا للعربية، والإنجليزية، والفرنسية، ومعرفته للاتينية، هى السلاح الفعال الذى مكّنه من انجاز كافة تلك الأعمال العلمية الرائدة، وهى صفة وجدت لدى المؤرخين المصريين الرواد.

ومرة أخرى - كنوع من المقارنة المريرة- نجد الجيل الحالى من الباحثين يخشى تعلم اللغات الأجنبية، بل ويتخاصم معها! والمفروض أن يحدث العكس بطبيعة الحال، فلا يمكن أن يصف مؤرخ ما نفسه بأنه مؤرخ دون إجادته عدة لغات أجنبية.

خامسًا: إتّسم مؤرخنا الرائد بالدقة الشديدة، وهو أمر لاحظته شخصيا من خلال اتصالى واحتكاكى بسيادته بصورة شبه يومية على مدى عدة أعوام، ودعم تلك الدقة نوع ما من "القلق العلمى" الذى إتّسم به ذلك الرائد البارز، وقد لاحظت ذلك على سيادته من خلال تعاملى معه، إنه بالغريزة يخشى الوقوع فى أى خطأ حيث لا يدركه إلا أقلّ القليل من الباحثين، لقد تعلمت منه عبارة: "اسهل شىء الوقوع فى الخطأ فى الأبحاث العلمية دون أن يدرى الباحث". وتلك الملاحظة جديرة بكل الإنتباه.

سادسًا: الواقع أن أ. د. حسن حبشى ليس مجرد مؤرخ، ومحقق، ومترجم، بل عاشق حقيقى للعصور الوسطى؛ لقد تعامل مع عصر الحروب الصليبية، والعصرين الأيوبى، والمملوكى، بكفاءة تامة، وامتلك الأدوات البحثية المتعددة، ولم يقنع إلا بنصيب الأسد فى كل مجال، ولا يمكن تعليل غزارة مؤلفاته وقوتها العلمية إلا من خلال "حالة العشق" العلمى الخاص التى عليها ذلك المؤرخ، الذى يوصف بالفعل بأنه راهب علم من نوع خاص.

سابعا: من الملفت للإنتباه أن مؤرخنا؛ على الرغم من بقائه فى العاصمة الإنجليزية لندن قرابة تسع سنوات، وخالط الإنجليز على نطاق متّسع، إلا انه ظل محافظا على هويته الإسلامية الواضحة المعالم، وذلك عكس قطاع من الباحثين أبتعث إلى الدول الأوربية، فعاد مبهورا بأهلها وقلّد سلوكهم فى كافة الجوانب، ولم يفرق بين الغث والثمين، وهو أمر كثر فى ابناء جيلنا الحالى، ولم نجده لدى جيل المؤرخين الرواد ومنهم أ. د. حسن حبشى.

ثامنًا: كان ألدّ أعداء مؤرخنا الراحل، الذى تكبت برحيله، الجحود ونكران الجميل؛ فذلك المؤرخ العملاق كثيرا ما تهدّج صوته، واحتبست العبارات فى حنجرته عندما كان يحدّثنى عن جحود أحد الأساتذة الذى تتلمذ عل يديه، ثم قلب له ظهر المجن عندما تبوأ منصبا، دون أن يدرى ذلك الجاحد أن الإنسان يصنع المنصب، وليس العكس؛ ولذلك حرصت فى يوم ٢١ مارس ٢٠٠٥م، وهو يوافق عيد ميلاده، أن أذهب إلى منزله، ومعى طلبة وطالبات الدراسات العلياكى نقدم له لمسة وفاء فى زمن صار الجحود فيه غابات كثيفة، وطعن فيه الوفاء فى القلب طعنات قاتلة؛ وتم التقاط صور تذكارية لتلك الزيارة التى اعتبرها على المستوى الشخصى "تاريخية"؛ وفيها شاهدنى أولئك الطلبة والطالبات وأنا أقبّل رأسه ويده؛ وكان لتلك الزيارة مفعول السحر لى ولهم، قبله شخصيا؛ لقد شعر أن نور الأمل الوثاب الأخضر ما زال موجوداً، وأن أشباح الظلام لن تصمد أمام شلالات النور المنهمرة.

تاسعاً: كانت "المرحلة السعودية" نقطة تحول مهمة فى إسهامات مؤرخنا الرائد، فقد توافر لديه الإهتمام الجاد بدراسة السيرة النبوية، ولذلك ألف العديد من المؤلفات خلالها، وكان له برنامج يومى يذاع من إذاعة الرياض بعنوان: "إسلام صحابى" حقق نجاحا إعلاميا غير مسبوق، ويلاحظ أن مكوثه هناك نحو اثنى عشر عاما جعل ذلك الإهتمام يتواصل، ويتركز بصورة عادت على قطاعات متسعة من القراء بمكاسب ومغانم وفيرة خاصة الذين عشقوا السيرة النبوية وحياة الصحابة، عليهم رضوان الله تعالى.

يبقى أن أذكّر للقارىء العربى فى كل مكان أن أرض الكنانة لم تبخل على ابنها البار بمظاهر التكريم، والتقدير، وهو بها جدير، ومن أمثلتها:

١- وسام الإستحقاق من الطبقة الرابعة حصل عليه من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

٢- نوط الإمتياز من الطبقة الأولى حصل عليه من الرئيس محمد حسنى مبارك.

٣- شهادة تقدير من رابطة الجامعات الإسلامية، وكذلك من جانب جامعة الإسكندرية.

٤- إحتفالية خاصة أقيمت على شرفه من جانب المجلس الأعلى للثقافة فى ابريل ٢٠٠١م.، وقد امتدّ التكريم إلى السعودية، فكرّمته جامعة الملك عبد العزيز، وحصل منها على وسام تقدير.

وبعد؛ فتلك صفحات قليلة عن رائد كبير لتاريخ العصور الوسطى، أظهرت لنا كيف أن ابن مصر البار أ. د. حسن حبشى أفنى عمره فى خدمة التراث العربى، وتاريخ أمّته المجيد، فلا عجب إذا اتجه كاتب هذه السطور إلى إعداد كتاب تذكارى على شرفه سيرى النور- بإذن الله تعالى- قريبا، وعندئذ تتأكّد روح أستاذنا الكبير أن ثمار غرسها أينعت غابات من الحُب الأخضر، والوفاء الدافىء ، والإعتزاز الأبدى.

والآن لم يبق أمام كاتب هذه السطور إلا أن يستجمع ما فى جعبته من كلمات وما فى ذاكرته من عبارات كى يرثى أستاذه؛ والحقيقة أيها القارىء أننى أجد الكلمات تفرّ والعبارات تهرول بعيدة عنى، وقلمى يخذلنى وهو الذى كان دوما صديقا ونعم الصديق؛ فالقلاع الصليبية تنتحب على رحيل المؤرخ الفذّ، وروح المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا يلفّها الحزن على رحيل مترجم كتابها "ألكسياد"؛ ونفس الأمر بالنسبة لجان دى جوانفيل وغيره من مؤرخى أوربا العصور الوسطى.

أيها الفارس الذى ملأ الدنيا ضجيجا علمياً مثمرا، حان موعد رحيلك الجسدى، غير أن أفكارك ما زالت باقية، ولا أملك لرثائك إلا بيتا من الشعر من إبداع الشاعر الدمشقى نزار قبانى ، عندما قال :

بأى اللغات أبكى عليك

ومـوتك ألغى جميع اللغات

الخاتمة

من الممكن التوصل إلى عدة نتائج مهمة من خلال البحوث والمقالات التى شملها الكتاب وهى كالآتى :

أولاً : يعد عصر الحروب الصليبية عصر المواجهة بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى الكاثوليكى وكان لكل فريق أفكاره الخاصة به ، وبالتالى تعد فكرة الجهاد الإسلامى فكرة محورية لفهم حقيقة الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى حينذاك ، لقد ولدت الفكرة مع ظهور الإسلام ونمت وترعرعت على مدى خمسة قرون كاملة . ولذلك عندما قدم الغزاه إلى المنطقة ظهرت فكرة الجهاد الإسلامى لتقاومهم ، وفى تقديرى أنه فى حالة عدم وجودها أصلاً لأمكن للصليبيين الغزو والبقاء والاستمرار لأمد بعيد يفوق بمراحل القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦ ، ٧ هـ ، لقد نجح الغزو الأوروبى للأمريكتين فى العصر الحديث ، وأمكن القضاء على حضارتى الأستك والأنكا وإبادة الهنود الحمر بآلة الدمار الأوروبية ، على حين فشل المشروع الصليبى فى بلاد الشام ومصر وتعليل ذلك وجود فكرة الجهاد الإسلامى وهى نظرية متكاملة للحرب الدفاعية أبرزها الإسلام كدين ختامى متكامل يصلح لكل زمان ومكان وله جاذبيته الروحية الخاصة التى اعترف بها المنصفين من الغربيين المحدثين .

ثانيًا : اتضح من الصفحات السابقة أن الكيان الصليبى ، وهو كيان دخيل وغازى وأجنبى عن المنطقة لم يستطع البقاء والاستمرار دون الدعم الأوروبى الذى لم يتوقف ، وظل الوجود الصليبى فى بلاد الشام أشبه شىء بجنين لم يكتمل النمو ويحتاج أمه فى الغرب الأوروبى لمواجهة مقاومة المسلمين الباسلة ، ومن الملفت للانتباه أن كافة القوى الأوروبية شاركت فى دعم الصليبيين فى الشرق فهناك فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وإيطاليا والدول الاسكندنافية ومنها النرويج ، وبالتالى فإن مشاركة الملك النرويجى سيجورد خلال المرحلة من (١١٠٧ - ١١١٠م) هى جزء من الدعم الأوروبى للمشروع الصليبى ، ويلاحظ أنه على الرغم من ذلك كله إلا أن الفشل كان المصير النهائى له نظراً لما اتسم به من عنصرية وتعصب ورغبة فى سلب خيرات الشرق على حساب أبناء البلاد الأصليين من المسلمين .

ثالثًا : اتضح من خلال بحث الطب فى المناطق الصليبية ، أن الغزاة الصليبيين كانوا متخلفين عن المسلمين فى المجال الطبى وتتلمذوا على أيديهم ، كذلك اتجهوا إلى ترجمة أحد

الكتب الطبية العربية الأساسية فى صورة كتاب على بن العباس المجوسى كامل الصناعة الطبية وقام بالترجمة ستيفن الأنطاكى على نحو عكس رغبتهم فى الإفادة من المعارف الطبية العربية ، وهكذا ؛ تأكد لنا أن أوروبا قدمت إلى الشرق وهى خالية الوفاض - إلا أقل القليل - وجلست مجلس التلميذ أمام الحضارة العربية الإسلامية التى غمرت بنورها العالم دونما مبالغة أو اعتساف فى الأحكام .

رابعًا : كشف البحث الخاص بالموازنة ، كيف أنهم وقفوا موقف الداعم والمعاون للحركة الصليبية على نحو أدى إلى امتداح المؤرخين الصليبيين وعلى رأسهم مؤرخهم وليم الصورى .

ودل ذلك على أن الحركة الصليبية عزفت على وتر التباين الطائفى فى بلاد الشام من أجل تحقيق أهدافها وهو أمر تستغله إسرائيل حاليًا من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية (أى الاستخرابية) فى المنطقة والتى لا تخفى على أحد .

خامسًا : كشف لنا بحث أرسوف عن تباين المعالجة التاريخية لعصر الحروب الصليبية بين الشرق والغرب فالمؤرخون الغربيون منهم من حركته الدوافع الدينية والوطنية وبالتالى لونت منظوره التاريخى تجاه بعض أحداث ذلك العصر غير أن نصوص المصادر التاريخية ذاتها ، وكذلك أقلام بنى جلدته من المؤرخين الأوروبيين المحدثين كان لها دورها فى إيضاح الحقائق دونما موارية ، وبالتالى تأكد لنا أن معركة أرسوف التى هزم فيها صلاح الدين الأيوبى لم تكن معركة حاسمة ولم يتمكن عدوه اللدود ريتشارد قلب الأسد من استغلالها من أجل السيطرة على القدس .

سادسًا : أوضح المقال الخاص بالمقارنة بين نور الدين محمود ومانويل كومنين الفارق الشاسع بين قائد تاريخى لحركة الجهاد الإسلامى توصل إلى نتائج حاسمة فى مواجهة الصليبيين وامتاز ببعد النظر والحنكة السياسية ، وبين إمبراطور بيزنطى جمع فشلاً فى الشرق وإخفاقًا فى الغرب وحاول البعض تضخيم حجمه دون جدوى لأن البحث التاريخى الموضوعى قادر على كشف الحقائق .

ولاريب أن عنصر " الخبرة البحثية " له دوره الفعال فى دراسة مثل تلك الموضوعات القائمة على فكرة التاريخ المقارن لعصر الصليبيات .

سابعًا : جاء المقال الأخير الخاص بالراحل الأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد سيد (١٩٥١ - ٢٠٠٥م) ليكشف لنا بجلاء نوعيته كباحث مدقق خبير غزير الإنتاج العلمى كمًا ونوعًا ، ول

مؤلفات رائدة عن وثائق الجنيزة ، والعصر الأيوبى على نحو يجعل المرء يعتبره من المؤرخين المصريين البارزين فى تاريخ الحروب الصليبية وذلك مع عدم إغفال اسهاماته الأخرى فيما يتصل بالتاريخ الباكر لمصر الإسلامية والدعوة الإسلامية فى عصر الولاة .



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) جهينة الأخبار فى أسماء الخلفاء وملوك الأمصار .
- ابن الجوزى (أبو فرج ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) : المصباح المضىء فى خلافة المستضىء .
- ابن عبد الهادى : فضائل الشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧٤٩ تاريخ.
- ابن منكلى (محمد بن منكلى الداعى ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٦م) : التدبيرات السلطانية فى سياسات الصناعة الحربية ، مخطوط مصور .
- الحنبلى (أحمد بن إبراهيم ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م) : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب .
- الخالدى (بهاء الدين محمد ت ٩٢٧هـ / ١٥٧١م) : المقصد الرفيع المنشأ .
- مرعى المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

ثانيًا : المصادر العربية والمعربة :

القرآن الكريم .

- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، ط. بيروت .
- ابن الأثير (عز الدين محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ، ط. بيروت ١٩٦٦م ، ط. بيروت ١٩٧٠م ، ط. بيروت ١٩٩١م.
- ــــــــــ : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) تحقيق عبد القادر طليمات ، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق شعبان والمطبعى ، ط. القاهرة ١٩٧٦م.
- ابن الأزرق : بدائع المسلك فى طبائع الملك ، تحقيق النشار ، ط. بغداد. ١٩٧٧م.
- ابن أيبك الدوادارى : الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، ط. القاهرة .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧١هـ / ١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط. القاهرة ١٩٣٥م.

- ابن تيمية : السياسات الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، تحقيق البناوى وعاشور، ط. القاهرة ١٤٠٠هـ ، ط. القاهرة ١٩٧١م.

- ابن جبير (محمد بن أحمد الكنانى ت حوالى ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) : الرحلة المسماة : تذكرة بالأخبار فى اتفاقيات الأسفار ، ط.

- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ط. حيدر آباد الدكن ، عام ١٣٥٩ هـ .

- الشفاء فى مواعظ الخلفاء ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م.

- ابن جماعة : مستند الأخبار ، تحقيق النقشبندى ، ط. بغداد ١٩٨٣م.

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق محمد محمد أمين ، ط. القاهرة ١٩٧٦م.

- ابن حيون (القاضى النعمان بن حيون) : دعائم الإسلام ، تحقيق فيظى ، ط. القاهرة ١٩٥١م.

- كتاب الاقتصاد ، تحقيق وحيدر مرزا ، ط. دمشق ١٩٥٣م.

- تأويل الدعائم ، تحقيق الأعظمى ، جـ٣ ، ط. القاهرة .

- المجالس والمسايرات ، تحقيق الفقى وشيوخ واليعلاوى ، ط. تونس ١٩٨٠م.

- ابن خلكان (شمس الدين ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان P.H.C., Hist. Or. ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، تحقيق إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٧م ، ط. القاهرة ١٢٩٩هـ .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط. بيروت ١٩٧١م .

- ابن الساعاتى (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٧م): ديوان ابن الساعاتى ، تحقيق أنيس المقدسى ، ط.

بيروت ١٩٣٨م.

– ابن سعيد المغربى (على بن موسى ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م) : الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق الإبيارى ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

– ابن سناء الملك : ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

– ابن شاكر الكتبى (محمد بن أحمد ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

– ابن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول راڤيس ، ط. باريس ١٨٩٤م .

– ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢م) : روضة المناظر فى تاريخ الأوائل والأواخر بهامش جـ (٩) من الكامل لابن الأثير ط. القاهرة .

– الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، تحقيق سركيس ، ط.بيروت ١٩٠٩م .

– ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

– ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م) : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ١ ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٦م.

– ابن طولون الصالحى (شمس الدين ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦م) : القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط. دمشق .

– قرة العيون فى أخبار باب حبرون ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٦٤م.

– إعلام الورى فيمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق خطاب جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م .

– ابن العبرى (غريغوريوس بن الفرج ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٦م) : تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ١٩٥٨م ، طبعة أخرى وضع حواشيها الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، ط. بيروت ١٩٨٣م.

– ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣م) الروض الزاهر فى سيرة الملك

الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط. الرياض ١٩٧٦م.

- ابن عبد الهادى : ثمار القاصد فى ذكر المساجد ، تحقيق أسعد طلس .

- ابن عساكر (أبو القاسم على ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦م) : تاريخ مدينة دمشق ، تهذيب بدران ، ط. دمشق .

- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) : زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢ ، تحقيق سامى الدهان ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ط. دمشق ١٩٥٤م.

- بغية الطلب فى تاريخ حلب - القسم الخاص بتراجم السلاجقة الجمعية التاريخية التركية ، ط. أنقرة ١٩٧٦م

- ترجمة نظام الملك من بغية الطلب ، تحقيق سهيل زكار B.E.O., T. XXIV, Année 1971 .

- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩م) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط. القاهرة ١٣٥١ هـ .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م) : تاريخ الدول والملوك ، جـ٨ ، تحقيق نجلاء عز الدين وقسطنطين زريق ، ط. بيروت

ابن قاضى شهبة (تقى الدين أحمد ت ٥٨١ هـ / ١٤٤٨م) : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م.

- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨م.

- تحقيق سهيل زكار ، ط. دمشق ١٩٨٣م.

- ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت ٧٤٤ هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية ، ط.

- الاجتهاد فى طلب الجهاد ، ط. القاهرة ١٣٤٧ هـ .

- ابن المبارك : كتاب الجهاد ، تحقيق نزيه حماد ، ط. القاهرة ١٩٧٨م.

- ابن ميسر (تاج الدين محمد بن على ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨) : مقتطفات من تاريخ مصر R.H.C., Hist. Or. T. III

- ابن واصل (جمال الدين محمد ت ٦٩١ هـ / ١٢٩١م) : مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ، جـ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٧م.

- ابن الوردى (أبو حفص زين الدين ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) : تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى .

- أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد ت ٦٥٥ هـ / ١٢٦٧ م) : الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ، ط. القاهرة ، ط. بيروت ب . ت .

- أبو الفداء (إسماعيل بن على ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) : تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان ، ط. باريس ١٨٤٠م .

 - المختصر فى أخبار البشر ، ط. بيروت ب . ت .

- الإدريسى (أبو عبد الله محمد ٥٦١ هـ / ١١٦٦م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق ديلافيلا وآخرون ، ط. بيروت .

- أسامة (مؤيد الدولة أبو المظفر ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٥م) : كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط. برنستون ١٩٣٠م ، تحقيق قاسم السامرائى ، ط. الرياض ١٩٨٧م.

- بنيمين التطيلى (أبن يونه التطيلى ت ١١٧٣م / ٥٦٩ هـ) : الرحلة ، ت. عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٩م

- بيبرس الدوادارى (ركن الدين ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م) : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، تحقيق زبيدة عطا ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م.

- الترمذى : سنن الترمذى ، تحقيق أحمد شاكر ومصطفى الحلبى ، ط. القاهرة ، تحقيق جبرائيل جبور ، ط. بيروت ١٩٨٠م

- حاجى خليفة (مصطفى كاتب شلبى ت ٩٦٧ هـ / ١٦٥٧م) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط. استانبول ١٩٤٣م

- الحريرى (أحمد بن على الحريرى تاريخ الوفاة غير معروف) الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق مهدى رزق الله ، ط. الإسكندرية ١٩٨٤م.

- الحنبلى (مجير الدين ت القرن ١٠ هـ / ١٦م) : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، تحقيق محمد بحر العلوم ، ط. النجف ١٣٨٧ هـ ، ط. عمان ١٩٧٣م.

- المعتمد فى أصول الدين ، ط. بيروت ١٩٧٣م.

- الدارمى : سنن الدارمى ، ط . دمشق ١٣٤٩هـ .

- الذهبى (الحافظ الذهبى ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) : دول الإسلام ، جـ٢ ، تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.

- العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد سيد وصلاح الدين المنجد ، ط. الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٣م ، ط. بيروت ١٩٨٥م.

- رايموندا جيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ت. حسين عطية ، ط. الإسكندرية ١٩٨١م.

- الزركشى : إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق المراغى ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

- الزهرى (أبو عبد الله محمد أواسط القرن ٦ هـ / ١٢ م) : كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حاج صادق ، B.E.O., T. XXI Année 1968

- سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ(٨) ، ق(١) ، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١م.

- السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) : طبقات الشافعية الكبرى ، ط. القاهرة .

- سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ط. بيروت ١٩٠٩م.

- السمعانى : الأنساب ، ط. بيروت ، ب.ت .

- السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ١٩٦٩٩م.

- أبواب السعادة فى أسباب الشهادة ، تحقيق نجم عبد الرحمن ، ط. القاهرة ١٩٨١م.

- شاهنشاه بن أيوب : منتخبات من تاريخه منشورة فى كتاب ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ط. بيروت ب.ت.

- شيخ الربوة الدمشقى (أبو طالب الأنصارى ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦م) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ط. بطرسبرج ١٨٦١م.

- الشيرازى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ط. القاهرة ١٩٤٦م.

- صالح بن على (الأمير صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠ هـ / ١٤٩٦م) : تاريخ بيروت ، تحقيق لويس شيخو ، ط. بيروت ١٩٢٧م

- الصفدى (ابن خليل الصفدى) : الوافى بالوفيات .

- الطرطوسى : تذكرة أرباب الألباب ، تحقيق كلود كاهن B.E.O., T.XII, Années 1947 - 1948 .

- العامرى (أبو الحسن محمد ت ٣٨١ هـ / ١٩٩٢م) : الأعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

- العدوى (القاضى العدوى ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٢ م) : الزيارات ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م.

- العماد الأصفهانى (محمد بن محمد ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م) : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م

  - خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الخاص بشعراء الشام ، جـ١ ، تحقيق شكرى فيصل ، ط. دمشق ١٩٥٥م.

  - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار البندارى ، ط. القاهرة ١٩٠٠م.

- عماد الدين الأصفهانى (القاضى ت بعد عام ٥٩٣ هـ / ١١٩٦م) : البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان ، تحقيق كلود كاهن B.E.O., T. VII - VIII Années 1957 - 1958 .

- الفتح البندارى (الفتح بن على بن محمد ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م) : سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

- القاضى الفاضل (عبد الرحيم بن على ت ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م) : إنشاءات القاضى الفاضل ، تحقيق فتحية النبراوى ، ط. القاهرة ١٩٨٠م

- القزويني (زكريا بن محمد ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- الكتاب المقدس .
- المسعودي : التنبيه والإشراف ، ط١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. بيروت ١٩٦٨م.
- المقدسي البشاري (شمس الدين ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي جويه ، ط. ليدن ١٩٠٩م ، ط. ليدن ١٩٦٧م .
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ / ق ١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ط. القاهرة ١٩٥٦م
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد حلمي أحمد ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
- ناصر خسرو (ناصر خسرو علوي ق ١١ م / ٥ هـ) : سفر نامه ، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- النعيمي (محيي الدين أبو المفاخر ت ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م) : الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر السني ، ط. دمشق ١٩٤٨م.
- دور القرآن في دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق .
- النووي : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، ط. القاهرة ١٩٣٨م.
- الأذكار المنتخب من كلام سيد المرسلين ، ط. القاهرة ، ب.ت .
- الهروي (أبو الحسن علي بن أبي بكر ت ٦١١ هـ / ١٢١٥م) : التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تحقيق Janine Sourdel . B.E.O., T.XVII, Années 1961 - 1962 .
- الواسطي المقدسي (أبو بكر محمد بن أحمد ت ق ٥ هـ / ١١ م) : فضائل البيت المقدس ، تحقيق إسحق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ، الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٧٩م.
- اليافعي (أبو محمد عبد الله ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦م) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٨هـ .

- ياقوت الحموى (شهاب الدين بن أبى عبد الله ت ٦٧٦ هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان، تحقيق وستنفيلد ، ط. ليبسك ١٨٦٦م

ط. بيروت ١٩٧٧م ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ط. بيروت ١٩٩٠م

- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق فريد رفاعى ط. القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٣٨م.

ثالثاً : المصادر الأوروبية :

- Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, R.H.C., Hist. Occ., T. IV, Paris 1879 .

- Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion, Trans. By Hubert, New York 1943 .

- Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims, Trans. By R.Hill, New York 1962 .

- Baldric of Dol, in peters, The First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971.

- Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, Early Travels in Palestine, London 1848 .

- Burchard of Montsion, Description of The Holy Land, Trans. By A. Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1869 .

- Daniel, Pilgrimage of The Abbot Daniel in The Holy LAnd, Trans. By Wilson , P.P.T.S., Vol. IV, London 1895 .

- Eracles, L'Historie d'Eracle Empereur el la Conqueste de la Terre d'Outremer, in R.H.C., Hist. Occ.

- Euphrosine, Pelerinage en Palestine, Trans. By De Khitrouo, R.O.L. T.III, Année 1895 .

- Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans. By Rita Rian, Tennesse 1969 , in peters, the First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other Source materials, Philadelphia 1971 .

- Geoffrey of Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of The Crusaes, London 1908 .
- Guide Book To Palestine, Trans. By J.H. Bernard, P.P.T.S., Vol. V, London 1897 .
- Guilbert of Nogent, in Peters, The Frist Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971 .
- Hayton, la flor des Estoires de la Terre d'Orient, R.H.C., Doc. Arm., T.II.
- Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. By A.Stewart, P.P.T.S., Vol. XI, London 1896 .
- Joannes Phocas, Abrief Description of The Holy Land, Trans. By A.Stewart, P.P.T.S., Vol. London .
- John of Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans.By A. Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896 .
- Ludolph Von Suchen, Description of The Holy LAnd, Trans.By A. Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1895 .
- Marino Santo, Secrets For True Crusaders to help them to recover The Holy Land, Trans.By A. Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, London 1896.
- Otto of St.Blasion, in thatcher, Source Book of Medieval History, London 1905 .
- Psellus, Chronographia, in Ashour and Rabie, fifty documents in Medieval History, Cairo 1971.
- Raymond d'Aguilers, in peters, The First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971.
- Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of The Crusades, London 19??.

- Robert The Monk, in peters, The First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971.
- Roger of Wondover Flowers of History, Vol.I, Trans. By J.A. Giles, London 1848 .
- Saewulf, Pilgrimage of Saewulf Trans. BY Bishop of Clifton, P.P.T.S., Vol. IV, London 1896 .
- Silvia of Aquitana, Pilgrimage to the Holy Plases, Trans.By P.P.T.S., Vol. T, London .
- Theoderich, Description of the Holy Land, Trans. By A. Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1890 .
- The Saga of Sigurd The Crusader (1107 - 1110), in Wright, Early Travels in Palestine, London 1848 .
- William of Tyre, A History of The deeds done beyond the Sea, Trans. By Babcock and Krey. New York 1943

رابعًا : المراجع العربية والمعربة :

- آدمز متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ت. عبد الهادى أبو ريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٧م.
- إبراهيم أبو خشب : تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- إبراهيم طرخان (د.) : الناصر صلاح الدين وتحرير القدس ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.
- أحمد أحمد بدوى (د.) : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط. القاهرة ب.ت .
- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط. القاهرة، ب.ت .
- أحمد أمين : قوانين الحرب فى الإسلام ، مجلة الثقافة العدد (٣٩) ، عام ١٩٣٩م.
- أحمد بدر (د.) : " الأندلسيون والمغاربة فى القدس " مجلة أوراق ، المعهد الأسبانى العربى، العدد (٤) عام ١٩٨١م.

- أحمد الحفناوى (د.) : " الصراع من أجل صيدا فى العصر الوسيط " ، المنهل ، السنة (٥٠) ، م (٤٦) صفر ١٤٠٤ هـ / نوفمبر ١٩٨٣م.

- أحمد رضا : خيبة السياسة الغربية فى الشرق ، ت. بورقيبة والصادق ، ط. تونس ١٩٧٧م.

- أحمد رمضان (د.) : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

- المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

- أحمد شلبى (د.) : الجهاد والنظم العسكرية ، ط. القاهرة .

- أحمد طه : الطب الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

- أحمد عبد الجواد الدومى : صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله ، ط. بيروت ب.ت .

- أحمد فارس الشدياق : أخبار الأعيان فى جبل لبنان ، ط. بيروت ١٩٧٠م .

- أحمد فؤاد باشا (د.) : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة ، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

- أحمد فكرى (د.) : مساجد القاهرة ومدارسها ، ط. القاهرة ١٩٦٩م.

- " خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى " الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل ١٩٦٧م.

- أحمد القرعى : سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

- أحمد مختار العبادى (د.) : قيام دولة المماليك الأولى ، ط. بيروت ١٩٦٩م.

- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط. الإسكندرية .

- إدوارد براون : الطب العربى ، ت . داود سليمان ، ط. بغداد ١٩٨٦م.

- أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

- إرنست باركر : الحروب الصليبية ت. السيد الباز العرينى ، ط. بيروت ب. ت .

- أسامة زكى زيد (د.) : صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٨١م.
- إسحق عبيد (د.) : الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ، ط. بيروت، ب.ت .
- أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط. بيروت ١٩٥٥م.
- أسعد طلس : " دار الحديث النورية " ، المقتطف العدد (٢) م (١٠٤) عام ١٩٤٤م.
  - مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- أسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ، ط. بيروت ١٨٩٠م.
- ألبير شاندور : صلاح الدين الأيوبى البطل الأنقى فى الإسلام ، ت . سعد أبو الحسن ، ط. دمشق ١٩٨٨م.
- السيد الباز العرينى (د.) : الدولة البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
  - الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ١، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
  - الشرق الأوسط فى العصور الوسطى والأيوبيون ، ط. بيروت ١٩٦٧م.
  - " العالم العربى فى دور الجهاد " ضمن كتاب العالم العربى ، ط. القاهرة .
- السيد عبد العزيز سالم (د.) : " طرابلس الشام " ، حوليات كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، عام ١٩٦٢م.
  - طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م.
  - تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م.
- السيد عبد العزيز سالم (د.) ، وأحمد مختار العبادى (د.) : تاريخ البحرية الإسلامية فى الغرب والأندلس ، ط. بيروت ١٩٦٩م.
  - تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٨١م.
- إلياس ديب : العقود الدرية فى تاريخ المملكة السورية .
- أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ت. عفيف دمشقية ، ط. بيروت ١٩٨٩م.

- أمينة البيطار (د.) : " التعليم فى دمشق فى القرن السادس الهجرى " آداب الرافدين ، العدد (١١) ، عام ١٩٧٩م.
- أنتونى بردج : الحروب الصليبية ، ت. غسان سبانو ونبيل الجيرودى ،ط . بغداد ١٩٦٧م.
- أنتونى ويست : الحروب الصليبية ، ت . شكرى محمود نديم ، ط. بغداد ١٩٦٧م.
- أنور الجندى : من أعلام الإسلام ، ط. القاهرة .
- إيرا لابيدوس : " السياسة الدينية فى عهد الأيوبيين " ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس – أبريل ١٩٦٧م.
- بسام العسلى : صلاح الدين الأيوبى ، ط. بيروت ١٩٨٤م.
  - فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨٨م.
- بطرس ضو : تاريخ الموارنة ط. بيروت ١٩٧٧م.
- جاك تاجر : أقباط ومسلمون ، ط. القاهرة ١٩٥١م.
- جاك ريسلر : الحضارة العربية ، ت. خليل أحمد خليل ، ط. بيروت ١٩٩٣م.
- جمال الدين الرمادى (د.) : صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م.
  - الإسلام فى المشارق والمغرب ، ط. القاهرة .
  - الأمن والسلام فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
- جمال الدين الشيال (د.) : تاريخ مصر الإسلامية ، ط. الإسكندرية .
- جمال الدين محمود (د.) : الإسلام وقضية السلام والحرب ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.
- جمعة الجندى (د.) : حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ، عام ١٩٨٥م.
- جنفياف شوفيل : صلاح الدين بطل الإسلام ، ت. جورج أبى صالح ، ط. دمشق ١٩٩٢م.
- جرجى ينى : تاريخ سوريا .

- جوزيف داهموس : سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٩٢م.
- جوزيف نسيم يوسف (د.) : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ط. الإسكندرية ١٩٥٩م
 - " الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية " مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، م (١٦) عام ١٩٦٩م.
 - الوحدة وحركات اليقظة ، ط. بيروت ١٩٨١م.
 - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، ط. بيروت ١٩٨١م.
- جوناثان رايلى سميث : الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ، ت. محمد فتحى الشاعر ، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- جون لامونت : " الحرب الصليبية والجهاد " ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت. مجموعة من الباحثين ، إشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- حامد غنيم (د.) : ؛ جغرافيو القرن الرابع الهجرى ، الخريطة الدينية والمذهبية لغربى آسيا الإسلامية " ، الدارة ، السنة (٥) العدد (٢) عام ١٩٧٨م.
 - الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية " ، ط. القاهرة ١٩٨٣م.
- حسان حلاق (د.) : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (الأندلس - صقلية - بلاد الشام) ، ط. بيروت ١٩٨٦م.
 - " الطب " ضمن كتاب تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ١٩٩٠م.
- حسن إبراهيم (د.) : الفاطميون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٣٢م.
- حسن الباشا (د.) : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٥م.
 - مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.
- حسن حبشى (د.) : نور الدين والصليبيون ط. القاهرة ١٩٤٨م.
 - الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٥٨م.

- حسن عباس حسن (د.) : الصياغة المنطقية للفكر السياسى الإسلامى ، رسا دكتوراه، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة ع ١٩٨٠م.

- حسن عبد الوهاب (د.) : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأرض المقدسة حوا ١١٩٠ - ١٢٩١م / ٥٨٦ - ٦٩٠هـ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م.

 - تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندر ١٩٩٠م.

- حسن محمود وأحمد الشريف (د.) : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط. القاهر ١٩٦٦م.

- حنيفة الخطيب (د.) : الطب عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

- حسين أحمد أمين : الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها ، ط. القاه ١٩٨٣م.

- حسين مؤنس (د.) : صور من البطولة ، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

 - نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

 - المساجد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨١م.

 - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

- حكمت نجيب عبد الرحمن (د.): دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ب.ت.

- حياة الحجى (د.) : العلاقات بين المماليك ودولة مغول القفجاق ، ط. الكويت .

- حيدر الشهابى : الغرر الحسان ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية لخورشيد وآخرين ، ط. القاهرة .

- دريد عبد القادر نورى (د.) : " سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية فى بلاد الشام " مجلة آداب الرافدين ، العدد (٩) عام ١٩٧٨م.

 - " موقف أتابكية دمشق من الغزو الصليبى لبلاد الشام " آداب الرافدين عام ١٩٧٩م.

- رأفت عبد الحميد (د.) : " كنيسة بيت المقدس فى العصر البيزنطى " المجلة التاريخية المصرية م (٢٥) عام ١٩٧٨م.
- رؤوف شلبى : الجهاد فى الإسلام ، ط. القاهرة ، ب.ت .
- زاكية رشدى (د.) : " تاريخ الأدب السريانى " مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس، م (١٧) عام ١٩٧٣م.
- زبيدة عطا (د.) : الترك ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- زغلول سلام (د.) : الأدب فى العصر المملوكى ، ط. ؟؟؟؟؟؟؟؟
- زكى النقاش (د.) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٥٨م.
- زكى حسن (د.) : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ت. كمال الدسوقى وإبراهيم بيضون، ط. بيروت ١٩٨١م.
- زينب عبد القوى (د.) : الإنجليز والحروب الصليبية فى الفترة بين ١١٨٩ - ١٢٩١م . ط. القاهرة ١٩٩٦م.
- السائح : مكانة القدس فى الإسلام ، ط. عمان ١٩٦٨م.
- سامى الحمارنة (د.) : " علوم الحياة " ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوروبية ، ت. عبد الكريم محفوظ ، ط. دمشق ١٩٨٢م.
- سامية عامر (د.) : جبيل تحت حكم اللاتين وعلاقتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٣م.
- ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ، ت. حسن إبراهيم وآخران ، ط. القاهرة .
- ستيفن رنسيمان : المسلمون العرب فى فلسطين ، ط. اسكس ١٩٦٨م.
- تاريخ الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرينى ، ط. بيروت ١٩٦٧م ؛ ط. بيروت ١٩٩٣م.

- سحر السيد عبد العزيز سالم (د.) : تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس فى العصر الإسلامى ، جـ١ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٨م.
- سعاد ماهر (د.) : " تطور مساجد القاهرة ومدارسها " الجمعية التاريخية المصرية م (١٨) عام ١٩٧١م.
- سعيد برجاوى : الحروب الصليبية فى الشرق ، ط. بيروت ١٩٨٤م.
- سعيد رضا : " المدرسة البادرانية " مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة عام ١٩٨١م.
- المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، ط. القاهرة ١٩٦٣م
- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
  - أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٤م.
  - العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٦٥م.
  - " مصر والشام وزعامة العالم العربى ١٢٥٠ - ١٥١٧م" ضمن كتاب العالم العربى .
  - الظاهر بيبرس ، ط. القاهرة
  - مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .
  - " شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية " المجلة التاريخية المصرية م (١٦) عام ١٩٦٩م.
  - مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ط. بيروت ١٩٧٢م.
  - " المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية " المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ١٩٧٤م.
  - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٧٧م.
  - " الطب الإسلامى فى الجامعات الأوروبية فى فجر عصر النهضة " ضمن كتاب بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته " ط. القاهرة ١٩٧٨م.
- سعيد المؤمن : القلاع الإسلامية فى الأردن الفترة الأيوبية والمملوكية ، ط. عمان ١٩٨٨م.

- سليمان صائغ : تاريخ الموصل ، ط. الموصل ..

- السنهورى : الإسلام والجهاد ، ط. القاهرة

- سيد فرج (د.) " القدس عربية إسلامية " ، الدارة ، العدد (١٣) السنة (٨) يناير ١٩٨٤م.

- سيد قطب : معالم فى الطريق ط. القاهرة ١٩٨٢م.

  - نحو مجتمع إسلامى ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

- سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ، ط. القاهرة

- سميرة الليثى : جهاد الشيعة ، ط. بيروت ١٩٧٦م.

- سميل (ر . سى) : الحروب الصليبية ، ت . سامى هاشم ، ط. بيروت ١٩٨٢م.

- سيدة كاشف (د.) : الوليد بن عبد الملك ، ط. القاهرة .

- شارلز أومان : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى طه بدر ، ط. القاهرة ١٩٥٣م.

- شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط. بيروت ١٩٧٢م.

- شاكر مصطفى (د.) : " طغتكين رأس الأسرة البورية " ، مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت العدد (٢) ، ديسمبر ١٩٧٢م.

  - " دخول الترك الغز إلى الشام " ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر ، مؤتمر بلاد الشام ، بيروت ١٩٧٤م.

  - " آل قدامة والصالحية " حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت ، الحولية الثالثة عام ١٩٨٢م.

- شفيق جاسر : القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها ، ط. عمان ١٩٨٩م.

- شين ماك جلين : " بعض الأوهام عن التكتيك الحربى فى العصور الوسطى " ت. إسحق عبيد ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد (٦٥) عام ١٩٩٤م.

- صباح محمود محمد (د.) : " التنين فى المصادر العربية " ضمن كتاب دراسات فى التراث الجغرافى العربى ، ط. بغداد ١٩٨١م.
- صفاء عثمان : مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك بلدوين الثانى ١١١٨ - ١١٣١م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس بإشرافى و أ.د. أحمد رمضان .
- صلاح الدين البحيرى (د.) : عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون ، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت ، الحولية (٣) ، عام ١٩٨٢م.
- صلاح الدين المنجد (د.) : بيمارستان نور الدين ، ط. دمشق ١٩٤٩م.
- أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- صلاح الدين محمد نوار (د.) : العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ٤٩٠ - ٥١٥هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١م ، ط. الإسكندرية .
- طنطاوى : نور الدين الشهيد المقتطف
- عارف العارف : تاريخ القدس ، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- عباس العصيمى (د.) : الدولة البورية وعلاقتها بالصليبيين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ / ١١٠٣ - ١١٥٤م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٩٨٧م.
- عبد الجليل حسن محمد المهدى (د.) : الحركة الفكرية فى ظل المسجد الأقصى ، ط. عمان ١٩٨٠م.
- عبد الحليم منتصر (د.) : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تطوره ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.
- عبد الحميد زايد (د.) : القدس الخالدة ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- عبد الرحمن الحجى (د.) : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧ هـ / ٧١١ - ١٤٩٢م ، ط. دمشق ١٩٨٧م.
- عبد الرحمن زكى (د.) : " القلاع فى الحروب الصليبية " ، المجلة التاريخية المصرية م (١٥) ، عام ١٩٦٩م.

- الجيش المصرى فى العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

- عبد السلام الترمانيني (د.) : المسئولية المدنية للطبيب ، ط. بيروت ١٩٦٧م.

- عبد اللطيف حمزة (د.) : أدب الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٩م.

- عبد العزيز بن باز : فضل الجهاد والمجاهدين ، ط. الرياض ١٣٩٤ هـ .

- عبد العزيز عبد الدايم (د.) : إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧١م.

- عبد الغنى إبراهيم رمضان (د.) : السلاجقة والصليبيون من ملازجرد حتى سقوط الرها ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٧م.

- " شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة " ، مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود بالرياض عام ؟؟١٩م.

- عبد الغنى عبد العاطى (د.) السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

- عبد القادر اليوسف (د.) : الإمبراطور البيزنطية ، ط. بيروت ١٩٦٢م.

- علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ، ط. صيدا ١٩٦٩م.

- عبد الله الربيعى (د.) : أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى خلال الحروب الصليبية ، ط. الرياض ١٩٩٤م.

- عبد الله علوان : صلاح الدين الأيوبى ، ط. بيروت ١٩٨٣م.

- عبد المنعم ماجد (د.) : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٦١م.

- الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

- التاريخ السياسى للدولة العربية ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- عبد النعيم حسنين (د.) : سلاجقة إيران والعراق ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.
- دولة السلاجقة ، ط. القاهرة ١٩٧٥م.
- عبد الهادى التازى : " بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية " المؤتمر الأول لبلاد الشام ، عمان ١٩٧٤م.
- عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، ط. تونس ١٩٥٤م.
- عزيز سوريال عطية (د.) : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى تجارية ، ثقافية ، صليبية ، ت . فيليب صابر ، ط. القاهرة ١٩٧٢م.
- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ت. فيليب صابر ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- عصام الدين عبد الرؤوف (د.) : بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ط. القاهرة ١٩٧٨م.
- عصام سالم سيسالم (د.) : جزر الإسلام المنسية التاريخ الإسلامى لجزر البليار ، ط. بيروت ١٩٨٤م.
- على جواد الطاهر : " الشاعر فى المجتمع السلجوقى " مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد عدد (٣) عام ١٩٦١م.
- على السيد على (د.) : القدس فى العصر المملوكى ، ط. القاهرة ١٩٨٩م.
- على عبد الحليم محمود (د.) : الغزو الصليبى والعالم الإسلامى ، ط. جدة ١٩٨٢م.
- على عبد الواحد وافى (د.) : حماية الإسلام للأنفس والأعراض ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.
- على عوده الغامدى (د.) : " معركة مرياكيفالون ١١٧٦م" ، مجلة كلية الشريعة - جامعة أم القرى ، العدد (٢) ٧ ٣ ، ١٤٠٤ هـ .
- على الغمراوى (د.) : الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل أسطفان بن باسيل من كتاب ديوسقوريدس هيولى ، الطب - دراسة المنهج التطبيقى لتاريخ الطب ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

- علية الجنزورى (د.) : إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

- جريجورى التورى وقيام دولة الفرنجة ، ط. القاهرة ١٩٨٨م.

- عماد الدين خليل (د.) : عماد الدين زنكى ، ط. بيروت ١٩٧١م.

- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ط. بيروت .

- عمر عبد السلام تدمرى (د.) : دار العلم فى طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجرى " عالم الفكر ، م (١٢) ، ط. الكويت ١٩٨١م.

- عمر فروخ (د.) : تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٤م.

- عمر كمال توفيق (د.) : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م.

- مقدمات العدوان الصليبى ، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م.

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م.

- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين دراسات تحليلية وثائقية فى التاريخ الدبلوماسى ، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م.

- عمر موسى باشا (د.) : أدب الدول المتتابعة ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

- عـواد الأعظمى (د.) : " تراث العرب الفكرى والعلمى فى فلسطين فى ظل الحكم الإسلامى " المؤرخ العربى ، العدد (٢) عام ١٩٧٥م.

- الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ط. حلب .

- الفاضل نجيب عمر (د.) : الطب الإسلامى عبر القرون ، ط. الرياض ١٩٨٧م.

- فايد حماد عاشور (د.) : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، ط. القاهرة .

- الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

- جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨٥م.

- فايز نجيب إسكندر (د.) : فن الحرب والقتال لدى الصليبيين والمسلمين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

- فتحى عبد العزيز (د.) : دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام١١٨٦م.

- فتحى عثمان (د.) : الثغور الشامية والجزرية إلى عهد المتوكل العباسى ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة القاهرة .

- فتحية النبراوى (د.) : العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى ١٠٠٠ - ١٣٠٠ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

- فهمى توفيق مقبل : الفاطميون والصليبيون ، ط. بيروت ١٩٧٩م.

- فيليب حتى (د.) : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ت . اليازجى ، ط. بيروت ١٩٥٩م.

  - لبنان فى التاريخ ، ت . أنيس فريحة ، ط. بيروت ١٩٥٩م.

- فيليب دى طرازى : أصدق ما كان عن تاريخ لبنان ، ط. بيروت .

- قاسم عبده قاسم (د.) : " صورة المقاتل الصليبى فى المصادر العربية " المجلة التاريخية المصرية م (٢٧) عام ١٩٨١م.

  - " بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية " عالم الفكر ، م (٢٢) العدد (٢) أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م.

- قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى قصة الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ط. بيروت ١٩٧٩م.

- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ٤ ، ت . السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

- كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ، ط. بيروت ، ب.ت .

- كامل جميل العسلى (د.) : مخطوطات فضائل بيت المقدس دراسة وبيلوغرافيا ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردنى ، ط. عمان ١٩٨٣م.

- كريستوفر دوسون : تكوين أوروبا ، ت. محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.
- كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ت. بدر الدين قاسم ، ط. بيروت ١٩٧٣م.
- كمال السامرائى (د.) : مختصر تاريخ الطب العربى ، ط. بغداد ١٩٨٥م.
- كمال الصليبى (د.) : الموارنة صورة تاريخية ، ط. بيروت ١٩٧٠م.
- كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة . ت. جوزيف نسيم يوسف ، ط. الإسكندرية ١٩٩٢م.
- لطفى عبد البديع (د.) : فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية ، جـ٢ ، ط. القاهرة .
- لويس الحاج : الجيش الفرنسى ، ط. بيروت ١٩٤٥م.
- لويس شيخو : " من حماه إلى حلب " مجلة الشرق ، العدد (٢٠) السنة (٨) عام ١٩٠٥م.
- " أثر قديم من دير مار مارون غرب العاصى " المشرق ، السنة (٢٣) عام ١٩٢٥م.
- ماهر عبد القادر محمد على (د.) : مقدمة فى تاريخ الطب العربى ، ط. بيروت ١٩٨٨م.
- مجيد خدورى (د.) : " الإسلام والعلاقات الدولية أمس واليوم " مجلة حوار ، العدد (٢) السنة (٣) يناير - فبراير ١٩٦٥م.
- محسن محمد حسين (د.) الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٨٦م.
- محمد أبو زهرة (د.) : نظرية الحرب فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- محاضرات فى النصرانية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- محمد حسن الزبيدى (د.) : ملامح من النهضة العلمية فى العراق فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ط. بغداد ١٩٨٠م.
- محمد حمدى المناوى (د.): الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.
- محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، ط. القاهرة .

- محمد عبد الهادى شعيرة (د.) : " الرملة ورباطاتها السبعة " المجلة التاريخية المصرية، م (١٥) ، عام ١٩٦٩م.
- محمد عمارة (د.) : الفريضة الغائبة ، ط. القاهرة ١٩٨٤م.
- محمد فتحى الشاعر (د.) : أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٠م.
- محمد كامل حسين (د.) : " فى الطب والأقربازين " ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م.
- محمد كرد على : خطط الشام ، ط. دمشق ١٩٨٣م.
- محمد محمد مرسى الشيخ (د.) : الجهاد المقدس ضد الصليبيين ، ط. الإسكندرية ١٩٧٢م.
- محمد مؤنس عوض (د.) : فى الصراع الإسلامى الصليبى ، السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١-٥١٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤م ، ط. القاهرة ١٩٩٨م
  - تاريخ الحروب الصليبية ، التنظيمات الدينية والحربية ، رام الله ٢٠٠٤م.
- محمد إبراهيم شلبية : علاقات المغول بسلطنة المماليك فى مصر والشام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآدب - جامعة القاهرة .
- محمد الهرفى (د.) : شعر الجهاد فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة .
- محمود الجليلى (د.) : " تأثير الطب العربى فى الطب الأوروبى فى القرون الوسطى والنهضة الأوروبية " ، مجلة المجمع العلمى العراقى م (٣٢) ، جـ(٣) ، جـ(٤) ، ط. بغداد ١٩٨١م.
- محمود الحاج قاسم (د.) : الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ، ط. جدة ١٩٨٧م.
- محمود الحويرى (د.) : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
  - العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

- محمود سعيد عمران (د.) : الحملة الصليبية الخامسة ، ط. القاهرة ١٩٧٨م.
- " الهدن بين المسلمين والصليبيين فى عصر الدولة الأيوبية " ضمن كتاب دراسات فى بحوث العصور الوسطى ، ط. الإسكندرية ١٩٩٦م.
- محمود شلتوت : الإسلام دين وشريعة ، ط. القاهرة .
- محمود محمد على : الجهاد فى الشريعة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
- محمود مصطفى : الأدب العربى فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.
- مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، جـ٤ / ق٢ ، ط. بيروت ١٩٧٢م.
- مصطفى الشكعة (د.) : سيف الدولة الحمدانى ، ط. ؟؟؟؟؟
- مصطفى الكنانى (د.) : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ، ط. الإسكندرية.
- المقرى الفيومى : المصباح المنير ، ط. القاهرة ١٩٢٦م.
- ميشيل سليم : لبنان ، ط. القاهرة ١٩٥٥م.
ممدوح حفنى : الأبيوردى ممثل القرن الخامس ، ط. دمشق ، ب.ت .
- مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت. محمد وليد الجلاد ، ط. دمشق ١٩٥٤م.
- مونتجومرى وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ت. حسين أحمد أمين ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.
- ميخائيل إسكندر : القدس عبر التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ت. إلياس شاهين ، ط. موسكو ١٩٨٦م.
- ميشيل الشامندى ومحمد صلاح الدين الكواكبى : موجز مبحث فى السموم ، ط. دمشق ١٩٢٨م.
- ناجى معروف (د.) : أصالة الحضارة العربية ، ط. بغداد .
- ناصر النقشبندى (د.) : " الدينار الأتابكى " مجلة المجمع العلمى العراقى ، م (٤) ، ط(١) ، عام ١٩٥٦م.

- ناظم رشيد (د.) : " النشاط العلمى والأدبى عهد الأسرة الأيوبية " مجلة آداب الرافدين عدد عام ١٩٧٧م.
- نبيلة مقامى (د.) : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- نظير حسان سعداوى (د.) : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٥٩م.
  - الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ط. القاهرة ١٩٦١م.
  - المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ط. القاهرة ١٩٦٢م.
  - الدولة العربية الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.
  - تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.
- نقولا زيادة (د.) : " سوريا زمن الصليبيين " المقتطف م (٢٧) ، جـ (٢) ، يوليو ١٩٣٥م.
  - دمشق فى عصر المماليك ، ط. بيروت ١٩٦٦م.
- وديع نقولا : قاموس لبنان ، ط. بيروت ١٩٢٧م.
- هادى نهر (د.) : معارك نور الدين زنكى فى شعر الحروب الصليبية رسالة ماجستير كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٦٩م.
- هاملتون جب : " أرسوف " دائرة المعارف الإسلامية ، ت. إبراهيم خورشيد وآخرون ، ط. القاهرة ، ب.ت .
  - صلاح الدين الأيوبى بحوث فى التاريخ الإسلامى ، ت. يوسف أبيس، ط. بيروت١٩٧٣م.
- هسى : العالم البيزنطى ، ت. رأفت عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- هنرى لامنس : " كنائس لبنان القديمة " مجلة الشرق ، العدد (١) ، عام ١٨٦٨م.
  - "انتشار الأمة المارونية فى لبنان " مجلة الشرق ، السنة (٦) ، العدد (٣) عام ١٩٠٣م.
  - " بحث تاريخى فى سيرة القديس مارون الناسك " مجلة الشرق ، السنة (٦) ، العدد (٦) عام ١٩٠٣م.

- " السواحل اللبنانية " مجلة الشرق ، العدد (١٩) ، السنة (٧) عام ١٩٠٤م.
- " سوريا زمن الفتح العربى شعوبها ولغاتها وأديانها " مجلة الشرق ، م (٣) العدد (١) عام ١٩٣٢م.
- " الحياة فى بيروت فى عهد الصليبيين " مجلة الشرق ، العدد (١) السنة (٣١) عام ١٩٣٣م.
- هيكل نعمة الله وإلياس مليحة : موسوعة علماء الطب ، ط. بيروت ١٩٩١م.
- وستنفيلد : جدول السنين الهجرية ، ت. عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ، ط. القاهرة .
- ول ديورانت : " إحياء علم الطب " ضمن كتاب قصة الحضارة جـ (٦) ، م (٤) ، ت. محمد بدران ، ط. القاهرة .
- يوسف الدبس : الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، ط. بيروت ١٩٠٥م.
- يوسف بغدادى : " الرها " مجلة الشرق ، السنة (٨) العدد (٤) عام ١٩٠٨م.
- يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ط. القاهرة ١٩١٦م.
- يوسف درويش غوانمه (د.) : دراسات فى تاريخ الأردن وفلسطين فى العصر الإسلامى، ط. عمان ١٩٨٣م.
- إمارة الكرك فى العصر الأيوبى ، ط. عمان ١٩٨٤م.
- يوسف غبريل : " رحلة إلى الشام " المقتطف ، م (٥٦) ، عام ١٩٢٠م.
- يوشع براور : عالم الصليبيين ، ت. قاسم وخليفة ، ط. القاهرة ١٩٨١م.
- يوليوس فلهوزن : الدولة العربية ت. عبد الهادى أبو ريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٨م.

خامساً : المراجع الأجنبية :

- Anderson, " Saga" in Dictionary of The Middle Ages, New York 1989.
- Attwater (D.), The Penguin dictionary of Saints, London 1978.
- Bailey, Viking age Sculpture in Northern England, London 1980.
- Baldwin (M.), "The Latin States, under Baldwin III and Amalric I", in setton, A History of the Crusades, Vol.I.

- Barker (E.). The Crusades. London 1943 .
- Ben Yahiya, Constantine L'Africien et l'ecole d.c Salerno, C.T., T.IX, 1955 .
- Boase, Kingdoms and Strongholds of the Crusades, London 1971.
- Brooke, A History of Europe From 911 to 1998, London 1938 .
- Cahen (C.), La Compayne de Mautzikert", B., Vol. IX, Année 1934 .
  - La Syrie du nord a' L'epoque des Croisades, Paris 1940 .
  - " The Turkish Invasion", in Setton, A History of the Crusades, vol.
- Chambell, Arabian Medicine and its influence on The Middle Ages, Vol.I, London 1976.
  -The Crusades, London 1925 .
- Chevalier, "The Beginning of the School of Salerno", C.S., Vol. V, 1941 .
  - "Constantine Africanus and the influence", C.S., Vol. V, 1941.
  - "The Regimen Sanctais, C.S., Vol. V, 1941.
- Citarello, "The Relations of Amalfi With the Arab World befor the Crusades", Speculum, Vol. XLII, No.2, April 1967 .
- Conder, " The Rise of Medicine at Salerno in The Twelfth Century", A.M.H., Vol. III, January 1931.
- Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, 1897 .
- Daniel, The Arabs and Medieval Europe, London, 1979 .
- David, Robert Curthose of Normandy, Cambridge, 1920 .
- Delville Le Roulex, Catulaire general de L'Ordre des Hospitallers de St.Jean de Jerusalem (1110 - 1130), T.I, Paris 1894 .
- Deschamps, La Defense de Royaume de Jerusalem, Paris 1939 .
- Elisseeff (N.), Nur Al-Din un Prince Musulman au Temps des Croisades.
  - La Description de Damas d'Ibn Askir, Damas 1959 .

- Les Monuments de Nur Al-Din", B.E.O., T.XII, Années 1949-1951.
- La Tityaliture de Nur
- El Rooby, East meets West, A Panorama of Arabian Medicine in lectures in The History of Arabian Medicine, Riyad 1988.
- Ency. of Riligions and Ethics, Vol. II.
- Ency. Brit., Chicago 1987.
- Fink, "The Foundation of The Latin States", in Setton, A History of The Crusades.
- Fuller, Decisive Battles of Western Europe and Their in Fluences upon History, London 1954 .
- Gobrieli (F.), Arab Historians of The Crusades, Trans. by Costello, London 1975.
- Gibb (H.), The Life of Saladin, Oxford 1973 .
- The Career & Nur Al-Din
- Zengi and The Full of Edessa" in Setton, A History of The Crusades, Vol. I.
- Gjersrt, History of Norwagian people, New York 1927 .
- Grant, Historical Introduction to The New Testament, New York, 1952.
- Grousset (R.), Hist. des Croisades et de Royaume Franc de Jerusalem, T. III, Paris 1946 .
- Hageumeyer, Chronologie de la Premiere croisade
- Haskins , Studies in the History of Medieval Science, Cambridg. 1927 .
- The Normans in European History, New York 1959 .
- Hastings, Dictionary of The Bible, New York 1952 .
- Heyd, Histoire de Commerce de Levant au Moyen Ages, T.I, Leipzeg 1936 .
- Hume, Medical Work of the knights Hospitallers of St.John of Jerusalem, Institute of the History of Medicine of John Hopkins University, Baltmore 1940 .
- Kedar (B.), Crusade and Mission, European appraaches to The Moslm,

privcelon 1988 .
- "Mission to The Thirteenth and Eust in Fourteenth Centuries" in Setton, A History of the Crusades.
- Kristeller, "The School of Salerno" its development and its contribution to History of Learning, B.H.M., Vol. XVII, 1975.
- Krveger, "The Italian Cities and The Arabs before 1099"
 - " insetton, Ahistory of the Crusades.
- King, The Knights Hospitallers in the Holy land, London 1931.
- Langer, Western Civilisation, New York 1968.
- Laoust (H.), "Remarques Sur Les expeditions de Kasrawan Sous les premiere Manlukis", B.M.B., T.IV, 1960 .
- Le Strange (G.), Palestine under Islam, London 1890 .
 - The Lands of the Eastern Caliphate, Mesopotamia, Persia and central Asia From The Moslem Conquest to The Time of Timur , London 1966 .
- Mawer, The Vikings, Cambridge 1930 .
- Mayer (H.), The Crusades, Trans.by John Gillingham.
- Meckiurey, Medical Illustrations in Medieval Manuscripts, London 1969 .
- Miller, "The Knights of Saint John and The Hospitallers of The Latin West", Speculum, Vol. No. 3, July 1923 .
- Munro (D.), "The Speech of pope Urban The Second at Clermont", A.H.R., Vol. II, 1905 .
- Nicol, A Biographical dictionary of the Byzantine Empire, 1991 .
- Oman (C.), A History of the art of war in the Middle ages, Vol.I, London 1924 .
- Painter (S.), History of the Middle Ages (284-1500), New York 1954 .
- " The Third Crusade Richard The Lion hearted and Phlip Augustus", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Madison 1969.
- Parker, History of Palestine, London 1949.

- Parise, "Godfrey de Bouillon, le Croise exemplaire, " L'Histoire, T. LVII, Année 1982 .
- Per Holk, " Sigurd Jorsalforers Hodeskalle", Viking, XLVI, Oslo 1982.
- Peters, The First Crusade Chronicle of Fulcher of Chartres and Other Source Materials, Philadelphia 1971 .
  - Jerusalem The Holy City in The eyes of Chroniclers, Visitors, Pilgrims and prophets from The days of Abraham to the beginning of modern Times, Princeton 1985 .
- Perinne (H.), Mohammed and Charlemagne, London 1945 .
- Prawer (J.), " The Setllement of The latins in Jerusalem" Speculum, Vol. XXVII.
  - Crusader Institutions, Oxford 1980 .
  - " Social Classes in The Crusades States: The Mimorities", in Setton, A History of the Crusades, Vol , New Jersy 1983 .
- Richard (J.), Hospitals and Hospitals Congreyation in the Latin Kingdom during the First period of the Frankish conquest" in Outremer Studies presented to Joshua prawer, ed. by ,B.Z.Kedar, H.E. Mayer, R.C.Smail , Jerusalem 1982 .
  - " La Bataille de Hattin" Saladin defait Occident", H., T. XLVII, Année 1982 .
- Russell, " The population of the Crusades States", in Setton A History of the Crusades, Vol. V, Madison 1989.
- Runciman (S.), A History of the Crusades.
- Sidigni, Main Springs of Western Civilisation, Lohore 1923 .
- Salibi (K.), " The Maronites of Lebanon under the Frankish and Mamluke Rule", R.E.A., T.IV, Année 1957 .
  - Syria under Islam.
- Saunders, Aspects of the Crusades, London, 1962 .
  - Medieval Islam.

Schippers, Die Assinilation der Arabischen medizin das lateinischeu mi-
helater, Wiesbaden, 1966 .
Smail (R.), The Crusaders in Syria and the Holy LAnd, London 1963 .
Crusading Warefare,
· Sourclel, " Nouveau documents sur L'Histoire religieuse et Social de Da-
mas du Moyen Age" R.E.I., T.XXXII, Année 1964 .
- Strayer and Mumro (D.), The Middle Ages (395 - 1500), New York 1970 .
- Stephenson, Medieval History, New York 1934 .
- Stevenson, The Crusaders in The East, Cambridge 1907, Beirut 1963 .
- The Frist Crusade", in C.M.H.,, Vol. V, Cambridge 1979 .
- Tibawi, "Origins and Chavacter of Al-Madrasah", B.S.O.A.S., Vol. XXV,
1962 .
- Thompson, Alchemy Source of Chemistry and Medicine, New York 1974.
- The Oxford English dictionary, Vol. IX, Oxford 1973 .
- The Oxford reference dictionary , London 1962 .
- Woodings, " The Medical resources in Syria and Palestine (1096 - 1193),
M.H., Vol. XV, No. 3, July 1971 .
- Wright (J.), The Grographical Lore in the Time of the Crusades, A Study
in the History of medieval Science and tradition in Western Eu-
rope, New york 1965 .
- Wright (W.), Early Travels in palestine, London 1848 .

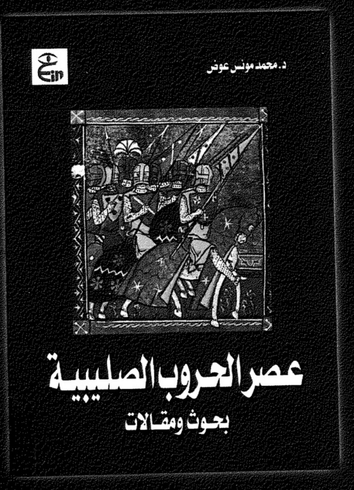
رقم الايداع / ١٠١٣٣ / ٢٠٠٦

I.S.B.N. 977-322-191-1 الترقيم الدولى

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - فيصل

تليفون / ٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



صورة الغلاف: جود فرى البويونى وفرسانه فى طريقهم الى الارض المقدسة
(من تاريخ وليم الصورى - حوالى ١٢٨٠م)

